سمات العصر

رؤية مهتم



تأليف فضيلة الأستاذ الدكتور

علي جمعة

مفتي الديار المصرية

DAR AL-FAROUK
دار الفاروق

الناشر: دار الفاروق للاستثمارات الثقافية ش.م.م

العنوان: ١٢ ش الدقي - منزل كوبري الدقي - اتجاه الجامعة - الجيزة - مصر

تليفون: ٠٠٢/٠٢/٧٦٢٢٨٣٠ - ٠٠٢/٠٢/٧٦٢٢٨٣١ - ٠٠٢/٠٢/٧٦٢٢٨٣٢ - ٠٠٢/٠٢/٧٤٨٠٧٢٩ - ٠٠٢/٠٢/٧٤٩١٣٨٨

فاكس: ٠٠٢/٠٢/٣٣٨٢٠٧٤

جمعة ، علي

سمات العصر / تأليف علي جمعة. - ط١.

الجيزة: دار الفاروق للاستثمارات الثقافية ش.م.م، ٢٠٠٦.

٣٤٨ص ٢٣ × ٢٤ سم. - (إسلاميات)

تدمك 977-408-304-0

١ - الثقافة الإسلامية - مقالات ومحاضرات

أ - العنوان: سمات العصر ٢١٤،٠٤

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/١٥٠١٧

العنوان الإلكتروني

www.daralfarouk.com.eg

سمات العصر

رؤية مهتم

تأليف

فضيلة الأستاذ الدكتور

علـي جمـعـة

مفتي الديار المصرية

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على سيدنا رسول الله، وآله وصحبه ومَنْ والاه. وبعد؛ فإننا في عصر قد تغيَّر عن العصور السابقة في برنامج حياة الإنسان، وأصبح أكثرَ تعقدًا وسرعة وتطورًا، وقد يكون في بعض جوانبه أكثر تدهورًا، ولابدَّ للمؤمن الفَطِنِ أن يكون مدركًا لشأنه، عالمًا بزمانه.

وقد وردَ ذلك المعنى في الآثار النبوية؛ فعن وهب بن مُنَبِّهٍ من حكمة آل داود: «على العاقل أن لا يشتغل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربَّه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه الذين يصدقونه عيوبه وينصحونه في نفسه، وساعة يخلو فيها بين نفسه وبين لذتها مما يحل ويَجْمُلُ، فإنَّ هذه الساعة عون لهذه الساعات، واستجمام للقلوب وفضل وبُلْغَةٌ. وعلى العاقل أن لا يكون ظاعنًا إلا في إحدى ثلاث: تزود لمعاد، أو مرمة لمعاش، أو لذة في غير محرم، وعلى العاقل أن يكون: عالمًا بزمانه، ممسكًا للسانه، مقبلا على شانه»(١).

وكثيرًا ما نذكر في كلامنا عبارة «إدراك الواقع» فما هو هذا الواقع؟ وما مكوناته؟ وكيف نتعامل معه في جزئياته وكلياته؟ وما القواعد التي يمكن للمسلم بعامة، وللفقيه بخاصة أن يحفظها وأن يستخدمها في هذا الإدراك؟

ولنذكر ذلك في نظرة شاملة على الواقع، وعلى سمات العصر، وسنرى في هذا المجموع الذي بين أيدينا مقالات تحاول أن تتناول ذلك الواقع بالاقتراح والتعامل والاستفادة من جوانب الخير، ومحاولة البعد عن الشر، ومحاولة الحفاظ على الهوية في عالم متلاطم الأمواج سمي بـ «عالم ماك» وهو المقطع الأول من كلمات كثيرة شاعت في ثقافة العصر مثل: (ماكدونالد، وماكنتوش، ماكروييف) والتي ترمز للتطور والتغيير في الطعام، والتقنية، والاتصالات.

١- الواقع كما حلله مالك بن نبي يتكون من عوالم أربعة: عالم الأشياء، وعالم الأشخاص، وعالم الأحداث، وعالم

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ٢٦٨) رقم (٥٠٤٧)، وهناد في «الزهد» (٢/ ٥٨٠) رقم (١٢٢٦)، ومعمر بن راشد في «جامعه» (١١/ ٢٢)، واللفظ له.

الأفكار، ولكل عالم من هذه العوالم مكوناته، ولكل منها أسلوب أمثل للتعامل، ومنهج مختلف للفهم.

٢- فعالَمُ الأشياء له واقعٌ مدرَكٌ بالحسِّ المعتاد، وله حقيقةٌ يدركها الإنسان بالمجهر، ويبني عليها أحكامه ومنهجه وهو المنهج التجريبي الذي ارتضاه المسلمون، ثم انتقل إلى العالَم كله دون نكير من العقلاء الذين تحرروا من عقلية الخرافة وتمسكوا بالعلم والواقع، إلا أن بعضهم قد اقتصر عليه، ولم يربطه بالله سبحانه، فصار فكره عميقًا ولكنه ليس مستنيرًا، بل إنه دون أن يشعر أنكر جزءًا من الحقيقة هو أهم ما فيها، وهو إيمانه بخالق الأكوان.

ويمكن أن نعرِّف الواقع بأنه: ما أدركه الإنسان بحسِّه المعتاد، وهو بهذا المعنى قَدْرٌ مشترك بين آدم والرجل المعاصر. في حين أن نفس الأمر المتعلق بحقائق الأشياء يختلف إدراك الإنسان له عبر الزمان، وحسب كَمِّ المعلومات التي لديه، ويكتشفه الإنسان عن طريق الآلة - المجهر مثلاً - شيئًا فشيئًا، فالبشر ترى الشمس تسير في السماء، في حين أن نفس الأمر أنها ثابتة، والأرض هي التي تدور.

ونفس الأمر أن الماء مكون من غاز يشتعل، وآخر يساعد على الاشتعال، فهو نار الله الموقدة، وأنَّ الهيدروجين مكون من نواة وإلكترون واحد، وأنَّ شحنة الإلكترون سالبة، والواقع أنه شراب لطيف عليه حياة الإنسان. فكل يوم - وليس بصورة عامة في الزمان والمكان والأشخاص - يدرك الإنسان حقيقة جديدة قد تخالف، أو تزيد من الواقع.

فإذا كان الأمر كذلك، فإن النصوص الشرعية ينبغي أن تتعلق في خطابها العام للكافة بالواقع بصورة أصلية، ولا تتعلق بنفس الأمر إلا بصورة ثانوية، وأظن أن هذا الفهم يحل «مشكلة العلم والدين»، التي نشأت من صدام النصوص المحرفة للوحي في الغرب مع الحقائق المتتالية المدرَكة بالتجربة والحسِّ، أي: مشكلة «العلم والدين» كما سُميت.

بل قد يحل هذا المدخل - عند عرضه بتوسع - المشكلة بين الفقهاء، والصوفية الذين يتكلمون عن الحقيقة ومخالفتها للشريعة، ومحاولة التوفيق بينهما، وهو أمر جدير بالتأمل ومزيد البحث.

٣- وعالم الأشخاص قد تطور أيضًا، وأصبح هناك الشخصية الطبيعية، والشخصيةُ الاعتبارية التي لا تزال تنفصل وتستقل عن الشخصية الطبيعية، حتى كمل استقلالها وأصبحت كائنًا قائمًا بذاته، له أحكامٌ تختلف عن أحكام

الشخصية الطبيعية؛ حيث لا يوجد فيها نَفْسٌ ناطقة تحتاج إلى شعور وحُبٍّ، ويُخشى عليها من سوء الخُلق ودناءة الطبع، وأصبح التعامل مع الشخصية الاعتبارية يكاد أن يكون موضوعيًّا بعيدًا عن الذاتية التي أثرت في مسائل كثيرة في التعامل مع الشخصية الطبيعية.

٤- أما الأحداث فهي تتكون من تفاعل الأشياء مع الأشخاص، وهي تحتاج إلى تحليل للمضمون وإلى توقعات للمستقبل وإلى سيطرة وتوجيه في بعض الأحيان، وإلى حساب المآلات، وتحقيق المصالح، وترتيب الأولويات والقيام إزائها بواجب الوقت.

٥- أما الأفكار، فلابد من معيار للتقويم يقبل الصالح ويرفض الطالح، وهذا المعيار مرتبط عند المسلمين بالنموذج المعرفي الذي يتبنونه، والذي أخذوه من الكتاب والسنة وفهم الصحابة والتجربة التاريخية والعقيدة والرؤية الكلية للإنسان والكون والحياة، والمبادئ القرآنية والسُّنن الإلهية ومنظومة القيم، ومقاصد الشرع في التشريع، والتكليف، وكل عنصر من هذه العناصر له معانيه ومبانيه ومكانه في المعيار الذي به تقويم الأفكار.

٦- والواقع الذي نعيشه قد تغير، فمنذ (١٨٣٠م) وحتى (١٩٣٠م) اكتشف الإنسان واخترع ما استطاع به أن يغير برنامج حياته اليومي، ولقد حدَّد علماء الحضارة (١٨٣٠م) باعتبارها نقطة فارقة، والنقطة الفارقة يكون فيها حدث يتخذ كعنوان على بدء مرحلة أو انتهائها، ويكون لذلك الحدث دلالة، وفي هذه السَّنة أدخل الإنجليز الحديد في السُّفن، ولم يكن هناك في المقابل في محور الجنوب أو على الأصح في محور الإسلام (طنجة - جاكرتا، غانا - فرغانة) ما يقابل ذلك الاختراع، ولا هذا الاكتشاف الذي أمكن معه جعل الحديد يطفو على سطح الماء، ولقد قلَّد العالمُ الإنجليزَ، وأدخلوا الحديد في سفنهم، ولكنَّ الشعور بالإبداع والمبادأة والثقة بالنفس، وشعور الآخر بالاحتياج وانتظار الإبداع حتى يتبعه ويقلده، جعل هذه النقطة فارقة لما بعدها، وقدحت كثيرًا في الندية بين الشرق والغرب، بعدما ذهب من قبل الشعور بالعلو أيام الحروب الصَّليبية.

في هذه المائة سنة ظهرت علوم الإنسان، وبدأت في النمو، وظهرت أفكار أخرى غير الأفكار السائدة، وجاءت الدعوة إلى التنوير والحداثة، وأصدر البابا في الفاتيكان خطابه المشهور «باسنت» يلعن فيه سبعين علمًا ويحرمها؛ لأنها تكوّن في

مفهومها ومناهجها هذه الفكرة الجديدة التي تُسمَّى بالحداثة، والتي جاءت وليدة النهضة الأوربية من قبل، ومتوجة لأربعة قرون من الزمن تمت فيها الاكتشافات الجغرافية والثورة الصناعية والمطبعة والثورة الفرنسية... إلخ. وأصبح الإنسان لا يعيش غده كما يعيش يومه، ولا يومه كما عاش أمسه، وانتشرت الصحف، وحدثت ثورة في المواصـلات والاتصـالات والتكنولوجيا. واستطاع الإنسان أن يغادر الأرض إلى الفضاء بالطائرة.

وبعد (١٩٣٠م) وحتى اليوم، استطاع الإنسان أن يطور ما اخترع، وأن يستغل ما اكتشف، وأن يجمع كُـلَّ الفلسـفات والرؤى التي تخدمه، وظهرت عدة نظريات:

أولها: نظرية التطور مع دارون.

ثانيها: نظرية النسبية الفلسفية مع نيتشه، ثم الرياضية مع أينشتين.

ثالثها: نظرية التحليل الفلسفي عند فرويد.

رابعها: نظرية رأس المال عند ماركس.

كل هذه النظريات كونت عقلية المتحكم في الأرض، ونتج عنها وعن صفة العصر سمات عصـرنا الـذي نريـد أن نتعرف عليها.

سمات العصر

نجمل تلك السمات فيما يلي:

١- **الشعبية:** وهي نتاج الدعوة إلى المساواة، ثم إلى التساوي في كل شيء، والمساواة وإن كانت أصلاً معتبرًا، والتساوي وإن كان سُنةً في مجالات عديدة، إلا أن شيوع هذه الدعاوى وَسَمَ العصر بصفة سلبية وهي إذابة النخبة، التي كانت تمثل الرأس من الجسد، والتي ظلت تفكر وتنظر من أجل أن يأتي النشاط على وفق التفكر، والعمل على قدر العلم، فهذه الصفة تشتمل على محاسن تذويب الطبقات، وهو ما يتوافق مع النص النبوي: «**كلكم لآدم، وآدم من تراب**»[1]. حيث يعبر عن المساواة مع الدعوة إلى التواضع، غير أن هذه الصفّة تشتمل على مساوئ أيضًا وهي ذهاب النخبة؛ ولذا أمرنا ربنا بعدم تنحيتهم في كل فنٍّ فقال تعالى: ﴿ **فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾[2].

٢- وبذلك وُسم العصر - كما يقرر عبدالواحد يحيى الفيلسوف المسلم - بأنه عصر سبق النشاط على الفكر، وكان في المنهج الإسلامي القلب يعلو العقل، والعقل يعلو الجوارح، فأصبح الشائع الآن أنَّ الجوارح تسبق العقل، وإذا كان هناك استعمال للعقل يسبق القلب ويخرج عن مقتضاه.

٣- وتميز العصر بشعور عام من النسبية، وأن الحق يمكن أن يتعدد، والمسلمون يرون أن الحقَّ لا يمكن أن يتعدد، وأن الحق واحد، وهذه النسبية أثَّرت في الآداب، والفنون، والسياسة، والاجتماع، وسائر أنشطة الحياة، والإيمانُ بالمطلق كان سمة العصور الماضية في كل الأرض حتى سُمِّي بعصر الإيمان **faith age**.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب «المناقب» باب «في فضل الشام واليمن» حديث (٣٩٥٦)، وأبو داود في كتاب «الأدب» باب «في التفاخر بالأحساب» حديث (٥١١٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن».

(٢) من الآية ٤٣ من سورة النحل.

ولقد بدأت المسألةُ مع "هيجل"، حيث حاول أن يوجِدَ حلاً لبعض المشكلات الفلسفية التي تنشأ بالأساس في ذهن الإنسان عند تخليه عن الوحي أو إنكاره له، وتدرج ما قاله "هيجل" إلى هذا الشعور بالنسبية التي تحكم في التصرفات والسلوك، وملخص فلسفة "هيجل": أن الله موجود، والكون موجود، والحداثة التي يدعون إليها تعني الاهتمام بهذا الكون، إذن هناك طرح يقضي على الخلاف، ويجعل رأينا واحدًا وهو أن نجعل الله حل في هذا الكون، فيصبح الكون هو الله، والله هو الكون، وهذا يعني أن الماديين على صواب لأنهم لا يرون إلا الكون، ثم جاء ماركس فأخذ فكرة الجدلية من هذه الفلسفة وأنزلها على الاقتصاد والدولة.

ثم جاء نيتشه (ت ١٩٠٠م)، واعتبر أن كلام هيجل أفضل ما قيل، ولكنه أراد أن يتقدم خطوة على كلام هيجل حيث قال: إن الله ليس مفارقًا للكون، والمؤمنون يعتقدون أن الربَّ ربٌّ، وأن العبد عبد، وأن هناك فارقًا بين المخلوق والخالق، وهذا اعتقاد أهل جميع الديانات، فهم يعتقدون أن الله شيء والكون شيء آخر، كما قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[١].

ثم قال نيتشه: إن الله ليس هناك - يعني ليس خارج الكون - واعتبر أن الله الذي يدعو له هيجل مات؛ لأنه ليس موجودًا، فوافق هيجل في عدم وجود الله خارج الكون، ثم قال إذن فهو ليس موجودًا، والهدف وراء ذلك أن الوحي أيضًا ليس له حقيقة إذا كان صاحب الوحي مات، فيصبح الوحي والرسالات أسطورة كبيرة، ويكون ليس هناك إلا هذا الكون، وهذا يشير لأمر عجيب، وهو ما يميز العقل أو ما يُسمَّى سمات العقل.

لقد كانوا يريدون الانفصال عن الكنيسة المسيحية تمامًا، والكنيسة واجهت - حتى أنكرت علومًا كثيرة كما ذكرنا في موقف البابا بالخطاب المسمى «باسنت» - هذا الانفصال وهذه الحداثة بعنف، وحاول هيجل أن يوفق بين أهل الحداثة وبين أهل الإيمان، لكن نيتشه قال: ليس هناك شيء حقيقي إلا هذا الكون، ولا وجود لله الآن.

---

(١) من الآية ١١ من سورة الشورى.

ولكن هذا المذهب يجعلنا نتساءل: إذا كان الله غير موجود فكيف نحكم على الأشياء؟ كيف نعرف أن الصدق والجمال والخير أشياء ممدوحة؟ وكيف نعرف أن الشر والكذب والظلم أشياء مذمومة؟

وأصحاب فكرة عدم وجود الله يدعون إلى النسبية المطلقة، فيقولون: ليس هناك ممدوح على الإطلاق، ولا مذموم على الإطلاق، وإنما هذه الأشياء ممدوحة عند من يراها ممدوحة، ومذمومة عند من يراها مذمومة.

وينشأ سؤال آخر وهو: كيف نرى الكون؟ وتقتضي نظرتهم إلى الإجابة عنه بأنه كما تراه، فإذا كانت رؤيتك لهذا الكون أنه كئيب فهو كئيب بالنسبة لك، وإذا كان غيرك يراه سعيدًا فهو سعيد بالنسبة له، مما يجعلنا نتمثل قول ربنا تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[1].

فهو قد ألغى الله من اعتقاده وفكره، ووضع مكانه الهوى، وبهذا الشكل يُفقد المشترك في الكلام، وتنعدم فائدة الكلام تمامًا، ثم نشأت بعد ذلك التفكيكية والبنيوية، ثم ديانة الفوضى.

كنا نذهب للشيخ أو القسيس نُحكِّمه فيما حدث حتى يحكم من الصواب ومن الخطأ، والآن إلى مَنْ نذهب لمعرفة الحق والباطل؟ قالوا: الآن تأخذ حقك بالقوة، فإذا كنت قويًّا فأنت على الصواب؛ لأنه ليس هناك معيار مطلق للحق والباطل، كلها معايير نسبية فما تراه أنت حقًّا لمصلحتك الشخصية أراه أنا باطلاً، وليس هناك ما يلزمني أن أعتقد ما تعتقده ولا ما يلزمك أن تعتقد ما أعتقده إلا القوة، هي التي تفرض على أرض الواقع من الحق ومن الباطل.

إذن فالواقع هو المعيار والواقع يصنعه الأقوى، فهل هذا يعني أن العلاقة بين الرجل والمرأة ستكون على هذا المنوال، بمعنى أن الرجل سوف يفرض الواقع ويكون هذا هو الصواب لأنه أقوى جسديًّا؟ والمشكلة إذا تقوت المرأة وأصبحت أقوى من الرجل من الذي يحدد الصواب ويصنع الواقع؟ ففي الستينيات وجدنا المرأة تدخل المصارعة، وتلعب كمال الأجسام.

(١) الآية ٢٣ من سورة الجاثية.

هذا ما أراده نتشه وقد انتهى نتشه سنة (١٩٠٠م)، وترك لنا ما يمكن أن نسميه «النسبية المطلقة»، التي أصبحت سمة من سمات العصر، وانتشرت النسبية المطلقة بين رواد الفكر الأوربي واقتنعوا بها، ولكنها كانت محاطة بمخاوف كثيرة أهمها ضياع الاجتماع البشري؛ حيث سيبغي الناس بعضهم على بعض، ولن يكون هناك مسوّغ لإلزامهم بالكفّ عن هذا الهرج والفوضى.

قالوا: لابد أن نجعل النسبية المطلقة فكرة قابلة للتنفيذ والتطبيق في حياة الناس، ونستطيع أن نقضي على هذه الفوضى بأن نضع معيارًا يتفق عليه الناس في الإقدام على الفعل أو تركه، في القتل والغصب أو تركهما، وانتهوا إلى أن هذه المعيار هو «المصلحة» وهي ما تسمى بـ «الدبلوماسية النفعية»، وقال كل من «جون ديوي» و«جيمس كوهن» وهما يعتبران كهنة العلمانية، حيث جعلا المقياس الجديد الذي يضبط النسبية المطلقة، وجعلا الإنجاز هو القيمة المقدمة على كل القيم باعتباره يحقق تلك المصلحة، فأصبح من سمات العصر «الإنجاز».

٤- فالإنجاز أصبح المعيار، في حين أن الأخلاق والقيم والالتزام كانت معيار التقويم، ونعى الله على أقوام جعلوا الإنجاز معيارًا لحسن حالهم وهم على الشِّرك والمعصية، قال تعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾[١].

٥- وولَّد ذلك المعيارُ الجديدُ المنافسةَ غير الشريفة بين الأطفال في المراحل الأولى في المدارس، ونُسيت المنافسة الشريفة التي قال الله فيها: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[٢].

ويحث رسول الله ﷺ على أحد أفرادها حيث يقول: **«لو يعلم الناس ما في الصف الأول، لكانت قرعة»**[٣].

(١) الآيات ١٢٨: ١٣٠ من سورة الشعراء.
(٢) من الآية ٢٦ من سورة المطففين.
(٣) هذا اللفظ أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في «المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم» (٢/ ٦٠) حديث (٩٧٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأصل هذا الحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ أيضًا: البخاري في كتاب «الأذان» باب «الاستهام في الأذان»

فذلك يؤدي بهم أن لا يُمنع الداعر فاسد الأخلاق، والذي قد تنتشر فضائحه على الألسنة مِنْ تولِّي أعلى المناصب القيادية في الدولة، حتى يمكن أنه قد يترأس الدولة إن كان سوف يحقق مصلحة البلد، بأن يحسن من حالتها الاقتصادية، ويحسن من وضعها السياسي، أما هذه الأمور فيقولون إنها أمور شخصية، وتختلف في مفهومنا عن قضية «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وتختلف تمامًا عن فكرة التربية وفكرة التناصح؛ لأن مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة في الدين قائم أن ينهى الإنسان أخاه الإنسان عندما يراه على خطأ أو على خطر، وينصحه ويقول له: إن هذا لا ينبغي.

وقد يسأل سائل: إذن لماذا يحاكمون مثل هذا الرئيس الداعر صاحب الفضائح؟ والجواب أنه يحاكم باعتباره خالف القانون الذي وضع على أساس النسبية المطلقة والمصلحة، وليس باعتباره خالف الأخلاق والعرف والدين. وبهذا يعتبر القانون مقياسًا للحكم على المخالفات، وهو ولد ما يعرف بمقياسية القانون.

٦- **مقياسية القانون**: وهي سمة أخرى من سمات العصر، وتجيب تلك السِّمة عن عدة أسئلة هي: من الذي يضع القانون؟ والإجابة: هو مجلس النواب أو مجلس الشيوخ. ومن هم أعضاء هذا المجلس؟ والإجابة - عند هذه السمة - هم من ينتخبه الناس بكامل حريتهم على أساس النسبية المطلقة، والمصلحة أيضًا، وبهذا نكون قد وصلنا إلى «الديمقراطية»، وعلى هذا الأساس فإن ذلك المجلس يوافق على القرارات ويسن القوانين طبقًا للمصلحة، وهي تحقيق المنافع الخاصة به حتى وإن لم تكن من حقه، المهم أنه يقدر على تحقيقها لأنه قوي.

٧- وقبل أن نكثر من ذكر تلك السمات، دعونا نتكلم حول معاني السمات السابق ذكرها وهي: (الشعبية - النسبية - المصلحة - الإنجاز - مقياسية القانون)؛ فإن هذه السمات النظرية لم يكن من الممكن تطبيقها على أرض الواقع دفعة واحدة؛ لأن هذا المسلك كان سيواجه برفض شديد من الناس، فصحيح أن السمات تبدأ بالنظر وبالفكر الفلسفي، ثم تتحول بعد ذلك إلى سلوك وواقع ملموس، فمثلاً كان البروتستانت قديمًا يعرفون بالأخلاق والتعصب الديني، فكنًا

حديث (٦١٥)، ومسلم في كتاب «الصلاة» باب «تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول» حديث (٤٣٧) بلفظ: «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا**».

نرى أن السائحة الأمريكية في سنة ١٩٦٠م هي الأفضل في التمسك بستر بدنها وتدينها.

وبعد عام ١٩٦٠م بدأت ظاهرة جديدة في الظهور تسمى «البيتلز» وهي نوع من أنواع الموسيقى، وهذا بخروج مجموعة من البشر عن المألوف في المظهر، وفي الموسيقى، بعد أن كانت الموسيقى التي تستحوذ على الذوق هي موسيقى «بيتهوفن» التي إذا ما سمعت يذكر السامع مظاهر توحيد الله؛ لتعبيرها عن خرير الماء، وحفيف الريح، فتبدل ذلك بـ «بيتلز» وهي تعني بالإنجليزية: الضوضاء والضجيج.

وبعد أن كان الناس يحبون الموسيقى القديمة التي تنسجم مع النفس، ذهب هؤلاء إلى أن الموسيقى تحررت من القيود، وتحررت من النظام، وتحررت من النسق. قالوا لنا: دعوا من أراد أن يفعل ما يشاء في الوقت الذي يشاء، دعوه يعبر عن طاقاته، يعبر عمًا بداخله، حتى وإن خرج عن النظام والنسق والمألوف، دون علم، دون أي شيء، ثم ينشط فأصبح ذلك من سمات العصر، مما جعل الرفض غير مبرر، فمثلاً عادات الطعام التي وضعتها الملكة وسمتها قواعد الأدب الملكية على الطعام، الشوكة في اليد اليسرى، والسكين في اليد اليمنى، والملعقة مستعرضة، وأن المسلم إذا أراد أن يأكل بيده اليمنى فسوف يخالف هذا النظام، ويكون غير متحضر بالمرة، وإذا أراد أن يأكل الأرز لابد عليه أن يأكله بالشوكة، لأنه ليس مسموحًا باستخدام الملعقة إلا في الشرب، وإذا حدث أي مخالفة في حضرة الملكة تستوجب هذه المخالفة قيام الملكة غاضبة من على المائدة؛ إذن يجب على الجميع تعلم قواعد أدب الطعام الملكية الإنجليزية، وإلا سيضع نفسه في مأزق.

ثم تغير كل ذلك، وأصبح هناك عصر الهامبورجر، وهو يرمز للخروج عن نظام الطعام القديم، يمسك الساندوتش بيديه جميعًا ويشرب من علبة الكوكا كولا، ثم يمسح يده في ملابسه، دون احترام للعادات والنظام القديم.

٨- ما ذكرته مثالان للخروج عن النظام في جانب من جوانب الفن، وجانب من جوانب الاجتماع، أما في مجال الآداب فنشأ ما يسمى بـ «الإستراكشر» وهو ما يعني التفكيك، وهو أدب غير مفهوم ويأتي بأشياء ليس لها علاقة ببعض بالمرة، كأن يقول: تخيل أننا في منطقة من أرض الجولف، ثم يقول: وهناك شخص يلقي محاضرة للسيدات، ثم يقول: إذن السمك نوع من أنواع الأحياء. فعندما تقول: أنا لا أفهم ما تقول. يقول لك: لأنك لست مبدعًا، وظلت هذه السخافات تسيطر على جامعاتنا مدة طويلة، حتى جاء الدكتور عبدالعزيز حمودة رئيس قسم اللغة الإنجليزية وآدابها في آداب القاهرة.

المشكلة أن ما بعد الحداثة مرحلة لا نهائية؛ إذ تعتبر هذه المرحلة نفسها نهضة أحدث من نهضة الحداثة نفسها، واعتبروا أن النهضة الأولى تمكنت من تنحية الدين، وهم يهدفون لتنحية الأصول والمبادئ والقيم الباقية في حياة البشر بدعوى أنها تقيد الإبداع وتقيد الحرية وتقيد الفكر، فسعت تلك المرحلة لإلغاء الأدب القديم والفن القديم، وأيضًا مفهوم الأسرة القديم، وكان كل ذلك هينًا بعد إلغاء الدين من حياة الناس.

وبالفعل أنشئت كنائس لتزويج المثليين، وأصبح هناك مفهوم جديد للأسرة، قد يكون فيه الأب والأم ذَكرين، أو أنثيين، ولا يوجد ما يلزمنا بشكل الأسرة القديم.

وبهذا الأسلوب الجديد يغيب القدر المشترك بين جماعة البشر بالكلية، ويكثر الهرج والقتل واستخدام القوة؛ لعدم وجود قاعدة للنقاش والتفاهم، خاصة وقد أرادوا أيضًا أن يغيروا اللغة، وقالوا: اللغة التي اعتبرت الزوجة إنسانا أنثى نغيرها ونجعل الزوجة إنسانًا ذكرًا، وتصبح الأنوثة هي الذكورة، والذكورة هي الأنوثة، وبتغير مفاهيم كل من (الدين - الثقافة - الأسرة - اللغة - الدولة) تنقلب كل الموازين، وبهذا نخرج عن كل المبادئ والمقاييس التي كان من الممكن الرجوع إليها؛ فتبرز سمة الخروج عن النظام والقواعد والمألوف.

إذن فالخروج عن المبادئ والمألوف سمة من سمات العصر، وتُنتج هذه السمة مجتمعًا غير قادر على التفاهم مع أفراد جنسه، ويكون لكل منَّا لغة لا يفهمها إلا المتكلم وحده، ويصبح العالم ستة مليارات لغة؛ فإما أن يقتل بعضنا بعضًا، وإما أن نعتزل؛ لعدم وجود مشترك بيننا.

فاتجاه ما بعد الحداثة يسعى لإلغاء الجنس، ويجعلون الإنسان هو الذي يحدد جنسه وليس الله، فإذا خلقه الله على صورة الرجل، وهو يريد أن يكون امرأة فيتحول إلى امرأة في جسد رجل، أو العكس إذا أراد أن يكون رجلاً وخلقه الله امرأة، فلا يسلم بهذا الأمر ويتحول إلى رجل في جسد امرأة. وبهذا تتجاوز مرحلة ما بعد الحداثة كل الثوابت والقيم التي تعارف عليها جماعة البشر، وبرز التجاوز كسمة جديدة من سمات العصر.

٩- أصبح **التجاوز** من سمات العصر، فتم تجاوز مرحلة الأسرة **family** إلى مرحلة **couple** وهي تعني الثنائية، أما الأسرة **family** فتعني زوجًا ذكرًا وامرأة أنثى، وجعلوا الأسرة التقليدية أحد أنواع الـ **couple**؛ لأن الـ **couple**

تعني الثنائية، إما رجل وامرأة، أو رجل ورجل، أو امرأة وامرأة، فأصبح المصطلح الجديد أعم وله ثلاثة أشكال من الثنائية، وهم يسعون إلى أن تكون الأشكال الثلاثة مقبولة في المجتمع دون نكير، وإذا تكلمنا لماذا لا تكون الأسرة رجلاً وامرأة فقط، يردون علينا ويقولون: نحن تجاوزنا هذه المرحلة.

ولحل مشكلة إتمام تلك الثنائية الجديدة أصبح هناك تبني الأبناء، من زوجين رجال، أو زوجين إناث، وأصبح هناك تأجير للأرحام، وأصبح هناك بنك لمنيّ الرجال، ويفكرون حاليًا في زراعة رحم للرجل.

ونحن عندما نتعامل مع هذه القضايا كعلماء لابد علينا من معرفة أصل الموضوع، فلا ينبغي لنا أن ننظر إلى مسألة تأجير الأرحام - مثلاً - على أنها ليس لها علاقة بذلك كله، وهو أمر تولد من القول بالتطور، ومن النسبية، وهذا التجاوز نراه في مناهج العلوم، وفي السعي إلى تجديد النظريات، وفي متطلبات الدرجات العلمية، وفي تأليف الكتب ونقل العلم، وفي (الموضة) وهي آخر أساليب وأشكال الملابس والأثاث وفنون المعمار ومدارس الشعر والأدب واتجاهات الفنون، وفي المقابل كان لدينا الحفاظ على الموروث وعلوم النقل وإتقانها والسعي إلى معرفة الحقائق واستكمالها، ولقد ظل الإعلام الأمريكي يعرض أفلامه وبرامجه الإعلامية لخدمة تلك المعاني، فيخرج المشاهد من الفيلم وقد وصل له معنى من هذه المعاني أو أكثر أو جميع المعاني مجتمعة.

وينبغي أن نؤكد على ضرورة أن يعلم المسلم أن النسبية المطلقة ضياع وباطل، والحق ما يعتقده هو من الإطلاق، ويعلم أن هذا الكون مخلوق لخالق، وأن الله يكلف بالأعمال الصالحة لإصلاح النفس وإعمار الكون، وأن الإنسان محاسب على عدم الالتزام بهذه التكاليف، هذا ما نريد أن نؤكد عليه في مواجهة تلك المعاني الجديدة، التي أصبحت سمات للعصر الذي نعيشه.

١٠- ومن سمات العصر هاجس التطور، وأنه لا ثابت حولنا، وأن الإنسان نفسه محلٌّ لهذا التطور، وأنه إذا كان قد أتى من حالة الفرد فإنه قد يصل في المستقبل إلى شيء آخر، رأسه كبيرة، وجسمه صغير، أو يتكون من خلقة الإنسان والربوت معًا، وأنه يمكن القضاء على الموت، ويمكن تكوين حكومة عالمية تهيمن على العالم الذي يجب أن يُجزأ إلى ٤٠٠ دولة بدلا من ١٩٦ دولة الآن، وأنه يمكن إلغاء المؤسسات مثل المدرسة والمستشفى ودواوين الحكومة عن طريق ثورة الاتصالات والمواصلات والتقنيات الحديثة، وأنه يمكن كذلك عن طريق الهندسة الوراثية السيطرة على الكون الخارجي.

ومع هذا التصور الذي في ظاهره القوة، نرى خوفًا مريعًا في النفس، يتمثل في الأدبيات التي ظهرت من خلال الروايات والسينما من الوحش الذي لا يمكن قهره، أو الميكروب غير القابل للعلاج، أو غزو من الفضاء للأرض، أو تحول البشر إلى سادة وعبيد، أو غير ذلك كثير.

ولكن أتعس فكرة في ذلك كله هي فكرة إلغاء الموت، ثم يليها في التعاسة إلغاء الثوابت الخمس.

١١- يعتقد كثير من العلماء الغربيين اليوم بحقيقة أن الموت ينبغي ألا يكون حتميًّا؛ أو بمعنى آخر أنه لا ينبغي للناس أن يكونوا ضعفاء أو مرضى، وينبغي للعلم من الآن - طبقًا لمعتقداتهم - أن يعمل على إيقاف (الكبر) أو الشيخوخة، بل على أبعد من هذا أن تعكس عملية (الشيخوخة) فيصير الإنسان صغيرًا وقويًّا للأبد.

وعلى الرغم من تسليمهم بأنه لن تختفي الحوادث والعنف، فسيظل الناس معرضون للقتل في كل حين من قبل الأشرار منهم، لكن على الرغم من تسليمهم هذا فما زالوا يعتقدون أن الموت من الشيخوخة أو الموت كنهاية محتومة للحياة سيصبح شيئًا للماضي وذكرى مظلمة للأيام البدائية.

ولعل أصدق دليل على تلك المعتقدات ما صرح به (ويليام آر. كلارك) أخصائي أمراض المناعة الأمريكي في تعليقه على علاقة الموت بالحياة بأنه: «الموت لا يشتبك بشكل معقد بتعريف الحياة» أي أن الحياة يمكن أن تستمر بدون (لزوم) للموت في نهايتها، ومعنى الموت كان دوما النهاية للسابقين، وهذا لا يعني ضرورة أن اللاحقين دائمًا سيموتون.

فالوقت يجري الآن في صالح الأحياء، فها هي التقدمات البيولوجية والطبية التي من المفترض والمتوقع أن تحقق خلال العشرين سنة القادمة ما يسمح للإنسان أن يعيش بعد المائة بمدة طويلة، مما يتيح له أن يستفيد أكثر وأكثر من التقدم الطبي والبيولوجي، فيعيش أطول وأطول.

ويعتقد كثير من العلماء الآن أن الخلود أصبح في متناول يدهم، فالبحث العلمي الحالي قد فتح بالفعل الطريق إلى الخلود البشري، ومن أوائل الذين طرقوا هذا الطريق - في السبعينيات - العالم البيولوجي الخلوي الأمريكي (ليونارد هيفليك) الذي اكتشف أن لدى معظم أنواع الخلايا البشرية حد طبيعي لعدد الأضعاف التي يمكن أن تنقسم إليها أو تتكاثر،

فبعض أنواع الخلايا مثل تلك التي تنتج كريات الدم الحمراء والبيضاء يمكن أن تنقسم ملايين المرات، والبعض الآخر مثل معظم خلايا العصب لا تتكاثر على الإطلاق، وهو ما حدا به إلى تعريف ما يسمى بحد هيفليك، فعلى سـبيل المثـال، إذا كان حد هيفليك ٥٠ خلية، سينقسم ٥٠ مرة ثم تصبح مسنة، ثم تذبل، ثم تموت، وعندما يموت عدد كاف من خلايانا فإننا نموت، ويترتب على ذلك حقيقة مهمة جدًّا، أنه إذا لم يكن لبعض الخلايا أي حد هيفليك فإنها تكون خالدة، وهو ما قـرره هيفليك في أبحاثه حيث وجد التالي:

١٢- **البكتريا (الفقيرة بيولوجيًّا):** لا تموت إذا استثنينا إمكانية قتلها عمدًا بالجوع أو بالإشعاع أو بنقص الماء أو بتسليط كائن آخر عليها ليقتلها، وهو ما يعني أن خلايا البكتريا لا تكبر أو لا تشيخ، فهي تستمر في الانقسام إلى الأبد حتى تصطدم بأي من الأسباب السابق سردها أو لا تصطدم.

١٣- **خلايا السرطان:** وهي أيضًا خالدة، فهي تستمر في الانقسام والانقسام إلى ما لا نهاية، إلا إذا قتلت بإشعاع أو بغيره أو بموت المضيف.

١٤- **الخلايا هيلا:** المأخوذة من ورم (هينريبتا لاكس) في عام ١٩٥١م، ما زالت مستمرة في الانقسام بشدة حتـى الآن كما كانت تفعل من أكثر من خمسين عامًا.

١٥- **الخلايا (germline) البشرية:** وهي الخلايا التي تتشكل منها البويضات، وخلايا المني؛ لا تظهر أيضًا أي حد هيفليك.

وعلى ضوء ما تقدم صار هناك سؤال مهم وهو: لماذا تستطيع بعض الخلايا أن تستمر في الانقسام والتعدد والتكاثر، بينما يتكور الآخرون ويموتون بعد عدد معين من الانقسامات؟ وهو ما تصدى للإجابة عليه (د. مايكل فوسل)[1] في كتابه الشهير «منع شيخوخة الإنسان» عن دار النشر وليام مورو الأمريكية ١٩٩٦.

فإن الدكتور (فوسل) أعلن عن ذلك الكتاب الشهير في أحد مراكز المعاهد القومية للصحة في ١٦ إبريل لعام ١٩٩٦،

(١) وهو طبيب حصل على الدكتوراه من جامعة (ستانفورد) وهو حاليًا: أستاذ في الطب الباطني بجامعة مقاطعة ميتشجان الأمريكية، وهـو أيضًا رئيس تحرير لمجلة (منع الشيخوخة) الطبية.

وألقى محاضرة برعاية المعهد الشمسوني[1]؛ درس فيه مرض (تسارع الموت أو الشيخوخة المبكرة **Progeria**)، وأثبت بالأدلة المستقرأة من هذا المرض مع الحقائق السابقة أن خلايا السرطان والخلايا الجرثومية لا تشيخ، وأن الشيخوخة عملية منظمة، وأنها وظيفة تغيير الجين، وليس وظيفة تآكل وتلف.

وفي ذلك الكتاب أظهر أبحاثًا مهمة عن (**Telomere**) الذي يميز آلية لتنظيم الشيخوخة، هذه الأبحاث لا تمثل شيئًا من (**D.N.A**) في نهاية كل كروموسوم يفقد جزءًا من طوله مع كل انقسام للخلية، شبهه (فوسل) بأنه مثل رأس رباط حذاء، يفقد قصاصة من طوله شيئًا فشيئًا، وفي النهاية رباط الحذاء سيصير عاجزًا عن أداء وظيفته فينكشف الحذاء، وبالمثل عندما يصبح (**Telomere**) في الخلية قصيرًا جدًّا فإن الخلية تتكشف وتتوقف عن الانقسام والتشعب.

وهذا التفسير الجديد والرؤية الثاقبة للخلايا البشرية توضح لماذا لا نحظى سوى بحياة محدودة الأجل، وتوضح أيضًا لماذا القيود على السعرات الحرارية التي يتناولها الإنسان والتي تؤدي بدورها إلى إبطاء عمليات (الأيض) وبالتالي إبطاء انقسام الخلية، في حين أنها من الممكن أن تؤدي إلى إطالة العمر، ويوضح لنا أيضًا لماذا ضحايا (**Progeria**) لا يمكن أن يحيوا حياة قصيرة، فهم ولدوا مع (**Telomere**) قصير، ويجيب أيضًا على تساؤلاتنا لماذا نبقى فترات من الزمن صغارًا وأقوياء وأصحاء ثم نهوي كالصخور في وقتنا المعين.

وإجابة هذه التساؤلات جميعًا على كل كروموسوم؛ إذ إنه يوجد هناك بالقرب من أطفارها ما يسمى بالجينات التنظيمية، وأداء تلك الجينات التنظيمية لوظيفتها يعتمد على طول (**Telomere**)، فعندما يقصر التوليمير إلى حد معين تصبح هذه الجينات التنظيمية إلى حد كبير عاجزة عن أداء وظيفتها، هذه الحقيقة العلمية لم يجد لها العلماء أثرًا في خلايا السرطان والخلايا الجرثومية؛ لذلك فهم دائمي التكاثر والانقسام والتشعب دونما توقف.

---

(١) وهو أحد فروع المؤسسة الشمسونية بأمريكا وهي مؤسسة تنتسب إلى جيمس شمسين (١٧٦٥ -١٨٢٩) وهو رجل أعمال إنجليزي الأصل هاجر للولايات المتحدة الأمريكية، وعمل بالتجارة حتى حقق ثروة طائلة أوصى بها كلها في نهاية حياته إلى الولايات المتحدة الأمريكية، والتي قامت بتأسيس مؤسسة علمية في واشنطن تحت اسم (المؤسسة الشمسونية) (مؤسسة للزيادة وانتشار المعرفة) وهي تهدف إلى ترويج الإبداع والبحث والاكتشافات العلمية.

وبالبحث عن السبب الحقيقي وراء ذلك الاستثناء وجد أن هذه الخلايا تنتج إنزيمًا يسمى (Telomerase)، الذي يعيد تكوين (Telomere) من جديد؛ ليحل ذلك المفقود مع كل انقسام، وبمعنى أدق أنه لا ينتج (Telomere) ابتداء وإنما يمنع فقدان التوليمير الموجود.

والفكرة التي يطرحها الكتاب تتبني على تلك الحقائق العلمية المهمة، وهي هل يمكننا أن نتوصل إلى الخلود لو تمكنّا من تقديم هذا (Telomerase) إلى الخلايا الطبيعية أو حثها على إنتاجه؟

وعلى أساس رؤية (د. فوسل) لأبحاثه مع آخرين، أعلن في كتابه عن اعتقاده بأن خلال ١٠ إلى ٢٠ سنة سيكون العلم البشري قادرًا على منع عملية الكبر أو الشيخوخة البشرية، فبدلاً من أن يكون متوسط العمر الأقصى للإنسان ١٢٠ سنة، سيكون من الممكن أن يعيش لمائتين ثمْ ألف ومائتين، ثم ألفي عام.

وبشر (د. فوسل) في كتابه معظم الناس الأصغر من الأربعين عامًا بأنه سوف يكون هذا الاحتمال الرائع متاحًا قريبًا؛ لأنه بعد تلك الأربعين سيكون الجسد الإنساني قد أذي بالفعل؛ بحيث لم يعد صالحًا للإطالة.

وسرد في كتابه مناقشة على القضايا الاجتماعية والأخلاقية التي ستبعث من احتمال منع وتأخير عملية الشيخوخة الإنسانية، واعتبر أن تلك المناقشة من بعض العلماء والباحثين سطحية نوعًا ما، إلا أنها تمثل بداية إلى منطقة معقدة جدًا، كما ناقش عوائق تلك الإطالة المتعمدة لعمر الإنسان، وتساءل من سيتولى خطط التعليم وإعادة التعليم وترتيبات الصراع على السلم التجاري.

ولكن على حد تعبير (د. فوسل) أنه لسوء الحظ، لا يمكننا أن نتوصل إلى الخلود بمثل هذه البساطة لأسباب كثيرة منها:

أولاً: بعض أنواع الخلايا لا تنقسم أساسًا: كعضلة القلب أو خلايا الدماغ - على سبيل المثال - وهذا يعني أنهم خارج دائرة هذه العملية التي تنظم شيخوخة الخلايا أي أنهم لن ينتفعوا بـ (Telomerase) وسوف تشيخ تلك الخلايا.

ثانيًا: العديد من الخلايا السرطانية فعلاً تخفق في أن تصبح خالدة وتموت ببساطة؛ لأنهم يفقدون القدرة على إنتاج (Telomerase) لسبب أو لآخر.

ثالثًا: مد الجسد الإنساني بـ (Telomerase) بطريقة عامة في صورة أقراص أو حقن من الممكن أن يشكل خطرًا عامًا عليه؛ إذ إنه قد يحفظ الخلايا الهاربة للتشعب بشكل غير محدد وهو ما ينذر بالسرطان.

ويأمل (د. فوسل) أنه ربما يومًا ما سيكون العلماء قادرون على تمكين الخلايا الطبيعية من الاستمرار في إنتاج (Telomerase) وفي نفس الوقت تحجيم إنتاجها من ذلك الإنزيم في الخلايا الهاربة أو الشاذة، إلا أنه يرى في كتابه أن الوضع الحالي يجعلنا نفضل الأبحاث التي تمنع الخلايا من إنتاج (Telomerase) للسيطرة على السرطان قبل أن نتقدم في البحث على حث الخلايا على إنتاج (Telomerase)؛ لذا فقد أطلق تحذيراته من أن التقدم في حث الخلايا الطبيعية على إنتاج (Telomerase) قد لا يمدد الحياة بشكل كبير مباشرة، فما زال هناك الكثير من العوامل التي تنهي الحياة مثل: الفيروسات، البكتريا، الجروح، السم، الأخطاء الوراثية... إلخ.

١٦- وقد أطلنا في سمة هاجس التطور، وتشعبنا في الحديث عن القضاء على الموت كأحد مظاهر تلك السمة، وهناك سمات أخرى كثيرة لذلك العصر المتطور منها: الحرية، والمساواة، والعولمة، والرابطة الإنسانية، والشفافية، والسرية، والمادية، وتحكم نظرية العقد، والمؤسسة، والبرجماتية، والتفكيك، والضوضاء، والكم يسبق النشاط، وانكشاف الأسرار، والدعوة إلى النفس الأمارة بالسوء، واختلال الرابطة، واختلاف حالة الحرب، ونظام السوق.

وفيما يلي نستعرض المقالات التي نشرت في الصحف، والموضوعات التي كتبت في المسائل المختلفة، مما يعبر عن تطبيق الدين الإسلامي في خضم تلك السمات المذكورة.

وجمع هذه المقالات والموضوعات يشتمل على قسمين:

١- القسم الأول: مقالات نشرت في جريدة الأهرام.

٢- القسم الثاني: مقالات وموضوعات متفرقة.

أولاً: القسم الأول: مقالات نشرت في جريدة الأهرام

وعددها ٥٩ مقالاً تم سردهم على النحو التالي:

القسم الأول:

مقالات نشرت في جريدة الأهرام

وعددها ٥٩ مقالاً تم سردها على النحو التالي:

أولاً: المقالات الفكرية

(١-٣) النموذج المعرفي الإسلامي وتجديد الخطاب الديني

بسم الله الرحمن الرحيم

يبدو أننا في حاجة لصياغة النموذج المعرفي الذي يُكوِّن عقل المسلم بناء على عقيدته ورؤيته الكلية للإنسان والكون والحياة وما قبل ذلك وما بعده، ذلك النموذج الذي يمثل الإطار المرجعي والمعيار المعتمد في عقل المسلم ونفسيته وهو المكون الأساسي لشخصية المسلم والضابط لفكره.

نريد أن نعيد صياغة ذلك النموذج حتى نجيب به على الأسئلة الكلية الكبرى في حياة الإنسان، ورؤيته لنفسه ولما حوله، وحتى نواجه به متطلبات العصر، وحتى يفهمنا الآخرون على أقل تقدير، إذا لم ينبهروا بهذا النموذج ويسعوا إلى اعتناقه والإيمان به وتبنيه.

والنموذج المعرفي هذا سنراه موجودًا في وجداننا، ومصادر بنائه في عقائدنا وأحكامنا، ولكن إعادة الصياغة ستمكننا من تفعيله ومن جعله أساسًا للحياة.

والذي سنفعله مع القارئ الكريم هي رحلة في عقل المسلم نستكشف فيها أسس تفكيره ومميزات عقله ووجدانه، ونبين كيف أثر ذلك في الآداب والفنون والحياة، وكيف يمكن أن يؤثر مرة ثانية فيخرج المسلم من حزنه ويمارس عمارة الأرض مع الآخرين ليمنحهم ما هم في أشد الحاجة إليه.

١- أجاب المسلم بموجب عقيدته على السؤال الكلي الأول؛ من أين نحن؟ وهو سؤال متعلق بالماضي، ولكنه نشأ من حيرة الإنسان وجهله الحسي بنشأته ومبتدأه، كالطفل الصغير يسأل من أين أتيت؟ إنه لا يتذكر يوم ولادته، ولم تكن عنده القدرة على ذلك، قال تعالى: ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾ ﴾[١].

فأجاب المسلم بناء على إيمانه أن الله خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وهو خالق كل شيء ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ ﴾[٢].

---

(١) الآية ٥١ من سورة الكهف.

(٢) الآيات ١: ٣ من سورة الرحمن.

٢- والمسلم يؤمن بالتوحيد ليس فقط توحيد الإله، بل توحيد شمل كل شيء في بنائه العقائدي، فنبيه ﷺ واحد؛ لأنه خاتم المرسلين قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[(١)] وكتابه واحد؛ ولذلك حفظه من التحريف والتخريف وجعله واحدًا لا تعدد له، قال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾[(٢)]، والأمة واحدة قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝٩٢ ﴾[(٣)]، والقبلة واحدة، قال ﷻ: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾[(٤)]، والرسالة واحدة عبر الزمان قال سبحانه: ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[(٥)].

والتوحيد بهذا المعنى الذي اشتمل على الأشياء والأشخاص وتعدى الزمان والمكان، لابد أن يؤثر في عقل المسلم المعاصر وأن يكون أساسًا لفهمه للحياة ولتعامله مع الأكوان؛ خاصة الإنسان.

٣- وهو يؤمن بأن الله لم يدع الخلق بلا تكليف، فهناك شرائع وكتب ووحي؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[(٦)] ولكنه جعل الإسلام هذا اسم الديانة التي يرضاها عبر التاريخ من لدن آدم إلى سيدنا محمد ﷺ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[(٧)]، وقال سبحانه: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[(٨)].

---

(١) من الآية ٤٠ من سورة الأحزاب.
(٢) الآية ٩ من سورة الحجر.
(٣) الآية ٩٢ من سورة الأنبياء.
(٤) الآية ١٤٤ من سورة البقرة.
(٥) من الآية ٧٨ من سورة الحج.
(٦) من الآية ٤٨ من سورة المائدة.
(٧) من الآية ١٩ من سورة آل عمران.
(٨) من الآية ٣ من سورة المائدة.

وقضية التكليف تجيب - أو ينبغي أن تجيب - على السؤال الثاني؛ ماذا نفعل هنا؟ وأسس هذا التكليف ثلاثة، أولها: عبـادة الله؛ تلك العبادة التي يجب أن تُنشئ إنسان العمارة والحضارة؛ قال سبحانه وتعـالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾[1]، وثانيها: عمـارة الأرض، وذلك بنشاط التعمير والامتناع عن نشاط التدمير؛ قال تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[2]، أي طلب مـنكم عمارتها، وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[3]، وثالثها: تزكية النفس؛ قال عز مـن قائـل: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾[4].

٤- ويؤمن أن هناك يومًا آخر للحساب - الثواب أو العقاب - قال سبحانه وتعـالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾[5]، وهذا الإيمان يؤثر في سلوك المؤمن بالإحجام والإقدام، فتراه يقدم على الشيء الذي فيه مشقة أو فوات لذة إذا رأى أن ذلك يقربه من الجنة ويترتب عليه الثواب، وتراه يمتنع عن شيء فيـه لذة ويحجم عنه؛ لأنه يراه يقربه من النار، وهذا مرتبط بقضية الإيمان بالله والإيمان بالتكليف، ويؤثر علـى الحياة، ويجب أن يؤثر عليها بصورة إيجابية وإلا تحول الخوف والرجاء أسبابًا لإعاقة الحياة، وفي الحقيقـة أن الله شـرعها لحماية الحياة، ولدفعها، فإذا كانت تصرفاتنا قد حولتها إلى عائق للحياة كان ذلك ضد مقصود الشرع الشريف.

فالحج شُرع لحفظ النفس في كل صورها، فلا ينبغي أن نحوله إلى ما يدعو إلى قتل النفس التـي حـرم الله قتلهـا إلا بالحق، حيث يجب علينا أن ندرك الزمان وما حدث فيه، والمكان وسعته والأشخاص ومدى علمهم بدينهم والأحوال ومـا طرأ عليها من تغير، فنحقق مقصود الشرع منه.

---

(١) الآيات ٥٦: ٥٨ من سورة الذاريات.

(٢) من الآية ٦١ من سورة هود.

(٣) من الآية ٦٠ من سورة البقرة.

(٤) الآيتان ٩، ١٠ من سورة الشمس.

(٥) الآيتان ٧، ٨ من سورة الزلزلة.

هذه الأسئلة الثلاثة الكبرى أنشأت مجموعة من المكونات العقلية التي أسست شخصية المسلم والتي نرجو أن يعود إليها المسلمون على وجهها التي أنزلها الله من أجله وأن يفهموا مراد الله من وحيه.

٥- ويؤمن المسلم بالمطلق لأنه آمن بأن الله لا نهائي ولا محدود، واللانهائي اللامحدود أتى من إيمانه بأسمائه وصفاته، فأسماء الله الحسنى التي وردت في القرآن والسنة تمثل الهيكل التربوي للمسلم؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾[1]، والأسماء التي وصف الله بها نفسه في كتابه أكثر من ١٥٠ اسمًا، وقد ورد في السنة أكثر من ١٦٠ اسمًا، ومجموعهما ٢٢٠ اسمًا بعد حذف المكرر، وهذه الأسماء والصفات يمكن تقسيمها إلى صفات جمال: كالرحمن والرحيم والعفو والغفور، وصفات جلال: كالمنتقم والجبار، والشديد المحال، وصفات كمال: كالأول والآخر والظاهر والباطن، وكل ما يوصف به الله.

٦- والمؤمن يتخلق بصفات الجمال، ولا يتخلق بصفات الجلال بل يتعلق بها، فيعفو ويصفح، ويمسك نفسه عند الغضب؛ قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾[3]، ومن هنا وصف الله الصبر على أمره الكوني أو أمره الشرعي بالصبر الجميل ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[4]، ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ ﴾[5]، ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾[6]، والتخلق بالجمال والتعلق بالجلال والإيمان بالكمال من مكونات العقل المسلم.

---

(١) من الآية ١٨٠ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٨ من سورة المائدة.

(٣) الآيتان ١٠٩، ١١٠ من سورة البقرة.

(٤) الآية ١٨ من سورة يوسف.

(٥) الآية ٥ من سورة المعارج.

(٦) الآية ١٠ من سورة المزمل.

٧- والمؤمن يرى أن الإنسان مكرم، وأنه ليس مجرد جزء من الكون قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠ ﴾[١].

فالإنسان كائن فريد في هذا الكون؛ لأنه متحمل للأمانة قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢ ﴾[٢].

ويرى المؤمن أن الإنسان سيد في هذا الكون، وليس سيد له، فالسيد هو الله قال ﷺ: «السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»[٣] ، فإن الكون يسبح ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[٤]، ويسجد كذلك لله سبحانه وتعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ ﴾[٥]، ولكن المؤمن وهو يسير في عبادة الله يسير سير السيد، وليس سير الجمادات ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣ ﴾[٦]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٦٥ ﴾[٧].

(١) الآية ٧٠ من سورة الإسراء.
(٢) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.
(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٤) حديث (١٦٣٤٩)، وأبو داود في كتاب «الأدب» باب «في كراهية التمادح» حديث (٤٨٠٦)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٧٠) حديث (١٠٠٧٤) من حديث عبدالله بن الشخير ﷺ.
(٤) الآية ٤٤ من سورة الإسراء.
(٥) من الآية ١٨ من سورة الحج.
(٦) الآية ١٣ من سورة الجاثية.
(٧) الآية ٦٥ من سورة الحج.

٨- ويعتقد المؤمن أن للزمان والمكان والأشخاص والأحوال حرمة يراعيها في تعامله معها، فتراه يقدس ليلة القدر: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾[١]، ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾[٢]، ويقدس الكعبة ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[٣]، وقال النبي ﷺ: «مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه، لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةً مِنْكِ مَالِهِ وَدَمِهِ وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلاَّ خَيْرًا»[٤]. ويقدس المصحف ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾[٥]، وينزل النبي ﷺ منزلة عظيمة ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[٧].

ومن مجمل ذلك كله تتكون عقلية المسلم ونفسيته؛ لتكون شخصية متميزة ترى أن الدعوة عامة، وأن الله سبحانه وتعالى كما أرسل الرسل بالعهد القديم، والعهد الجديد، فقد ختمهم برسول الله ﷺ الذي أنزل معه العهد الأخير، وجعل الله سبحانه وتعالى الأمة واحدة من لدن آدم إلى يومنا هذا، ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[٨].

وهذا النموذج المعرفي ينبغي أن يكون منطلقًا للتقويم، ومعيارًا لقبول ما هنالك من أفكار البشر وتوجهاتهم، ومبدأً لتجديد الخطاب الذي يتوافق مع إدراك الواقع بعوالمه المختلفة.

(١) الآية ١ من سورة القدر.
(٢) الآية ٣ من سورة الدخان.
(٣) الآية ٩٦ من سورة آل عمران.
(٤) أخرجه الترمذي في كتاب «البر والصلة» باب «ما جاء في تعظيم المؤمن» حديث (٢٠٣٢)، وابن ماجه في كتاب «الفتن» باب «حرمة دم المؤمن وماله» حديث (٣٩٣٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، واللفظ لابن ماجه.
(٥) الآية ٧٩ من سورة الواقعة.
(٦) من الآية٦٣ من سورة النور.
(٧) الآية ٢ من سورة الحجرات.
(٨) الآية ٨١ من سورة آل عمران.

(٢-٣) النموذج المعرفي الإسلامي وتجديد الخطاب الديني

١- يُكوِّن عقلَ المسلم مجموعة من الإدراكات للسنن الإلهية يراها فيما حوله من الكون الفسيح حتى قال أبو العتاهية:

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد

ولقد تكلم القرآن عن هذه السنن الإلهية وبيَّنها، والتي تعد البيئة الخارجية للنشاط البشري، وتتحكم في المسلم عند نشاطه واختياراته ووضع برامجه وأهدافه، حتى إذا ما غابت هذه الإدراكات عن ذهن مسلم، فإنه يتخبط ويفقد المعيار السليم للقرار السليم، ويضع استراتيجيات أخرى غير التي أمر الله بها.

ونذكر من تلك السنن ثلاثة مع أنها تزيد عن خمسين سنة:

(أ) سنة التكامل:

خلق الله سبحانه وتعالى الأكوان مختلفة في ظاهرها، لكنها متحدة في الهدف والغاية، فهذا الخلاف والاختلاف إنما هو للتنوع وليس للتضاد، فالليل والنهار يشكلان يومًا واحدًا، لكل منهما خصائص، والذكر والأنثى لكل منهما خصائص ولكل منهما وظيفة، والحاكم والمحكوم لكل منهما وظيفة، والغني والفقير، وأغلب الثنائيات الخلقية أو القدرية، فالخلقية كالليل والنهار والذكر والأنثى، والقدرية كالحاكم والمحكوم والغني والفقير، سميناها قدرية لنفرقها عن الخلقية، وإن كان فيها سعي للإنسان واختيار وكسب، إلا أنها من فضل الله وقدره أيضًا.

إن فهم سنة التكامل يجعل أصل الخلق عند المسلم هو التكامل وليس الصراع، ولذلك يفهم العلاقة بين الذكر والأنثى على أنها خلقت للتكامل، بخلاف التوجه الذي يدعو إلى أن الأصل هو الصراع، وأنه يجب على المرأة أن تصارع الرجل لتحصل على حقوقها، وأن المحكوم يجب أن يصارع الحاكم للحصول على حقوقه، وأن الإنسان يجب أن يصارع الكون حتى يحصل منه منفعته، على ما استقر في الفكر الإغريقي من فكرة صراع الآلهة وانتصار الإنسان في النهاية عليها.

وفهم سنة التكامل لا ينفي حدوث الصراع أو إمكانية حدوثه ووقوعه، ولكن هناك فرق بين أن نجعله أصلاً للخلقة لا يمكن الفرار منه، وأن نجعله حالة عارضة يجب أن نسعى لإنهائها حتى تستقر الأمور على الوضع الأول الذي خلقه الله.

هذا التكامل هو الذي يفرق عند فهمه بين المعنى الروحي للجهاد في سبيل الله والحرب التي تشن هنا وهناك لأجل المصالح والهيمنة والاستعلاء في الأرض والفساد فيها أيضًا.

فانظر إلى قوله تعالى في أول سورة النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[4].

فالجهاد في سبيل الله منه أصغر وأكبر، والصغر والكبر إنما يعود إلى الزمن الذي يستغرقه كل واحد منهما؛ قال رسول الله ﷺ: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، ألا وهو جهاد النفس**»[5]، وقال الله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾[6] وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[7].

فالجهاد بالقتال لا يستغرق إلا مدة المعركة وهي قليلة على كل حال، أما الذي يمتد العمر كله، ويعم الناس كلهم والأرض كلها فهو جهاد النفس.

وجهاد القتال يجود فيه الإنسان بنفسه من أجل سعادة غيره ففيه معنى الفداء؛ فوصفه بالأصغر لا يقلل من علو شأنه وأهميته، ولكنه يشير إلى مدته، وأنه صراع عارض لأجل الرجوع إلى حالة الاستقرار والتوازن التي خلق الله الناس عليها أول مرة.

---

(١) الآية ١ من سورة النساء.
(٢) الآية ١٢ من سورة الإسراء.
(٣) الآية ٢٦ من سورة آل عمران.
(٤) من الآية ٣٢ من سورة الزخرف.
(٥) أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٣/ ٥٢٣)، وقيل: هو مشهور على الألسنة، وهو من كلام إبراهيم بن أبي عبلة. انظر: «كشف الخفاء» (١/ ٥١١).
(٦) من الآية ٧٨ من سورة الحج.
(٧) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.

من أجل ذلك رأينا أن القاتل غير المقاتل، وأن من قتل أول مرة عليه وزر من اتخذ هذا سبيلاً له عبر التاريخ، ويقص
علينا ربنا قصة ابني آدم من أجل هذه العبرة، فيقول تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ
أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠
بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ
وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى
ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ
ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ
ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى
ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ
أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا
ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ
ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[1].

فقد يتبين منها أن الجهاد في سبيله غايته الفلاح وإنهاء الفساد في الأرض، والخروج عن مفهوم القتل الذي جعله الله علامة على خذلان ابن آدم وعقابه إلى مفهوم القتال لرفع العدوان، ورفع الطغيان، وعدم السكوت على إنكار المنكر، وعدم السكوت على الإفساد الخسيس للأرض.

(١) الآيات من ٢٧:٣٥ من سورة المائدة.

(ب) سنة التدافع:

وهي سنة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾[1].

وهذا التعبير القرآني يبين حقيقة علو القرآن على التفاسير التي خطَّها البشر، فهو لم يحصر هذا في القتال أو النزاع والخصام - كما ورد في التفاسير - وإنما عبر بالتدافع ليشمل كل أنواع التعاون والاختلاف، بل والصراع والصدام للوصول بكل وسيلة إلى الاستقرار وتحقيق مراد الله من خلقه: عبادة وعمارة وتزكية.

فالتدافع سنة إلهية تبين أن الإنسان قد خلقه الله سبحانه وتعالى اجتماعيًّا يحتاج إلى الآخرين، وهم يحتاجون إليه، فلم يخلقه منعزلاً قادرًا على البقاء وحده؛ حتى يحقق مراد الله من خلقه، بل إنه لابد أن يعمل في فريق ليصل إلى هدفه، وعمله في الفريق وحراكه الاجتماعي ونشاطه الذاتي يحتاج إلى إدراك سنة التدافع، وإدراك هذه السنة يتولد منها قوانين كثيرة لضبط هذا النشاط والحراك؛ وعليه فإن عملية فكرية لابد أن تسبق النشاط، وهو ما قد يكون الإنسان العصري قد افتقده حيث سبق النشاطُ الفكرَ، وكان ينبغي أن يسبق الفكرُ النشاطَ ويسبق حديثُ القلب أيضًا الفكرَ، ولهذا موضع آخر يشرح الفرق بين الأمرين.

(ج) سنة التوازن:

وهي سنة قد أشار الله إليها كونيًا؛ قال تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾[2]، وقيميًا؛ قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾[5].

---

(١) من الآية ٢٥١ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ١٩ من سورة الحجر.

(٣) الآية ٩ من سورة الرحمن.

(٤) الآية ١٧ من سورة الشورى.

(٥) من الآية ٢٥ من سورة الحديد.

ونرى مرة ثانية أن الاستقرار هو الأساس الذي يجب أن ينتهي إليه النشاط الإنساني بعد التوتر الذي يبدأ به، وإذا تحدثنا عن مثل هذه السنة لرأينا أنها سنة كونية وسنة قيميَّة، ونأخذ منها موقفنا من قضايا البيئة وموقفنا من قضايا الفكر، وموقفنا من مفهوم العدل خاصة إذا رأيناها تمتد إلى الآخرة والحساب وتمثل دالاً على عدل الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾[2]، والذي لابد للإنسان أن يتمثل به، ثم يأتي التكليف على وفق هذه السنة مشيرًا إلى أن التكليف بالأحكام مرتبط ارتباطًا تامًّا بالسنن الإلهية المحيطة بنا، وأن تطبيق هذه الأحكام من خلال فهمنا للسنن وتفاعلنا معها هو الضامن لتحقيق هدفها والوصول إلى مقاصدها، يقول تعالى: ﴿ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[3].

٢- إن دراسة السنن الإلهية بل واستقلال علم بدراستها وبيان علاقتها مع المبادئ العامة القرآنية التي تُكوِّن أيضًا عقل المسلم، من فوح قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[4]، وقوله سبحانه: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾[6]، وقوله سبحانه: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[8]... إلى آخر ما هنالك من أسس ومبادئ - تبين أن الضرر يُزال، واليقين لا يُرفع بالشك، والأمور بمقاصدها... ونحو ذلك.

---

(١) من الآية ٤٧ من سورة الأنبياء.
(٢) من الآية ٨ من سورة الأعراف.
(٣) من الآية ٨٥ من سورة الأعراف.
(٤) من الآية ١٦٤ من سورة الأنعام.
(٥) الآية ١٧٩ من سورة البقرة.
(٦) من الآية ٩٥ من سورة المائدة.
(٧) الآية ٣٩ من سورة النجم.
(٨) من الآية ٧٨ من سورة الحج.

أقول: إن دراسة السنن الإلهية أصبح واجبًا يمكن أن يُفيد الإنسان والإنسانية بنظرة جديدة لمجموعة العلوم الاجتماعية والإنسانية، ويمكن بهذه النظرة أن تتهيأ لتجديد علمي واعٍ للخطاب الديني.

٣- لقد ألف المرحوم الشيخ محمد الصادق عرجون عن السنن الإلهية، ودعا الشيخ رشيد رضا في «المنار» إلى الالتفات إليها، ومن المحدثين تكلم عنها د. جمال عطية، وكتبت السيدة زينب عطية موسوعة لها، وللدكتور عبدالكريم زيدان كتاب مستقل، وهناك إسهامات د. مصطفى الشكعة وتلامذته في هذا الشأن، أما كتاب الدكتور سيف عبدالفتاح «مدخل القيم» فيعد محاولة جادة رصينة لبدء تكوين هذا العلم الذي قد يصل بنا إلى بناء علم أصول فقه الحضارة بعد أن وضع الشافعي علم أصول فقه النص الشريف.

إن توليد العلوم، والذي توقف في القرن الرابع الهجري، وتوليد الحضارة منها على مقتضيات العصر الذي نعيشه - هو الأصل في تجديد الخطاب الديني بعيدًا عن الجهالة وعن الأماني وعن الآمال التي قد تخطر ببالنا مع كسل مريع في تحصيل العلم.

(٣-٣) النموذج المعرفي وتجديد الخطاب الديني

١- إدراك الواقع بعوالمه المختلفة جزء من أجزاء تجديد الخطاب الديني، ولابد علينا من تحديد معنى الواقع المعيش الذي نحياه ونتعامل معه، والواقع له عوالم خمسة: عالم الأشياء، وعالم الأشخاص، وعالم الأحداث، وعالم الأفكار، وعالم النظم. ويمكن أن نضيف إليها كل يوم ما يتناسب مع استقراء الواقع، وتحليل مكوناته.

كما أنه لابد علينا أن ندرك أن هذه العوالم الخمسة في غاية التركب والتداخل، وليست منفصلة بأي صورة من الصور، مما يجعل من إدراك العلاقات البينية بين كل عالَم فيها مع العوالم الأخرى جزء لا يتجزأ من فهم الواقع الفهم الدقيق الواضح، وأيضًا لابد علينا أن ندرك أن هذه العوالم ليست ثابتة؛ ولذلك فلابد من تفهُّمِها في تغيُّرِها الدائم المستمر باعتبار أن هذا من سنن الله في كونه: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

٢- إن عالم الأشياء يحتاج إلى منهج في التعامل معه مردُّه إلى العلم التجريبي الذي حقق عند المسلمين وغير المسلمين نجاحًا باهرًا في تسخير الكون والاستفادة منه وتحصيل القوة في مجال الصحة والحياة اليومية والعلم... إلخ، نحوَ حياة أفضل، والعلم التجريبي يجب أن نتخذه في ظل مفاهيم واضحة وهي:

(أ) أنه ليس هناك حدٌّ للبحث العلمي من أي جهة كانت، فإن الأمر عام ومطلق في شأن تحصيل العلم، وذلك في آيتين حاسمتين؛ الأولى تفيد العموم، والأخرى تفيد الإطلاق؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا ﴾[2]، فأمر بالسير على عمومه، وبالنظر على عمومه، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3]، فأطلق العلم ولم يحدد ماذا يعلم؟ هل يعلم الكونيات أو الشرعيات أو المفيد أو غير المفيد؟

(١) من الآية ٢٩ من الرحمن.
(٢) من الآية ٦٩ من سورة النمل.
(٣) من الآية ٩ من سورة الزمر.

(ب) ومن المناسب أن ننبّه أن العلم في لغة القرآن هو ذلك الذي يوصل إلى الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾[1]، والعلماء جمع عليم، وليس جمع عالِم، فجمع عالِم عالِمون وجمع عليم علماء، مثل حكيم وحكماء، وخبير وخبراء، وفقيه وفقهاء، قال تعالى: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾[2].

(ج) لابد أن يلتزم التطبيق العلمي واستعمال العلم في الحياة بالأخلاق والأوامر والنواهي الربانية التي تريد للإنسان حياة سعيدة قوية، تؤدي إلى التعمير ولا تؤدي إلى التدمير، تؤدي إلى حرية الإنسان والاختيار ولا تؤدي إلى سلب إرادته والإجبار، تؤدي إلى المساواة بين البشر ولا تؤدي إلى عبادة بعض البشر للبشر، وهيمنة الشمال على الجنوب، والقوي على الضعيف، فلا نتوصل بالاستنساخ أو الجينوم أو الهندسة الوراثية أو التدخل البيولوجي أو علوم الفضاء إلى الفساد الاجتماعي، أو الهيمنة التي تحصل المصالح لبعضهم على حساب الآخرين، أو تؤدي الخريطة الجينية إلى التسلط على الإرادة والتلاعب بالاختيار.

(د) لابد من التخلص من عقلية الخرافة، وهي العقلية التي لا تفرق بين المجالات المختلفة، ولا تقيم الدليل المناسب لإثبات القضية محلَّ النظر، ولا تتبع منهجًا واضحًا محددًا من قبل في التعامل مع الحقائق، ولا تعتمد مصادر للمعرفة، وهذه العقلية الخرافية التي نريد أن نتخلص منها لابد أن يكون ذلك في مجال الحس، ومجال العقل، ومجال الشرع، فهذه المناهج المختلفة التي تدعو إلى الانتحار أو الانبهار أو الاجترار أو الانحسار أو الاغترار - مناهج مرفوضة، فمنهج الانتحار الذي يؤدي إلى التكفير المؤدي في نهاية الطريق إلى التدمير والتفجير مرفوض، ومنهج الانبهار بالآخر والتعدي على مصادر الشرع من كل غير متخصص بين الإفراط والتفريط حتى يخرج علينا من ينكر الإجماع، أو يخرج عن مقتضيات اللغة، أو عن هوية الإسلام، أو يحول الإسلام إلى لاهوت التحرر أو لاهوت العولمة.

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة فاطر.

(٢) من الآية ٧٦ من سورة يوسف.

ومنهج الانحسار الانعزالي الذي يؤدي إلى الفرار من الواقع الذي يشبه الفرار يوم الزحف منهج مرفوض أيضًا؛ باعتبار أن مخالطة الناس والصبر عليهم خير عند الله من العزلة؛ قال تعالى: ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴿١٨﴾ ﴾[١]، وقال رسول الله ﷺ: «**المسلم إذا كان مخالطًا للناس ويصبر على أذاهم، خير من المسلم الذي لا يُخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**»[٢].

أما منهج الاجترار فإنه يتمثل في التمسك بمسائل التراث تمسكًا يحكي صورتها دون الوقوف عند مناهج التراث والتجريد أمامها حتى يمكن تطويرها إن احتاجت إلى تطوير، أو الاستفادة بها حتى على حالها إن كانت تصلح لذلك.

فهو منهج (ماضوي) - إن صح التعبير - يريد بإصرار أن نتغاضى عن واقعنا، وأن نستمر في واقع قد تغيرت عليه الحياة، حتى رأينا كثيرًا من الناس يخرجون من دين الله أفواجًا لظنهم أن هذا هو دين الله، وأن دين الله بذلك من طبيعته ألا يصلح لزماننا هذا، وهو وهم خاطئ ومخطئ، خاطئ لأنه مخالف للحق، ومخطئ لأنه مخالف للواقع.

أما منهج الاغترار فنراه عند كثير من خارج الدراسات الدينية الأكاديمية، الذين أقحموا أنفسهم في مجال الكلام في الشرع الشريف تشهيًا لإصلاح الدين بزعمهم تارة أو للإدلاء بآرائهم التي يرونها مهمة تارة أخرى، وقد نراه أيضًا عند الدارسين الدراسات الشرعية في مراحلها الأولى، مع ظن لا يتناسب مع ظن العلماء الراسخين في العلم؛ حيث يعتقدون أن لهم الحق في تجديد الدين، غافلين عن قلة بضاعتهم الشرعية من ناحية، والمسافات الشاسعة بينهم وبين إدراك الواقع من ناحية أخرى، وهنا يجدر بنا أن ننبّه على فارق مهم بين البحث (في) علم ما وبين الكلام (عن) ذات العلم، والفرق بين (في) و(عن) أن (في) تستلزم استكمال العملية التعليمية بعناصرها الخمسة: الطالب، والأستاذ، والكتاب، والمنهج، والجو العلمي، وهي عملية تهتم بالمعرفة وبالقيم وبتربية الملكات، وتحتاج لكي يبرز نتاجها في الواقع إلى التفرغ والتخصص والأدوات وطول الزمان، بالإضافة إلى الاستعدادات الفطرية من الذكاء باعتباره قوة ربط المعلومات، والحرص على تلقي العلم الذي يمكن أن نسميه بالهمَّة، وبذل الجهد المستمر.

ولقد أشار الشافعي منذ القدم إلى هذا مما يبيّن أن المنهج العلمي لا يختلف في ذاته وإنما قد يتطور في صياغاته

---

(١) من الآية ١٨ من سورة يوسف.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب «صفة القيامة والرقائق والورع» حديث (٢٥٠٧)، وابن ماجه في كتاب «الفتن» باب «الصبر على البلاء» حديث (٤٠٣٢).

حيث قال:

أخي لـن تنـالَ العلـمَ إلا بسـتَّة ... سـأُنبيكَ عـن تأويلِهـا ببيـانِ
ذكـاءٌ وحِـرصٌ واجتهـادٌ وبُلْغَـةٌ ... وإرشـادُ أسـتاذٍ وطـولُ زمـانِ

والبلغة تعني التفرغ لطلب العلم، وأن عنده ما يكفيه من الأرزاق، وهو المعنى الذي قامت به الأوقاف الإسلامية عبر القرون، فكان من أهم جهاتها الصرف على التعليم، وعلى الصحة وعلى الأمن الداخلي.

وهذا النمط من الاغترار هو أخطر الأنماط؛ لأنه قد حصل شيئًا من العلم الشرعي، إلا أنه لم تكتمل أدواته حتى يصل إلى مرتبة المجددين.

٣- إن عالم الأشخاص قد برزت فيه الشخصية الاعتبارية التي يجب أن نهتم بدراستها دراسة أخرى غير ما ورد عن الشخصية الطبيعية في الفقه الإسلامي، فإن ما ورد في ذلك الفقه عن الشخصية الطبيعية صحيح، ولكن الشخصية الاعتبارية ينبغي أن يكون لها أحكام أخرى تتوافق مع مصالح الناس، وتحقيق المقاصد الشرعية؛ إن سحب أحكام الشخصية الطبيعية على الشخصية الاعتبارية أمر لم يعد مناسبًا وفيه تغبيش على الواقع الذي نريد أن ندركه.

ولقد استقر في الفقه الإسلامي أن الأحكام تتغير بتغير الزمان إذا كانت مبنية على الأعراف الزائدة، والتقاليد المستقرة أو المتغيرة، فباختلاف تلك الأعراف والتقاليد من زمان لزمان، أو من مكان لمكان تتغير الأحكام، كما تقرر أن الأحكام تتغير بين ديار المسلمين، وغير المسلمين في مجال العقود؛ لأن المسلم الذي يقيم في بلاد غير المسلمين ينبغي عليه أن يمارس حياته بصورة طبيعية، ولا ينعزل في حارات من غير اندماج في مجتمعه، بل يجب عليه هذا الاندماج؛ لأنه أولاً وأخيرًا مأمور بالدعوة إلى الإسلام بمقاله أو بأفعاله أو بحاله.

وكما قال رسول الله ﷺ: **«كلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له»**[1]، ولا يتحقق له ذلك إلا إذا اختلفت أحكام العقود التي بينه وبين غير المسلمين في ديار غير المسلمين عن أحكام ذات العقود نفسها في ديار المسلمين، وهو مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه، قال: ما دام ذلك برضا أنفسهم، وقال: لأن هذه الديار ليست محلاً لإقامة الإسلام، وهي نظرة واقعية للحياة من

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «التوحيد» باب «قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ﴾» حديث (٧٥٥١)، ومسلم في كتاب «القدر» باب «كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته» حديث (٢٦٤٩) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

ناحية، ولطبيعة الدين الإسلامي في دعوته بالأسوة الحسنة من ناحية أخرى؛ قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1]، والرسول في حقيقته إنما بعث كما قال عن نفسه رحمة مهداة؛ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[2]، فلابد أن يكون أتباعه كذلك.

٤- عالم الأحداث والخطاب الديني يجب أن يتعلم تحليل المضمون وكيفية استعمال هذا التحليل، وقد ورد في الحديث النبوي عن حكمة آل داود: «على العاقل أن يكون عالمًا بزمانه، ممسكًا للسانه، مقبلاً على شانه»[3].

وعالَم الأحداث مركب في الحقيقة من الأشياء والأشخاص والوقائع والعلاقات البينيِّة، وهو أكثر العوالِم تداخلاً وتسارعًا؛ حتى نرى أن وكالات الأنباء الستة الكبرى تبث كل يوم ١٢٠ مليون معلومة أغلبها أحداث؛ مما يبين أهمية هذا الجانب، ونحن هنا ننبه إليه فقط، فنتكلم بشيء (عنه) ولا نتكلم بشيء (فيه).

٥- عالَم الأفكار والنظم، وعسى أن نُفرد لهذا المجال كلامًا مستقِلاً؛ لشدة أهميته، وباعتباره أساسًا لكثير من السلوكيات والتطبيق.

إن إدراك هذه العوالِم لا يكفي وحده دون إقامة علم ديني لإدراك العلاقات البينية والاستعداد لتداخلها ووضع الطرق المناسبة التي تحقق مقاصد الشرع الشريف؛ من حفظ النفس والعقل والدين وكرامة الإنسان وحفظ الملك على الناس، وهي المقاصد العليا التي أشار إليها الأصوليون، والتي أفردها الشاطبي في كتابه «الموافقات»، وهي التي أيضًا تمثل فكرة تقارب فكرة النظام العام في النظم القانونية المعاصرة.

ومن مجمل ما ذكرنا يتضح لنا أهمية دراسة النموذج المعرفي، سواء في جانب الرؤية الكلية أو السنن الإلهية أو القيم العليا أو المبادئ القرآنية أو إدراك الواقع من خلال ذلك كله مع الحفاظ على الهوية الموروثة التي تمثل الحقيقة عند المسلمين.

---

(١) من الآية ١٤٣ من سورة البقرة.

(٢) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ٢٦٨) رقم (٥٠٤٧)، وهناد في «الزهد» (٢/ ٥٨٠) رقم (١٢٢٦)، ومعمر بن راشد في «جامعه» (١١/ ٢٢)، واللفظ له.

مفهوم الأمة

١- إن من مقتضيات مفهوم الأمة في الإسلام ترتيب الأولويات، ومنهج التعامل مع الحياة الدنيا، وتحديد العلاقة مع الآخرين، ووضع برنامج عملي لعمارة الأرض، وعلى ذلك فإن إدراك مفهوم الأمة أمر أساسي إذا كان يمثل المنطلق لهذه القضايا وغيرها، وتفعيل ذلك الإدراك أمر أكثر أهمية من الإدراك المشار إليه.

٢- فلابد علينا أن نتكلم بتوسع - وتحديد أيضًا - عن مفهوم الأمة، ففي نظر المسلمين الأمة ممتدة عبر الزمان فيما يمكن أن نسميه بالدين الإلهي، فالأمة تبدأ من آدم، وتشمل كل الرسل والأنبياء في موكبهم المقدس عبر التاريخ، والأمة بعد النبي ﷺ ممتدة عبر الزمان والمكان، وفي جميع الأحوال ولدى جميع الأشخاص، وهذا أمر غاية في الأهمية إذا اعتبرناه تأسيسًا لما ندعو إليه من معاصرة وإصلاح وتجديد، فالمسلمون لا يعرفون الرابطة القومية أساسًا للاجتماع البشري، وإن كانوا لا ينكرونها في سياقها، ولا يعترفون بالرابطة الوطنية إذا أدت إلى الشوفونية المتعصبة، وإن كانوا يعتبرون حب الوطن من الإيمان.

٣- وبدء الأمة من آدم يجعل لقصة الخلق الواردة في القرآن الكريم معنى جليلاً، ولا تكون إقرارًا لحقيقة أو لواقع فحسب، بقدر ما تكون تأسيسًا لمفهوم يبنى عليه الاجتماع البشري، فماذا قالت القصة؟ قالت الحقائق الآتية:

(أ) إن آدم من الأرض، فالأرض إذن أمه وأبوه، ليس هذا شعارًا لدعاة الحفاظ على البيئة، بل جزء من تصديق كلمة الله سبحانه وتعالى، وكون آدم من الأرض معناه أنه لابد عليه وعلى أبنائه أن يعاملوها معاملة الابن للوالدين، وأن العلاقة بينهما هي علاقة البر، وكون آدم من الأرض معناه المساواة التي ستكون بين بنيه فهم كلهم لآدم وآدم من تراب كما ورد في الحديث النبوي؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله** عز وجل **قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي وفاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجِعلان التي تدفع بأنفها النتن»**[1]، (والجِعلان هي الخنافس).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٦١) حديث (٨٧٢١)، وأبو داود في كتاب «تفسير القرآن» باب «ومن سورة الحجرات» حديث (٣٢٧٠)، وفي كتاب «الأدب» باب «في التفاخر بالأحساب» حديث (٣٩٥٥)، (٥١١٦)، والترمذي في كتاب «المناقب» باب «في فضل الشام واليمن» حديث (٣٩٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكون آدم من الأرض معناه أنه سيعود إليها، وأن حياته هنا محدودة بالموت، ولذلك فهي دار ابتلاء واختبار وتكليف، وليست دار خلود وتشريف قال سبحانه: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾[١]، وكون آدم من الأرض يقتضي أنه محتاج إلى غيره وليس قائما بنفسه، وهو معنى قولهم (لا حول ولا قوة إلا بالله) التي ورد في الحديث أنها كنز من كنوز الجنة فعن أبي موسى ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«يا عبدالله بن قيس، قل: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فإنها كنز من كنوز الجنة»**، أو قال: **«ألا أدلك على كلمة هي كنز من كنوز الجنة، لا حول ولا قوة إلا بالله»**[٢]؛ حيث تدل هذه الكلمة على حقيقة وجود الإنسان في الأرض، وحقيقة سعيه فيها.

(ب) إن آدم قد نُفخ فيه من روح الله سبحانه وتعالى، وروح الله مخلوق راق من مخلوقاته، فروح الله مضاف ومضاف إليه، والإضافة فيها للقداسة مثل قولنا: (بيت الله) و(رسل الله) قال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[٣].

(ج) إن آدم قد سجدت له ملائكة الرحمن مما يدل على تكريمه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[٤].

(د) إن آدم يمثّل الخير في أصله، في مقابلة الشر الذي عند إبليس، ولذلك من تشبه بآدم فهو خير، ومن انحرف وخالفه وتشبه بإبليس فهو شر؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[٥]. وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾[٦].

---

(١) الآية ٥٥ من سورة طه.

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الدعوات» باب «الدعاء إذا علا عقبة» حديث (٦٣٨٤)، ومسلم في كتاب «الذكر والدعاء التوبة والاستغفار» باب «استحباب خفض الصوت بالذكر» حديث (٢٧٠٤).

(٣) الآية ٢٩ من سورة الحجر.

(٤) الآية ٧٠ من سورة الإسراء.

(٥) من الآية ٢١ من سورة النور.

(٦) الآية ١٦٨ من سورة البقرة.

(هـ) فآدم إذن هُدي النجدين؛ قال الله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾[١]؛ أي طريق الخير وطريق الشر.

(و) آدم إذن شُرِّف وكُلِّف؛ قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾[٢].

٤- هذه الرؤية للإنسانية ستحدد مفهوم الأمة التي بدأت مع آدم هذا البدء، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾[٤].

ويمكن أن نقرر صفات لتلك الأمة الواحدة أن هناك مساواة بين البشر، فأصلهم واحد، ومصيرهم واحد، وهو الموت، والخطاب الإلهي إليهم واحد؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[٥].

٥- فإذا تحدد مفهوم الأمة بهذا المعنى فإن لدينا أمة الدعوة وهي الإنسانية كلها، وأمة الإجابة وهم من صدقوا بالنبي ﷺ ودينه ومنهجه في الحياة، وهو مفهوم للأمة يشمل البشرية كلها، ويرى المسلمين مع غير المسلمين أمة دعوة يتوجه لهم جميعًا الخطاب بـ (يا أيها الناس)، وإن اختص المسلمون بخطاب (يا أيها الذين آمنوا)، حتى إنه في العقائد الإسلامية نرى شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة لجميع الخلائق حتى يصدق عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[٦] أي: السابقين واللاحقين.

---

(١) الآية ١٠ من سورة البلد.
(٢) من الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.
(٣) الآية ٥٢ من سورة المؤمنون.
(٤) من الآية ٩٢ من سورة الأنبياء.
(٥) من الآية ١٥٨ من سورة الأعراف.
(٦) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

وإذا تقرر هذا وأردنا أن نبني على مفهوم الأمة برنامجًا عمليًّا يتعلق بالسياسة والاقتصاد والاجتماع، ويتواءم مع واقعنا ومشكلاتنا الآتية، فإنه يمكن تطبيق ذلك وترتيب أولوياتنا بأجندة تنبثق من واقعنا وحاجاتنا دون النظر إلى ما يحاولونه من فرض الهيمنة من الخارج لمصالحهم ومنافعهم

٦- فإنه إذا كانت الأمة واحدة عبر التاريخ الماضي، وواحدة بعد بعثة النبي ﷺ، وواحدة في يومنا هذا في أساس عقائدها، فلماذا لا نكون أمة واحدة أيضًا في واقع معاشنا، مع اختراع ما يلزم من نظم وإجراءات تحقق هذا النظر وتؤيد هذا التوجه فإن المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف كما قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**»[1]، ويمكن أن نضع برنامجا عمليا منبثقا منا يشتمل على:

أولا: التقريب والتحالف بين دول المنطقة، ولنبدأ باقتراح الطريق السريع الذي يربط بين طنجة وعمان، وشبكة الطرق السريعة هذه هي أول خطوة في ربط البلدان بعضها مع بعض، وفي إذابة الفوارق، بل والعوائق، وهي لا تتدخل في استقلال الدول، ولا في أنظمتها السياسية، ولا في شئونها الداخلية، وهي لا تحتاج إلا إلى قرار ومال وتنفيذ، بل جزء كبير من ذلك الطريق موجود بالفعل ويحتاج إلى تفعيل وأن يقوم بدوره في ربط الدول بعضها مع بعض.

ثانيًا: رفع تأشيرات الدخول والإقامة بين العالم العربي، وهو أمر مأخوذ به في كثير من البلدان العربية، ولا يحتاج إلا إلى انتشار، ويمكن استثناء الأراضي المقدسة لتنظيم الحج والعمرة إليها بصورة تمنع من عدم الانضباط.

ثالثًا: السعي إلى تفعيل السوق المشتركة والتجارة البينية والاكتفاء الذاتي، عن طريق المشروعات العملاقة كالتي بين مصر والسودان خاصة لزراعة القمح، فإذا كان طعامك من فأسك كان رأيك من رأسك، وأيضًا التخصص وتقسيم العمل بين الدول العربية للوصول إلى التكامل الاقتصادي.

رابعًا: هل نأمل في السعي الحثيث لتوحيد العملة بين الأقطار العربية، ثم الإسلامية؟! ولتأخذ وقتها من التنفيذ، وهو مطلب قديم كنا نسمع عنه من التيار القومي حتى حققته أوربا في صورة اليورو.

(١) أخرجه مسلم في كتاب «القدر» باب «في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله» حديث (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

خامسًا: وبعد ذلك هناك أساليب للوحدة مع الاحتفاظ بالهُوية والخصوصية كالاتحاد الفيدرالي، وهو أمر يحتاج أيضًا إلى رأي عام، وتوجه صادق، وخطوط كثيرة للوصول إلى التوائم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي بين الدول العربية، وهو أمر ليس بالمستحيل حتى لو اكتنفته بعض العقبات، أو احتاج إلى كثير من الجهد والترتيب والإجراءات.

سادسًا: إصلاح التعليم بالاهتمام بمراكز البحث العلمي، وتشجيع الابتكار وحمايته والاهتمام بقضايا التدريب، وبالجانب التطبيقي.

عسى الله أن يمن علينا وأن يمكنا في الأرض كما مكن الذين من قبلنا ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾[١].

(١) الآية ٤١ من سورة الحج.

(١-٣) توليد العلوم .. فرض على المسلمين

حضارة المسلمين قامت على العلم، ووضع المسلمون الأوائل علومًا خادمة لمحور حضارتهم وهو النص الشريف، التزموا بهذا المحور وخدموه وانطلقوا منه وجعلوه معيارًا للقبول والرد والتقويم، وأخذ المسلمون يخترعون العلوم اختراعًا، وينقلون منها عن الأمم السابقة ما يمكّنهم من فهم الحقيقة، وإدراك الواقع ونفس الأمر، ويصنفونها ويبلغونها لمن بعدهم، ولمن بجوارهم، ورأينا عصر الترجمة في عهد المأمون، ورأينا البيروني في كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة ممدوحة في العقل أو مرذولة»، ورأينا الخوارزمي في كتابه «مفتاح العلوم» وهو الذي يرسم لنا الذهنية العلمية في التاريخ الإسلامي ويرصد ذلك التنوع من ناحية، والتفاعل من ناحية أخرى، وهما الصفتان المجمع عليهما لكل من اطلع على التراث الإسلامي ونتاجه الفكري.

١- فتوليد العلوم كان سمة أصحاب ذلك الدين حتى القرن الرابع الهجري، بل امتد ذلك التوليد إلى القرن السادس؛ حيث وضع عضد الدين الإيجي علمًا جديدًا أسماه بعلم (الوضع) استله من علم اللغة، والنحو والأصول والمنطق عالج فيه - أهم ما عالج - قضية المصطلح التي تعد من أهم القضايا العلمية حتى يومنا هذا، حيث تعد ضابطًا علميًّا للحفاظ على لغة العلم والتفاهم بين الجماعة العلمية بما يضمن أمرين مهمين: أولهما: هو نقل العلم لمن بعدنا، وثانيهما: هو تطوير العلم بصورة مطردة ومستمرة ومنضبطة في نفس الوقت، ثم خبا هذا التوليد وانشغل العلماء بتكرار الموروث والحفاظ عليه من الضياع كرد فعل لما حدث في القرن السابع من غزو التتار وسقوط بغداد ٦٥٦هـ.

٢- ودعا محمد رشيد رضا في مجلة «المنار»[١] إلى إحداث علم جديد يَدرُس السنن الإلهية التي وردت بالقرآن الكريم، ولم يتم ذلك حتى بعد مضي أكثر من مائة عام على تلك الدعوة، فلابد علينا أن ندرك أن توليد العلوم نوع من أنواع مظاهر حياة الفكر، وأنه لم يمت، وهو أيضًا مظهر من مظاهر التفاعل مع العصر الذي نعيشه، وهو ثالثًا الجسر الذي يصل بين الشرع وبين الواقع المحيط، ويسأل كثير من المخلصين عن كيفية توليد العلوم، وهي تحتاج إلى قدرة التصور المبدع، وهي التي قد لا توجد عند كثير ممن اشتغل بنقل العلم والحفاظ عليه.

---

(١) في العدد ٢٦ من السنة الثانية يوم السبت ٣ جمادى الأولى سنة ١٣١٧هـ الموافق ٩ سبتمبر ١٨٩٩م في مقالة بعنوان: «كرامات الأولياء».

فالتصور المبدع هذا أمر لابد منه لعملية الاجتهاد وعده الأقدمون ركنًا من أركانه؛ ولذلك فإن فقده يدل أيضًا على خبوت العملية الاجتهادية التي تنبثق أساسًا من ملكة قائمة بنفس الفقيه، وتأكيدًا لهذا المعنى نرى السيوطي في كتابه «الرد على من أخلد إلى الأرض، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض» يقول في الصفحة ١٦٩ ما نصه: «قال ابن برهان: لا ينعقد الإجماع مع مخالفة مجتهد واحد، خلافًا لطائفة، وعمدة الخصم أن عدد التواتر من المجتهدين إذا اجتمعوا على مسألة كان انفراد الواحد منهم يقتضي ضعفًا في رأيه، قلنا: ليس بصحيح؛ إذ من الممكن أن يكون ما ذهب إليه الجميع رأيًا ظاهرًا تبتدر إليه الأفهام، وما ذهب إليه الواحد أدق وأعوص، وقد يتفرد الواحد عن الجميع بزيادة قوة في النظر، ومزية في الفكر، ولهذا يكون في كل عصر مقدم في العلم، يفرع المسائل، ويولد الغرائب». اهـ.

ثم ينقل قول الغزالي من كتابه «حقيقة القولين» صفحة ١٨١ فيقول: «قال الغزالي في كتاب "حقيقة القولين": وضع الصور للمسائل ليس بأمر هين في نفسه، بل الذكي ربما يقدر على الفتوى في كل مسألة إذا ذكرت له صورتها، ولو كلف وضع الصور وتصوير كل ما يمكن من التفريعات والحوادث في كل واقعة عجز عنه، ولم تخطر بقلبه تلك الصور أصلاً، وإنما ذلك شأن المجتهدين».

٣- ولنضرب مثالاً يجيب على أولئك الذين يريدون نموذجًا لتوليد العلوم حتى يسيروا على منواله، وحتى يُهدئ بال من يشك في هذه العملية وما قد تخفيه في ظنهم من الاعتداء على ثوابت الدين، أو القدح في هوية الإسلام، فنحاول أن نلقي الضوء على بذور توليد العلوم وآليات ذلك في التراث الإسلامي عسى أن ندرك المنهجية التي ساروا عليها في خدمة حضارتهم.

وبالمناسبة فإن المنهج في ظني رؤية كلية ينبثق عنها إجراءات، وهذه الرؤية الكلية هي النموذج المعرفي الذي تكلمنا عنه سابقًا، أما الإجراءات فهي منهج البحث العلمي الذي نراه عند الأصوليين، حيث يعرف الرازي ومدرسته أصول الفقه بأنه: "معرفة دلائل الفقه إجمالاً، وكيفية الاستفادة منها، وحال المستفيد" يعني تكلم عن مصادر البحث الفقهي، ثم تكلم عن كيفية البحث وطرقه، ثم تكلم عن شروط الباحث، وهي الأركان الثلاثة بحالها التي اتخذت فيما بعد منهجًا علميًا كما قرره «روجر بيكون»؛ المصادر والطرق والباحث.

وقبل أن نخوض في آليات توليد العلوم يجب علينا أن ندرك بعض الحقائق عن موقف الدين من العلم، لا نقول إن الإسلام دين العلم فحسب، بل نرى موقفه من البحث العلمي حيث أرى أنه لا حرج ولا قيد مطلقًا على البحث العلمي، فليبحث من شاء فيما شاء وليحاول أن يدرك حقيقة العالم كما شاء، ويكشف عن خلق الله في كونه كما يريد، وأن ذلك ضمانة للإبداع وهذا مؤسس على أن الله قد أنزل أول ما أنزل: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ ﴾[1]، وذكر أن القراءة الأولى في الوجود والثانية في الوحي، وأنهما قد صدرا عن الله، الأولى من عالم الخلق، والثانية من عالم الأمر ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٤ ﴾[2]، وعلى هذا فلا نهاية لإدراك الكون؛ حيث إنه يمثل الحقيقة، لأنه من عند الله، ولا نهاية لإدراك الوحي قال رسول الله ﷺ: «**لا تنتهي عجائبه، ولا يَخلَق من كثرة الرد**»[3]، وأيضًا لا تعارض بينهما حيث إن كلاً من عند الله، وهذا التأسيس يتأكد في قوله تعالى على صفة الإطلاق: ﴿ هَلۡ يَسۡتَوِى ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٩ ﴾[4].

إلا أن استعمال المعلومات يجب أن يكون تحت السقف الأخلاقي للتطبيق المأخوذ من مهمة الإنسان في الدنيا: العبادة، والعمارة، والتزكية، هذا السقف الذي يمنع من استعمال ما يوصلنا إليه فيما يخالف الأوامر والنواهي الربانية أو يكر على المقاصد الكلية بالبطلان فنكون بذلك من أهل التعمير، لا من أهل التدمير، وهذا السقف للاستعمال من الأهمية القصوى حيث هو الضمان الوحيد لتلك العمارة.

إن الفصل بين حرية البحث للوصول إلى صحيح المعرفة، وبين تقييد الاستعمال للوصول إلى العمارة أمر قد اختلط على كثير من الناس مع وضوحه وتأكده.

---

(١) الآيات من ١ : ٤ من سورة العلق.
(٢) من الآية ٥٤ من سورة الأعراف.
(٣) أخرجه الترمذي في كتاب «فضائل القرآن» باب «ما جاء في فضل القرآن» حديث (٢٩٠٦)، والدارمي في كتاب «فضائل القرآن» باب «فضل من قرأ القرآن» حديث (٣٣٣٢) من حديث علي بن أبي طالب ﵁.
(٤) الآية ٩ من سورة الزمر.

٤- ومن الحقائق أيضًا أن العلوم لها صورة كلية تتمثل في عملية متكاملة من التعليم لإدراك المعلومات، والتربية لإقرار القيم، والتدريب لتنمية الملكات، وأن هذا كل لا يتجزأ أو لو تجزأ لفقدنا (دليل التشغيل) إن صح التعبير، وفقد دليل التشغيل يوقع في حيرة واضطراب، ويبدو أننا قد فقدنا دليل التشغيل هذا في كثير من جوانب حياتنا ليس العلمية فقط، بل أيضًا السياسية والاجتماعية والدينية.

٥- ومن الحقائق أيضًا أن هناك فرقًا بين علم الدين، وبين التدين، فالأول تقوم به جماعة علمية وله مصادره ومنهجه والعملية التعليمية - كما أشرنا من قبل - لها أركانها التي يجب أن تكتمل بعناصرها الخمسة الطالب والأستاذ والمنهج والكتاب والجو العلمي، أما الثاني وهو التدين فهو مطالب به كل مكلف لتنظيم علاقته مع نفسه وكونه وربه.

٦- ومن الحقائق أيضًا أن هناك فرقًا بين الفقه والفكر، فالفقه موضوعه «فعل المكلف» ويهتم علم الفقه بوصف أفعال المكلفين بالإقدام عليها أو الإحجام عنها، وأن هذا حلال وهذا حرام بأحكام شرعية خمسة وهي الواجب، والمندوب، والحرام، والمكروه، والمباح، أما الفكر فموضوعه «الواقع المعيش النسبي المركب المتغير» وهذا الفكر يرتب فيه الإنسان أمورًا معلومة كمقدمات ليتوصل بها إلى شيء مجهول كنتيجة، والعملية الفكرية هي الجسر الذي بين الشرع والواقع، ولذلك تحتاج إلى علوم تجدد وتولد كل حين حيث إن طبيعة الواقع الذي نريد أن ندركه شديدة التعقيد والتغيير.

٧- فإذا تقرر كل ما سبق، فإن التراث الإسلامي وضع ما يسمى بالمبادئ العشرة من أجل أن يطلع عليها طالب العلم؛ ليتشوف للعلم الذي سوف يدرسه، أو ليعرف ما لابد له من معرفته، وهي بذاتها هي العناصر التي يجب الالتفات إليها عند توليد العلوم.

ووضعها بعضهم في صورة نظم يحفظه صغار الطلاب حتى يحدث لهم هذا التشوف الذي انحسر بعد ذلك عند المسلمين في التلقي دون إنشاء العلوم واستمرار الفكر، قال:

من رام فنًّا فليرم أولا ... علمًا بحده وموضوع تلا
وواضع ونسبة وما استمد ... منه وفضله وحكم معتمد
واسم وما أفاد والمسائل ... فتلك عشر للمنى وسائل
وبعضهم فيها على البعض اقتصر ... ومن درى جميعها انتصر

فالمبادئ العشرة هي تعريف العلم، وموضوعه، ومن الذي وضعه، ونسبته إلى العلوم الأخرى، ومن أي العلوم يستمد، وأحكامه ومسائله، وما فضله وما حكمه وما اسمه، وما الثمرة والفائدة المترتبة عليه؟ فهذه العشرة تعد مدخلاً للعلم تـدفع طالب العلم إلى التشوف لدراسته وتحصيله، وهي بنفسها التي يمكن للمفكر إذا أراد أن يبني علمًـا أن يحـددها كبدايـة لاستقلال العلوم أو إبداعها، فكيف ذلك (يتبع).

(٢-٣) توليد العلوم فرض على المسلمين

١- من أراد أن يطّلع على مثال نُولِّد به علما يخدم الإسلام والمسلمين فليبدأ في علم يمكن أن نطلق عليه علم الخطاب الإسلامي، وما أشد الحاجة إلى هذا العلم الذي يدرسه الخطيب والمدرس والداعية والمتصدر للإفتاء والمرشد الديني الذي يتخذه الناس أسوة حسنة؛ فإذ بهم يدركون كيف يتعاملون مع الناس، ويشعرون بمشكلاتهم، وبكيفية الدخول إليها من المدخل الصحيح! ونحن نسمع كثيرًا عن اعتراض الناس على كثير من الخطباء والدعاة، وعلى تلك الحالة من الفوضى التي اكتنفت الفضائيات، وهذه الحالة من الفوضى التي اكتنفت الصحافة في التعامل مع الدين، ولو كان مثل هذا العلم موجودًا بهذه الصفة التي سنشرحها لكان المرجع والمقياس الذي يقاس عليه لمعرفة الخطأ من الصواب، ولكان الضابط المانع لأي انحراف أو قصور أو تقصير، والدافع للأداء المتميز المستمر الذي يؤتي أكله كل حين بإذن ربه.

٢- والعلوم تتمايز موضوعاتها، وموضوع العلم هو ما يُبحث فيه عن عوارضه الذاتية حتى تتكون المسائل في هذا العلم من الموضوع والوصف المناسب له، والمسائل هي الجمل المفيدة التي عرفناها في اللغة العربية في علم النحو وغيره، والتي تتكون إما من مبتدأ وخبر، وإما من فعل وفاعل، وكلاهما واحد في الدلالة على الجملة المفيدة التي يستفيد منها سامعها مراد المتكلم من كلامه؛ ولذلك نرى البلاغيين والمناطقة يجعلونها واحدًا، فيسمي البلاغيون ركني الجملة: المسند والمسند إليه، ويسمي المناطقة ركني الجملة: الموضوع والمحمول.

فموضوع علم الطب جسم الإنسان من حيث الصحة والمرض؛ وعلى ذلك يكون جسم الإنسان مبتدأ، وما يعرض عليه من أحوال الصحة والمرض وكيفية العلاج وأسباب ذلك كله هو الخبر الذي يكون الجمل المفيدة في علم الطب، فجسم الإنسان مسند إليه - مبتدأ أو فاعل - فهو موضوع، وما يخبر عنه المسندُ - خبر أو فعل - وهو محمول أي محمول على ذلك الموضوع، فقولنا: جسم الإنسان يمرض بالميكروب ويصح بالدواء - جمل مفيدة تكون العلم، وكذلك علم الفقه موضوعه فعل الإنسان المكلف؛ مثل الصلاة والزكاة أو حتى السرقة والقتل، ويأتي الخبر في صورة الحكم فنقول: الصلاة واجبة، والسرقة حرام، واللغو مكروه؛ فتكون هذه الجمل مسائل علم الفقه.

٣- فما موضوع الخطاب الإسلامي؟ يمكن أن نجعل موضوعه (تبليغ الدعوة) وهنا سنحتاج إلى تجديد مفهوم التبليغ،وأنه مكون من ثلاثة أركان: المتكلم، والسامع، والرسالة أو الخطاب أو الكلام، ونبدأ في بيان صفات المتكلم، والشروط التي يجب توافرها فيه، والعلوم التي يجب أن يتزود بها، والحقائق التي يجب أن يعرفها، والأدوات التي يجب أن يمتلكها، والطرق والمناهج والمصادر والكيفيات التي يجب أن يتحقق بها. والسامع ما أنواعه؟ وما مستوياته؟ وطريقة الاتصال التي تناسبه، ووسائل القياس لبيان تحقيق الهدف معه، والوسائل التي من خلالها الاتصال، والتي تتواءم مع السامع بأنواعه. ثم ننتقل إلى الخطاب فندرس شكله ومضمونه، وأنواعه وأساليبه، ولغته ومستواه وقياسه وتقويمه، واختلافه وتطوره وترتيبه. ثم ننتقل لدراسة مفهوم الدعوة وخصائصها التي تعطي الخطاب المجرد مذاقا آخر وخصوصية قد لا تكون في غيرها من أنواع الخطاب، وكيفية وصل القول بالعمل، والمثال الصالح، والمشكلات التي تكتنف ذلك وطرق معالجتها أو التعامل معها أو الوقاية منها... إلخ.

٤- كل ذلك يحتاج إلى علوم أخرى نستمد منها علمنا الجديد، منها علوم الاتصال **Communication** وقياسات الرأي العام، والإعلام **Information Media**، وعلم الخطابة، وعلوم الشريعة واللغة والسيمانتيك **Semantics** وتحليل المضمون والأبحاث الميدانية، مع الاستعانة ببعض الأدوات التي تستعمل في العلوم الاجتماعية والإنسانية، من الرصد والتحليل، والجداول والمنحنيات ووسائل الإيضاح، وكذلك استغلال المتاح من وسائل الاطلاع كشبكة المعلومات الدولية والقنوات الفضائية، والأساليب النفسية في علم نفس الجماهير وعلم نفس الاتصال... إلخ.

٥- فإذا وضعنا حد العلم وعرفنا موضوعه، وحددنا العلوم التي نستمد منها مسائله، وظهر لنا فهرس موضوعاته، وأطلقنا عليه اسمًا بيننا؛ فإننا نعالج فوائده وثمراته وما يترتب عليه، وكيفية استعماله، ويجب أن يبنى بهيئة مفتوحة يمكن معها الزيادة فيه وتطويره وتجديده وتوليد علوم أخرى منه؛ حتى نستقل بالدرس، ونضع أقدامنا على أرض صلبة ونحن ندعو إلى الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1].

(١) الآية ١٠٨ من سورة يوسف.

وتنفيذاً لهذه الآية وحتى ندعو على بصيرة يجب أن ندعو على علم، وأن ننشئ ذلك العلم ليُدرَّس للمتصدرين للدعوة في كل مكان، ويكون حجة لهم وعليهم، وهذا هو هدف دعوتي لتوليد العلوم؛ حتى تعود الحضارة الإسلامية إلى سابق عطائها، ولا نحتاج إلى أن نسمع من بعضهم التعبير بأنها كانت ولم تعد موجودة.

٦- بعد ذلك سنجد مكاناً لعلم الخطاب الإسلامي بين العلوم الاجتماعية من جهة، وبين العلوم الشرعية من جهة أخرى، وسنعلم فضل هذا العلم وأن الاشتغال به من فروض الكفايات التي قد ترقى إلى فروض العين لمن تصدَّر للدعوة ونقل الدين لمن بعده.

٧- أما واضع العلم: فإنه سينسب إلى أول من ألَّف فيه، ولو ألفت جماعة مرة واحدة فسيحدث نزاع أيهم ألَّف أولا، ونرجع إلى حلاوة النقاش العلمي، والخلاف الثري الذي كان يحرك العقول، ويربي النفوس على قبول الرأي الآخر، ويدرب الطلاب والعلماء على البحث، وترتيب الأدلة، واستجلاب البراهين وبيان جهة دلالتها، ويخرج العقل المسلم من إسار التقليد والجمود والأزمة الفكرية التي يمر بها إلى نوع آخر من العمق في الفهم والوعي بما يجري حوله، والقدرة على تهيئة الأجواء لعودة المجتهدين العظام مرة أخرى قادرين على عرض ما عندهم بالمنطق والبرهان الذي يوافق عليه الجميع حتى ولو لم يتخذوه سبيلا لهم، ولكن يحترمون المنهج ويؤكدون على صحته بغضٍّ النظر عن النتائج وعن مشارب البشر.

٨- والحقيقة أن العلم لا يولد كاملا، حتى علم العروض - الذي ضبط به الخليل بن أحمد الفراهيدي الشعر العربي - لم يولد كاملا بالرغم من أنه كان شبه كامل إلا أننا رأينا الأخفش وهو يضيف إليه بحر المتدارك، ورأينا علماء هذا الفهم ينشئوا أوزاناً أخرى، صحيح أنه لم يتكلم بها العرب، ولم ينقل من شعرهم شيء على أوزانها، إلا أنها زادت في العلم، ووسعت من مفهوم الشعر كما أورده الدمنهوري في كتابه «الكافي في العروض والقوافي»، حتى ابتدع أمير الشعراء أحمد شوقي بعض الأوزان التي لم تكن من قبل فقال:

مال واحتجب وادعى الغضب

ليت هاجري يشرح السبب

وهو يسير على ما فعله الأندلسيون من قبل في «كان كان» و«المواليا» وغيرها.

٩- توليد العلوم منهج مناسب للخروج العملي من الأزمة الطاحنة التي تمر بها الأمة، ومن منهج الصالحين أنهم ذهبوا إلى العلم بكل فنونه وأنواعه عندما هجم التتار على بلاد المسلمين، وكانت لا تزال مدن تحت سيطرة الصليبيين.

ولندرس نموذج الإمام النووي الذي كان يعمل عشرين ساعة في اليوم لحفظ العلم ونقله لمن بعده؛ حتى إنه لم يـنم على جنبه لمدة عامين، ولم يتزوج لكثرة انشغاله بالعلم حتى مات صغيرًا لم يتجاوز الخامسة والأربعين من عمره بحساب السنة الهجرية، ولنذكر نموذج النويري في «نهاية الأرب»، والقلقشندي في «صبح الأعشى»، وابن منظور في «لسان العرب»، وغيرهم من أصحاب الموسوعات، وكيف واجهوا الطغيان والعدوان وتقلب الزمان (يتبع).

(٣-٣) توليد العلوم فرض على المسلمين

هل المسلمون في حاجة إلى علم جديد يقال له: «علم الخطاب الإسلامي» حقًّا؟ والإجابة عندي: نعم، إنهم في حاجة إلى ذلك؛ لمقتضيات وجودهم، والحفاظ على هويتهم وبقائهم وسط العالم الذي أصبح قرية واحدة، والذي وصل من خلال المواصلات والاتصالات والتقنيات الحديثة إلى ما نرى من الجوار وتأثر بعضه ببعض؛ حتى كادت الحواجز بين الشأن الداخلي والخارجي تتلاشى، وحتى رأينا حجج احتلال أرضنا بالعراق والتهديد باحتلال غيرها هو التأثر بما يجري في الداخل من أمور، ولم يعد مجديًا نفعًا التمسك بأنه أمر داخلي، ومع رفضنا لهذا المبدأ الذي يستعمله القوي في فرض هيمنته الاستعمارية وتحصيل مصالحه الاقتصادية، فإننا لابد أن نعمل على ما يغير حالنا في طريق الله؛ حتى ينظر الله إلينا بعين الرحمة، ويغير ما بنا، ويوفقنا إلى ما يحب ويرضى؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾[1].

١- ولقد حضرتُ مؤتمرًا في دولة الكويت نظمته كلية الشريعة والدراسات الإسلامية هناك تحت عنوان «الخطاب الإسلامي في خضم الأحداث والمستجدات»، وذلك في الفترة من ١٧- ١٨ مايو ٢٠٠٤م، وتقدمت فيه ببحث عن أصول هذا الموضوع ودعوت فيه إلى إنشاء علم جديد بعنوان «الخطاب الإسلامي» ولقد وافق المؤتمرون من العلماء على هذا الاقتراح، وجعلوه في توصياتهم، وهو ما يبين أهمية هذه الدعوة، ووجوب الإسراع في تبنيها، وإدخال هذا العلم ضمن ما يدرس في الكليات الشرعية بالجامعات الإسلامية، خاصة جامعة الأزهر، وسرعة تعاون العلماء على الكتابة فيه وإثرائه، وعلى استمداده من علوم عدة يتعاون في ذلك جماعة العلماء؛ حتى يتضح هذا العلم وتقوم له قائمة.

٢- ومن بحوث ذلك المؤتمر - الذي حضره من مصر: أ.د أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر السابق، وعضو مجمع البحوث الإسلامية، وأ.د نبيل غنايم الأستاذ بكلية دار العلوم، وأ.د إبراهيم عبدالرحيم الأستاذ بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، ومن السودان أ.د عصام البشير وزير الأوقاف، ولفيف من العلماء من سويسرا وفرنسا وتونس والسعودية وسوريا، بالإضافة إلى علماء كلية الشريعة بالكويت من أقطار شتى - ما يمكن أن يستفاد منه في بناء إطار عام لذلك العلم، أبتدئ وأخص بالذكر بحث أ.د أحمد جاب الله عميد الكلية الأوربية للدراسات الإسلامية

(١) من الآية ١١ من سورة الرعد.

بباريس، وكان تحت عنوان «انفتاح الخطاب الإسلامي ومتطلبات المرحلة المعاصرة» الذي أكّد فيه على أهمية الخطاب الإسلامي في مجال العلاقات الإنسانية.

وذكّرني بأستاذنا المرحوم د. ماهر عليش عندما حكى لنا وهو يُدَرِّس مادة «العلاقات الإنسانية» أنه ذهب إلى الولايات المتحدة لنيل درجة الدكتوراه في مادة «العلاقات الإنسانية» التي لم يكن قد مضى على ولادتها أكثر من ثلاثين عامًا، فذهب إلى المكتبة بالجامعة التي يدرس بها؛ ظانًّا أنه سيجد فيها كتابين أو ثلاثة أو عشرة سينتهي من قراءتها ثم يحضر الدكتوراه ويعود إلى مصر خلال ستة أشهر، وسأل أمين المكتبة عن كتب «العلاقات الإنسانية» وطلب منه إحضارها مهما بلغت، فاصطحبه إلى أحد أدوار المكتبة الذي يمثل دائرة كبيرة تسير حولها سيارة، وقال له: كل ما أمامك من كتب من الأرض إلى السقف بطول هذا الطابق كله في العلاقات الإنسانية.

لم يذكر لنا د. ماهر عليش هذه الرواية للتسلية، ولا لأن نفتح أفواهنا دهشًا وتعجبًا من العلم الذي لا يعرف النهاية، بل ذكرها ليربي فينا ملكة أساسية لشهوة المعرفة، وحب الاطلاع والبحث والتأليف والمعرفة، رحم الله الأستاذ؛ فقد كان مؤمنًا بالله ورسوله عاشقًا لمصر.

٣- ثم تكلم أ.د أحمد جاب الله عن تعدد طرائق الخطاب، وعن خصائص الخطاب الإسلامي، وذكر أنه خطاب يحقق البلاغ المبين، وفيه صفة الحكمة، وصفة الرفق ويراعي شخصية السامع، ويلتزم مبدأ الحرية ومبدأ الاعتدال، ويتجنب إثارة العداوة وردود الفعل السلبية، ويلتزم التواضع، ولا يضيق بالمعارضة والسؤال، وهو خطاب منفتح؛ لأنه يؤمن بواقع الاختلاف بين الناس، وحق الآخر في اعتقاده بصواب ما يعتقد، ويقوم بواجب الشهادة على الناس، ويعلم أنه في عصر الإعلام المفتوح والعولمة، وهذا الانفتاح يقتضي أن ينطلق الخطاب من القناعة لدى المتكلم والاستعداد لاستيعاب وتفهم حجة المخالف، والاستفادة من التواصل مع الآخر بمراجعة النفس وتصحيح الخطأ وإبراز نقاط الالتقاء مع المخالف.

وخلص من هذا كله إلى وجوب التخصص والتعمق والبعد عن التعميم والسطحية، ودعا إلى الجمع بين الأصالة والتجديد، وإلى العناية بالبعد الإنساني في الخطاب الإسلامي، وإلى التصدي بشجاعة للقضايا المثارة، وتغليب المنطق العلمي القائم على الإقناع بدل الخطاب الإنشائي، والجمع بين المثالية والواقعية، وإبراز الأبعاد التربوية والروحية والحضارية في الخطاب الإسلامي، وتجديد الخطاب الوعظي شكلا ومضمونًا، وحسن الاستفادة من تقنيات الخطاب المعاصر ووسائله، وأهم نقطة في ذلك كله إخضاع الخطاب الإسلامي إلى التقويم الدائم.

وأكَّد في هذه النقطة الأخيرة أن وصف الخطاب الإسلامي لا يعني أنه فوق النقد المستمر الذي يؤدي إلى تحسين صياغته، وإعادة ترتيبه والعمل على تصحيح مساره إن حدث ثمة ما يشينه أو يجعله قاصرًا أو مقصرًا، وهي مسألة في غاية الأهمية غابت عن كثير من المتصدرين للخطاب الإسلامي، بل والناقدين لهم؛ حيث شعر الناقد نفسه وكأنه ضد الإسلام لما كان معترضا على صوغه وخطابه؛ لأن "الحق في الفكرة لا يقتضي صوبا في صياغتها وحسن عرضها، بل قد تكون الفكرة غاية في القوة، ومُسَاءُ التعبير عنها صيغةً وأسلوبًا فتفقد قوتها" على تعبير الدكتور أحمد جاب الله في بحثه المذكور.

٤- ثم ذهبتُ مع جماعة من العلماء والمفكرين إلى لندن في الفترة من ٦-١٤ يونيو ٢٠٠٤م لمناقشة صورة الإسلام والمسلمين مع بعض المهتمين من أهل الفكر والعلم والسياسة والاجتماع، فازداد يقيني في وجوب إنشاء ذلك العلم الذي سيعالج تلك القضايا الخاصة المعقدة المركبة التي حيَّرت الغرب وجعلته مع موروثه الحضاري المصادِم والمستعمِر لبلاد المسلمين في غاية الاضطراب والتخبط في المعاملة حتى مع مواطنيه.

٥- وجدت مشكلة الجيل الثالث وما بعده الذي هاجر أجداده من شبه القارة الهندية وغيرها، وشارك في الثورة الصناعية وشارك أبناؤهم في الحروب التي خاضتها بريطانيا، وولد هذا المسلم لا يعرف وطنًا سوى هذه الأرض؛ وإذ بالرغم من كل ما تعلمه ونشأته هذه النشأة يذهب لأعمال انتحارية هنا وهناك، والعقل الإنجليزي غير قادر على استيعاب هذه المعضلة، ويخرج له من يقول له: إن الإسلام في ذاته هو السبب؛ لأنه دين صدامي. ويقول «برنارد لويس»: إن الإرهابيين يطبقون الإسلام، وليس أنهم قد انحرفوا عنه، وتبدأ الحيرة لدى غير المسلمين؛ لأنهم رأوهم معمرين سالمين، وفجأة يخرج منهم هذا الصنف ويكون «برنارد» جاهزًا بتفسيره هذا، بل إن بعضًا ممن أسماؤهم أسماء المسلمين في حيرة أيضًا ينشرون هنا وهناك ما يدل على قيام شبه التناقض في أذهانهم.

٦- إن علم الخطاب سوف يؤكد على مفاهيم كثيرة تفسر هذه الحالة على وجهها، وتجعلها حالة خلل وتبين وجه هذا الخلل من غير حاجة للحيرة. سيؤكد علم الخطاب على مفهوم الأمة، ولكنه سيؤكد أيضًا على مفهوم المرجعية، وعلى مفهوم التخصص، وعلى الفرق بين علم الدين والتدين، وسيؤكد على مفهوم الشروط التي لا يصح العمل إلا بها؛ فالصلاة لا تجوز بغير وضوء ولو صلى مائة ركعة، ولا لقبلة غير الكعبة ولو صلى ألف ركعة، ولا قبل دخول الوقت المعتبر شرعًا، وكذلك الجهاد لا يجوز إلا تحت راية، وعندما فقدت الراية فلا جهاد، وسيتحول إلى قتل بدل أن يكون قتالا ولو ادعى صاحبه أنه في سبيل الله.

ففقدان المرجعية والشروط هو سبب الظاهرة مع قيام مفهوم الأمة في ذهن ذلك الشاب، وهو مفهوم صحيح ولكن لم يصله مقيدًا بشروط العمل من خلاله؛ فاختل الميزان في يده وأفسد أكثر مما أصلح.

النبي ﷺ في مكة جاءه خبّاب يشكو إليه ويطلب النُّصرة، ويقول خباب بن الأرت رضي الله عنه: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهْوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْنَا: أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلاَ تَدْعُو لَنَا؟ - في رواية أحمد: فاحمرَّ وجهُه وتغير لونُه - فَقَالَ: **«قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»**(١).

وقد ثبت في السنة النبوية: أَنَّ عَبْدَالرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ وَأَصْحَابًا لَهُ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ بِمَكَّةَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي عِزٍّ وَنَحْنُ مُشْرِكُونَ، فَلَمَّا آمَنَّا صِرْنَا أَذِلَّةً. فَقَالَ: **«إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلاَ تُقَاتِلُوا»**(٢).

وقال الله تعالى - وكأنه يخاطب أولئك الجهلة الذين أعماهم الحماس عن الطاعة لربهم: ﴿ **وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴿٢٥﴾ ﴾(٣).

والذي تحير في تناقضه بين نصوص الكتاب المؤكدة للجهاد، ونصوصه المؤكدة للتسامح والعفو والصفح وقبول الآخر - لم يعرف شروط كل منهما، وانفكاك الجهة يجعل الاختلاف اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد.

نؤكد مرة أخرى على وجوب إقامة هذا العلم؛ عسى أن نرى مؤلفاته خلال عشرين سنة قادمة قد ملأت طابقًا بكامله في مكتبة كبرى أو حُمّل على "C.D" حتى امتلأ به حمولة جهاز الكمبيوتر.. آمين.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب «المناقب» باب «علامات النبوة في الإسلام» حديث (٣٦١٢)، وفي كتاب «الإكراه» باب «من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر» حديث (٦٩٤٣).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب «الجهاد» باب «وجوب الجهاد» حديث (٣٠٨٦).

(٣) من الآية ٢٥ من سورة الفتح.

التفكير المستقيم

التفكير نعمة ربانية وهبها الله للإنسان، ومِنْ شُكرِ النعمة أن نتحدث بها؛ قال الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[1] وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»[2]، وقال في شأن قصر الصلاة - ثم صارت مقولته قاعدة مستمرة: «**صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته**»[3].

والدليل على أن التفكير نعمة أننا قد أُمرنا به في حياتنا كلها، وفي القرآن: ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[4]، فربط بين الالتزام بالأوامر والنواهي في العقيدة والشريعة والأخلاق، وبين التفكر الذي هو الأساس في الفهم.

١- والفكر: ترتيب أمور معلومة يتوصل الإنسان بها إلى مجهول. والأمور المعلومة تكون في صورة جملة مفيدة، يضم الفكر جملة مع جملة ويربط بينهما ويخرج بنتيجة منهما، وكل جملة مفيدة قد تخبر عن واقع وقد تعبر عن طلب، والتفكير المستقيم يبدأ من البحث في الجملة التي تخبر عن واقع ويأخذ في التأكد من صحتها، وإلا اتجه الفكر إلى الخرافة فلا يكون مستقيمًا. وكل جملة مفيدة لها مجال، وكل مجال له طريقة في إثباته، ودليل يبرهن على صحته، ومعيار للقبول والرد بشأنه.

٢- فهناك أمور تعود إلى الحسِّ والتجريب، مثل جملة: النار محرقة، والشمس مشرقة. ودليل هذه الأمور يكون بإدراك الحس، أو بالخبر المتواتر الموثوق به، وهناك أمور أخرى تعود إلى العقل مثل حقائق الرياضيات، وهناك أمور تعود إلى النقل مثل أحكام اللغة وأحكام الشريعة، وكل ذلك يحتاج إلى منهج من التجربة والملاحظة والاستنتاج، وتكرار ذلك مرات حتى تستقر في الذهن حقيقتها وتكون صالحة للاستعمال، ويسمي المناطقة الجملة المفيدة بـ "النسبة التامة"،

---

(١) الآية ١١ من سورة الضحى.
(٢) أخرجه الترمذي في كتاب «الأدب» باب «ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» حديث (٢٨١٩) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن».
(٣) أخرجه مسلم في كتاب «صلاة المسافرين وقصرها» حديث (٦٨٦) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.
(٤) الآية ٤٤ من سورة النحل.

وتُعرَّف بأنها: إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه. فإذا كانت الجملة عادية حسية أضافوا عبارة "بناء على التكرار" وإذا كانت نقلية قالوا: "بناء على وضع الواضع"، وإذا كانت عقلية قالوا: "غير معتمدة على تكرار ولا وضع واضع".

٣- ومن صور الانحراف عن التفكير المستقيم أن نبحث عن دليل لمسألة عقلية في النقل، أو عن مسألة حسية في العقل، أو عن مسألة نقلية في الحس، والذي يضبط كل ذلك هو العلم، والعلم في التعريف العربي لا يقتصر على المعنى المترجم لكلمة **Science** الذي قصر العلم على التجريب فقط؛ وإنما يعني القدر التعييني من المعرفة؛ وبذلك فهو يفرق بين القطعي والظني ويعلم حدود كل واحد منهما.

فالخلط بين القطعي والظني من مظاهر التفكير المعوج، والخلط بين مجال الحس والعقل والنقل وعدم التمييز بينها من مظاهر التفكير المعوج كذلك، والسير خبط عشواء من غير اتضاح كيفية الاستفادة من كل المجالات؛ لأنها تمثل الواقع المعيش من مظاهر ذلك التفكير المعوج، واحتقار مجال على حساب مجال آخر من مظاهر التفكير المعوج أيضًا.

٤- والتفكير المعوج يؤدي بنا إلى الغثائية، ويؤدي بنا إلى عقلية الخرافة، وإلى منهج الكذب الذي يعني مخالفة الواقع أو مخالفة الواقع والاعتقاد؛ ولذلك أُطلق الكذب في لغة قريش على الخطأ، كما قال النبي ﷺ في يوم فتح مكة: **«كذب سعد»** عندما قال سعد بن عبادة: اليوم يوم الملحمة. فقال ﷺ: **«بل اليوم يوم الرحمة»** وكذب هنا بمعنى أخطأ فيما قال، فعزله النبي ﷺ من القيادة، وعيّن ابنه قيسًا مكانه.

إن التفكير المعوج يجعل الناس تعيش في أوهام، وإذا شاع هذا التفكير اختلت الأمور، وكان ذلك أكبر عائق أمام التنمية البشرية وأمام الإبداع الإنساني، وأمام التقدم والأخذ بزمام الأمور، وأمام العلم وأمام تحصيل القوة، وإذا كان كذلك فشلت كل محاولات الإصلاح وشاعت الغوغائية والعشوائية.

٥- وإذا ما قارنّا حالنا مع الفكر المستقيم والفكر المعوج مع حال أسلافنا؛ حيث بنيت الحضارة ونفعت الإنسان في كل مكان - لوجدنا أنهم قد تبنوا الفكر المستقيم وحاربوا بكل قوة الفكر المعوج، وإذا ما قارنّا حالنا في ذلك مع حال الحضارة الغربية وجدناهم أيضًا قد حاربوا الفكر المعوج ورفضوه، ومن مظاهر رفضه قضية التخصص والمرجعية، فقد آمنوا بالتخصص وآمنوا بالمرجعية، ولم تعد شخصية «أبو العريف» التي شاعت في الثقافة الشعبية شخصية محببة أو طريفة، بل هي شخصية غاية في التخلف والانحطاط، ويمثل الكذب عندهم - سواء عند السلف أو عند الغرب - قيمة سلبية يُحاسب عليها من يرتكبها على جميع المستويات، ويكون الكذب جريمة إذا ما صدر من مسئول أو متصدر لخدمة الناس.

٦- وتحت فكرة احترام المرجعية تمَّ التفريق بين الحقائق والآراء؛ فليس هناك وجهات نظر في الأمور التي تحتاج إلى تجربة وحس، وجهات النظر تكون في معالجة رعاية شئون الأمة، وتكون في مجال يحتمل الآراء، سواء من أهل التخصص أو كان من عموم الناظرين والكاتبين، ولابد أن يؤسس الرأي حتى يكون محترمًا على الفكر المستقيم، ولابد أن يتغيا أيضًا النفع والصالح العام، فإذا خرج عن الفكر المستقيم أو تغيا الشر والفساد فهو مردود على صاحبه مهجور يجب اجتنابه.

يبدو أن هذه الحقائق البسيطة المتفق عليها يصعب على كثير من الناس اتباعها، ولا يستطيعون إلا أن يسيروا في نزقهم الفكري وتكبرهم المهني بصورة بشعة تفقد مصداقية الكلمة وينهار معها أسلوب الخطاب.

٧- إن الإصرار على اتباع التفكير المعوج الغثائي، والتدخل في التخصصات المختلفة بصورة تجمع بين الجهل وبين الكبر - يجب أن تُحارب بشكل منتظم، ابتداء من مناهج التعليم وانتهاء بالإعلام؛ حتى نعود إلى الأمل في تغيير حالنا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[(١)].

ويجب أن نعلم جميعًا أن الفقه الإسلامي علم من العلوم عرّفه العلماء بأنه: "العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية"، وهو علم له مسائله وله مناهجه وله أدواته وله مساقاته الدراسية، وله مدارسه الفكرية، وله علومه المساعدة، وله فوائده ونتائجه، وأنه ليس سبيلا يرده كل من أراد أو فكّر دون اعتماد على ذلك العلم، هو علم لا يعرف العنصرية ولا يريدها؛ فكل ذكر أو أنثى وكل أبيض أو أسود له أن يخوض طريق ذلك العلم، ولكن لا يجوز له بأي حال من الأحوال أن يتعدى حدوده وأن يقول فيه ما ليس له أن يقول، ليس من الليبرالية أن تعترض على علم الكيمياء فيما توصلوا إليه بمناهجه وأدواته، وليس من الليبرالية أن تتدخل في الطب وتعرض آراء الناس فيه، بل هذا من عقلية الرُكة والخرافة التي تجر العلم إلى الانطباعات والرغبات والشهوات ووجهات النظر، وليس هذا بحاله.

والفقه علم من العلوم؛ فمن تعامل معه بهذه الطريقة استجلب للعارف بالحقيقة الضحك الممتزج بالبكاء، فإن شر البلية ما يضحكُ قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[(٢)]، واشتد تحذير الله لنا من هذا الطريق المهلك حيث يقول: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾[(٣)].

---

(١) من الآية ١١ من سورة الرعد.
(٢) الآية ٣٣ من سورة الأعراف.
(٣) من الآية ١٧ من سورة يونس.

اللغة المقدسة وقدسية اللغة

هل هناك لغة مقدسة؟ وما معنى قداستها؟ وإلى أي مدى نتمسك بتلك القداسة؟

١- اللغة المقدسة عند علماء اللغويات توصف بها اللغات التي بها نصٌّ مقدس له أتباع يأخذونه مصدرًا لمعرفتهم وأحكام حياتهم، أو إطارًا لسلوكهم، وبهذا التعريف فإن اللغة العبرية التي كُتبت بها «التوراة»، واللغة السنسكريتية التي بها كُتب «الفيدا»، واللغة العربية التي بها نزل وكتب «القرآن الكريم» هي لغات مقدسة، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[٢]، وقال سبحانه: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[٣]، فلا يقبل الناطقون بهذه اللغات والذين آمنوا بمرجعية هذه النصوص أن يتركوها لا للتطور ولا للتدهور، ولا يغيرون فيها دلالات الألفاظ، ولا وسائل الفهم من نحو وصرف؛ حيث إن استنباط الأحكام من النص يقتضي ذلك، وهذا مبنيٌّ على أن اللغة لها وظيفتان: الوظيفة الأولى هي الأداء، وبها يعبر المتكلم عما في ذهنه من معان بألفاظ لها دلالة متفق عليها بين أهل اللغة الواحدة؛ حيث وضعت هذه الألفاظ مقابل هذه المعاني، وواضع ذلك عند بعضهم هو الله؛ قال سبحانه: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[٤]، وعند آخرين هم البشر، وفريق ثالث يرى أن أصول اللغات وقوانينها من عند الله، وأن الألفاظ المولدة من وضع البشر، وليس هذا مهمًّا الآن، ولكن المهم أن الوضع - بمعنى جعْل الألفاظ بإزاء المعاني - أمر لابد منه حتى يتم التفاهم بين البشر؛ وذلك أن المتكلم يقوم بنقل المعاني التي قامت في ذهنه إلى السامع الذي يحمل هذه الألفاظ على مقابلها من المعاني التي سبق للواضع أن تواضَعَ عليها، وبذلك الحمل من السامع تتم الوظيفة الثانية للغة، وهي وظيفة التلقي.

فتحصل عندنا ثلاث عمليات: الأولى الوضع، والثانية الاستعمال، والثالثة الحمل؛ حتى قال علماء أصول الفقه: إن الاستعمال من صفات المتكلم، والحمل من صفات السامع، والوضع قبلهما.

---

(١) الآية ٢ من سورة يوسف.

(٢) الآية ١٩٥ من سورة الشعراء.

(٣) الآية ٢٨ من سورة الزمر.

(٤) من الآية ٣١ من سورة البقرة.

ويرى بعض الناس من مدارس ما بعد الحداثة أن عملية الوضع ينبغي أن تكون مرنة لا تتقيد بالموروث، ولا يقتصر هذا المفهوم على اتساع اللغة طبقًا لزيادة مساحة عالم الأشياء، والأشخاص، والأحداث، والأفكار، والنظم؛ وهو الاتساع المتفق عليه نظرًا وعملا، بل مقصودهم تغيير دلالات الألفاظ بحيث تزداد مساحة الحرية الفكرية، وترى بعض المدارس المتطرفة من مدارس ما بعد الحداثة أن هناك خمسة أشياء يجب أن تزول حتى يستطيع الفكر البشري أن يبدع، وأن ينطلق بدون أي عائق وهذه الخمسة هي: الثقافة، والدين، والأسرة، والدولة، واللغة.

فرفع سلطان الثقافة السائدة أمر سيؤدي إلى الاتجاه نحو «النسبية المطلقة» التي تدعو هذه المدارس الفكرية لتبنيها، والتحرر من سلطان الدين قد تم من قبل في الحضارة الغربية، والأسرة أصبحت تطلق عندهم على أي اثنين، فلم يعد المعنى: زوج وزوجة وابن وابنة وأب وأم... عائلة، نفس المعاني التي ورثناها عمن قبلنا، ويعدون هذا من المعاني المعجمية، أي التي وجدناها في المعجم اللغوي، ومن هذا المدخل أصبح الشذوذ الجنسي - الذي لُعن عند عقلاء البشر دع عنك الأديان كلها - من حقوق الإنسان.

ورفع سلطان الدولة وأن يستبدل بها الجمعيات غير الحكومية ومؤسسات المجتمع المدني - يحتاج إلى تغيير النظام القانوني والاجتماعي، بل قوانين الفكر والنموذج المعرفي والإطار المرجعي.

أما إنهاء سلطان اللغة فهو أمر مفزع حقًا، ويحضرني نقل من كتاب الأستاذ شريف الشوباشي «لتحيا اللغة العربية» حيث يقول في ص٢٤ ما نصه: "وبالإضافة إلى دورها الأساسي كوسيلة وحيدة لحفظ التراث وانتقاله عبر الأجيال، فإن اللغة هي أحد أهم العناصر المكونة للحضارة وللهوية الإنسانية في كل مكان. وأول اتصال بين الإنسان وآخر يتم عن طريق اللغة؛ ويحتاج الزعماء ورجال السياسة والاقتصاد إلى مترجمين للتفاهم، ولولا هؤلاء المترجمون الذين يجيدون أكثر من لغة لكان التفاهم صعبًا للغاية إن لم يكن مستحيلاً؛ فاللغة هي الأداة الأساسية للتفاهم، لكنها أيضًا الوعاء الذي يتبلور فيه فكر الإنسان ورؤيته للحياة؛ وبالتالي فإن اللغة هي العنصر المُشكِّل للثقافة وللفكر والفلسفة والآداب" وهو يؤكد ما نعتقده في شأن اللغة.

٢- وعند هؤلاء الحداثيين وظيفة اللغة هي التلقي فقط، ومعنى هذا أن السامع يحمل الكلام على ما يشاء من معنى، بغضِّ النظر عن مراد المتكلم من كلامه، وبذلك يُفتح باب التأويل من غير ضابط ولا رابط، ونصل إلى النسبية المطلقة؛ حيث يفهم كل سامع ما يشاء أن يفهم ولا ينظر إلى حمل الكلام على ما وضع له، ولا إلى حمله على مراد

المتكلم، وكأنه يتمثل بقول المتنبي في قصيدته «الخيل والليل»:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي   وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها   ويسهر الخلق جرَّاها ويختصم

٣- واللغة المقدسة في العربية تحتاج منا إلى إدراك إحصاءات تبين حقائق قد لا يلتفت إليها كثير من الناس، فيكثر اللغط والجدال على أمور قد نكون متفقين عليها، أو يجعلنا ننزّل القطعي منزلة الظني، والظني منزلة القطعي؛ فيختل ميزان العدل الذي أُمرنا به في كل جزئيات حياتنا وقضايانا.

٤- جاء القرآن ليهذب لغة العرب التي كانت مليئة بالغرائب ووحشي الكلام، وأذكر شعر ابن المطهر الحلي حيث يقارن بين القديم والجديد في لغة العرب، ويظهر من ذلك مدى تهذيب القرآن للغة العرب:

إنمـا الحيزبـون والـدردبيس   والطخـا والنخـا والعلطبـيس
لغـة تنفـر المـسامع منهـا   حيث تتلـى وتـشمئز النفـوس
أين قولي هـذا كثيـبٌ قـديم   و مقـالى عقنقـل قـدموس

٥- وألفاظ القرآن نحو ١٨١٠ لفظة تمثل جذور الكلمات القرآنية، في حين أن معجم «لسان العرب» لابن منظور نحو ثمانين ألف مادة - أعني جذرًا -، أي أن جذور القرآن تمثل نحو اثنين في المائة (تمامًا ٢,٢٥%) من جذور لسان العرب، والجذور الواردة في أحاديث النبي ﷺ هي ٣٦٠٠ جذرًا، أي ما يمثل (٤,٥%) من لسان العرب، والقرآن أصغر نص مقدس، وعدد كلماته نحو ٦٦ ألف كلمة، منها ١٦٢٠ كلمة لم ترد في القرآن إلا مرة واحدة، ويقول بعضهم: إن الأديب الروسي "تولستوي" لم يكرر ٤ كلمات في كتابه "الحرب والسلام"، فعُدّ ذلك من بلاغته وتمكنه اللغوي، فإذا صح ذلك، فإن هذا التفرد في القرآن الكريم بهذا العدد الضخم من الألفاظ غير المكررة يكون معجزة بمعنى الكلمة تضاف إلى وجوه إعجازه التي تخرجه عن نظام كلام البشر.

٦- إن هذه الحقائق تجعلنا نذهب إلى أن هناك لغة مقدسة، ولكن هذه اللغة المقدسة يجب الحفاظ عليها في حدود النص المقدس حيث نحتاج إليه، وفي حدود أدوات فهمه على مستوى ألفاظه ومعانيه، وعلى مستوى تركيباته ودلالاتها المختلفة، وعلى مستوى سياقه أيضًا، وأن تطوير اللغة وارد، ولكن بصورة لا تفقدنا الاتصال بالتراكم المعرفي

التراثي من ناحية، وأن تكون وعاءً قادرًا على انطلاق الفكر بكل جوانبه؛ العلمي والحسي والتجريبي وحتى الفكر الفلسفي، وإعمال العقل؛ ليبقى الإنسان إنسانًا يقوم بواجبه من عبادة الله، وعمارة الأرض، وتزكية النفس، وأن هذا التغير يجب ألا يمس أيضًا ثوابت البشر، وأن يكون في سعته متسقًا مع الاتساع الطبعي الذي هو من سنن الله في كونه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[1]، ولابد أن نعي أيضًا في أثناء عملية الاتساع مآلات المدارس المتطرفة لما بعد الحداثة، التي انتشرت في عصرنا، وغايتها لا تتفق مع رؤيتنا للعالم، ولا مع مقررات ديننا وأسس حضارتنا وتاريخنا، وأن يكون تعاملنا مع اللغة بناء لا هدم فيه.

٧- وهذه الحقائق أيضًا تجعلنا نذهب إلى عدم قدسية اللغة، وأن هناك فارقًا كبيرًا بين اللغة المقدسة التي يجب الحفاظ عليها من أجل فهم النص، وبين قدسية اللغة التي تمنع من اتساعها وقيامها بواجب عصرها وزمانها، ويذكِّرنا هذا الفرق بقصيدة حافظ إبراهيم في شأن اللغة؛ حيث يقول وهو يعرِّف قدرتها على البقاء ومسايرة التطور:

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ... وناديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب وليتني ... عقمت فلم أجزع لقول عداتي
ولدت ولما لم أجد لعرائسي ... رجالا وأَكْفَاء وأدت بناتي
وسعت كتاب الله لفظًا وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلةٍ ... وتنسيق أسماء لمخترعات

(١) من الآية ٥٣ من سورة فصلت.

مردود الكلمة

١- الكلمة العربية - أو في أي لغة كانت - لها معنى معجمي نراه في المعاجم، ولكن لها أيضًا حقول دلالية، فلها حقيقة ولها مجاز، ولها مرة ثالثة مردود على السامع يختلف باختلاف شيوع هذه الكلمة في استعمال معين، ويختلف أيضًا بما يسميه علماء اللغويات بالنبر، والنبر **The stress** هو الضغط أثناء التلفظ بالكلام على مقطع في الفقرة المقروءة، أو على كلمة في الجملة، أو على حرف في الكلمة، وحينئذ فإنك تفهم معنى من هذا النبر يزيد على معناه اللغوي، فلو قلنا لأحدهم عبارة: «أنت مشغول» فيمكن أداؤها بصورة سؤال، ويمكن أداؤها بصورة استنكار، ويمكن أداؤها بصورة ترحُّم، ويمكن أداؤها بصورة إقرار للواقع الذي نشاهده فيه، وهكذا يقوم النبر بإضافة معنى فوق دلالة اللفظ نفسه، يفهم السامع منه ما لا يفهمه من مجرد الكلمة، ويؤثر فيه ويستقر ذلك التأثير في وجدانه ويترسب مع ما يترسب من عوامل أخرى؛ فيؤدي إلى التحكم في مواقفه من الأشخاص حبًّا أو بغضًا؛ لذلك فإن مردود الكلمة يتجاوز معناها إلى تأثيرات أخرى قد تكون حسنة أو قبيحة، ونرى حديث رسول الله ﷺ وهو ينبّه على هذا المعنى فيقول: «**إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت؛ فيكتب الله عَزَّ وَجَلَّ له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله، ما يظن أن تبلغ ما بلغت؛ فيكتب الله عَزَّ وَجَلَّ عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه**»[1].

٢- فلو وصفنا كاتبًا بأنه كاتب مضحك أو فكاهي أو ساخر أو مسخرة، وهي كلمات تتقارب معانيها جدًّا وتمثل حقلا دلاليًّا واحدًا، هو أنه يسبب الضحك عند القارئ بقدر ما يسببه من دهشة في صياغته اللغوية، وفكاهي يسبب الترويح الذي ينتج من زيادة البسط، ومن نفس المادة اللغوية سميت الفاكهة؛ لأنها تأتي ترويحًا للأذواق مع ممارسة القوت الأساسي للإنسان في طعامه وتدبير بدنه؛ فالفاكهة ترويح، والفُكاهة ترويح، أما كلمة مسخرة - ومعناها المعجمي ما يجلب السخرية - فلها مردود يجعل الكاتب المسخرة مضحكًا في نفسه وليس فيما يكتب فقط، ويبدو أن بعضًا ممن وُصف بالكاتب الساخر أصبح مسخرة فعلا؛ حيث بدأ في الخلط وعدم إدراك الواقع وعدم الانتماء إلى الوطن ومعرفة الحالة الراهنة، فتراه يكتب فيحكم على المقدس ويدنسه، ويتكلم ناقضًا هادمًا، لا ناقدًا مصلحًا،

(١) هذا اللفظ أخرجه ابن ماجه في كتاب «الفتن» باب «كف اللسان عن الفتنة» حديث (٣٩٦٩) من حديث بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه، وهذا الحديث أخرجه البخاري بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب «الرقاق» باب «حفظ اللسان» حديث (٦٤٧٨).

والفرق بين «النقض» و«النقد» كبير.

ولقد شاع في الآونة الأخيرة نموذج الكاتب المسخرة الذي يهرف بما لا يعرف وليس عنده أصول يقيس عليها ولا عنده مبادئ يلتزم بها، ووجب علينا جميعًا أن نأخذ على أيدي هؤلاء المساخر - ومساخر جمع مسخرة - فإن فلسفة حديث السفينة يجب أن تستقر في وجداننا.

٣- ونص حديث السفينة: يقول النبي ﷺ: **«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقًا، ولم نؤذ من فوقنا. فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»**(١).

٤- ومن السخرية القبيحة أن نهدم الرمز، أو نهدم المؤسسة، أو نهدم النظام، أو نهدم الثوابت، أو نهدم المطلق، فالكذب قبيح رغم شيوعه في البشر، حتى إن آخر الأبحاث ترى أن أشد الناس التزامًا بالصدق يقع في الكذب مرتين على الأقل يوميًّا، وما زال الناس في الشرق والغرب ينعون على الكذب، وسيظل الزنا والخنا والسب والقذف حرامًا، وستظل السرقة والاغتصاب حرامًا مهما شاع وذاع أو قيل من بعضهم، ولابد أن نُعلِّم أبناءنا أن هناك فارقًا بين تحريم المعاصي وأنها معاصي وقبائح وبين وقوعها في الحياة، والتي لم يخل منها عصر، وستظل أبدًا حرامًا، وستظل أبدًا يقع فيها الناس، بل كثير من الناس.

فهناك فرق يجب أن نؤكد عليه بين وصف الفعل بالقبح؛ كشرب الخمر، وعري الراقصات، وتقلب المرأة بين أحضان الرجال، وهو ما حرمه كل دين وكل ملة، وبين أن يقع الناس في هذا أو يستحسنوا فعله، والرابط بين المثال والواقع حالة الإنسان الذي يقع فيما زين له من الشهوات، قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾(٢)، فالقاعدة إذن أن الفسق فسق وأنه لم يخل منه عصر.

(١) أخرجه البخاري في كتاب «الشركة» باب «هل يقرع في القسمة والاستهام فيه» حديث (٢٤٩٣) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.
(٢) الآية ١٤ من سورة آل عمران.

٥- وهذه القاعدة ينبغي للكاتب المسخرة أن يدركها، ولا أعني كاتبًا بعينه، بل أعني نوعًا من الكُتَّاب المساخر؛ فعليه ألا يعترض على رأي الدين في أجر الطبال والراقصة والغناء القبيح الذي يعبد فيه غير الله أو يسب القدر جهرًا، فسيظل هذا العمل محرمًا حتى لو وقع فيه الناس، وليس الإبداع في التفلت، ولكن الإبداع معاناة حقيقية من أجل الأدب والفن، والشرع يأمر أن نرجع إلى الحقائق لا إلى الأوهام، وإلى الواقع لا إلى الخيال المريض؛ قال تعالى وهو ينهانا عن الفتنة بكل أشكالها كلامًا وفعلا وسلوكًا: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾[١] وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾[٢] وقال: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[٣]، وسامدون أي: تغنون بالباطل من القول. وقال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾[٤].

ويجب على الشباب أن يعلم أن هذه المعاصي لم يخل منها عصر ولا مصر، وأن الأمر سيظل كذلك إلى يوم الدين.

٦- فعندما نحرم ما حرَّم الله لا يناقَش هذا، بل الذي يناقش هو الموضوع وليس الحكم، إن الاعتراض على الأحكام الشرعية هو الذي ولّد الخبل العقلي والنفسي عند الشباب المتطرف المتنطع في دين الله، فهلا ترك الأخوة المساخر لعلماء الدين فرصة لبناء الأجيال.. يا رب استجب.

---

(١) الآيتان ٢٠، ٢١ من سورة لقمان.
(٢) الآية ٦ من سورة لقمان.
(٣) الآيات ٥٩: ٦١ من سورة النجم.
(٤) الآية ١١٦ من سورة الأنعام.

ظاهرة ثقافية

٧- هل لعلماء الدين أن يقوموا بدور ثقافي في المجتمع؟ لم يكن لهذا السؤال مكان منذ مائتي سنة؛ حيث كانت الثقافة السائدة هي المعلومات التي رُبطت بالدين سواء في قسمها الصحيح أو قسمها الخرافي الأسطوري، ولم يكن هناك داع لهذا السؤال؛ فليس هناك علم ولا ثقافة ولا شيء إلا عند علماء الدين، وكان الجميع يدرسون في الأزهر، وكان ما يدرس في الأزهر هو المعيار الذي تقاس به الخرافة ويقاس به العلم، وهو الحد الفاصل بين التفكير العلمي والتفكير الخرافي.

حتى إن ابن سودون الذي ألف «نزهة النفوس ومضحك العبوس»، وهو شاعر مصري كان يعيش في القرن التاسع الهجري، وكان إمامًا ببعض المساجد إلا أنه اتخذ الهزل منهجًا له في حياته؛ فطار اسمه وتنافس الظرفاء في الحصول على شعره، وهو شخصية طريفة في تاريخ أدبنا المصري؛ لأنه يفصح إفصاحًا واضحًا عن مزاج المصريين في هذا الجانب الذي تشتهر به مصر في عصورها الإسلامية المختلفة. و«نزهة النفوس ومضحك العبوس» عنوان ديوان ألّفه؛ حيث بنى أغلبه من اللفظ العامي، وهو من هذه الناحية يسجل جانبًا له أهميته في تاريخ لغتنا الشعبية؛ فإن من يطلع عليه يرى أنه لا تكاد توجد فوارق بين لغة هذا الديوان ولغتنا المصرية المحلية الحديثة، مما يدل على أن مصر بلد محافظ على استعماله للألفاظ بصورة عامة.

والملفت للنظر أن هذا الديوان أُلف كله في ضروب من الهزل والدعابة، ولسنا نعرف شخصًا قبل ابن سودون كتب ديوانًا من الشعر كله يأخذ مأخذ الفكاهة.

وكذلك كان يوسف الشربيني صاحب كتاب «هز القحوف» وكان عالمًا واعظًا، وقد نظر فيمن حوله فرأى السواد الذي يغطي أودية مصر في العصر العثماني، ورأى معه تعاسة أهل الريف؛ فنظم قصيدة سماها «أبو شادوف»، وهي قصيدة من بحر الطويل، ولكنها عامية خالصة، وقد وصف فيها حياة رجل الريف في عصره بجميع صورها وألوانها من أكله إلى عمله في حقله، إلى صلته بالحكومة في عهده، ولم يكتف يوسف الشربيني في وصف حال رجل الريف بهذه القصيدة، بل ذهب يشرحها على طريقة معاصريه في شرح القصائد الجدية، وهو شرح طويل اختار له الاسم الغريب «هز القحوف».

واليوم يموج العالم بالآراء والأفكار ويكاد ينفلت، وأتباع New age «العصر الجديد» يدعون إلى النهضة الثانية وتحرير الإنسان من الدين والثقافة والدولة والأسرة واللغة، وتركه حرًّا طليقًا حتى يبدع مرة أخرى بعدما نجحت الانطلاقة الأولى من تنحية الدين من الحياة في النهضة الأولى، والفرق شاسع بين الحرية والانفلات، وبين الهدم والبناء، وبين عبادة المادة وعمارة الأرض، الفرق شاسع وخطير.

٨- وإذا كان لعلماء الدين أن يكون لهم مشاركة ثقافية فهناك ظاهرة تحتاج إلى دراسة وإلى تعامل حضاري معها، هذه الظاهرة اسمها «ياسين التهامي» أحد المغنين بالمدائح النبوية، والذي بدأ في تخصص الغناء بقصائد ابن الفارض، وإذ به يشيع عند عمال التراحيل وبسطاء القرى في الصعيد، وبدأ الناس يزدادون يوما بعد يوم لسماع صوته الرخيم، وهو يؤدي قصائد الحب الإلهي والرؤية الكونية العاشقة لسلطان العاشقين ابن الفارض، أليس هذا غريب يحتاج إلى دراسة؟ كيف انصرف المثقفون إلى الهراء السمعي والكلامي، والذي أضيف إليه الهراء المنظور في Video Clip وانصرف البسطاء إلى «ياسين التهامي» في قصائد ابن الفارض؟ هل هذا شيء ممكن وبسيط بحيث يترك من غير تعليق؟ ما الذي يحدث في هذه الفترة سريعة الطور في مجتمعنا؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟ وما دلالة هذا الانعكاس على الحياة الثقافية في مصر ثم العالم العربي والإسلامي؟ هل يمكن لفت نظر المثقفين لسماع «ياسين التهامي» مع بساطة أدائه وألحانه، مع استماعهم ورؤيتهم للضجيج الذي ظلموه فأسموه غناء، وشاع حتى لم نستطع أن نتنزه منه، فنحن نسمعه مع الضجيج الذي يملأ كل مكان.

٩- لقد شاهدت طفلة في شهرها السابع تهتز مع أنغام الطرب - ولست في حاجة إلى تعريف الطرب - ثم رأيتها مذهولة عندما بدأ الضجيج، هل ما شاهدته صحيح؟ وهل له دلالة؟ وهل هذا هو حقيقة الخلقة وفطرة الله؟ أسئلة أرجو أن يشتغل بها من أراد المساهمة في دراسة الظاهرة بدلا من اشتغالهم بالاعتراض على الأحكام الشرعية والتفلسف من غير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

١٠- وابن الفارض هو شاعر وقته شرف الدين أبو حفص عمر بن علي بن مرشد بن علي، الحموي الأصل، المصري المولد والمنشأ والوفاة، ولد سنة ٥٦٦هـ وتوفي سنة ٦٣٢هـ وله ست وخمسون سنة.

كان أبوه من أهل حماة بسوريا، وقدم إلى مصر وسكنها وكان عالمًا بالفرائض - وهي علم الميراث - فكان يثبت الفروض بين يدي الحكام؛ ومن ثم عرف بالفارض وعرف ابنه بابن الفارض. لما شب ابن الفارض أخذ الفقه

والحديث عن شيوخ مصر، وقد روى عن القاسم بن عساكر، وحدث عنه الحافظ المنذري، وسلك طريق الصوفية فتزهد، ثم مضى إلى مكة فاتصل بمنابع الوحي والإلهام وظل هناك زهاء خمسة عشر عامًا، ثم عاد إلى مصر وأقام بالجامع الأزهر معظما من أهل عصره، حتى إن الملك الكامل كان يأتي لزيارته، وساعده على الظفر بمحبة الناس ما منحه الله من جمال الخلقة والخلق.

وأخذ في نظم الشعر، فكان الناس يتلقون قصائده ويترنمون بها، وقد جرى فيها على طريقة الحب والغرام والتصوف في حقيقته حب وحنين إلى الذات الإلهية، من ذلك قوله:

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا ... سر أرق من النسيم إذا سرى

وأباح طرفي نظرة أملتها ... فغدوت معروفا وكنت منكرا

فدهشت بين جماله وجلاله ... وغدا لسان الحال مني مجهرا

١١- ولقد اهتم بديوانه كثير من الأدباء العرب والمستشرقين، ومن هؤلاء المستشرقين الإيطالي جوزيبي سكاتوليني، الذي ربط بينه وبين ديوان ابن الفارض علاقة قوية تزيد عن أربعين عامًا، حيث إنه فرغ نفسه وعكف على دراسة هذا الديوان العظيم طيلة هذه الفترة حتى أنتج ثمرة جهده من تحقيق لهذا الديوان في نهاية شهر يونيو عام ٢٠٠٤، حيث أقام المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة حفلا بمناسبة صدور الديوان عنه، وأنشد فيه أشعار ابن الفارض كبار المنشدين المتصوفة كالشيخ ياسين التهامي.

١٢- أخاف أن نصل إلى شيوع ثقافة الضجيج، ثم إلى عقلية الضجيج، ثم إلى نفسية الضجيج، وهو أمر لا يقره الشرع ولا العرف ولا المنطق السليم، ولقد نبهنا الله سبحانه وتعالى على ألا نتخذ الضجيج منهجًا لا في ثقافتنا ولا في عقليتنا، ولا في حياتنا وسلوكنا أو عبادتنا، بل من أجل أن نفكر التفكير المستقيم علينا بالهدوء داخل أنفسنا وخارجها؛ حتى نتذوق مزيدًا مما خلقه الله من الجمال، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾(١)، والمكاء: الصفير، والقصد المنهي عنه هذا الضجيج؛ لأنه لا يليق بحال العبادة كما أنه لا يليق بحال الإنسان. وقال تعالى: ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾(٢) أي: خاشعين هادئين، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝﴾(٣).

(١) من الآية ٣٥ من سورة الأنفال.

(٢) من الآية ٢٣٨ من سورة البقرة.

(٣) الآية ٢ من سورة المؤمنون.

وقال في المقارنة بين الحالين، قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ۝٢٦﴾[1] أي: عليكم بالضجيج في مواجهة الإيمان. وقال: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾[2] والسمع لا يأتي إلا بالهدوء.

(١) الآية ٢٦ من سورة فصلت.
(٢) من الآية ٦ من سورة التوبة.

ثقافة الضجيج وثقافة التأمل

واستمرارًا لمحاولة المشاركة الثقافية طلب مني كثير أن أؤصل لثقافة الضجيج وثقافة التأمل، وابتداءً فأنا مع ثقافة التأمل وضد ثقافة الضجيج، وثقافة الضجيج تبني العقلية الهشة، التي لا تقدر على التفكير، وعادة ما يسبق النشاطُ الفكرَ، وسبق النشاط للفكر أحد السمات العظمى في التأثير في الحضارات والفنون والآداب والحياة، وعدها عبدالواحد يحيى «رينيه جينو قبل أن يسلم» في كتابه عن الحضارة الحديثة - أحد السمات التي قتلت الإنسان أمام نفسه، أما تأصيل ذلك من القرآن والسنة فنراه فيما يلي:

١- يحكي ربنا عن حال إبليس - وهو عنوان للشر والقبح - فيقول: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾[1] فوسائل إبليس تبدأ بالصوت الضجيج ثم يتأكد الضجيج بقوله: ﴿وَأَجْلِبْ﴾ وهي من الجلب، ثم يتأكد الضجيج ثانية بالمشاركة وأن يصبح الضجيج جزءًا من حياتنا اليومية، وهي حالة يضيع معها كثير من التفكر والتدبر والتأمل، ويضيع معها شيء كثير من الراحة والهناء.

وإذا كان هذا من وسائل إبليس - عنوان الشر والقبح - فإنه منهج للتشويش على الحق؛ يقول سبحانه في شأن المشركين: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[2]، فالمنع من سماع القرآن الذي يأمرنا بالتدبر والتفكر والتأمل، واللغو أمامه، وعلو الصوت عند تلاوته - يمثل ما بين الثقافتين من فوارق، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ

(١) الآية ٦٤ من سورة الإسراء.

(٢) الآية ٢٦ من سورة فصلت.

(٣) الآية ٨٢ من سورة النساء.

قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[١]. وقال سبحانه: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾[٢]، وقال تعالى في وصفه لحال المؤمنين الصادقين: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾[٣]، ثم كرر سبحانه مرات كثيرة ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، ويجعل سماع القرآن واستماعه جزءًا من الدعوة الطيبة. قال تعالى: ﴿ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ ﴾[٤]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾[٥].

٢- ثم يجعل الله علو الصوت والضجيج خارجًا عن حد الأدب عند كل الناس، فيذكر من وصايا لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾[٦]، ويتحول هذا الأدب إلى تهذيب عام يشمل البصر والمعاملة بين الناس، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾[٧]. وقوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[٨].

---

(١) الآية ٢٤ من سورة محمد.

(٢) الآية ٢٩ من سورة ص.

(٣) الآية ١٩١ من سورة آل عمران.

(٤) الآية ٩ من سورة التوبة.

(٥) الآية٢٠٤ من سورة الأعراف .

(٦) الآية ١٩ من سورة لقمان.

(٧) من الآيتين ٣٠، ٣١ من سورة التوبة.

(٨) الآية ٢٤ من سورة الإسراء.

وقوله: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]. ثم يتحول هذا إلى منهج حياة قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[2].

٣- ويأمرهم في خصوص النبي ﷺ بعدم الضجيج، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3].

٤- وامتدت الثقافتان إلى الصلاة. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾[5]، وقال: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾[6]. وقال ﷺ لأصحابه حينما رفعوا أصواتهم بالدعاء: «**اربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا بصيرًا**»[7].

(١) الآية ٨٨ من سورة الحجر.
(٢) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.
(٣) الآيات ٣ : ٥ من سورة الحجرات.
(٤) الآية ٣٥ من سورة الأنفال.
(٥) الآية ٢٣٨ من سورة البقرة.
(٦) من الآية ١١٠ من سورة الإسراء.
(٧) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الجهاد والسير» باب «ما يكره من رفع الصوت في التكبير» حديث (٢٩٩٢)، وفي كتاب «المغازي» باب «غزوة خيبر» حديث (٤٢٠٥)، وفي كتاب «الدعوات» باب «الدعاء إذا علا عقبة» حديث (٦٣٨٤)، وفي كتاب «القدر» باب «لا حول ولا قوة إلا بالله» حديث (٦٦١٠)، وفي كتاب «التوحيد» باب «قول الله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾» حديث (٧٣٨٦)، ومسلم في كتاب «الذكر والدعاء والتوبة الاستغفار» باب «استحباب خفض الصوت بالذكر» حديث (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، واللفظ هنا للبخاري في كتاب القدر.

٥- وكان النبي ﷺ يحب الصوت الحسن، فأمر بلالا بالأذان، وقال لعبدالله بن زيد، وقد كان عبدالله بن زيد هو الذي رأى رؤية الآذان حيث قال: لما أمر بالناقوس يعمل به للناس ليجتمعوا للصلاة طاف بي وأنا نائم رجلا يحمل ناقوسًا في يده، فقلت: يا عبدالله أتبيع الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ فقلت: ندعو به إلى الصلاة. قال أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟ فقلت: بلى. قال: تقول الله أكبر، فذكره مربع التكبير بلا ترجيع. قال: ثم استأخر بعيدًا فقال: تقول إذا قمت إلى الصلاة فذكر الإقامة مفردة وثنى قد قامت الصلاة. فلما أصبحت أتيت رسول الله فأخبرته بما رأيت فقال: «**إنها لرؤيا حق إن شاء الله فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به فإنه أندى منك صوتا**» فقمت مع بلال فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به، قال: فسمع بذلك عمر بن الخطاب وهو في بيته فخرج يجر رداءه يقول والذي بعثك بالحق يا رسول الله لقد رأيت مثل ما أرى، فقال: «**فلله الحمد**»(١).

واتخذ أبو محذورة مؤذنًا له بمكة وهو أوس بن معير بن لوذان بن ربيعة بن سعد بن جمح، وقيل: اسمه سمير بن عمير بن لوذان بن وهب بن سعد بن جمح، وأمه خزاعية. يقول عنه الذهبي: كان من أندى الناس صوتا وأطيبه. وقد روى عنه قصة أذانه واختبار النبي ﷺ للأصوات حيث قال: لما رجع النبي ﷺ من حنين خرجت عاشر عشرة من مكة نطلبهم، فسمعتهم يؤذنون للصلاة فقمنا نؤذن نستهزئ. فقال النبي ﷺ: «**لقد سمعت في هؤلاء تأذين إنسان حسن الصوت**». فأرسل إلينا فأذنا رجلا رجلا فكنت آخرهم. فقال حين أذنت: «**تعال**». فأجلسني بين يديه فمسح على ناصيتي وبارك علي ثلاث مرات، ثم قال: «**اذهب فأذن عند البيت الحرام**»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب «الصلاة» باب «كيف الأذان» حديث (٤٩٩)، والترمذي في كتاب «الصلاة» باب «ما جاء في بدء الأذان» حديث (١٨٩)، وابن ماجه في كتاب «الأذان والسنة فيه» باب «بدء الأذان» حديث (٧٠٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٤/ ٥٧٢- ٥٧٣) حديث (١٦٧٩) من حديث عبدالله بن زيد ﷺ، وقال الترمذي: «حديث عبدالله بن زيد حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه النسائي في كتاب «الأذان» باب «الأذان في السفر» حديث (٦٣٣)، وابن خزيمة في «صحيحه» (١/ ٢٠١) حديث (٣٨٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١/ ٤١٧) حديث (١٨٢٤) من حديث أبي محذورة ﷺ.

وكان يقول ﷺ: «**من سره أن يقرأ القرآن كما أنزل فليقرأه على ابن أم عبد**»[1]. وقال لحسان بن ثابت عندما سمع شعره الذي ينصر فيه الإسلام: «**إن روح القدس معك**»[2].

وسمع كعب بن زهير في قصيدته التي افتتحها بقوله:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول

٦- هل لنا بعد هذا التأصيل أن نحاكم حالتنا الثقافية لنرى إلى أي جهة نميل أو نرغب أن تكون، إلى جهة ثقافة الضجيج أو إلى جهة ثقافة التأمل؟ وهل يصلح أن نبني معيارًا من هذا كله للنقد الأدبي والفني يخرجنا من التيه أو يرسو بنا على بر الأمان؟

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ١٣٩) حديث (٣٠١٣٣)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ٧٠) حديث (٨٤٢١)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٤٦) حديث (٢٨٩٣)، واللفظ له، من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٣٠١)، والنسائي في «الكبرى» (٥/ ٨٠) حديث (٨٢٩٥)، وابن حبان في «صحيحه» (١٦/ ٩٦) حديث (٧١٤٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٥٥) حديث (٦٠٦٢).

(١-٢) الفوضى، والفوضى الخلاقة

بدأ استعمال مصطلح الفوضى الخلاقة **Creative chaos** في أدبياتنا السياسية، وهو وافد علينا من الغرب فيما يهل علينا من مصطلحات تحمل مفاهيم لا ندركها في عمقها أو جذورها أو النظريات التي انبثقت منها، وهي حالة تمثل أزمتنا الفكرية، وهي عكس ما أشار إليه أبو الحسن الأشعري المتوفى (٣٢٠هـ= ٩٤٠م) في كتابه الصغير «استحسان الخوض في علم الكلام» (طبع حيدر أباد الدكن بالهند في وريقات قليلة) الذي يذكر فيه كيف تم استيعاب الوافد من الأفكار - يعني اليونانية - وتأصيلها ووضع معيار لقبولها وردها ومعرفة المناسب منها، وهم بذلك خرجوا عن حد التفكير الساذج السطحي إلى الفكر المستنير المتعمق، ويذكرني هذا بما أطلقه المسلمون على نسبة الدائرة الثابتة التي نتوصل بها إلى محيطها ومساحتها وهي ٢٢/٧ حيث أطلقوا عليها "نسبة إلهية فاضلة"؛ لأن الله هو الذي خلق الخلق، وخلق هذه النسبة العجيبة وجعلها ثابتة في سائر الدوائر، ثم إن وصفها بالفاضلة يضيف إليها مدخلا لقراءة الكون قراءة ربانية، في حين أن المصطلح الغربي الذي تم ترجمته إلى العربية الحديثة عندما تم التقليد التام هو «النسبة الطبيعية» ويرمز لها بالحرف (ط).

فماذا عن مصطلح الفوضى الغربي وما قابله عند الإمام الأشعري ﷺ عندما نظر إلى مجموع المعارف التي حصلها الإنسان من دراسة الكون المحيط.

١- تشير الكلمة إلى إحدى النظريات الحديثة نسبيًّا، التي تختص بدراسة القوانين الخفية التي تحكم البيئات العشوائية في مظهرها، المنتشرة في الكون؛ حيث نالت النظرية قسطًا كبيرًا من الشهرة باستخدامها في العديد من الروايات والأفلام السينمائية كـ «حديقة الديناصورات» لمايكل كريشتون عام ١٩٩٠ التي أخرجها للسينما استيفن اسبلبيرج، وتدور أحداثه حول محاولة أحد العلماء استنساخ ديناصورات لعرضها على الجمهور في حديقة عامة. وقصة «صوت الرعد» التي تحولت إلى فيلم سينمائي عام ٢٠٠٤ وتعتمد على نظرية الفوضى التي من أساسها أن أي تغير طفيف في بداية الأمر سيتحول إلى اختلاف عظيم غير متوقع عند نهايته، لدرجة أن الهواء الناتج من ضربة جناح فراشة في الشرق قد يؤدي إلى إعصار ضخم في الغرب، وهي النظرية التي ظهرت مع عالم الرياضيات الفرنسي هنري بونيكير وهو يحاول حل معضلة «حركة ثلاثة الأجسام في إطار واحد من الجاذبية» وهي مشكلة رياضية كانت بلا حل طوال قرنين من الزمان، وذلك في أواخر القرن التاسع عشر وانضم إلى هذا أن علماء التجريب لم ينجحوا في تفسير كثير من الظواهر رغم تجميعهم لكثير من المعلومات التي لم يستطيعوا الربط بينها من جهة، وعدم قدرتهم على تنبؤ مسارها في المستقبل بقانون واضح من جهة أخرى، مما جعلهم يطلقون عليها لفظ العشوائية.

٢- واستمر الحال على ذلك حتى النصف الثاني من القرن العشرين حيث بدأت الرؤية تختلف لدى العديد من العلماء، فوصل بهم اليقين بعجز القانون النظامي بتفسير العديد من الظواهر المحيطة بهم، ولعل أهمها ظاهرة النمو البيولوجي للسكان التي فشلت جميع النظريات الحديثة في التوقع بنسبة نموه، ويعد جهاز الكمبيوتر هو العامل المساعد على تطور هذا المذهب وانتشاره خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وخصوصا من خلال إطاره الرياضي بعدما ظل الجانب الفيزيائي هو المسيطر عليه طوال النصف الأول من القرن.

وتعد البداية الحقيقية لهذا التحول في اكتشاف «إدوارد لورنز» **Lorenz Edward** أحد علماء الأرصاد الأمريكيين، الذي اكتشف من قبيل الصدفة مدى العشوائية في توقعات الأرصاد للظروف المناخية، وعلى رأسها سرعة الريح. ففي عام ١٩٦١ أراد «لورنز» التأكد من بعض البيانات الخاصة بتوقعاته المناخية، وليوفر الوقت بدأ عملية الحساب من المنتصف، وذلك بإدخال أرقام مشابهة للمعادلة التي يقوم بحسابها إلا أنه أدخل الأرقام حتى ثلاثة أرقام عشرية، فوجد النتائج مختلفة تماما، وعلى الرغم من أن الاختلاف كان بسيطًا للغاية فالرقم الذي أدخله كان يتألف من ثلاثة أرقام عشرية، بينما كان الكمبيوتر يقوم بحساب هذه العملية بأرقام تتألف من خمس علامات عشرية، إلا أن «لورنز» خرج بنظرية تقول: إن الاختلافات البسيطة قد تنشأ عنها نتائج شديدة الاختلاف التي ستزداد حدة اختلافها كلما ازداد مدى استمرارها، وضرب مثالا لذلك: أن الهواء الناتج عن تحرك جناحي طائر النورس قد يغير تماما توقعاتنا السابقة حول سرعة الرياح، ثم قام بتطوير هذا المثال إلى جناحي الفراشة.

٣- ولم يقتصر استخدام هذا المذهب على القصص الروائية بل امتد أيضًا إلى ألعاب الفيديو المصورة، حيث ظهرت العديد من الألعاب التي تعتمد في مضمونها على هذه النظرية، مثل لعبة **Tom Clancy Splinter Cell: Chaos Theory** ولعبة **Sonic the Hedgehog**، بل إن الأمر وصل إلى إنتاج بعض الآلات الكهربائية التي تحمل اسم المذهب للاستفادة من شهرته الواسعة، فقامت شركة **Goldstar** الأمريكية المتخصصة في صناعة الأجهزة الكهربائية بإنتاج غسالات ملابس فوضوية (**Chaos Washing Machines**) عام ١٩٩٣م، والتي تعد أول منتج على مستوى العالم يتم تصميمه وفقًا لنظرية الفوضى، والتي تتميز بوجود نابض صغير يساعد على تحريك المياه التي تتصاعد وتتساقط بشكل عشوائي بعد تحريكها من قبل النابض الرئيسي، وهو الأمر الذي يساعد على إخراج الملابس أعلى نظافة وأقل تشابكًا، وإن اعترض عليها بأنها تؤدي إلى إهلاك الملابس بصورة أسرع.

٤- ثم انتقلت نظرية الفوضى من الفيزياء إلى الأرصاد إلى بورصة المال إلى السياسة، وأثرت في مذاهب الفن والموسيقى والآداب. وهذه النظرية تكر على ما استقر في المعرفة التقليدية عندهم من حتمية السببية، أي: أن العلاقة بين السبب والمسبب حتمية، وهو ما رفضه الأشعري وأهل السنة وقالوا: إن هناك تلازمًا بين السبب والمسبب، وهو أنه لا يتخلف عادة، وأن الله يخلق المسبب عند السبب لا به، وكان هذا تحت عدة قواعد مهمة يجب ذكرها عند المقارنة بين النموذج المعرفي الإسلامي والنموذج الآخر، فعند المسلمين: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[١].

• ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[٢]. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٣]. ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾[٤]. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾[٥]. ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾[٦]. ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[٧]. نظرية التسخير في مقابل نظرية السيطرة بين قوله تعالى: ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٨] وقوله سبحانه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[٩].

---

(١) من الآية ٧٦ من سورة يوسف.

(٢) من الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

(٣) من الآية ٤٥ من سورة النور.

(٤) من الآية ٢٩ من سورة الرحمن.

(٥) من الآية ١٠٧ من سورة هود.

(٦) الآيات من ١٤ : ١٦ من سورة البروج.

(٧) الآية ٢٣ من سورة الأنبياء.

(٨) من الآية ٢٤ من سورة يونس.

(٩) الآية ١٢ من سورة النحل.

٥- فهذه الحالة التي وصفوها أولاً بأنها مندرجة تحت قوانين حتمية لا تتخلف أبدًا اصطدمت مع غالب ما رأوه بعد ذلك في الكون، وكان القول بالحتمية مخالفًا لعقيدة المسلمين التي وصفت حينئذ بالخرافة والتخلف والآن يقولون: إذا قمنا بتصوير هذا الكون الواسع كفيل ضخم؛ فإن القوانين المنظومة تساعدنا فقط على فهم ما في الجزء الأخير من ذيله، بينما يساعدنا مذهب الفوضى في فهم واستيعاب البقية، وهو ما يمكن تأويله من الناحية العلمية إلى حقيقة هامة وهي: أن البيئات المنظمة في الكون تعد الأقل شيوعًا عند مقارنتها بالبيئات العشوائية، وهو ما يتناقض مع نظريات المعرفة الكلاسيكية التي تؤكد أن الكون في أصلة بيئة منظمة تحكمها قوانين صارمة لا تتغير.

فهذا اعتراف بعدم الحتمية، ولكن في نفس الوقت - للرغبة الجامحة في السيطرة على الكون وليس فقط الاستفادة منه ولتنحية قضية الألوهية والخالقية - تراهم يصفون ما يرون بالعشوائية.

أما القواعد التي ذكرناها فهي ترى الأشياء على ما هي عليه، وترى حكمة الله وراء كل شيء، فهناك نظام مطرد، وهناك تنوع مقدر من الله، وهذا التنوع وراءه حكمة، وهذه هي الحيرة التي نراها في كلامهم مرة يعبرون عنها بالعشوائية ومرة بالفوضى ومرة بأن هناك قانونًا وراء هذه العشوائية وتلك الفوضى. ولو سار البحث تحت القواعد السابقة واختار ألفاظه لتوصل إلى مزيد من معرفة أسرار الله في كونه المسخر لبني آدم.

(٢-٢) الفوضى، والفوضى الخلاقة

١- يقول «تشوك بالاهنيوك» وهو كاتب روائي ساخر أمريكي الجنسية مولود عام ١٩٦١: "إن ما نطلق عليه مصطلح الفوضى هو في واقع الأمر نظام جديد لم نألفه، وما نطلق عليه مصطلح العشوائية هو أيضًا نظام آخر لم ننجح في فك شفراته؛ ومن ثم فما لا نفهمه نطلق عليه لغوًا، ولما لا نستطيع قراءته نسميه ثرثرة، وخلاصة الأمر أنه لا توجد إرادة حرة، ولا يوجد تنوع، بل يوجد فقط الأمر الحتمي". ويقول «كيري ثورنلي» مؤسس ديانة الفوضى (١٩٣٨-١٩٩٨): "ما نتخيله نظامًا ما هو إلا نوع سائد من الفوضى".

وسبب هذا التناقض هو عدم الاهتمام بالتوحيد والاعتراف بأن العالم مخلوق، وهو ما يحدث منذ مئات السنين، بل آلافها. هل النسبة إلهية أو طبيعية؟ وهل ما نراه من حولنا فوضى أو تنوع؟

وعلى كل حال فإن كلمة فوضى لها دلالة سلبية من معنى الضياع والارتباك والتصادم؛ ولذا نرى بعضهم يحاول أن يفرق بين كلمة فوضى والتي تعني عنده شيئًا من الحرية والانطلاق وبين هذه المعاني، إلا أن المصطلحات ومردود الكلمة على ذهن السامع لها - له أهمية كبيرة حتى في تبني الأفكار والمذاهب؛ فلا يمكن عزل هذا المفهوم من الضياع والارتباك عن كلمة فوضى.

٢- ويرى الأب ديف فليمنج **Deve Fleming** - رجل دين يعمل بكنيسة المجتمع المسيحي بمدينة بتيسبرج ببنسلفانيا في مقاله اكتشف خمس أفكار رئيسية لجلب الفاعلية والصحة إلى وزارتك - يرى عكس هذا حيث يقول: "وهذا أمر خاطئ تمامًا؛ فهناك فرق شاسع بين الفوضى والارتباك". وطالب الأب فليمنج القارئ أن يتخلص من هذه الأفكار السلبية وأن يجدد علاقته سواء كان حاكمًا أو محكومًا مع كلمة الفوضى، وأضاف: "إن الإنجيل يؤكد لنا أن الكون خلق من فوضى وأن الرب قد اختار الفوضى ليخلق منها الكون، وعلى الرغم من عدم معرفتنا لكيفية هذا الأمر إلا أننا متيقنون أن الفوضى كانت خطوة مهمة في عملية الخلق. وأضاف: "إن المشكلة الحقيقية ليست في الفوضى ذاتها، ولكن في رد فعل الحكام والحكومات لها، وهو الأمر الذي يؤدي على ما نراه من نتائج سلبية". وأكد أن القضاء على الفوضى لن يؤدي أبدا إلى الاستقرار والذي ينبع فقط من الإبداع الذي ينبثق بدوره من الفوضى. وإذا استخدمنا هذه الكلمة لنعلق عليها مخاوفنا وفشلنا فيجب أن نكون على درجة من الشجاعة لمواجهة هذا الأمر.

واختتم كلامه مؤكدًا أن السيطرة والنظام هما العدو الأول للإبداع الإنساني؛ وعليه فإن حكام العصر الحالي سيكتشفون سريعًا أن الفوضى هي السلاح الفعال لتحقيق الاستقرار الأبدي لمجتمعاتهم.

٣- ونرى هذا التشويش الذي يخلط بين الحق والباطل وبين الحقائق والأوهام في كلام كل من جودي نيل **Judi Neal** (الحاصلة على الدكتوراه من جامعة يال **Yale** في علم السلوك المؤسسي وتشغل حاليًا رئيس مركز التحفيز على العمل بجامعة نيوهافن **New Haven**) وبوران بيريز **Puran Perez** في مقدمة كتابهما «كيفية التكيف مع الفوضى» (**How to Cope with Chaos**) حيث جاء فيه ما نصه: "إن جميع الدلائل تشير إلى وجود نظام خفي في البيئات العشوائية والذي يعتمد في جوهره على قوانين الطبيعة". وأضافا: "إن الفوضى والعشوائية هما في الأصل ظواهر طبيعية وأحد مراحل عملية التطوير في التاريخ الإنساني، وإن التحول الفردي والمؤسسي لا يمكن أن يتم إلا من خلال هذه الفوضى، والتي في العادة ما تفرز العديد من النظم الجديدة والمعاني المبتكرة".

ولهذا أكدا على أهمية فهم الميكانيكية الخفية لهذه البيئات واحتمالاتها المختلفة، والتي ستئول إلى اكتسابنا المقدرة على ركوب موجة التطور والنمو على المستويين الفردي والمؤسسي. وقد خصصا بقية الكتاب في عرض المبادئ العامة لنظرية الفوضى وكيفية التعامل معها في الحياة الواقعية.

ويبين لنا هذا الأزمة الفكرية التي تمر الأمة الإسلامية بها، فلا هي فكرت وعبرت عن أفكارها بالمصطلحات الصحيحة، ولا هي قرأت واختارت وشاركت مع البشر فيما يجري حولنا جميعًا من آراء وأفكار، ويذكرني ذلك بمؤلف أبي الحسن الندوي – رحمه الله تعالى – "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين".

٤- كما أكد مارتن كروزرز **Martyn Carruthers** – مؤسس مذهب جديد في العلاج النفسي المعرف باسم **Soulwork** – وذلك من خلال موقعه الإلكتروني على شبكة الإنترنت وعنوانه **www.Soulwork.net** حيث يقول تحت عنوان «الفوضى والتدريب والعلاج»: "إن الفوضى إحدى العوامل المهمة في التدريب والعلاج النفسي، فعند الوصول بالنفس إلى حافة الفوضى – وعندها يفقد الإنسان جميع ضوابطه وقوانينه – من الممكن أن تحدث حينذاك المعجزات".

ولكن انتظار المعجزات دون فعل شيء لن يقودنا إلى شيء، فالتخلص من القوانين القديمة قادر على إعطاء الإنسان فرصة لمعرفة الحياة من منظور جديد؛ ومن ثم يصبح قادرًا على خلق هوية جديدة بقيم مبتكرة ومفاهيم حديثة تساعده على تطوير البيئة المحيطة به وإعادتها مرة أخرى إلى النظام.

٥- ويجرنا هذا إلى قضية التحيز **Biss** حيث يتحيز كل أحد إلى معتقده وإلى رؤيته الكلية، ويـذكرنا هـذا بالانتحـار العرقي الذي سبق أن أشرنا إليه، وحول قضية التحيز عقد مؤتمر فـي القـاهرة سـنة ١٩٩٢م نظمـه الـدكتور عبدالوهاب المسيري مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ونتج عنه سبعة مجلدات في بحوث التحيز فـي مجـالات شتى طبعت في دار الشروق، ولكن هل من قارئ أو مجيب.

٦- إننا نملك رؤية كلية ترى أن الكون مخلوق لخالق حكيم؛ لأنه سُخر لبني آدم، وأن علم ابن آدم محدود، وأُمِر بالسعي في الكون لكشفه؛ لأن لديه هذه القدرة ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾[1]، وأن الكشف لا يتناهى، وأن الفجوات العلمية تحث على الاستمرار، وأن الله تعالى فعال لما يريد، وأنه قادر على كل شيء، وهي مقابلة لنظرية الفوضى والسيطرة على الكون والصدفة والعشوائية والحتمية وتنحية الإله، فهل من متدبر؟

٧- وبذلك يمكن الاستفادة من نظرية "الفوضى الخلاقة" إذا ما تعاملنا معها على أنها تنوع خلاق يخفي وراءه منظومـة يمكن الكشف عنها فلا تصبح كغسالة الفوضى التي تعطي غسيلا أكثر بياضًا وتتحر في النسيج، وفي حالتنا النسيج المجتمعي وفي الهوية والوجود والكينونة، وفي نفس الوقت نسعى إلى إطلاق الإبداع الذي يمثل اسـتعمال الطاقـة الكامنة ولا يمثل أبدًا قلة الأدب والهذيان بدعوى أن الفوضى نظام الكون، أو كما يقول «جيم موريسون»: "أنا أهتم بأي شيء يتعلق بالثورة وبالنظام وبالفوضى، وخاصة الأنشطة التي لا تحمل أي معنى، فهذا كما أعتقـد الطريـق المباشر إلى الحرية". وهو أحد أشهر مغني الروك الأمريكي وقد وجدوه مقتولاً في حوض استحمام بباريس. إن هذا التوجه هو الأقل وجودًا والأقل صوتا حتى الآن، ولكنها من دعاوى العصر الجديد **New age** الذي ما زال عقـلاء البشر يرفضونه بالرغم مما فيه من شهوات.

٨٥

(١) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة البقرة.

مفهوم النخبة

مفهوم النخبة نراه في الكتاب والسنة وحكمة البشر وواقعهم، ولكنه يتعرض من بعض تيارات ما بعد الحداثة في العصر الحاضر لكثير من الرفض، ومحاولات ضخمة لتحطيمه واقتلاعه من فكر الناس وواقعهم.

وهذا التيار لا يعتمد على تجربة بشرية مستقرة، ويدعونا إلى شيء جديد لا نعرف ملامحه ولا إلى أي طريق يقودنا إليه، وما النتائج أو المصائب التي ستترتب عليه؛ وذلك أنه مخالف لسنة الله في كونه، من أنه سبحانه فضّل بعض الأزمان على بعض، وفضّل بعض الأماكن على بعض، وفضّل بعض الأشخاص على بعض، وفضّل بعض الأحوال على بعض، وجعل من هذا التباين سببًا لدفع الناس، وتعارفهم، ولعمارة الأرض، ولحراكهم عبر حركة التاريخ.

وأن القضاء على النخبة والدعوة إلى التساوي المطلق قد تتضمن في طياتها هلاك العالم، وهناك مجموعة من النصوص التي يمكن أن تكون أساسًا لهذا المعنى؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[٣] فجعل الله للناس رءوسًا، وجعل ذلك طبقا لكفاءاتهم ورغبتهم في الإصلاح دون الإفساد، ونعى على ذلك التصور الذي يكون فيه جميع الناس في تساوٍ مطلق فقال: ﴿ لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[٤]، وقال: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) الآية ١١ من سورة المجادلة.

(٢) من الآية ٢٥٣ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ٥٩ من سورة النساء.

(٤) من الآية ٣١ من سورة الرعد.

لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[1]. وعدم التساوي لا يعني أبدًا عدم المساواة؛ فربنا يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾[2].

وقال النبي ﷺ: «**الناس كأسنان المشط**»[3]، وقال ﷺ: «**يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى**»[4].

ووجود النُّخَب والصفوة يؤدي إلى حل المشكلات، وإلى الأمن والاستقرار بين الناس، وفتنة الإسكندرية الأخيرة لم تكن في حاجة إلا إلى نخبة تتدخل فتوقفها، والانفلات الحاصل في الفضائيات - سواء في مجال الفتاوى أو البرامج الدينية من ناحية، أو الفساد العريض الداعر من ناحية أخرى - كان يمكن حله بمجلس الحكماء، إلا أننا نرى هجمة شرسة لا تستثني أحدًا برءوس مصر وحكمائها، تتبنى ذلك التيار الذي يريد اقتلاع النخبة والقضاء على الصفوة، غير مدركين أن الصفوة إذا ذهبت ذهب معها الأمن والاستقرار والتقدم، وأدت إلى الحيرة والاضطراب.

ويا ليت المحطمين لرموز مصر يتكلمون عن حقيقة، أو عن تحقيق، بل إنهم يتكلمون بطريقة صبيانية، يختلقون فيها الأحداث، ويستنبطون من عقولهم خيالات يحاولون أن يصدقوها، والنبي ﷺ، فيما أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه: «**كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع**»[5] فإذ بهؤلاء يشتدون في الكذب، حتى يحولون كل ما يتخيلون - دون أي سماع لأي خبر موثق- إلى وهم يعيشون فيه يظنونه الحقيقة، فصدق عليهم كلام رسول الله ﷺ؛ حيث يقول: «**وما يزال الرجل يكذب**

---

(١) من الآية ٤٠ من سورة الحج.

(٢) من الآية ١ من سورة النساء.

(٣) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ١٤٥) حديث (١٩٥)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ٢٤٨)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٤/ ٣٠١) حديث (٦٨٨٣) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٤١١) حديث (٢٣٥٣٦) من حديث أبي نضرة العبدي عمن سمع النبي ﷺ، وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ٢٨٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٠٠) من حديث أبي نضرة العبدي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥/ ٨٦) حديث (٤٧٤٩) من حديث أبي سعيد ﷺ.

(٥) أخرجه مسلم في مقدمة «صحيحه» باب «النهي عن الحديث بكل ما سمع» حديث (٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»[١]، وانظر إلى كلمة: «**يتحرى الكذب**» أي أنه يعشقه ويسر به ويتتبعه وينشئه، فإنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنا في مصيبتنا، ويقول ﷺ: «**وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله، ما يظن أن تبلغ ما بلغت؛ فيكتب الله ﷻ عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه**»[٢]. وفي لفظ البخاري: «**يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب**»[٣]؛ وذلك لما يترتب عليها من إساءة ومن ضرر على المستوى العام والخاص.

ووجود هؤلاء الحكماء والمحافظة عليهم - بل إقالة عثرتهم إذا عثروا تحقيقًا لقول النبي ﷺ: «**أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم**»[٤] - هو الذي يحكيه الأفوه الأودي في قصيدته؛ حيث يقول:

لا يَصلُحُ الناسُ فَوضى لا سَراةَ لَهُمْ ... ولا سَـراةَ إذا جُهَّـالُهُمْ سـادُوا

إذا تَـولَّى سَـراةُ القـومِ أَمْـرَهُمُ ... نما على ذاك أَمْرُ القـومِ فـازْدادُوا

وتوجيه القرآن والسنة وحكمة الشعر تحكي واقعًا معيشًا لا فكاك منه، وطاعة هذه الأمور هي نوع من الحكمة؛ قال تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾[٥]،

وبدون ذلك يصدق قول الأفوه الأودي في نفس القصيدة؛ حيث يقول:

كيفَ الرشادُ إذا مـا كنـتَ فـي نَفَـرٍ ... لهُـمْ عـنِ الرُشْـدِ أَغْـلالٌ وأَقيـادُ؟

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الأدب» باب «قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾» حديث (٦٠٩٤)، ومسلم في كتاب «البر والصلة والآداب» باب «قبح الكذب وحسن الصدق وفعله» حديث (٢٦٠٧) من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ.

(٢) هذا اللفظ أخرجه ابن ماجه في كتاب «الفتن» باب «كف اللسان عن الفتنة» حديث (٣٩٦٩) من حديث بلال بن الحارث المزني ﷺ، وهذا الحديث أخرجه البخاري بنحوه من حديث أبي هريرة ﷺ في كتاب «الرقاق» باب «حفظ اللسان» حديث (٦٤٧٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب «الرقاق» باب «حفظ اللسان» حديث (٦٤٧٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ١٨١) حديث (٢٥٥١٣)، وأبو داود في كتاب «الحدود» باب «في الحد يشفع فيه» حديث (٤٣٧٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٤/ ٣١٠) حديث (٧٢٩٣)، (٧٢٩٤)، والدارقطني في «سننه» (٣/ ٢٠٧)، والطبراني (٣/ ٢٧٧) حديث (٣١٣٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) الآية ٢٦٩ من سورة البقرة.

فالحكماء يدركون الحقائق، فمثلاً هذا الذي ينوي إثارة الفتنة ولم يقرأ في دينه الذي يعتقد فيه قول السيد المسيح فيما أورده إنجيل متى الإصحاح الخامس ٤٣-٤٨: "أسمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك * وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم * لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات، فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين * لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأي أجر لكم، أليس العشارون أيضًا يفعلون ذلك * وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأي فضل تصنعون أليس العشارون أيضًا يفعلون هكذا * فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السماء هو كامل". اهـ.

وهو نقل مهم، أيده الإسلام عندما قال تعالى: ﴿ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾[1]، وأيده حيث وصف أولئك الذين لا يمتثلون له، بل يستبدلون بتلك النصائح والتعاليم السخرية والاستهزاء والازدراء من الآخرين؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[2].

فجعلَ الحساب والمؤاخذة والنقاش في الآخرة، فسبحان من أنزل القرآن ليكون للعالمين نذيرًا، فيجب أن يكون ذلك معلومًا لدى الكافة، لا مقصورًا على طائفة الصفوة أو الحكماء فقط، بل يكون منهج حياة؛ حتى لا تكرر مثل هذه الترهات، ويصمت إلى الأبد البغاث.

(١) من الآيتين ١٠٩، ١١٠ من سورة البقرة.

(٢) الآيات من ٢٩ : ٣٦ من سورة المطففين.

صحيح البخاري .. والمنهج الذي فقدناه

صحيح الإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري المتوفى سنة ٢٥٦هـ، أصح كتاب بعد كتاب الله سبحانه وتعالى في نقله، وفي اهتمام المسلمين به، لاسيما وأنه ينقل إلينا سنة رسول الله ﷺ بطرق فيها غاية توثيق المصدر وغاية النقد العلمي، ولقد سماه الإمام البخاري؛ «الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه» غير أنه اشتهر بين الناس «بصحيح البخاري».

وقد سمع ذلك الكتاب من البخاري خلق كثير في كل مدينة وقرية كان ينزل بها البخاري، وقد روى الفربري أنه سمعه منه تسعون ألف نفس، ورواه لمن بعده رواة كثيرون، منهم حماد بن شاكر المتوفى سنة ٢٩٠هـ، وإبراهيم بن معقل النسفي المتوفى سنة ٢٤٠هـ، ومنهم محمد بن يوسف بن مطر الفربري المتوفى سنة ٣٢٠هـ.

ورواية الفربري هذه هي التي وصلت إلينا، فقد سمعها منه عدة منهم أبو محمد الحموي المتوفى ٣٨١هـ، وأبو الهيثم محمد الكشميهني المتوفى سنة ٣٨٩هـ، ورواه عن الحموي الداودي المتوفى سنة ٤٦٧هـ، وعنه أبو الوقت المتوفى سنة ٥٥٣هـ، وعنه الإمام النووي المتوفى سنة ٦٧٦هـ.

واهتم أولئك الرواة بصحيح البخاري أشد الاهتمام؛ فكانوا يقرءونه كلمة كلمة، حتى رأينا اثنين من كبار علماء العربية والحديث يجلسان مع جماعة من الفضلاء لتحرير كل الروايات على مستوى الحركة في صحيح البخاري، وهما: جمال الدين محمد بن مالك صاحب الألفية المشهورة في النحو المتوفى سنة ٦٧٢هـ، وشرف الدين علي بن محمد اليونيني - نسبة إلى يونين إحدى قرى بعلبك - المتوفى سنة ٧٠١هـ، وتمت هذه الجلسات في دمشق، وبلغ عددها إحدى وسبعين جلسة، وذلك من سنة ٦٦٧هـ، فخرجت هذه النسخة في غاية التحقيق والتدقيق، وأصبحت من أوثق النسخ المعتمدة لصحيح البخاري، بل لو أطلقنا القول بأنها أوثقها وأعظم أصل يوثق به لما كان بعيدا، وقد جعلها الإمام القسطلاني المتوفى سنة ٩٢٣هـ عمدته في شرح صحيح البخاري، فحقق المتن حرفًا حرفًا على تلك النسخة.

١- هذا الفريق العلمي الذي يتعاون لإخراج العمل منهج افتقدناه، وهذا التدقيق الذي يصل بنا إلى معرفة الأسس والأصول والمنطلقات منهج افتقدناه، وهذا السعي الدءوب عبر العصور والتواصل العلمي الدائم والبناء على ما انتهى إليه السابق منهج افتقدناه، والغريب أنه ذات المنهج الذي وصل به الآخرون في علوم الطبيعة إلى ما وصلوا إليه.

٢- انتقلت هذه النسخة الفريدة في خزائن كتب السلاطين والخلفاء حتى استقرت لدى السلطان عبدالحميد الخليفة العثماني، فأرسل بها إلى شيخ الأزهر؛ ليقوم بطباعة البخاري، ويقص الشيخ حسونة النواوي القصة في مقدمته لما سمي بعد ذلك بالمطبعة السلطانية للبخاري؛ نسبة إلى السلطان عبدالحميد خان الثاني التي تمت طباعتها سنة ١٣١١هـ: ١٣١٣هـ في تسعة أجزاء تجلد عادة في ٣ مجلدات كل مجلد يحتوي على ثلاثة أجزاء.

يقول الشيخ حسونة: "ففكر - أيده الله - في أجل خدمة يسديها للسنة النبوية الحنيفية، فلم ير - وفقه الله - أكمل من نشر أحاديثها الشريفة على وجه يصح معه النقل، ويرضاه العقل، وقد اختار - أجله الله - من بين كتب الحديث المنيفة، كتاب «صحيح البخاري» الذي اشتهر بضبط الرواية عند أهل الدراية، فأمر - وأمره الموفق - بأن يطبع في مطبعة مصر الأميرية؛ لما اشتهرت به من دقة التصحيح، وجودة الحروف بين كل المطابع العربية، وبأن يكون طبع هذا الكتاب في هذه المطبعة على النسخة اليونينية - المذكورة آنفا - المحفوظة بالآستانة العليا؛ لما هي معروفة به من الصحة القليلة المثال في هذا الجيل وما مضى من الأجيال...".

٣- وقد قام جماعة من مصححي المطبعة الأميرية معدودين من العلماء بتصحيح النسخة على قدر طاقتهم، إلا أن لجنة الأزهر لاحظت عليهم ملاحظات أثبتوها في آخر كل جزء، وكان من هؤلاء المصححين بالأميرية: محمد بك بن علي المكاوي، ومحمد الحسيني، ومحمود مصطفى وآخرون، وكان محمد بك مكاوي من المهتمين بتصحيح البخاري، فقد قام بطبعه قبل ذلك في سنة ١٢٨٦هـ، فكتب تصحيحا على لجنة الأزهر في تسع ورقات ذكر فيه ٢٨٩ خطأ أغلبها مما له وجهان كمنع المصروف، أو صرف الممنوع، أو ضبطان لعلم معين، أو كلمة فيها الوجهان.

فتم طباعة تلك الطبعة السلطانية، وقد انتهت، وبعدما انتهت تلك الطبعة أعادت المطبعة الأميرية طباعة البخاري مع مراعاة ما وقع في السلطانية من ملاحظات، وكان ذلك على نفقة السيد محمد حسين عيد الفكهاني سنة ١٣١٥هـ - ١٣١٧هـ، فسميت هذه الطبعة بالطبعة الفكهانية؛ تمييزا لها عن السلطانية، فعقب عليها أيضًا محمد بك ابن علي المكاوي في ست صفحات لا تخرج ملاحظاته عما سبق ذكره، وهذه التعقيبات موجودة في دار الكتب المصرية حتى اليوم.

٤- فانظر إلى المنهج الذي فقدناه، فعلى رغم أن الفكهانية على منوال السلطانية الحرف بالحرف، والكلمة بالكلمة، إلا أن الأمانة اقتضت التفريق بينهما؛ لمجرد اختلاف من تكلف طباعتها، حتى رأينا بعد ذلك الناس طبعوا على

الفكهانية ويقولون إنهم طبعوا على السلطانية، فخرجت طبعاتهم لا على هذه ولا تلك من تحريف وتصحيف وتغيير في الصفحات، ثم شاع عند كثير من طلبة العلم أن هذه هي السلطانية يقصدون ما طبع لدى مطــابع الشــعب، أو مصطفى الحلبي أو غيرها على الرغم من البون الشاسع بينهما.

وانظر إلى اهتمام المكاوي الزائد في تحرير النص إلى درجة لا يتهاون فيها بالخطأ إذا تكرر، ولا بالوجه من الإعراب أو الضبط إن كان معتبرًا. إن الذي ينظر إلى منهج الأطباء والمهندسين وأهل العلم بعامة يعرف أن تلك الملكة لا تُربــى في النفس إلا بذلك المنهج، وأن الاتجاه العام من الاستهتار وعدم المبالاة أُصِبنا به عندما لم نقرأ البخــاري فـــي طبعتــه السلطانية كرمز من رموز ثقافتنا يجسد الرجوع إلى مضمونه والعمل به وتربية باحثينا في كل المجالات عليه، فليس لدينا من الأوقات ما يسمح بهذا التسيب الفظيع الذي أصاب مؤسساتنا العلمية وأصاب معها جُل العلماء والباحثين.

مناهج التغيير

عندما نريد أن نغير هل يكفي الاعتماد على منهج واحد؟ أو أنها مناهج متعددة؛ لأن التغيير يجب أن يكون في جهات مختلفة وكثيرة، فنحن نحتاج إلى تغيير على كل المستويات، على مستوى الفرد، وعلى مستوى الجماعات: الأسرة، وجماعة العمل، والجماعة العلمية، وغيرها، بل على مستوى المجتمع كله، والتغيير له اتجاهان: اتجاه التطور إلى الأحسن واتجاه التدهور إلى الأسوأ، وسنة الله في كونه أنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ولقد وردت الإشارة إلى هذه السنة الكونية مرتين في القرآن، إحداهما في التطور والثانية في التدهور:

قال تعالى في سورة الرعد: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ** ﴿١١﴾ ﴾[١]. أما في سورة الأنفال فيقول: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴿٥٣﴾ ﴾[٢].

ورسول الله ﷺ يوضح منهجًا واضحًا في التغيير فيقول: «**ابدأ بنفسك، ثم بمن تعول**»[٣]، وهو أمر غاية في البساطة غاية في العمق، والبساطة والعمق سمتان تميزان أوامر الإسلام، فتخاطب العقل البشري على جميع المستويات بشكل يبهر العالم ويعين الجاهل ويتمكن الجميع من الفعل والعمل.

فماذا نغير؟ لابد أن نغير نمط حياتنا... برنامج يومنا، ونجعله أكثر جدية مما هو عليه، ونجعله أكثر حكمة، فنرتب الأولويات ونعلم أن ارتكاب أخف الضررين واجب، ودفع أشد المفسدتين واجب، فلابد أن نحافظ على أوقاتنا ونتقن أعمالنا

---

(١) من الآية ١١ من سورة الرعد.

(٢) الآية ٥٣ من سورة الأنفال.

(٣) هذا حديث مشهور أصله في الصحيحين؛ البخاري في كتاب «النفقات» باب «وجوب النفقة على الأهل والعيال» حديث (٥٣٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «**أفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول**»، ومسلم في كتاب «الزكاة» باب «الابتداء في النفقة بالنفس ثم أهله ثم القرابة» حديث (٩٩٧) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما بلفظ: «**ابدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شيء فلأهلك**».

ونستديم على ما بدأناه ولا نحقر صغائر الأمور فنقع في كبارها، ونحاول أن نكون حكماء، فمن أوتي الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا، قال تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾(1).

هذا قبل الفوت وقبل الموت، فمع المحبرة إلى المقبرة، ومعناها أن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة، وأن تحصيله منهج حياة مستمر، لا يقال: إن أحدًا قد أحاط به. وكلمة قالها الإمام أحمد أو هي منسوبة إليه "العلم من المهد إلى اللحد" لها قيمتها اليوم وغدا، ومعناها ومبناها جميل، أما المعنى فإن الإنسان يطلب العلم، وينبغي له أن يطلبه من المهد إلى اللحد لا يكل ولا يمل، يتخذ كل الوسائل المشروعة سعيا وراء تحصيل العلم، كل علم، العلم اليقيني والعلم الظني، العلم في نسيجه المتكامل، والعلم في صورة معلومات؛ وفي هذا الشعار وضع الإنسان في مكانه الصحيح حيث إنه محتاج إلى غيره، وأن حياته قاصرة عن استيعاب المعلومات، وأن الواجبات أكبر من الأوقات، وأن فوق كل ذي علم عليم.

إن الوكالات الست الكبرى تبث عددا هائلا من المعلومات يوميًا، تبث ١٢٠ مليون معلومة يوميًا بين خبر وتحقيق وحديث صحفي وتقرير... إلخ فثورة المعلومات والمعلوماتية فاقت كل تصور، وبنوك المعلومات في العالم تحاول المتابعة، لاسيما ما ظهر من آثارها في السنوات الماضية بما يسمى مشكلة تفجر المعلومات **(Information Explosion)** حيث يتراوح معدل النمو السنوي للإنتاج الفكري ما بين ٤%: ٨%، ولمحاولة تصور كمية المعلومات التي تنتج في العالم، نأخذ مثالاً لدورية واحدة في فروع الكيمياء مثلا وهي **(Chemical Abstracts)** التي تصدر في الولايات المتحدة الأمريكية، وتغطي هذه الدورية معظم ما ينشر من الدوريات العلمية المهمة في مجال الكيمياء فقط.

صدرت هذه الدورية عام ١٩٠٧م، واستكملت المليون بحث الأولى بعد واحد وثلاثين سنة. ثم بلغت المليون بحث الثانية في ثماني عشرة سنة، ورصدت المليون بحث الثالثة في سبع سنوات، أما المليون الرابعة فقد رصدتها خلال أربع سنوات فقط. وبصورة عامة فإن كمية المعلومات تتضاعف كل اثنتي عشرة سنة، وقد تطور حجم الإنتاج الفكري المنشور في الدوريات، وهي واحدة فقط من أشكال عديدة للنشر من مائة دورية في عام ١٨٠٠م إلى أكثر من ٧٠ ألف دورية في عقد الثمانينيات.

(١) من الآية ٢٦٩ من سورة البقرة.

وكان من أسباب تفجر المعلومات زيادة حجم التخصص المعرفي، واتجه الباحثون إلى ما يعرف بالتخصصات الدقيقة، فتخصص الطب مثلا - ينقسم إلى طب القلب والمخ والأعصاب... وفي تخصص قسم الطب هناك تخصص الشرايين وجراحات القلب المفتوح، وداخل كل تخصص يتم بحث مسائل في غاية التدقيق، مما يشعب ويضخم حجم الإنتاج العلمي في كافة المجالات، مما يجعل عملية متابعة التطورات والإنجازات العلمية وما انتهى إليه العلم البشري عملية مستحيلة في العادة.

وتشير الإحصاءات إلى أن الإنتاج السنوي من المعلومات في مجال البحوث العلمية مقدر بعدد الوثائق المنشورة يصل ما بين ١٢: ١٤ مليون وثيقة، وأن عدد الأشخاص الذين يساهمون في هذا الإنتاج بشكل أو بآخر يتراوح ما بين ٣٠: ٣٥ مليون شخص، وقد بلغ رصيد الدوريات على المستوى الدولي ما يقرب من مليون دورية، يضاف إليها كل عام ما يقرب من ١٥ ألف دورية جديدة، أما الكتب فقد بلغ الإنتاج الدولي منها حوالي ٦٠٠ ألف عنوان، أي بمعدل ١٦٥٠ كتابًا في اليوم، أو ٧٠ كتابًا في الساعة.

لذلك كله يجب أن يدرب الإنسان نفسه على استخلاص النافع من هذا الخضم الهائل من المعلومات، وكيفية التعامل معها. يقول رسول الله ﷺ: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقًا إلى الجنة**»[1]. ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن يتجلى فيما روي عن وهب بن مُنَبِّه من حكمة آل داود: «على العاقل أن يكون عالمًا بزمانه، ممسكًا للسانه، مقبلا على شانه»[2].

فهذا التوجيه السامي من رسول الله ﷺ، وتلك العبارة البليغة من السلف الصالح، وهذه الحالة التي نعيشها فتفرض علينا التحدي - تؤدي بنا جميعًا إلى الجد في تحصيل العلم ومعايشة العصر.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب «الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار» باب «فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر» حديث (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ٢٦٨) رقم (٥٠٤٧)، وهناد في «الزهد» (٢/ ٥٨٠) رقم (١٢٢٦)، ومعمر بن راشد في «جامعه» (١١/ ٢٢)، واللفظ له.

(١-٤) النسبي والمطلق

المتأمل في الفكر الإسلامي يجد أن المسلمين قد آمنوا بالمطلق، واعترفوا بالنسبي، وإيمانهم بالمطلق تمثل في إيمانهم بالله، فالله سبحانه وتعالى كان قبل الزمان والمكان والأشخاص والأحوال، وهي الجهات الأربع التي تحكم الواقع المعيش، والتي ينسب إليها؛ ولذلك نسمي هذا المتغير بالنسبي، نسبي في الزمان أو نسبي في المكان، أو نسبي في الأشخاص أو نسبي في الأحوال، والله سبحانه وتعالى هو المطلق الفرد الذي لا يحده شيء من ذلك كله.

وآمنوا بإطلاقية القيم، فالعدل عدل في كل ذلك - أعني: هذه الأربع - والرحمة رحمة، والظلم ظلم، والقسوة قسوة، ولذلك نرى في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾[١].

ويقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾[٢]، فالإيمان بالمطلق بهذا المعنى أحد أركان الإسلام، والمكون الأساسي للعقل المسلم، فهو من النموذج المعرفي الذي يواجه به المسلمُ الواقعَ ويفسره به، ويقوِّمه من خلاله.

وقد نستطيع أن نعرف العلمانية، بأنها تؤمن بالنسبية المطلقة، وأن الإيمان بالنسبية المطلقة هو الذي يمثل ما أسماه الدكتور عبدالوهاب المسيري بـ (العلمانية الشاملة) وحينئذ فلا بأس عند ذلك المعتقد أن ينكر الله، ولا بأس عنده أن ينحيه من التلقي منه سبحانه وتعالى، أو من تهميشه من الحياة، وتحويل مسألة الإيمان بالله إلى مسألة شخصية جانبية تمثل إيمانا خاصًّا، ولا تمثل قضية للوجود.

---

(١) الآية ٨ من سورة المائدة.

(٢) من الآية ١٥٢ من سورة الأنعام.

وهذه النسبية المطلقة تؤثر كثيرًا في التفسيرات اللغوية، وتجعل الكون لا حقيقة له في نفسه، بل إنه كما يراه الراصد، وكما يراه كل إنسان على حدة، فليس للأشياء حقيقة ثابتة، وهو ما ينقلنا إلى مذهب السوفسطائية القدماء وإلى مذهب الغموصية الحلولية، والتي يتصور الإنسان فيها الله - جل جلاله - داخل الكون، وليس مفارقا له.

وهو التيار الذي شاع في أواسط حركة مع بعد الحداثة، وكاد يتحكم في التيار العام للفكر الغربي في العصر الحديث. وعليه يمكن لنا أن نطبق هذا المدخل على تفصيلات تزيده وضوحا في كيفية التعامل بواسطته مع النصوص الشرعية ومع الواقع المعيش.

١- إن هناك فارقًا بين معنى إطلاقية القرآن، وبين تفسيره بصورة واقعية، وبين تفسيره من خلال منظومة النسبية المطلقة، فإطلاقية القرآن عرفها تاريخ الفكر الإسلامي في صورة القول بأنه غير مخلوق، وكلنا يتذكر محنة الإمام أحمد بن حنبل - إمام أهل السنة والجماعة، وأحد الأئمة الأربعة المتبوعين إلى يومنا هذا - حيث وقف وقفة صلبة في قضية الدعوة لخلق القرآن، والتي تؤدي مباشرة إلى أنه محصور في زمانه، أو مكانه، أو للأشخاص الذين خاطبهم، أو في الحال الذي نزل فيه، وهو الأمر الذي رفضه جماهير المسلمين؛ لأنهم يعلمون لازم ذلك المذهب، وهو ما يسميه بعضهم في العصر الحاضر بتاريخية القرآن، بمعنى أنه نزل لعصر بعينه، وأن العصر قد انقضى بظروفه وأشخاصه ومصالحه، وأنه لم يبق لنا من القرآن إلا ما يمكن أن نؤمن به، أو نستعمله في عصرنا الحاضر، ويتم بذلك تنحية القرآن عن واقع الناس، وتنحيته عن كونه كتاب هداية، وتنحية الإسلام عن عالميته، وعن مفهوم النسق المفتوح الذي جاء به، ولم يفرق فيه بين عربي وأعجمي، ولا بين أبيض وأسود، ولا بين رجل وامرأة، كما أنه يفتح القول بالنسبية المطلقة التي نراها قد أدت إلى نفي حقائق الأشياء.

٢- أما - التفسير الواقعي فهو يؤمن بإطلاقية القرآن، وأنه متجاوز للجهات الأربعة المذكورة، وأنه غير مخلوق، بل هو كلام الله الذي ما زال سبحانه وتعالى يتكلم، وكأن القرآن قد نزل الآن، وكأنه دائما يخاطب قارئه، وهو دائما كتاب هداية، لا يختلف عن الواقع المعيش، لكنه يقيده بأخلاق مطلقة، وبقيم ثابتة، وفيه من الأنظمة ما جعله الله سبحانه وتعالى ثابتا، كنظام الشهادات، وفيه من الإجمال ما جعله الله صالحا لكل زمان ومكان، وبذلك نراه حمّال أوجه، كما وصفه سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه عندما قال لعبدالله بن عباس رضي الله عنهما وهو يفاوض الخوارج: «لا تخاصمهم بالقرآن؛ فإن القرآن حمّال ذو وجوه، تقول ويقولون»[1].

(١) «نهج البلاغة» شرح الإمام محمد عبده، وصية رقم ٣١٥.

وكما وصفه رسول الله ﷺ فيما يرويه علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «**إنها ستكون فتنة**». قال: قلت فما المخرج؟ قال: «**كتاب الله، فيه نبأ مَن قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، مَن تركه مِن جبار قصمه الله، مَن ابتغى الهدى** – أو قال: العلم – **مِن غيره أضله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلَق عن كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي تناهى الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾[1] مَن قال به صدق، ومَن عمل به أُجر، ومَن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم**»[2].

ونحن نرى في القرآن دساتير كثيرة تنظِّم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بوضع المبادئ والأسس لهذه المناحي من مناحي الحياة، ولكنها لا تدخل في التفاصيل الجزئية لمرونتها، وهي التي في هذا المقام يمكن أن نسميها بـ (نسبية جزئية) أي أنها ليست نسبية مطلقة تصل إلى حد اختلاف التضاد، بل هي نسبية جزئية، تشتمل على اختلاف التنوع الذي نقدر معه على تحصيل تلك المرونة.

كل هذا كان مقدمة لابد منها لمناقشة هذه القضية، التي نرجو أن نتوصل فيها إلى أسس تميز بين الغث والثمين، في قضية تفسير القرآن في العصر الحديث.

---

(١) الآيتان ١، ٢ من سورة الجن.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب «فضائل القرآن» باب «ما جاء في فضل القرآن» حديث (٢٩٠٦)، والدارمي في كتاب «فضائل القرآن» باب «فضل من قرأ القرآن» حديث (٣٣٣١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢-٤) النسبي والمطلق

١- والقرآن الكريم قد نزل بلغة العرب، وما دام هو نصًّا يتعلق فهمه بإدراك اللغة، فدائما يكون له معنى أصلي، ويكون له معنى تابع، أما المعنى الأصلي فهو ذلك المعنى الذي يمكن أن يُترجَم من لغة إلى لغة أخرى، والذي يستفاد من دلالة الألفاظ في صورتها المعجمية، ومن تراكيب السياق، وما يتبادر منها إلى ذهن أهل تلك اللغة، مع مراعاة التطور الدلالي للألفاظ، والذي نراه مختلفاً في اللغات المقدسة، ونعني بها تلك التي بها نصوص مقدسة تتعلق بالأديان (كالعبرية، والآرامية، والسنسكريتية، والعربية) وهو أمر يختلف عن قداسة اللغة، كما فصّلنا ذلك في مقال (اللغة المقدسة وقدسية اللغة، نشر بالأهرام ١١-٩-٢٠٠٤).

والمعنى الأصلي تعدده محصور، أما المعنى التابع فهو أكثر تعددًا وأكثر احتياجًا إلى الضوابط التي لا تجعله يميل إلى الرمزية، أو يوغل في الإغراب، ومن شروطه المهمة أن لا يكر على المعنى الأصلي بالبطلان، بل يضيف إليه معنى جديدًا ينضم إليه ولا يلغيه، وقد يكون هذا هو الفارق المهم بين التصوف السني، الذي فهم معاني كثيرة من النصوص الشرعية - خاصة القرآن الكريم - ضمها إلى المعنى الأصلي الذي تمسك به، وبين الباطنية التي جعلت ذلك المعنى التابع قاضيا على المعنى الأصلي؛ بحيث صار هو الأصل، والمعنى الأصلي هو الحجاب للفهم، ولقد ألف الإمام الغزالي كتابه «فضائح الباطنية» من أجل الكشف عن هذا المعنى، والرد عليهم، وبيان فساد مذهبهم؛ لأن مزية القرآن أنه جاء خطابًا للعالَمين، فلا يمكن قبول نظرية التفسير الرمزي أو الباطني الذي يجعله مفهومًا عند بعض الناس، وغير مفهوم عند أكثرهم.

٢- إلا أن اللغة قد اشتملت على ما أسماه علماؤها فيما بعد بالحقيقة والمجاز، أما الحقيقة فهو أن نستعمل اللفظ في معناه الذي وضعه واضع اللغة ابتداء، وواضع اللغة عند جماهير علماء المسلمين هو الله سبحانه وتعالى، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[١]، والأسماء هنا هي ألفاظ وضعت بإزاء معان أو ذوات وأعيان معينة، وهذا هو حقيقة الوضع اللغوي، هو جعل اللفظ بإزاء المعنى، أما المجاز فهو استعمال ذلك اللفظ في معنى لم يوضع له، ويدل على ذلك قرينة، ولابد من وجود علاقة بين اللفظ وبين هذا المعنى.

---

(١) من الآية ٣١ من سورة البقرة.

ولقد عدوا هذه العلاقات التي يمكن أن تكون بين اللفظ وبين معانيه الأخرى سوى معناه الحقيقي، فوجدوها أكثر من خمس وعشرين علاقة؛ منها: دلالة اللفظ على جزء معناه، أو دلالته على معنى أعم، أو دلالته على المحل أو على الحال، أو باعتبار ما سيكون، أو باعتبار ما كان... إلى آخر هذه العلاقات التي اهتم بها علماء البلاغة، واهتم بها أيضًا علماء أصول الفقه، من أجل فهم صحيح مؤسس على منهج علمي رصين للنص الشرعي، سواء أكان كتابًا أم سنة.

ولم يقع مفسرو القرآن في عمومهم في إنكار المجاز، فلم ينكر المجاز إلا الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني، ثم تبعه بعد ذلك الشيخ ابن تيمية لتوجهات عقدية رآها، ولم يوافقه عليها جماهير العلماء وجُلّ المفسرين، وبالرغم من ذلك أطلق العلماء قاعدة مهمة وهي "إن المجاز خلاف الأصل"، فالأصل في الكلام هو الحقيقة، ومعنى هذا أن أغلب الكلام إنما يكون على الحقيقة، وأن السامع يحمل الكلام المسموع ابتداء على الحقيقة، فالحقيقة هي التي تتبادر بالذهن أوّلا، ووضع علماء الأصول في هذا المقام قاعدة جليلة تشتمل على وظيفة اللغة من ناحية وعلى ما مَنَّ الله علينا به من فائدة الكلام، وقالوا: الاستعمال من صفة المتكلم، والحمل من صفة السامع، والوضع قبلهما.

ففي هذه العبارة المختصرة قرار بثبات اللغة التي كتبت بها النصوص، وفيها أيضًا إقرار الحرية للمتكلم في استعمال كلامه لما يريد أن يعبر عنه، وأن ينقله للآخرين، وفيها أيضًا إشارة إلى وظيفة التلقي التي يقوم بها السامع، والتي يتاح له فيها أن يحمل الكلام على ما يمكن أن يحتمله، وشرح هذه العبارة له تعلق قوي بقضية النسبي والمطلق، وله تعلق كذلك بصلاح القرآن لكل زمان ومكان، وبالاحتياج الشديد لأدوات منهجية لتفسير القرآن لا تؤدي إلى إنكار نسبية الواقع والإغراق في الإطلاق، ولا تؤدي كذلك إلى انفراط التفسير بحيث لا يبقى للدين هوية ويقول فيه كل من شاء ما شاء؛ لأن هذا ضد أصل المعتقد، وأصل الواقع من لزوم بقاء المطلق والنسبي أثناء إدراكنا للنص وإدراكنا للواقع، والوصل بينهما.

٣- ولقد قررنا في مرات كثيرة أن هناك معنى صالحًا في إطلاقهم كتاب الله المسطور على القرآن، وكتاب الله المنظور على الكون، وأشرنا إلى التطابق بينهما، وهو يعني أنهما قد صدرا من الله، القرآن صدر من عالم الأمر، والكون صدر من عالم الخلق، والله سبحانه وتعالى يقول في كتابه: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[1].

(١) من الآية ٥٤ من سورة الأعراف.

وفي نفس السياق تأتي قضية القراءتين، وهو أن هناك قراءة للقرآن، وقراءة للأكوان، تشير إليها آيات سورة العلق، وهي أول ما نزل، حيث كرر الله فيها الأمر بالقراءة، وعلَّق الأولى على الخلق والثانية على الوحي، فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ ﴾[1]، والقلم إشارة إلى الوحي، كقوله تعالى: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ ﴾[2]، نرى هنا أنه بدأ بالخلق وثنَّى بالوحي، وكأن الإنسان لابد عليه أن يطلع العالم وما حوله ليكون قادرًا على فهم الوحي، وكذلك لابد عليه من إدراك الوحي إدراكًا صحيحًا من أجل أن يغيِّر واقعه نحو التغيير الصحيح؛ ولذلك نرى أن الخلق والأمر يتكاملان في دائرة واحدة يصح أن نبدأ من أي نقطة منها فنصل إلى تمامها، ونرى قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ ﴾[3] فيه إشارة إلى تلك الدائرة.

ولذلك نرى أن النعي على مطابقة النص القرآني للواقع وإنكار ذلك بصورة مطلقة ليس بسديد؛ لأن فيه سدَّ باب القراءتين من ناحية، وفيه إنكار للواقع من ناحية أخرى، إن القرآن الكريم نزل مركبًا يرسم شبكة علاقات يستطيع المتدبر فيه استنباط مبادئ ومقررات كثيرة من تقاطعات هذه الشبكة، وكذلك الواقع في تطوره وتدهوره يكون شبكة، وليس دالَّة خطية كما يعبر علماء الرياضيات. (يتبع)

---

(١) الآيات ١: ٤ من سورة العلق.

(٢) الآية ١ من سورة القلم.

(٣) الآيات ١: ٣ من سورة الرحمن.

(٣- ٤) النسبي والمطلق

ومنظومة القيم من باب المطلق، فمفهوم العدل ثابت عبر العصور، وثابت أيضًا في كل المجالات، فالعدالة الاجتماعية لا يُفرَّق بينها وبين العدالة في القضاء أو في السياسة أو في الفكر، والخروج عن العدالة في أي مكان أو في أي زمان أو في أي مجال يُعَدّ ظلمًا وزورًا، وهذه الحقيقة البسيطة قد أصبحت محل نظر من خلال عقائد نسبية تمسك بها أصحابها، فرأيناهم يتخلون عن العدل من أجل القوة أو المصلحة، أو بعض المواقف الشخصية، ولا يعدون ذلك ظلمًا بل يسمونه بالواقعية، وسياسة الأمر الواقع، والمصلحة العليا... إلى آخر هذه العبارات التي إن دلت على شيء فإنما تدل على التدليس والغش.

١- ومجموعة النصوص التي تُثبت العدل وتقره قطعية، تتمثل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[1]، وفي قوله: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾[3]، وقوله: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾[4].

---

(١) الآية ٩٠ من سورة النحل.

(٢) من الآية ١٥٢ من سورة الأنعام.

(٣) الآية ٥٨ من سورة النساء.

(٤) الآية ٨ من سورة المائدة.

ومن السنة قول النبي ﷺ: «**لا تزال هذه الأمة بخير ما إذا قالت صدقت، وإذا حكمت عدلت، وإذا استُرحمت رَحمت**»[1]، وقوله ﷺ: «**الظلم ظلمات يوم القيامة**»[2]، وكذلك ما يرويه ﷺ عن رب العزة، حيث قال تعالى: «**يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّمًا**»[3]. وقد سئل النبي ﷺ: ما العصبية؟ فقال: «**أن تعين قومك على الظلم**»[4]. والعدل من أسمائه تعالى.

٢- وكثيرًا ما يمثّل عدم إدراك معنى النسبي والمطلق عائقًا لفهمنا لكثير من المواقف غير المنطقية التي تحدث يوميًّا في السياسة العالمية أو في مواقف الدول والعلاقات الدولية؛ بناء على أننا آمنا بالمطلق وجعلناه مقياسًا للحق، وأننا لا نتصور أن أحدًا من العقلاء يتلون هذا التلون العجيب من النقيض إلى النقيض بدون أي تأنيب ضمير أو مراجعة لتصرفاته، بل إنه مقتنع بما يفعل ماضٍ في ذلك.

ففي حلقة نقاشية مع مؤسسة ألمانية حول قضية العدالة ذكرت أن العدل في الإسلام اسم من أسمائه تعالى، وعلّق أحدهم على ذلك بأن هناك في العقائد اليونانية القديمة إله العدل، وفهمت حينئذ الفرق بين النسبي والمطلق، وكيف أن إله العدل هذا الذي لا وجود له، والذي كان مجرد صورة في أذهان من أنشأه - قد تغير بتغير تلك الصورة، وتغير أيضًا عندما فهم الناس أنه ليس هناك آلهة متعددة.

أما العدل الذي هو صفة من صفات الباري سبحانه وتعالى فهو يُلزمنا بالعدالة؛ لأنه قد ألزمنا أن نتخلق بأخلاقه وأن نمتثل أوامره امتثالا ثابتًا؛ لأنه سبحانه هو الباقي، وعرفت مدى استعداد هذا العقل - الذي كان يؤمن أوّلا بآلهة متعددة - لقبوله لهذه النسبية المفرطة، ثم جرّنا الحديث إلى مدى تطبيق العدل على القضية الفلسطينية؛ وإذ بأحد المعقّبين يقول: إن تمسككم بالعدل هو الذي يعطل القضية، فيجب عليكم أن تجلسوا للمفاوضات وأن تقبلوا بالممكن والمتاح، وهو ما يمكن أن

---

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٧/ ٩٨) حديث (٤٠٤٠)، والطبراني في «الأوسط» (١/ ٢٤٣) حديث (٧٩٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٩٦) وسكت عنه.

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «المظالم والغصب» باب «الظلم ظلمات يوم القيامة» حديث (٢٤٤٧)، ومسلم في كتاب «البر والصلة والآداب» باب «تحريم الظلم» حديث (٢٥٧٩) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب «البر والصلة والآداب» باب «تحريم الظلم» حديث (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب «الأدب» باب «في العصبية» حديث (٥١١٩)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٩٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٣٤) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

(٤-٤) النسبي والمطلق

١- ولقد تأثر المسلمون في كتابة أدبيَّاتهم بفكرة النسبي والمطلق، فنراهم يبدءون بالإقرار بالإيمان بالمطلق، وبما يؤدي إليه ذلك الإيمان من الإيمان بالله وبرسله وبالقيم السامية العالية التي شرحناها من قبل، ويتمثل ذلك في بدايات الكتب حيث يبدءون بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) والتي نُحِتَ منها في لغة العرب كلمة (البسملة) للدلالة عليها؛ حيث كثر استعمالها في البدايات، ثم يتبعون ذلك بـ (الحمد لله رب العالمين) وتفننوا في صياغات الحمد كثيرًا، ثم يذكرون الصلاة على النبي ﷺ.

ويعللون ذلك وهم يشرحون كلامهم بأن في هذا - البدء بالبسملة والحمدلة - اقتداء بالكتاب الكريم، حيث بدأ بفاتحة الكتاب بقوله تعالى: ﴿ **بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢** ﴾[١]، ولقوله ﷺ: «**كل أمر ذي بالٍ لا يُبْدَأ فيه ببسم الله فهو أبتر**»[٢]، وفي رواية: «**بحمد الله**»[٣]، وفي رواية: «**ذكر الله**»[٤].

وذكر الصلاة على النبي ﷺ؛ امتثالا لقوله تعالى في ذلك: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٥٦** ﴾[٥]، وطلبًا للثواب العميم الذي ورد في قوله ﷺ: «**من صلى عليَّ واحدة صلى الله عليه عشرًا**»[٦]، وأداءً لواجب النبي ﷺ في نفوسنا من تعظيمه وتوقيره وحبه.

---

(١) الآيتان ١، ٢ من سورة الفاتحة.

(٢) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ١٥٦) وعزاه لأبي داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وحسنه، ولكن في «سنن أبي دواد» المطبوع في كتاب «الأدب» باب «الهدي في الكلام» حديث (٤٨٤٠) بلفظ: «**كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم**» من حديث أبي هريرة أيضًا.

(٣) أخرجها النسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ١٢٧) حديث (١٠٣٢٨)، وابن حبان في «صحيحه» (١/ ١٧٣)، والدارقطني (١/ ٢٢٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٢٠٨) حديث (٥٥٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجها الدارقطني (١/ ٢٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجها عبدالرزاق في «مصنفه» (٦/ ١٨٩) حديث (١٠٤٥٥)، ومعمر بن راشد في «الجامع» (١١/ ١٦٣) من حديث رجل من الأنصار يرفع الحديث.

(٥) الآية ٥٦ من سورة الأحزاب.

(٦) أخرجه مسلم في كتاب «الصلاة» باب «الصلاة على النبي ﷺ» حديث (٤٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي أثناء مقدمات الكتب التي ينبغي أن تتم فيها دراسة واعية للبدء بهذا الإقرار (أعني الإقرار بالمطلق) يذكرون قضية الخلق، والكون من حولنا، ويذكرون نعمة الله علينا بالتعلم، وبالأمر والنهي والتكليف، ويذكرون شيئًا من هموم الدنيا وعوارضها وشواغلها ومشاغلها، ويقرون بمحدودية الإنسان وبضعفه، وبأنه يحتاج أن يضيف الاستغفار لله رب العالمين مع طلب المعونة والتوفيق إلى ذلك الحمد الذي بدأ به، وقد يقرون مع ذلك بالشهادتين كمدخل معرفي يربط ما يقولونه من نسبي بما يؤمن به من مطلق.

٢- وتراهم يقولون في نهاية اجتهادهم أو بحثهم "والله تعالى أعلى وأعلم" أو "والله أعلم" وهي كلمة حكيمة تدل على أمور، منها: أنه يعلن أن علمه محدود، وأن حواسه التي تتلقى الواقع من حوله محدودة، وأن الدماغ الذي هو محل التفكير وأداته محدود كذلك، ومعنى هذا أنه مع اجتهاده وتعامله مع الواقع وبحثه يعترف بأنه محدود، ويبدو أن الذات لا تتضخم حينئذ ولا يغتر الإنسان بما قد توصل إليه، ويترك فرصة كبيرة من ورائه لقضايا القطع واليقين والجزم في مقابلة قضايا الظن.

ومن حكمة هذه المقالة أيضًا أن ذلك العالِم عنده استعداد لتغيير ما قد يكون قد أخطأ فيه، وأنه يرجع عنه فورًا إذا ما تبين له الحق بالبرهان، وأنه يعلن أن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة؛ ولذلك فإنه لا يحترق أبدًا كما ذهب إليه بعضهم، ومن حكمة هذه المقالة أيضًا أنه يُرجع العلِم إلى أهله؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي علَّم الإنسان ما لم يعلم كما في قوله تعالى: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾[١]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝ ﴾[٢]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾[٣]، بل في أصل الخلقة حيث يقول: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[٤].

---

(١) الآية ٥ من سورة العلق.

(٢) من الآية ١١٤ من سورة طه.

(٣) من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة.

(٤) من الآية ٣١ من سورة البقرة.

وردُ العلم إلى الله يفيد فائدتين عظيمتين: الأولى: مستوى التفكير المستنير الذي يربط ظواهر الحياة بحقائقها، وهي أن هذه الدنيا مخلوقة لخالق، وأن الله سبحانه وتعالى لم يدعنا بعد ما خلقنا عبثًا؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾[١] والفائدة الثانية: فائدة نفسية ترجع إلى العالِم نفسه الذي يزداد تواضعًا لله كلما ازداد علمه، والذي يعلم عن يقين معنى قوله تعالى: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾[٢]، ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾[٣]، ومن الحكم أيضًا لهذه المقولة العظيمة أن العالِم يترك مساحة للبحث بعده من غيره من العلماء

٣- وهذه المعاني السامية التي أحاطت بقول العلماء "الله أعلم" قد تجاوزها كثير من المتصدرين بغير علم فيما لا يعنيهم، والذين نصحهم رسول الله ﷺ فقال: «**من حسن إسلامِ المرء تركُه ما لا يعنيه**»[٤]، فترى هؤلاء يتصدرون لكل أنواع المعرفة من غير علم، ويظنون أنهم إذا أنهوا كلامهم بقولهم "والله أعلم" قد نجّاهم ذلك من المسئولية، ومن الحساب أمام الله، والأمر ليس كذلك، بل إن الله سبحانه وتعالى أرشدنا إلى مسئولية الكلمة، وإلى أهميتها، فقال رسول الله ﷺ: «**المستشار مؤتَمَن**»[٥]، وقال أيضا: «**من أُفتِي بغير علم كان إثمه على من أفتاه**»[٦].

٤- وتراهم في كتبهم - حتى في دقائق المسائل - قد راعوا قضية المطلق والنسبي بصورة علمية دقيقة، خاصة من خلال اللغة فيما هو وصلة بين الخالق والمخلوق، فتراهم يقررون أنه يجب أن نُخرج الذات العلية - سبحانه - عن

---

(١) الآية ١١٥ من سورة المؤمنون.

(٢) من الآية ٧٦ من سورة يوسف.

(٣) من الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب «الزهد» باب «فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس» حديث (٢٣١٧)، وابن حبان في «صحيحه» (١/ ٤٦٦) حديث (٢٢٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب «الزهد» باب «ما جاء في معيشة أصحاب النبي ﷺ» حديث (٢٣٦٩)، وأبو داود في كتاب «الأدب» باب «في المشورة» حديث (٥١٢٨)، وابن ماجه في كتاب «الأدب» باب «المستشار مؤتمن» حديث (٣٧٤٥)، (٣٧٤٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

(٦) أخرجه أبو داود في كتاب «العلم» باب «التوقي في الفتيا» حديث (٣٦٥٧)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٨٣- ١٨٤) حديث (٣٤٩). من حديث أبي هريرة ﷺ.

سياق الكلام عن الأكوان، وأن يُختصَّ سبحانه ويُستَثنى مما تقتضيه استعمالات ألفاظ اللغة، يؤيد ذلك قول الشيخ الأمير: «والاسم الكريم حقيقة، وقال في الإتقان: الأعلام واسطة بين الحقيقة والمجاز، وكأنه لاحظ أنها ليست من موضوعات اللغة الأصلية، ولا يخفاك أنها لا تضعف عن اصطلاح التخاطب، والظاهر عدم المجازية فيه بوجه من الوجوه، ولو قلنا إنه كلي وضعًا وإنه في الجزئي - باعتبار خصوصه - مجاز؛ إذ لا مانع من استثناء أسمائه تعالى، وتخصيصها بمزايا كما جعلوا تعريف علميته فوق الضمير... إلى غير ذلك»[1]. اهـ.

وكذلك ما ذُكر في حاشية الشيخ حسن العطار حيث قال: «أما باعتبار كون مدلول لفظ الجلالة ذات الرب تبارك وتعالى، وكذلك الرحمن الرحيم - فمما يجب صون اللسان عن الكلام فيه من مثل هذه الأمور؛ فإن المقولات أجناس عالية للجوهر والعرض، والواجب تقدس وتعالى يستحيل اتصافه بواحد منهما»[2]. اهـ.

فيا ليتنا نقرأ تراثنا بطريقة جديدة تمكننا من استخراج كنوزه، والاستفادة منها، مع إدراكنا التام للواقع المعيش، ولمقتضيات الحياة المعاصرة؛ فلعل ذلك يعيد إلينا شيئًا من إنسانيتنا، ولعل ذلك يعيد إلينا شيئًا من التفكير المستقيم. (يتبع)

(١) حاشية الأمير على شرح الملوي على الاستعارات في شرح البسملة ص٣.

(٢) حاشية الشيخ حسن العطار على شرح المقولات لشيخه أحمد السجاعي ص٣.

ثانيًا: المقالات النقدية الإصلاحية

والله لا يحب المعتدين

عندما نتأمل فيما يحبه الله وفيما لا يحبه نعرف منظومة القيم التي تمثل مطلق الأخلاق البشرية الحميدة، التي بها عمارة الأرض والتي بها معيار الحكم على الأشياء والأفعال بالحسن والقبح، والتي بها حياة العدل، وحيث افتقد البشر ذلك المعيار فإن النكد والبلاء يحل بنا حتى مع حسن النوايا فليس بحسن النية وحده يتم المقصود.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾[7].

(١) من الآية ١٩٠ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٢٠٥ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ٦٤ من سورة المائدة.

(٤) من الآية ٢٧٦ من سورة البقرة.

(٥) الآية ١٤٠ من سورة آل عمران.

(٦) من الآية ٣٦ من سورة النساء.

(٧) الآيتان ٣٧، ٣٨ من سورة الإسراء.

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾[4] ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ ﴾[5].

١- ثلاث عشرة صفة لا يحبها الله، إذا ابتعد الإنسان عنها كان عبدًا ربانيًا، وصلح بسلوكه الاجتماع البشري، وحسنت علاقته مع ربه ومع نفسه ومع الناس، بل مع الكون كله وهو يسير في طاعة الله طوعًا أو كرهًا. ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿١٥﴾ ﴾[6]. ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾[7].

٢- وأول صفة هي صفة العدوان، وينهى عنها الله بنهي صريح مباشر، صار كالقاعدة المطردة: «ولا تعتدوا» فالعدوان يفسد نفس الإنسان، ويولد هذه النفسية التي نراها عند الطغاة عبر التاريخ، غباوة في التصرف، وسوء تقدير للأمور وبلاء في النتيجة، مهما زين الطاغية المعتدي بكلامه أفعاله، وبرر هذه الأفعال فما دامت في نطاق العدوان كانت عدوانا، ونرى ما يحدث بالعراق وفلسطين من دماء تراق وطغيان لم يشهد التاريخ مثله، فقنبلة واحدة تهلك

---

(١) الآية ٢٣ من سورة النحل.

(٢) الآية ١٠٧ من سورة النساء.

(٣) من الآية ١٤١ من سورة الأنعام.

(٤) من الآية ٧٦ من سورة القصص.

(٥) الآية ١٤٨ من سورة النساء.

(٦) الآية ١٥ من سورة الرعد.

(٧) الآية ١١ من سورة فصلت.

العشرات، وطلقة جوية واحدة تهلك المئات، فليتكلم كل البشر في تبرير ذلك إلا أن الحقيقة الباقية هي ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾(١)؛ ولذلك تتم المؤاخذة من المعتدين في الدنيا، ثم يرجعون إلى الله فيوفيهم حسابهم، والتبري من صفة العدوان يجب أن يتخلق به الإنسان على مستواه الشخصي وفي تربيته لأبنائه وعلى مستوى المجتمع، بل على مستوى الدول والعلاقات بينها.

٣- ولذلك فإن الله لا يحب الفساد ولا المفسدين، والفساد ينتج من العدوان، كما أنه لا يحب الظالمين، والظلم هو التصرف في ملك الغير بدون إذنه، والعدوان فيه تصرف في ملك الغير بدون إذنه، ونتيجة الفساد والظلم - وهو مشتق من مادة الظلام الذي هو ضد النور - وعاقبتها هي مخالفة مراد الله من خلقه فليبارز الله بالمعصية من أراد حربًا ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢).

٤- والمعتدي الذي لا يرتدع فيه صفات كلها يكرهها الله ولا يحبها: الكفر؛ "وهو ستر القلب عن استماع موعظة الخالق، بدرجات الستر المختلفة التي تنتهي بإنكاره أو إنكار وحيه"، والإثم؛ أي: "طلب الإثم وعدم الاهتمام بأنه إثم ما دام ينفذ ما يريد؛ لأنه يفهم أن الحياة الدنيا نهاية علمه وغاية أمله" ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ ﴾(٣) ولا يهتم بأمر الله فهو مختال بنفسه فخور بفعله مستكبر في نفسه، مستكبر في الأرض بغير الحق، فشأن الإنسان الضعف، ولذلك أمر بالحلم والأناة وليس بالكبر الذي يعمي بصيرته فلا يرى سوى نفسه ورأيه ولا يرى الواقع على ما هو عليه، ولا يرى المستقبل بعقل راجح. قال رسول الله ﷺ لأشج عبد قيس: «**إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم، والأناة**»(٤).

---

(١) من الآية ١٩٠ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٢١ من سورة يوسف.

(٣) الآية ٧ من سورة الروم.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب «الإيمان» باب «الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتبليغه من لم يبلغه» حديث (١٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

٥- ومجموعة الإسراف كالإسراف في الأكل والشرب وهما عنوان الترف والانشغال بالدنيا بجميع شهواته: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ ﴾[1].

٦- والإسراف في القتل ﴿ فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ﴾[2]، والإسراف في الإنفاق ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧ ﴾[3] والإسراف في الذنوب من غير توبة ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥٣ ﴾[4].

٧- ومجموعة الصفات السابقة تولد صفتين مذمومتين هما: الفرح القاصر، والجهر بالسوء. والفرح الذي هو السرور مطلوب لا شيء فيه، وأما المذموم فهو الفرح بالطغيان والعدوان وإهلاك الحرث والنسل، فهو فرح قاصر على نفس الإنسان لا يفرح سواه به، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ۝٢٠٥ ﴾[5]. وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۝٧٦ ﴾[6].

---

(١) الآيتان ٣، ٤ من سورة الحجر.

(٢) من الآية ٣٣ من سورة الإسراء.

(٣) الآية ٦٧ من سورة الفرقان.

(٤) الآية ٥٣ من سورة الزمر.

(٥) الآيتان ٢٠٤، ٢٠٥ من سورة البقرة.

(٦) الآية ٧٦ من سورة القصص.

أما الجهر بالسوء فهو أمر ذميم في التربية وفي المجتمع وفي العلاقات الدولية وفي الحكم بين الناس؛ حيث يتحول المنكر إلى معروف يرضاه الكافة وتشيع الفاحشة والبذاءة في الناس، ويتحول المعروف إلى منكر ويختل الميزان ويختلط الأمر حتى على الحكماء، ولا يبقى للناس أصولٌ يرجعون إليها في تعاملاتهم.

وقد بين النبي الكريم ﷺ ذلك في سنته الشريفة، فعن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذِ اسْتَأْذَنَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ فَأَذِنَ لَهُ فَقَالَ: السَّامُ عليك يا محمد. فقال النبي ﷺ: «**وعليك**». فقالت عائشة: فهممت أن أتكلم فعلمت كراهية النبي ﷺ لذلك فسكت. ثم دخل آخر فقال: السام عليك. فقال: «**وعليك**». فهممت أن أتكلم فعلمت كراهية النبي ﷺ لذلك. ثم دخل الثالث فقال: السام عليك. فلم أصبر حتى قلت: وعليك السام وغضب الله ولعنته إخوان القردة والخنازير، أتحيون رسول الله ﷺ بما لم يحيه الله. فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش قالوا قولا فرددنا عليهم؛ إن اليهود قوم حسد وهم لا يحسدونا على شيء كما يحسدونا على السلام وعلى آمين**»[1].

أما من ظُلم فإن الجهر بالسوء منه نوع من أنواع القصاص الذي به الحياة فهو ليس سيئًا بالحقيقة إنما سمي بذلك لصورته فقط ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾[2] والعقاب الرادع عن الجريمة ليس سيئة إلا في الصورة دون الحقيقة.

وجماع ذلك كله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ ﴾[3].

(١) هذا اللفظ أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (١/ ٢٨٨) حديث (٥٧٤)، وأصل الحديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الأدب» باب «الرفق في الأمر كله» حديث (٦٠٢٤)، وفي باب «لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا» حديث (٦٠٣٠)، وفي كتاب «الدعوات» باب «قول النبي ﷺ: يستجاب لنا في اليهود ولا يستجاب لهم فينا» حديث (٦٤٠١)، ومسلم في كتاب «السلام» باب «النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم» حديث (٢١٦٥).

(٢) من الآية ٣٤ من سورة الشورى.

(٣) الآية ٩٠ من سورة النحل.

الذباب أصله وصفاته

١- في معاجم اللغة تحليل لطيف لتلك الحشرة التي تعلمنا الصبر إذا أردنا أن نتعلمه، وهي حشرة الذباب؛ حيث إنها سميت بذلك لأن هذا النوع كلما ذبه الإنسان عنه وأبعده فإنه يعود إليه. ولا يدرك الذباب أنه غير مرغوب فيه، وأنه قد أُبعد منذ لحظات في محاولة لطرده، بل قد تكون المحاولة لقتله أيضا، وهذه الصفة تجعل منه حشرة رذيلة، وهذه الرذالة تعني أنها لا تدرك شأنها وعلاقة الآخرين بها، ولما كانت لا تدرك ضعفها ولا رغبة الآخرين في إبعادها بل وإبادتها فإنها تتصرف تصرفًا غبيًّا، وعدم الإدراك مع الغباء يدل على أنها منعدمة الشعور والإحساس مع شيء من البلادة.

٢- وتحدث ربنا عن الذباب في كتابه الكريم ضاربًا به المثل حيث جمع بين الضعف وهذه الصفات التي تجعل المقابل له ضعيفًا أيضًا من شدة إصراره على العود وعدم اهتمامه بشعور الآخرين، كما أنه عندما يسلب منا شيئًا من طعامنا أو شرابنا، بل من دمنا إن كان من نوع مصاص الدماء فإننا لا نستطيع أن نصل إلى استرداد حقوقنا منه، سواء أخذها وطار، أو جعلناه تحت أيدينا وقتلناه فإننا في جميع الحالات لا نقدر على رد حقوقنا، فالمصيبة قد حلت بتسلطه علينا وسلبه منا ما استطاع أن يسلب، ويحكى أن بعض الخلفاء سأل الشافعي ﷺ: لأي سبب خُلق الذباب؟ فقال: مذلة للملوك. وكانت ألحت عليه ذبابة، فقال الشافعي: سألني ولم يكن عندي جواب فاستنبطته من الهيئة الحاصلة.

٣- وتحدث ربنا على الجانب القدري في تسليط هذه الحشرة على الإنسان، وأنه على الرغم من ضعفها وقلة حيلتها وصغر جسمها إلا أن من دون الله لا يقدر أن يخلقها، بل هي مخلوق لله، بهذه الصفات التي جعلتها كثيرة منتشرة بالرغم من كل أنواع المقاومة التي عرفها الإنسان ابتداء من (المنشة) و(المزبة) وانتهاء بالمبيدات الحشرية المنتشرة في العالم، وما بذلته الصين للقضاء على الذباب والعصافير المسلطة على المحاصيل الزراعية. ومن أشهر الحملات التي شنت للقضاء على الذباب تلك التي نظمها الأمريكيون قبل الحرب العالمية الأولى؛ حيث كانوا يخصصون خمس دقائق في اليوم لقتل الذباب واصطياده. وهكذا كانت تدق الأجراس وصفارات الإنذار كل يوم في الساعة الواحدة إلا خمس دقائق زوالاً، فيخرج الجميع لأداء هذا الواجب طيلة خمس دقائق يعودون بعدها إلى أعمالهم. وكانت تعرف هذه العملية في جميع أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية، باليوم الوطني للذباب.

يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾[١].

٤- ولما كان هذا النوع من المخلوقات التي تبين قدرة الله ويضرب الله بها الأمثال للناس لعلهم يتفكرون لما كان هذا النوع شائعا، أعطى رسول الله ﷺ حكمًا يدل على عالمية الإسلام، وأنه لكل زمان ومكان، ولكل الأشخاص في جميع الأحوال وأنه دين الرحمة والعفو، وأنه دين اليسر والتيسير والرفق، وأنه دين حياة؛ حيث قال فيما أخرجه البخاري في صحيحه: «**إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله، ثم ليطرحه، فإن في أحد جناحيه شفاء وفي الآخر داء**»[٢]. والأصل عند وقوع ميتة في أكل أو شرب أن هذا الطعام ينجس فلابد من إلقائه وعدم أكله؛ لأن أكل النجس حرام، هذا هو الحكم الأصلي، واستثنى منه هنا الذباب؛ لأنه بشيوعه وعموم البلوى به، ورأفة بالفقراء في دول الجفاف أو بالبدو أو حين الكوارث والحروب أو المجاعات؛ لأنه لو وقع الذباب في إناء واحد منهم ولم يكن الحكم جواز أكل ذلك لوجب عليه أن يهدر الأكل الذي هو في أشد الحاجة إليه، فكان وراء هذا الحديث الذي يأنف منه كثير من الناس حكمٌ رحيمٌ بآخرين، وهذا أساس لهم لفهم النصوص الشرعية.

فالحديث ليس فيه إلا توجيهٌ يخفف عمن ابتلي بشيء من ذلك، أما على المستوى الشخصي فإني آنف أن أغمس الذباب في أكلي ولا أفعله؛ لأن هذا ليس أمرًا شرعيًّا جاء به الشرع وألزمني به، بل هو رخصة ورحمة تثبت ما ذكرناه.

وكثير من الناس لا يفرق بين المستويين، مستوى الرخصة التي تناسب عالمية الإسلام، ومستوى الواجب اللازم أو المندوب المطلوب لإقامة حياة أكثر سعادة، وهؤلاء على ثلاثة أقسام: قسم حول هذا إلى ذاك ودعا إليه شريعة، وقسم أنكر فمنهم من رفض أن يكون هذا حديثًا، وقسم اعترض على الإسلام في ذاته.

وقواعد فهم الشريعة مهمة للغاية في هذا المقام، فهي لا تجعل هناك إرهابًا فكريًّا عند سماع ما تأباه النفوس أو تعافه الثقافات، بل الشأن حينئذ التفكر والتدبر والسؤال. وليعلم من ينكر هذا أنه لم يرتكب إثما بسؤاله، فقد علمنا سيد البشر ﷺ أنه كان يعاف بعض الطعام ولا يحبه ويترك غيره يأكله.

(١) الآية ٧٣ من سورة الحج.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب «الطب» باب «إذا وقع الذباب في الإناء» حديث (٥٧٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فأبى أن يأكل الضَّبَّ، فعن ابْنِ عبَّاسٍ قَالَ: دَخَلْتُ أَنَا وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَيْتَ مَيْمُونَةَ فَأُتِيَ بِضَبٍّ مَحْنُوذٍ فَأَهْوَى إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بيده فقَالَ بَعْضُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي فِي بَيْتِ مَيْمُونَةَ أَخْبِرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمَا يُرِيدُ أَنْ يَأْكُلَ. فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ فقُلْتُ: أَحَرَامٌ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**لا وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِأَرْضِ قَوْمِي فَأَجِدُنِي أَعَافُهُ**». قَالَ خَالِدٌ: فَاجْتَرَرْتُهُ فَأَكَلْتُهُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْظُرُ[١].

وأبى أن يأكل الأرنب لمجرد إشاعة حولها وهي أنها تحيض، فعن عبدالله بن عمرو: أَنَّ رَجُلاً جَاءَ بِأَرْنَبٍ قَدْ صَادَهَا فَقَال: يَا عَبْدَاللَّهِ بْنَ عَمْرٍو، مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قَدْ جِيءَ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا جَالِسٌ فَلَمْ يَأْكُلْهَا وَلَمْ يَنْهَ عَنْ أَكْلِهَا وَزَعَمَ أَنَّهَا تَحِيضُ[٢].

وذكَّرني الذباب أيضًا بفريق من الناس يعيش بيننا لم يجد له أسوة إلا في الذباب بهذه الصفات المذكورة، فإذا شعر أحد من الناس في نفسه أنه كذلك فالنصيحة له أن يتدارك نفسه وأن يخرج من هذه القدوة السيئة والتأسي المنحرف، وليرجع إلى البشر وإلى أسوتهم الحسنى ولينتمي إليهم بشعوره ووجدانه ويزيد من مساحة الحب في قلبه بدلاً من الحقد والكبر والاضطراب، وإن كان شعور الذبابيين بذلك لن يأتي إلا بأمر الله وهدايته؛ لأن المفترض أنه بليد الحس والشعور، اللهم لا تجعلنا منهم وقنا شرهم.

٥- ومن صفات الذباب أيضًا أنه يقف على كل شيء، على الأقذار وعلى الطعام وعلى الأجسام، على السائل والجامد، لا يبالي أين وقف، ولا من أين يأخذ ما يأخذ، ومن مثال ذلك أننا نراه يلتف حول الجيد ويلتف حول الرديء ويمكن مع كثرته ألا نعرف على ماذا يقف على حلوى أو قمامة؟ ولذلك في عالم الإنسان لم تكن الكثرة أبدا مقياسًا للحق، فكم رأينا باطلاً قد التف الناس حوله التفاف الذباب على القمامة، وكم رأينا حقا قد خلا من أي تبع قال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[٣].

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الذبائح والصيد» باب «الضب» حديث (٥٥٣٧)، ومسلم في كتاب «الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان» باب «إباحة الضب» حديث (١٩٤٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب «الأطعمة» باب «في أكل الأرنب» حديث (٣٧٩٢).

(٣) الآية ١٠٠ من سورة المائدة.

وقال رسول الله ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فَرَأَيْتُ النبيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»[1]. فالحق حق ولو لم يتبعه أحد، والباطل باطل ولو اتبعه الناس أجمعون. إن هذه القاعدة البسيطة أصبحت عند كثيرين محل نظر ومناقشة على الرغم من أنها قاعدة غاية في الخطورة وهدمها يخفي وراءه الشيء الكثير.

٦- ويذكرني الذباب بالفرق بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى؛ حيث نجد في حضارتنا وموروثنا هذه الأداة التي ندفع بها الذباب مصنوعة من شعر الخيل، والدفع بها إما أن يبعدها وهو الغالب، وإما أن يقتلها ولا يكون ذلك إلا إذا كانت الحشرة قريبة وفي موضع معين. في حين أن الأداة التي عند الآخرين صنعت من بلاستيك - وقد شاعت فينا لما تركنا فلسفة حضارتنا وأنها كانت حضارة رحيمة بالإنسان والأكوان - وهذه الأداة الأخرى تقتل مباشرة، وأداتنا عند القتل لا تحطم الجسد وهذه تحطم الجسد تحطيما شديدًا، وأظن الأمر على بساطته يحتاج إلى مراجعة شاملة.

٧- ويذكِّرني الذباب بعيونه المركبة - التي ترى من كل اتجاه - بأنه ليس مثالاً للمؤمن الذي أمر بغضٍّ البصر وعدم التدخل في شئون الآخرين وعدم التلصص عليهم؛ قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[2] وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾[3] وقال جلَّ شأنه: ﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾[4].

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الطب» باب «من لم يرق» حديث (٥٧٥٢)، ومسلم في كتاب «الإيمان» باب «الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة» حديث (٢٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، واللفظ للبخاري.

(٢) الآية ٣٠ من سورة النور.

(٣) من الآية ٤٥ من سورة ق.

(٤) من الآية ٨٠ من سورة النساء.

إذا لم تستح فاصنع ما شئت

جاء الدين وحث على الحياء باعتباره خُلقًا محمودًا على مستوى الفرد وعلى مستوى المجتمع حتى شاع الذم بعبارة (قليل الحيا) في الاستعمال اليومي، مع حذف همزة الحياء؛ لأن العرب تقصر كل ممدود ولا تمد بالضرورة كل مقصور، وفي الحديث النبوي الشريف عندما عاتب أحدهم آخاه على كثرة حيائه قال له النبي ﷺ: **«الحياء خير كله»**[١]. وقال: **«إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت»**[٢]. وكان الحياء ينشئ ثقافة سائدة تمنع من الانحراف وتضبط إيقاع العمل على المستوى الشخصي والمستوى الجماعي، وانعدام الحياء يوصلنا إلى فقد المعيار الذي به التقويم والذي به القبول والرد والذي به التحسين والتقبيح، وفقد المعيار هذا يؤدي إلى ما يشبه الفوضى وهي الحالة التي إذا استمرت لا يصل الإنسان إلى غايته، ويضيع الاجتماع البشري وتسقط الحضارات في نهاية المطاف حيث لا ضابط ولا رابط.

١- وعلى ذلك فمن العبارات الشائعة وهي خطأ قولهم: (لا حياء في الدين) ويقصدون أن الإنسان يجب عليه أن يسأل في كل شيء دون خجل يصده عن التعلم فلا يخجل من عدم معرفته ولا يخجل أن يعرف كل شيء في جميع المجالات، فليس هناك حدود للمعرفة والعبارة الصحيحة التي حرفت من أصلها إلى هذه العبارة الجديدة الخاطئة هي: (لا حرج في الدين) وهناك فارق كبير بينهما فصحيح أنه لا حرج في الدين، فإن اليسر يغلب العسر، ومن طبق الدين لا يجد فيه ضيقًا ولا تضييقًا فقد قال الله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾[٣] وفي الحديث الشريف: أنه ﷺ ما خير بين أمرين إلا أخذ أيسرهما[١]. والقاعدة الفقهية الأم: «المشقة تجلب التيسير».

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب «الإيمان» باب «بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان» حديث (٣٧) من حديث عمران بن حصين ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب «الأدب» باب «إذا لم تستحي فاصنع ما شئت» حديث (٦١٢٠) من حديث أبي مسعود الأنصاري ﷺ.

(٣) الآيتان ٥، ٦ من سورة الشرح.

فالتيسير من أصل الدين، وهو يشتمل على الرفق في المعاملة يقول النبي ﷺ: **«إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»**[٢]، ويشتمل التيسير على الرحمة يقول ﷺ: **«الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»**[٣]، ويشتمل على رفع الضرر، حيث يقول ﷺ: **«لا ضرر ولا ضرار»**[٤]، ويشتمل على الاستمرار في العمل وفي الحديث: كان عمله ﷺ ديمة[٥].

٢- والحياء خلق يمنع صاحبه من الفحش في القول والعمل، ولذلك فإنه ضد بعض معاني الشفافية التي يدعو إليها بعضهم في عصرنا هذا، والشفافية قد تعني الصراحة في القول والصدق في العمل وهو خلق محمود بلا شك، وقد تعني التبجح بالفاحشة وإظهار المعاصي والفجور بدعوى الحرية التي تساوي حينئذ التفلت والعبث، ولقد نهينا عن هذا التبجح قال رسول الله ﷺ: **«كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا، ثم يصبح وقد ستره الله فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه»**[٦]، فالمجاهر يتبجح بالمعصية، إنه يريد أن تشيع فعلته في الناس حتى يكونوا مثله ويكونوا في الفاحشة سواء

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «المناقب» باب «صفة النبي ﷺ» حديث (٣٥٦٠)، وفي كتاب «الأدب» باب «قول النبي ﷺ: يسروا ولا تعسروا وكان يحب التخفيف واليسر على الناس» حديث (٦١٢٦)، وفي كتاب «الحدود» باب «إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله» حديث (٦٧٨٦)، ومسلم في كتاب «الفضائل» باب «مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرماته» حديث (٢٣٢٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب «البر والصلة والآداب» باب «فضل الرفق» حديث (٢٥٩٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب «الأدب» باب «في الرحمة» حديث (٤٩٤١)، والترمذي واللفظ له في كتاب «البر والصلة» باب «ما جاء في رحمة الناس» حديث (١٩٢٤)، والحاكم في «مستدركه» (٤/ ١٧٥) حديث (٧٢٧٤) وصححه من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه ابن ماجه في كتاب «الأحكام» باب «من بنى في حقه ما يضر بجاره» حديث (٢٣٤١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، والحاكم في «مستدركه» (٢/ ٦٦) حديث (٢٣٤٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وذكره ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحكم» ص٣٠٢ وذكر أن له طرقًا يقوّي بعضها بعضًا.

(٥) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الصوم» باب «هل يخص شيئًا من الأيام» حديث (١٩٨٧)، وفي كتاب «الرقاق» باب «القصد والمداومة على العمل» حديث (٦٤٦٦)، ومسلم في كتاب «صلاة المسافرين وقصرها» باب «فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره» حديث (٧٨٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الأدب» باب «ستر المؤمن على نفسه» حديث (٦٠٦٩)، ومسلم في كتاب «الزهد والرقائق» باب «النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه» حديث (٢٩٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ للبخاري.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1] ولقد ابتلينا بهذا الصنف من الناس الذين يريدون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

٣- والحياء المذكور في القرآن جاء على ثلاثة أنحاء الأول: ما أسند إلى الله تعالى قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا ﴾[2]. وذلك أن هذا ليس بحال الحياء؛ لأنه مجال تعليم كما سبق والحياء إنما هو خلق يمنع صاحبه من السوء وإظهار المعصية وحب إشاعة الفحشاء، ولا علاقة له بالخجل من السؤال في العلم وطلب التعلم؛ لأن العلم وطلبه من الحق قال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[3] والثاني: حياء منسوب إلى النبي ﷺ ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ﴾[4] وهو حياء من كمال خُلقه ورحمته بأتباعه؛ حيث يقول لهم: «**أنا لكم بمنزلة الوالد**»[5]. والثالث جاء منسوبًا إلى النساء العفيفات اللائي تربين في بيوت النبوة ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾[6]

٤- وأثر الدعوة إلى قلة الحياء نراها في التصرفات الدولية، حيث يحتل المحتل الأراضي ويسلب الخيرات ويسرق الوثائق والمستندات التاريخية ويعذب السجناء ويلتقط لهم الصور أثناء التعذيب حتى يبعثها لأهله مفتخرًا بنفسه أنه عذب البشر. وخسة أخلاقه حيث ذهب الحياء، وتكذب الأجهزة والدول جهارًا نهارًا بدعوى أسلحة الدمار الشامل والكامل ثم يتبين أنه لا دمار ولا عمار ويستمر الكذب والبهتان ومخالفة الواقع دون حياء، فصدق الأنبياء إذا لم تستح فاصنع ما شئت.

---

(١) الآية ١٩ من سورة النور.
(٢) من الآية ٢٦ من سورة البقرة.
(٣) من الآية ٥٣ من سورة الأحزاب.
(٤) من الآية ٥٣ من سورة الأحزاب.
(٥) أخرجه أبو داود في كتاب «الطهارة» باب «كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة» حديث (٨)، والنسائي في كتاب «الطهارة» باب «النهي عن الاستطابة بالروث» حديث (٤٠)، وابن ماجه في كتاب «الطهارة وسننها» باب «الاستنجاء بالحجارة والنهي عن الروث والرمة» حديث (٣١٣)، والدارمي في كتاب «الطهارة» باب «الاستنجاء بالأحجار» حديث (٦٧٤)، وابن خزيمة في «صحيحه» (١/ ٤٣) حديث (٨٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٤/ ٢٧٩) حديث (١٤٣١) من حديث أبي هريرة ﷺ، واللفظ لأبي داود.
(٦) من الآية ٢٥ من سورة القصص.

فإننا كنا معتمدين على أن الحياء يمنع صاحبه من إظهار السوء وإن ظهر يمنعه من الاستمرار فيه وإن تكرر يمنعه من البقاء عليه أو الاستهانة بمن حوله بشأنه ولكن قلة الحياء مكنت هؤلاء من ذلك كله.

٥- وقلة الحياء نراها أيضا في أولئك الذين حرفوا كلام الله سبحانه وتعالى، ولا يزال التحريف والتخريف مستمرًا يقول الله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾[1] ويقول تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[2].

فعلاج قلة الحياء العفو والصفح والإحسان والصبر على ما ابتلانا الله به؛ ويقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ۚ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[3].

(١) الآية ٧٥ من سورة البقرة.

(٢) الآية ١٣ من سورة المائدة.

(٣) الآيتان ٤١، ٤٢ من سورة المائدة.

فقلة الحياء شائعة في المنافقين الذين آمنوا بأفواههم وتأبى قلوبهم، وشائعة في الكافرين الذين تبجحوا بالكفر أيضًا وعلاج هؤلاء أيضا هو الإعراض عنهم، قال تعالى يؤكد ذلك المعنى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴾[1].

٦- ومن قلة الحياء على مستوى المجتمع أن يطلب الرئاسة أسافل الناس، بعد كل ما قدموه من فاحشة وسمعة سيئة، ويصدق فيهم قول النبي ﷺ في علامات فساد الزمان وأهله: «**يأتي على الناس سنوات خداعات، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيهم الرويبضة**». قيل: يا رسول الله، وما الرويبضة؟ قال: «**الرجل التافه يتكلم في أمر العامة**»[2].

أحدهم ناقشته في إحدى الهيئات العلمية فترك المناقشة وقال لأحد الجالسين المبعوثين إلى الولايات المتحدة للدراسة على سبيل التفاخر بقلة الحياء وسوء الدين، واستهتارًا لكل قيمة وخلق كريم: «يا فلان، بعد اللقاء سأعطيك عناوين دور الرذيلة في الولايات المتحدة فهي في حقيبتي» ونسي المسكين أن الرذيلة ممنوعة في الولايات المتحدة التي يتشدق بذكرها ونسي المسكين أن قلة الحياء لا ينتج منها خير، ولا تزيد صاحبها إلا خساسة ودناءة وانحطاطًا عند الله وعند الناس، هذا نموذج من يطلب الرئاسة عملاً بالديمقراطية وأمثال هؤلاء الذباب كثير.

٧- ويبدو أن المخرج من قلة الحياء هو التربية المستدامة والإصرار عليها، وإرجاع القيم التي تمنع التفلت وجعل تلك الآية دستورًا للتربية.

---

(١) من الآية ٦٣ من سورة الفرقان.

(٢) أحمد في «مسنده» (٢/ ٢٩١) حديث (٧٨٩٩)، وابن ماجه في كتاب «الفتن» باب «شدة الزمان» حديث (٤٠٣٦)، والحاكم في «مستدركه» (٤/ ٥١٢) حديث (٨٤٣٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه.

عندما ينطق الرويبضة

أفتخرُ أنني أنتمي إلى هذا الوطن العزيز، وأفرحُ له كلما رأيته يعلو ويتقدم ويقوى، وأحزنُ إذا رأيت ما يعرقله ويعوقه ويؤرقه ويعكر صفوه، أستبشرُ عندما أراه حُرًّا مبدعًا، وأحمل الهَمَّ إذا رأيته مكبّلاً أو رأيت من يحاول تشويهه، دائمًا أبحث عن الخير فيه وفي أبنائه، وصار هذا طبعًا لنفسي لا أستطيع الفكاك منه والحمد لله رب العالمين، وأتحيز تحيزًا أراه حميدًا أحمده ولا أفقده، ولا أسمح لأحد ينصح بترك حُبِّ هذا الوطن، أو يأخذ في جلد ذاته التي يريد أن يخرج منها إلى الأوهام والأحلام، وأتذكر قول أبي العلاء:

وَقُلْتُ: الشَّمْسُ بِالبَيْدَاءِ تِبْرٌ ... وَمِثْلُكَ مَنْ تَخَيَّلَ ثُمَّ خَالا
وَفِي ذَوْبِ اللُّجَيْنِ طَمِعْتَ لَمَّا ... رَأَيْتَ سَرَابَهَا يَغْشَى الرِّمَالا

١- ومما يعرقل مسيرة الإصلاح تشويه فهم الحرية، وتطبيق ذلك المفهوم، هل الحرية تعني التفلت؟ أو أن الحرية تستلزم الصدق؟ ومثال ذلك في مجال الصحافة مثلاً: هناك أخبار تحتاج إلى معلومات، هذه المعلومات لها حرية في نشرها، وهي أعلى أنواع الحرية الصحفية، أن يتاح لك أن تذكر المعلومات بشرط أن تكون جادة، وأن تكون صادقة دقيقة، وحتى يصل الكاتب إلى ذلك يحتاج إلى بذل مجهود لا إلى تأليف الأحداث أو حتى استنباطها بعقله دون جمع المعلومات الحقيقية عنها، وهذا هو الذي أدى إلى قضية (ووتر جيت) التي انتهت إلى استقالة نيكسون، والذي يقرأ ما فعله الصحافيان بوب وودوارد (**Bob Woodward**) وكارل برنشتاين (**Bernstein Carl**) في تلك القضية عام ١٩٧٤م من مجهود وتتبع ما أتيح لهما من حرية للنشر يعلم أن العمل الجاد لابد أن يؤتي ثمرته، حتى تم تخليد دورهما في قضية (ووتر جيت) بكتاب ألفاه بعنوان (كل رجال الرئيس) والذي تحوَّل إلى فيلم بنفس العنوان وحصد إيرادات ضخمة سنة ١٩٧٦م.

وهذا النوع من الحرية في نشر المعلومات يحتاج إلى أذهان تتلقاه بالقبول وتفهمه، وتكون قد هُيئت وتدربت للتعامل معه، ويكون هناك ثقافة سائدة قد وضعت المعايير للفصل بين الصحافة الجادة، وصحافة الإثارة، وتم تصنيف مجموعة الصحف الرصينة الصادقة التي تأبى أن تنشر إلا الصدق، وهذه المسكينة التي لا تبالي ماذا تنشر، وكل ذلك مكتوب مدروس لا يحتاج إلى مزيد كلام، ولكن يحتاج إلى تنبيه، وهناك حرية الآراء والأفكار، وهناك حرية الخدمة، وبهذه الثلاثة تتم حرية الصحافة التي نص الدستور المصري في نهايته على أنها سلطة رابعة مستقلة.

٢- وحتى نصل إلى هذه الحالة، وعندئذ تؤثر الصحافة في الرأي العام وتشارك في بناء عقلية علمية واعية، تبني وطنها وتعمل لصالحه، فإنه يجب علينا الصبر على هذه الحالة التي نمر بها، والتي يصدق فيها قول رسول الله ﷺ: **«تأتي على الناس سنوات خدَّاعات يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة»**. قيل: يا رسول الله، وما الرويبضة؟ قال: **«الرجل التافه يتكلم في أمر العامَّة»**[(١)].

ونطق الرويبضة علامة وليس له حكم في ذاته، وأعني بذلك أنه قد يكون ضروريًّا للوصول إلى بناء الملكة عند القارئ حتى يميز الصحيح من القبيح. وقد يظن بعض الناس - بل هو منهج في الفهم قام به بعض الأئمة المجتهدين - أن كل ما كان بمثل هذه الصياغة في الحديث أنه من باب الشر المطلق، ويرى الإمام النووي غير ذلك حيث يعلق على حديث جبريل الذي أخرجه مسلم وهو يتكلم عن أشراط الساعة وفيه عبارة: **«أن تلد الأمة ربتها»**[(٢)].

يقول: «واعلم أن هذا الحديث ليس فيه دليل على إباحة بيع أمهات الأولاد، ولا منع بيعهن، وقد استدل إمامان من كبار العلماء به على ذلك، فاستدل أحدهما على الإباحة، والآخر على المنع، وذلك عجب منهما، وقد أُنكر عليها؛ فإنه ليس كل ما أخبر ﷺ بكونه من علامات الساعة يكون محرمًا أو مذمومًا، فإن تطاول الرعاء في البنيان وفشو المال وكون خمسين امرأة لهن قَيِّمٌ واحد - ليس بحرام بلا شك وإنما هذه علامات والعلامة لا يشترط فيها شيء من ذلك، بل تكون بالخير والشر والمباح والمحرم والواجب وغيره، والله أعلم»[(٣)].

ويرى الشافعية كما نص عليه الإسنوي في كتابه «التمهيد»: (أن الاقتران ليس بحجة عندنا) ويقصد بكلمة الاقتران أن يعطف شيء على شيء آخر، ويقصد أنه ليس بحجة أن هذا العطف لا يجعل الحكم مشتركا بينهما، بل قد يكون الواجب معطوف على المندوب والمندوب معطوف على المباح قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[(٤)] ونرى أن العدل واجب، والإحسان مندوب،

---

(١) سبق تخريجه قبل قليل.
(٢) أخرجه مسلم في كتاب «الإيمان» باب «بيان الإيمان والإسلام والإحسان» حديث (٨) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.
(٣) «شرح صحيح مسلم» للنووي (١/ ١٥٩).
(٤) الآية ٩٠ من سورة النحل.

وإيتاء ذي القربى كذلك، وقال رسول الله ﷺ: «**خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط، وقص الشارب**»[١]، فالختان واجب في حق الذكور، ولكن نتف الإبط من الفضائل وهكذا.

٣- وفي حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه وهو حديث طويل عبارة: «**ولن يكون ذلك كذلك حتى تروا أمورًا عظامًا يتفاقم شأنها في أنفسكم، وتساءلون بينكم هل كان نبيكم ذكر لكم منها ذكرا**»[٢]. فهذه الحالة الثقافية التي نمر بها والتي لم تستقر بعد، ولم تتحدد مفاهيم كثيرة منها، والتي خرج الرويبضة ليساهم فيها ويتكلم في الشأن العام، من التصدر للنصيحة حتى الطبية منها، إلى الإفتاء ولو بغير علم مع أنه لم يحفظ آية كاملة إلا في قصار السور، إلى تولي المناصب العامة، إلى الكلام في الشيوعية البائدة أو الفن الجديد، إلى من يريدنا أن ننسلخ عن أنفسنا وديننا وتاريخنا، إلى من يريد إرهابًا فكريًا، إما هو وإما الجحيم، ثم جحيمه هي الجنة، وأن جنته هي الجحيم؛ لأنه دجال من الدجاجلة، ويقول رسول الله ﷺ في شأن الدجال: «**يخرج الدجال معه نهر ونار، فمن وقع في ناره وجب أجره وحط وزره، ومن وقع في نهره وجب وزره وحط أجره**»[٣].

٤- والمخرَج من ذلك كله هو الصبر والتأكيد على الحرية الملتزمة، وترك الرويبضة يكتشفه الناس في تفاهته وفي هشاشة تفكيره، والاستمرار في بناء الإعلام الجاد الملتزم الذي سوف يطرد الهش والغث، والذي سيجعل التافه يتعلم أو يستحي أو يتوارى أو يسير مسار الجادين أو يحاول حتى لو لم يصل إلى مستواهم، وأنا مستبشر خيرًا أن هذه الحالة من الكسل والتفاهة سوف تنتهي؛ فقد ظهرت صحافة الإثارة في أمريكا سنة ١٨٣٠م ثم استقر الأمر الآن، وأصبح من دواعي الاشمئزاز عند الطبقة المثقفة هناك أن يرى أحدهم صحيفة من هذه الصحف في يد قارئ مسكين وكأنه يقول له بنظرته العاتبة: (هل ما زلت هنا لم تتعلم؟) إن هذه الثقافة لن تأخذ كثيرا من الوقت، وذلك بسبب التطور الهائل من الاتصالات والمواصلات والتكنولوجيا.

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «اللباس» باب «قص الشارب» حديث (٥٨٨٩)، ومسلم في كتاب «الطهارة» باب «خصال الفطرة» حديث (٢٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٦)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢/ ٣٢٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٧/ ١٠٣) حديث (٢٨٥٦) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(٣) هذا اللفظ أخرجه أبو داود في كتاب «الفتن والملاحم» باب «ذكر الفتن ودلائلها» حديث (٤٢٤٤) من حديث حذيفة رضي الله عنه، وأصل الحديث متفق؛ أخرجه البخاري في كتاب «أحاديث الأنبياء» باب «ما ذكر عن بني إسرائيل» حديث (٣٤٥٢)، وفي كتاب «الفتن» باب «ذكر الدجال» حديث (٧١٣٠)، ومسلم في كتاب «الفتن وأشراط الساعة» باب «ذكر الدجال وصفته وما معه» حديث (٢٩٣٤).

وحتى نصل إلى هذه الحالة علينا أن نصبر ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[1] وأن نتصدق بِعِرْضِنا على الناس. عن أبي هريرة أن رجلا من المسلمين قال: اللهم إنه ليس لي مال أتصدق به وإني جعلت عرضي صدقة. قال: فأوجب النبي ﷺ أنه قد غفر له[2]. وأن نهجرهم هجرًا جميلا قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾[3] وأن نتمسك بصفات عباد الرحمن قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾[4].

كل ذلك من أجل الوصول إلى الحرية الملتزمة التي وصل إليها غيرنا بإراقة الدماء، ألا يمكن أن نصل إليها بالأخلاق الكريمة!!

(١) من الآية ١٨ من سورة يوسف.

(٢) رواه ابن عبدالبر في «الاستيعاب» (٤/ ١٦٩٤)، وذكره الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (٤/ ٥٤٧).

(٣) الآية ١٠ من سورة المزمل.

(٤) الآيات ٦٣: ٦٥ من سورة الفرقان.

لكِ الله يــا حقوق الإنســان

كتب المفكر العربي الأستاذ الكبير زكي نجيب محمود مقالة تحت عنوان: «لك الله يا علوم الإنسان» نعى فيها على من يحاول أو يؤصل بنظرة إيمانية للدخول في دراسة العلوم الاجتماعية والإنسانية، وهي النظرة التي شاعت في الحقيقة في مدرسة إسلامية المعرفة، أو التأصيل الإسلامي للمعرفة، وشاعت أيضًا وبصورة مختلفة بعد كتابات (ماكس فيبر) حول الأخلاق البروتستانتية، ثم في كتابات كثيرة في الاقتصاد باعتباره من علوم الإنسان من مدخل قيمي، أي أن القيم تسيطر عليه. وبغض النظر عن موقفنا من فكر الراحل العلامة زكي نجيب محمود ومساحات الاشتراك والاختلاف معه ومع مراحل تفكيره وعطائه بدءًا من تسمية كتابه (خرافة الميتافيزيقيا) وانتهاءً بتغيير اسمه إلى (موقف من الميتافيزيقيا) أو المقالات التي كتبها في الأهرام في نهاية حياته مدافعًا عن الثقافة العربية.

بغض النظر عن ذلك فقد سمحت لنفسي أن أستعير عنوان مقاله مع تغيير الموضوع من علوم الإنسان إلى حقوق الإنسان، ولعل هذا المقال يكون استمرارًا لمقالي السابق: «**إذا لم تستح فاصنع ما شئت**».

١- يشغل العالم الغربي نفسه منذ فترة ليست بالقصيرة بمسألة حقوق الإنسان، فمنذ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر من الأمم المتحدة سنة ١٩٤٨م وحتى اليوم وهناك اهتمام عالمي بهذه المسألة، وصدرت وثائق ومعاهدات واتفاقات حول هذه المسألة بخلاف عشرات الآلاف من الدراسات بلغات الدنيا المختلفة، ونشأت هيئات وجمعيات غير حكومية وحكومية لرعاية حقوق الإنسان وحفظ كرامته، ولقد اهتم المسلمون بها، ومما قالوه ونفذوه في حضارتهم (الإنسان قبل البنيان) و(تربية الساجد قبل بناء المساجد) ولذلك اهتموا أن تذهب الرعاية إلى الإنسان وأن تزيين البنيان يأتي في المرتبة الثانية بعد اكتفاء الإنسان والقيام بجميع شئونه، وكما قال رسول الله ﷺ: «**جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**»[(١)].

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «التيمم» باب «قول الله تعالى: ﴿ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾ حديث (٣٣٥)، وفي كتاب «الصلاة» باب «قول النبي ﷺ: جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا» حديث (٤٣٨)، ومسلم في كتاب «المساجد ومواضع الصلاة» حديث (٥٢١)، (٥٢٣) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

فيمكن للمسلم وقد كلف بخمس صلوات في اليوم والليلة أن يصلي حيثما أدركته الصلاة في أي مكان في الأرض، بل إن اتصال الإنسان بهذه الأرض التي يسجد عليها لله لم يقتصر على ذلك بل امتد إلى استعمال ترابها في التيمم الذي هو بديل عن الماء إذا فقده المصلي، فالماء به الاغتسال والوضوء، فإن فقدناه استعملنا الأرض بديلا عنه، وكأنه يشير إلى البداية والنهاية، أما البداية ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1] وأما النهاية ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾[2].

٢- واهتم المسلمون بالإنسان فجعلوا مقاصد الشريعة التي خاطبته والتي يخاطب بها الناس أجمعون وتتجاوز الزمان والمكان في جميع الأحوال خمسة: حفظ النفس حتى تقوم حية قابلة للخطاب، وحفظ العقل وعدم الاعتداء عليه بأي تسلط أو إكراه، بل هناك حفظ عليه في أساسه، وحفظ عليه في منهج تفكيره، وحفظ عليه في حريته وإبداعه حتى في مسائل الإيمان قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾[3] و﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾[4] و﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[5] بالإضافة إلى حفظه بتحريم كل مسكر ومفتر قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾[6] وعن أم سلمة رضي الله عنها: نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومفتر[7].

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية ٥٥ من سورة طه.

(٣) من الآية ٢٥٦ من سورة البقرة.

(٤) الآية ٦ من سورة الكافرون.

(٥) من الآية ٢٩ من سورة الكهف.

(٦) الآية ٢١٩ من سورة البقرة.

(٧) أخرجه أحمد «مسنده» (٦/ ٣٠٩) حديث (٢٦٦٧٦)، وأبو داود في كتاب «الأشربة» باب «النهي عن المسكر» حديث (٣٦٨٦)، والطبراني في «الكبير» (٢٣/ ٣٣٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٢٩٦) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

وحفظ الدين فإن الله يحب المتقين والصابرين والمتوكلين والمحسنين، ولا يحب المفسدين، ولا المتكبرين والخائنين، ويحب ولا يحب دستور الإنسان الحضاري. وحفظ كرامة الإنسان التي سميت في تراثنا بالعرض، ولقد أحيط بسياج كبير من الضمانات حرمت الاحتجاز القسري، والاعتقال العشوائي والتعذيب للمتهم، وحرمت السب والقذف والاتهام المسبل عن الدليل، وحرمت التفرقة العنصرية بكافة أشكالها وغير ذلك كثير من حفظ حقوق الإنسان في كرامته.

واهتم المسلمون بحفظ ملك الإنسان وحرمة الاعتداء على ماله واغتصاب حقه وجعل هذا من الكبائر التي تهدم الاجتماع البشري. ومن كل هذا بنيت الحضارة الإسلامية على مؤسسة القضاء.

٣- وحقوق الإنسان التي نقشت على جدران الأمم المتحدة في مدخلها - والتي نرجو من الله أن لا تكون قد نقشت على الحجر ثم حرموها البشر - وافق عليها المسلمون في العصر الحديث كما وافقوا على كل دعوة إلى الخير وعلى كل اتفاق على الرشد، كما وافقوا كذلك على إلغاء الرق ورأوا فيها مشتركا يمكن أن يتفق عليه الناس ويعيشوا فيما بينهم بسلام.

ولكن من غير تأسيس نظري أو فلسفي ومن غير نظام واضح المعالم رأينا من يحشر حقوقًا مدعاة للإنسان لم يتفق عليها البشر، والحقوق المعتبرة الملزمة هي الحقوق التي يتفق عليها البشر أما ما لم يتفق عليه البشر فإنه لا عبرة فيه، وهذا ما زال يمثل ثقافة سائدة عند من اخترعه أو وافق عليه، وهذه الحجة يجب ألا تغيب في ظل ارتفاع الأصوات والضجيج والغوغائية التي أصبحت هي السمة الغالبة في الناس بعد أن تأخر التفكير عن النشاط كما يقول (رينيه جونو) المفكر والفيلسوف الفرنسي وهو يتأمل في تدهور الحالة الفكرية لعموم العالم أين (مونيسيكو ولوك وسبنسر وفولتير وجان جاك رسو وهيوم) فقد كانوا يتكلمون بشيء قابل للبحث والمناقشة وعرضوا أفكارهم بطريقة لافتة للنظر مع رفضنا لكثير مما ذهبوا إليه، ولكن يبدو أن عدوا عاقلاً خير ألف مرة من صديق جاهل.

٤- من أين سَرَتْ لحقوق الإنسان قضية الشذوذ الجنسي؟ من الذي جعل الشذوذ المقرف المخالف لكل دين على وجه الأرض عرفته البشرية، ذلك الشذوذ المسبب لدخول الإنسان في حياته جحيمًا لا يستطيع الفكاك منه، ونارًا لا يستطيع أن يخرج منها، فيصاب بالاكتئاب والأمراض؟ من الذي دسه وسط حقوق الإنسان؟ ما نظريته أو فلسفته؟ إنها محض غوغائية وصوت عال متشنج يقول: «اتركوا الإنسان في حياته الشخصية هو حر فيها» وهل هو حر في الانتحار؟ وهل هو حر في ممارسة الخيانة العظمى ضد دولته ووطنه ومجتمعه؟ وهل هو حر في تناول

المخدرات وممارسة الدعارة والقتل للملل والقتل للمرض والقتل بالاتفاق؟ إلى آخر هذه القائمة التي أباحها بعضهم في مجتمعاتهم. فهل إباحة بعض الناس لهذا الهراء يدخله في حقوق الإنسان التي يجب أن يلتزم بها العالم كله؟ إن أول شروط حقوق الإنسان أن يكون متفقًا عليها.

٥- ومصيبة أخرى وهي عقوبة الإعدام التي يراد نفيها وإلغاؤها، وهي تحتاج منا إلى نظر، وتأتي حيث إن الإعدام بضماناته ووضعه هو حق من حقوق الإنسان؛ حيث إن فلسفة العقوبة بُنيت على ردع المجرم والقضاء على الجريمة والضمانات والشروط الموضوعة تكفي لتحقيق ذلك، ونظرية القصاص في الشريعة الإسلامية التي تمكن من العفو من أهل القتيل، فنشأ القصاص لتهدئة بالهم وإصلاح ذات البين أكثر تطورًا من الناحية الإنسانية من عقوبة الإعدام التي نمارسها اليوم، ففرصة العفو وفرصة التعويض المادي المسمى بالدية تضفي إنسانية أعلى من العقوبة المجردة. أما إلغاء الإعدام بالكلية كما ينادي به الصوت العالي غير المؤسس على نظر صحيح، ولا حتى فلسفة واضحة إنما هو اعتداء في نهايته على حقوق الإنسان.

نسأل الله ألا تكون حقوق الإنسان مشجبا يعلق عليه كل أحد ثقافته وشهواته وأموره الشخصية فحقوق الإنسان أمر مهم وخطير، ولابد أن ننزله من الحجر إلى البشر، وأن نسعى فيما اتفقنا عليه بدلا من المهاترات التي لا تقبل عقلا ولا قلبا.

إنهم يقتلون الجمال

حادث مروِّع سخيف، قَتل وجرح فيه أحدُ المرجفين الجبناء خلقًا من خلق الله تعالى مصريين وسياحًا في منطقة تشهد على تَبَنِّي المسلمين للجمال والرحمة عبر العصور، الجمال بمعناه الواسع الذي يتعدى الجمال الفلسفي، الذي يقتصر على ما يتعلق بالبصر والمشاهدة بالعين، في حين أن المسلمين قد ارتفعوا به إلى البصيرة وإلى اعتقادهم أن الجمال من صفات الله تعالى، ففي الحديث الشريف: «**إن الله جميل يحب الجمال**»[1]؛ فإذ بهؤلاء القتلة المرجفين يقتلون الإنسان في منطقة الأزهر، لابد أن هذا العربيد لم يشاهد الجمال لا بعينه ولا بقلبه ولا بعقيدته، إنه شاهد قبح نفسه وقبح معتقده في قلبه، وهو يخالف الدين الذي أنزله الله على سيدنا محمد ﷺ.

في الأسبوع قبل الماضي كتبتُ عن مدرسة السلطان حسن ومسجده، وكنت أريد التنبيه إلى جمال هذه المدرسة في ظاهرها وحقيقتها ومضمون الرسالة التي أرادها السلطان حسن، وكيف نحيي هذه الأغراض الجليلة في عصرنا، وأردت أن أنبه أيضًا إلى أن الحضارة الإسلامية مستمرة لم تمت، وإن كانت قد تخلَّت عن القيادة والريادة، وتخلَّت عن المساهمة والإفادة، وتخلَّت عن اليقظة والإيقاظ، ولكن بقاء لغتها وبقاء كتابها وبقاء تراثها، واستمرار ميراث الدين الذي بنيت عليه من جيل إلى جيل - يؤكد عدم موتها وبقاءها، فهي في حالة نوم قابلة للإيقاظ ولا تحتاج إلى إحياء من موت وبعث بعد وفاة.

١- تفجير يوم الخميس قبل الماضي هو أحد المظاهر السلبية التي نراها من آثار نوم الحضارة الإسلامية، وبالإضافة إلى الإنكار وإلى الجهود الأمنية التي ستضرب بيد من حديد جزاء وفاقًا لردع المجرمين، وإلى تعليم الناس صحيح الإسلام؛ فإنه لابد من الاستمرار في مراعاة جيلنا الجديد؛ حتى لا يقع فريسة لهؤلاء المضلين المرجفين الذي حذرنا الله منهم ووصفهم بالنفاق والمرض، فقال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾[2].

(١) أخرجه مسلم في كتاب «الإيمان» باب «تحريم الكبر وبيانه» حديث (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) الآيات ٦٠: ٦٢ من سورة الأحزاب.

فالإرهاب كلمة غير صحيحة لتسمية هذا الفعل وتلك الظاهرة، بل الصحيح في لغة العرب وفي الاستعمال القرآني (الإرجاف) فالإرجاف هو ما يقوم به هؤلاء السفلة، أما الإرهاب فيعني في لغة العصر الردع مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[1]. وهذا معناه أن ترجمة كلمة (**Terrorism**) هو الإرجاف وليس الإرهاب، بل الإرهاب هو قوة الردع التي تهدف إلى السلام.

٢- زارني بعد المقالة السابقة الدكتور صالح لمعي مصطفى - عميد كلية الهندسة المعمارية بجامعة بيروت سابقًا - وأهداني كتابه الكريم في العمارة الإسلامية، وبين لي كيف أن العقد في مدرسة السلطان حسن هو نوع من أنواع تنفيذ مقتضيات الرياضة التطبيقية، وهو علم حديث لكن المسلمين قد عرفوه، وأن التداخل من ثلاث جهات كما هو موجود في المدرسة دخل بزاوية معينة لا يمكن حدوثها إلا بها، ولكن سيبقى ما في المدرسة آية للذكاء وللجمال وللهندسة وللتطبيق للمعلومات المجردة، كما صحح لي الدكتور لمعي ما ذكرته عن علاقة حسن عبدالوهاب بشأن اسم مشيد أو باني مسجد السلطان حسن، وهو كما ذكر المرحوم حسن عبدالوهاب (ناصر الدين محمد بن البيبك المحسني) ولكنه بيَّن لي أن هذا الشخص كان متحدثًا رسميًّا باسم السلطان فيما يتعلق بالقصور والمنازل وبناء الأسوار، وله مرتبة بالحكومة هي (إمرة عشرة). قال القلقشندي: (شاد) شد العمائر: وظيفة يكون صاحبها متكلمًا في العمائر السلطانية[2].

وعلى ذلك فما عثر عليه العلامة حسن عبدالوهاب ليس هو من بنى المسجد، بل إنه المتحدث الرسمي للسلطان، ولا يزال المهندس الذي بنى المسجد مجهولاً حتى الآن، فشكرًا للأستاذ الدكتور المحب للجمال صالح لمعي.

---

(١) الآية ٦٠ من سورة الأنفال.

(٢) «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» (٤/ ٢٢).

٣- لقد فطر الله النفس البشرية على حب كل جميل، والنفور من كل قبيح، جعل الله الميل للجمال أمرًا طبعيًا في الفطرة السليمة، فطبع الإنسان ينفر من كل منظر وخلق وصوت قبيح، وجعل الله الجمال كذلك أمرًا محثوثًا عليه في شرعه الشريف، ففي الجمال اجتماع للأمر الكوني والأمر الشرعي في انسجام باهر.

ولذلك حث الإسلام على جمال المنظر، وجمال الأخلاق، والأصوات، والرائحة، والمسلم بخلقه الجميل، وبعبادته لرب جميل، وبالتزامه بشرع جميل، يكون جميلا يشيع الجمال والراحة والطمأنينة في المكان الذي يحل فيه، فالمسلم كالغيث أينما حل نفع، ولنطالع نصوص الشرع الشريف التي ترغب فيه:

ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تتكلم عن الجمال وتحث عليه منها قوله تعالى:

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ ﴾[١]. ففي هذه الآيات يمتن الله تعالى على خلقه بالجمال والزينة التي جعلها في الدواب. وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ ﴾[٢]، وهذا مشهد جمالي آخر يدعونا ربنا للتأمل فيه وهو جمال السماء وتزينها بالبروج. كما امتن سبحانه على خلقه بجمال حدائق الأرض فقال سبحانه:

﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾[٣] وقد حث الإسلام على التجمل والتزين عموما - لاسيما عند الذهاب إلى المساجد - فقال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[٤].

١٣٣

---

(١) الآيات ٥: ٨ من سورة النحل.

(٢) الآية ١٦ من سورة الحجر.

(٣) من الآية ٦٠ من سورة النمل.

(٤) من الآية ٣١ من سورة الأعراف.

كما ورد الحث على الجمال والاعتناء به في السنة النبوية الشريفة فقد قال النبي ﷺ: **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»**. قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنة. قال: **«إن الله جميل يحب الجمال؛ الكِبر بطر الحق وغمط الناس»**[1].

وعن معاذ بن جبل قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ. فقال: يا رسول الله، إني أحب الجمال، وإني أحب أن أُحمد - كأنه يخاف على نفسه - فقال له رسول الله ﷺ: **«وما يمنعك أن تحب أن تعيش حميدًا وتموت سعيدًا؟ وإنما بعثت على تمام محاسن الأخلاق»**[2].

كل هذه النصوص الشرعية تؤكد على قيمة الجمال وأثره في النفس البشرية، ولعل هذه النظرة إلى الجمال ترقق قلوب الفسقة؛ ليرجعوا إلى الله تعالى، ويكفوا عن الفساد والإفساد في الأرض.

(١) أخرجه مسلم في كتاب «الإيمان» باب «تحريم الكبر وبيانه» حديث (٩١) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٢) أخرجه البزار في «مسنده» (٧/ ٩٢)، والحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٢/ ٨٤١) حديث (٨٩٠)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٦٥)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٣).

الانتحار العرقي

تحية إلى الكاتب القدير أشرف عبدالمنعم على مقاله في عدد الجمعة ١٩ أغسطس ٢٠٠٥م من جريدة الأهرام تحت عنوان (الذين يبيدون أنفسهم عرقيًّا وهم لا يشعرون) والذي تكلم فيه عن الإبادة الجماعية **Genocide** والإبادة العرقية **Ethnocide** وينعى فيه على من يبيدون أنفسهم بأيديهم ويقول: (فلم يثبت علميًّا أو تاريخيًّا أن تبنت جماعة من البشر نسقًا منظمًا لإبادة نفسها على هذا النحو الذي نمارسه نحن..) ويقول (فإذا كان الجهل بأنفسنا وبما حولنا قد تسيد هكذا علينا إلى الحد الذي جعلنا نروج للشيء ومنتهى نقيضه في وعاء واحد ننادي بالفضيلة ونروج للرذيلة..) وهذا المقال أثار عندي شجون حول المصطلح وحول المفهوم أردت أن أتكلم حوله.

١- فمصطلح الإبادة الجماعية، والذي يعني حالات القتل المخطط والمتعمد لجماعة بشرية جزئيًّا أو كليًّا ظهر عام ١٩٤٤م لدى الأستاذ الجامعي البولندي اليهودي الديانة رفائيل لمكن **Lemkin Raphael** لوصف أفعال النازي والتي لم تقتصر على اليهود بحسب كلامه، بل امتدت إلى إبادة بعض مجتمعات أوربا الشرقية، ثم شاع المصطلح بعد ذلك والتفت الناس إلى هذا المصطلح وتكلموا عنه ووصفوا به مجموعة من أحداث التاريخ، ولقد نعى القرآن على فعل فرعون في محاولته لإبادة بني إسرائيل واعتبرها جريمة شنعاء قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾[1]. وهناك تدمير وليام النورماندي للشعب الإنجليزي من ١٠٦٦ حتى ١٠٧٢م، وما فعله التتار من فظائع، وما فعله الأمريكان مع الهنود الحمر، والمستعمرون الإنجليز مع سكان أستراليا الأصليين وسكان تسمانيا، والألمان في جنوب غرب إفريقيا سنة ١٩٠٤م حتى ١٩٠٧م وما فعله الصرب في البوسنة والهرسك.

٢- ولقد نجحت جهود (لمكن) طوال خمس سنوات بتجميعه توقيعات من دول مختلفة إلى نقل هذا الأمر إلى الساحة الدولية وبالتحديد عندما قامت الأمم المتحدة إلى إعلان قانون يحرم فعل الإبادة الجماعية باعتباره جريمة دولية. وتم طرح القانون في ٢١ يناير من عام ١٩٥١م إلا أنه لم يقابل بحماس كبير من الأعضاء الخمسة الدائمين في مجلس

(١) الآية ٤ من سورة القصص.

الأمن، حيث لم يوافق عليه فقط سوى فرنسا والصين، ثم انضمت إليهما روسيا (الاتحاد السوفيتي) في عام ١٩٥٤م ثم تبعتها بريطانيا العظمى عام ١٩٧٠م، وأخيرًا الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٨م، والتي ربما تكون مقتنعة بالإبادة الجماعية والعنصرية وتلويث البيئة حيث نراها دائما معارضة لهذا. وهو الأمر الذي أدى إلى تأخر تطبيق هذا القانون إلى التسعينيات من القرن العشرين عندما بدأ بالفعل في الدخول إلى حيز الوجود بعدما ظل مجرد حبر على ورق لمدة تصل إلى أربعة عقود كاملة، قد تضمنت مادة القانون خمسة أفعال تم وصفهم بهذا المصطلح ومن ثم تجريمهم باعتبارهم جريمة دولية وهم كالآتي:

أ- قتل أعضاء أي جماعة بشرية.

ب- التسبب بأضرار جسدية خطيرة أو عقلية لأي عضو من أعضاء هذه الجماعة.

ج- الإضرار المتعمد بالظروف الحياتية لأي جماعة بشرية والذي يؤدي بالضرورة إلى فنائها.

د- فرض قوانين وقياسات صارمة على أي جماعة بشرية يمنعها من التناسل والتكاثر.

هـ- نقل أطفال أي جماعة إلى جماعات أخرى.

٣- أما الإبادة العرقية فقد ذكرها (لمكن) في مقاله المشهور (قوات المحور تحكم أوربا المحتلة) المنشور عام ١٩٤٤م والذي قام فيه بتركيب المصطلح من أصول إغريقية ولاتينية مثلما فعل مع مصطلح الإبادة الجماعية، حيث يتألف المصطلح من الكلمة الإغريقية **Ethnos** والتي تعني (أمة) **Nation** والمقطع اللاتيني **Cide** والذي يعني (قتل) وقد قام (لمكن) بتقديم هذا المصطلح في هامش نفس الصفحة التي استخدم فيها مصطلح الإبادة الجماعية، حيث أكد أن أفعال النازي الإجرامية من الممكن أيضا وصفها بهذا المصطلح.

وعلى الرغم أن المصطلحين (الإبادة الجماعية) و(الإبادة العرقية) تم تقديمهما معا في آن واحد خلال الأربعينيات من القرن العشرين لوصف الأفعال السادية للنازي ضد اليهود، إلا أن مصطلح الإبادة العرقية لم ينل نفس الحظ من الشهرة مثل مصطلح الإبادة الجماعية. وفي السنوات التالية لإعلان الأمم المتحدة مشروع القانون الدولي لتجريم الإبادة الجماعية واعتبارها جريمة دولية، بدأت الغالبية العظمى من علماء الاجتماع في استخدام المصطلح كأحد الفروع الثانوية لمصطلح الإبادة الجماعية والذي يقتصر فقط على وصف فعل إبادة جماعية بشرية لأسباب خاصة بالعرق فقط.

غير أن مفهوم هذا المصطلح لم يقتصر على هذا المعنى فقط ولكن امتد ليشمل العديد من المعاني، فهو يشير كذلك إلى أي أفعال إجرامية تجاه عرق معين حتى وإن لم تؤدِ إلى إبادته بصورة كاملة، فيشير إلى الأضرار طويلة المدى مثل تقليل مواليد عرق ما، ومحاولات منع انتقال ثقافة مجتمع ما إلى أجياله القادمة، ومن ثم تفقد هذه الأجيال أي علاقة مع أجدادها، بل ويشير كذلك إلى محاولة البعض إزالة تاريخ عرق ما من صفحات التاريخ البشري كل ما يتعلق بهم من معلومات. وتؤكد المصادر أن هذا المصطلح أكثر استخداما من قبل الأقليات المضطهدة من مصطلح الإبادة الجماعية.

ويتشابه هذا المصطلح كذلك مع مصطلح الإبادة الثقافية **Culturecide** بل ويتم استبدالهما مع بعضهما البعض دون الإخلال بالمعنى المراد. إلا أن كلا منهما يقع تحت النطاق المصطلحي للإبادة الجماعية، ومن ثَمَّ يمكن استخدام الإبادة الجماعية ليحل محل أي منهما دون الإضرار بالمعنى، ولكن علماء الاجتماع يؤكدون أن أهمية هذا المصطلح تكمن في قدرته على وصف الأعمال الإجرامية من قبل بعض الحكومات والتي تكون بمعدل قليل من العنف والوضوح لا يتناسب مع مصطلح الإبادة الجماعية، وأكد بعضهم الآخر أن هذا المصطلح يعد صورة أكثر اعتدالا من مصطلح الإبادة الجماعية والذي عادة ما يصاحبه مشاعر مخيفة وبشعة عند استخدامه.

٤- ويمكن أن نصطلح على لفظ (الانتحار العرقي) للحالة التي تكلم عنها الأستاذ أشرف عبدالمنعم والتي وصفها بأنها فريدة في التاريخ، وكنت أسمع مشايخي يتكلمون عن حالة (الانضباع) وتلقيت منهم شفويًّا أنها مشتقة من الضبع وتصرفاته، وذلك أنه إذا أراد افتراس فريسته نظر إليها وأحدث لها ما يشبه التنويم المغناطيسي ثم يسير فتسير وراءه حتى مكمنه ثم يقتلها هناك بعد أن يعلو ظهرها ويبول عليها وفي بوله مخدر، فيوفر على نفسه مقاومتها ونقل جثتها إلى بيته، وتقال هذه الكلمة لمن يسير إلى حتفه بقدميه وظاهر إرادته من شدة جهله بما حوله، ولقد بحثت كثيرا عن هذا المعنى في الكتب التي تحت يدي فلم أجده لا في المعاجم ولا في كتب حياة الحيوان وآمل ممن عنده توثيق لذلك الخبر الشفوي أن يمدني به. فهل يمكن أن نطلق على هذا (الانضباع).

٥- وقد يقال: إن الانضباع فيه تأثر من خارج النفس وأتذكر ما يقوله علماء التسويق حول قوة تأثير عرض السلعة على المشتري **Demonstration effect** وبدون شك فإن ما يجري حولنا في العالم يفوح بهذه المهمة ولكن يجب علينا أن نكون من طائفة المستهلك الرشيد لا من طائفة القابلين للاستعمار على حد تعبير مالك بن نبي.

(١-٥) المؤسسة الدينية في مصر

نعني بالمؤسسة الدينية في مصر أربع هيئات كبرى هي: الأزهر الشريف، وجامعة الأزهر، ووزارة الأوقاف، ودار الإفتاء المصرية، وهي المؤسسات التي تَتْبع أنظمة الدولة ودستورها وقوانينها، وهي وإن كانت تتبع أنظمة الدولة إلا أنها لا تتبع الحكومات المختلفة خلا وزارة الأوقاف التي على رأسها وزير الأوقاف وهو فرد من أفراد الحكومة المشكلة، والفرق بين الدولة والحكومة معروف مشهور، فالدولة مستمرة باقية مع اختلاف الحكومات وتعاقبها، والمؤسسة الدينية في مصر عليها واجبات يجب أن تقوم بها ولها وظائف تؤديها ولها تاريخ وحاضر ينبغي أن ننبه إليه، وهذا البيان الذي قد يكون واضحًا في أذهان بعضهم أصابه كثير من الغبش عند آخرين، وظننت في أول الأمر أن المفكرين وكبار الكتاب يعرفون تلك الحقيقة ويعرفون دور المؤسسة الدينية في مصر ومجهودها الذي تقوم به في عالم متغير متشابك، إلا أنني لاحظت أن بعض كبار الكتاب بدأ في تبني أفكار المرجفين واعتذر لهم وجعلهم ضحايا بدلاً من كونهم مجرمين، ووقف بعضهم حيارى تجاههم بما أذهلني من فقدهم لحقيقة المؤسسة الدينية، وأثارت لدي أسئلة يجب أن نثيرها وأن نتكلم عنها بوضوح وصراحة منها:

١- هل الذي بيننا وبين المرجفين هو أننا نقف مع السلطان وهم يقفون ضده؟ الفرق بيننا وبينهم في منهج التوثيق والتلقي والقبول والرد والفهم والتطبيق، وهل نحن أصحاب سلطة أو مشاركون فيها، أو أننا بجوار السلطان في قراره السياسي أو غيره، وأين هذه الفتاوى التي صدرت من المؤسسة الدينية لتخدم السلطان في ذاته، وهل الاهتمام بالشأن العام والمشاركة في قضايا الوطن هي خدمة لشخص السلطان؟ هل تربى المرجفون في معاهد المؤسسة الدينية، ثم من خلال منهجها توصلوا إلى الإرجاف؟ ليس هناك واحد منسوب إلى التعليم فيها شارك في إسالة الدماء والحمد لله رب العالمين.

ألم يتربَّ المرجفون في لندن على المناهج الغربية وتحت وطأة التناقضات ففعلوا ما فعلوا وتبنوا ما تبنوا من أفكار يائسة لا علاقة لها بالشريعة الإسلامية، وكان هذا سببًا في صدمة بليغة لكل بريطانيا؟ ألم يتربَّ مرجفون آخرون على المناهج الغربية فمنهم المهندس والطبيب والمحاسب، وليس فيهم واحد تخرج من كلية شرعية في أي مكان؟ ألم يصرح مستر بلير بأن ٩٩,٩% من المسلمين مواطنون صالحون في العالم كله وأن هذه التصرفات شاذة على المسلمين؟

هل فشلت المؤسسة الدينية بعد تجاهلها وإقصائها عن مركز القرار لمدة مائتي عام في البقاء صامدة وتخريج علماء ينقلون الدين في كل مكان في الأرض بهدوء وعلى مذهب أهل السنة والجماعة ودون صدام مع أحد عبر القرن التاسع عشر والعشرين حتى حرب ١٩٧٣م التي ارتفع بها البترول من دولار للبرميل إلى أربعين دولارًا؟ ثم نعلم كيف انحسر دور المؤسسة الدينية في الخارج تحت وطأة قلة الإمكانات المادية، وإذ بهذا الانحسار يؤدي إلى صدام مروع في ١١ سبتمبر نحاول أن نمحو آثاره إلى الآن سواء أكان من قام به من المسلمين أم من غير المسلمين.

هل يصلح مع هذه الحالة أن نرى القذاة في عين المؤسسة الدينية ونترك جذع النخلة في عين من قبل بتنحيتها ولم يهتم بمشاركتها؟ وهل يصلح أن ندعو إلى مزيد من التنحية بعد هذا الفشل الذريع من غيرها بأن نعطي للمرجفين جواز مرور إلى الناس؟ وأن الناس قد يئست من فقهاء السلطان وهو أمر موهوم مضحك مبك في نفس الوقت دون أن نبحث عن الأسباب الحقيقية للمشكلة التي تتحكم في الواقع ونحاول علاجها.

هل مستر بلير فعلا أدرك هذا المعنى كما ادعى بعضهم؟ والواضح أنه أدرك عكسه، ولما ذهب وفد وزارة الأوقاف المؤسسة الرسمية إلى لندن استقبلته (البارونه سايمونز) وزيرة الدولة للشئون الخارجية مع (اللورد كيري) الأسقف السابق لكنيسة كانتربري الأكثر شيوعا في إنجلترا واتفقوا على وجوب التعاون مع المؤسسة الدينية التي يُدعى الآن أنهم استيئسوا منها.

٢- ومجموعة أخرى من الأسئلة كنت أظنها أيضا بديهية ولكن يبدو أننا نحتاج مرة أخرى إلى التأكيد عليها. إن المؤسسة الدينية موافقة على الدستور، وهو ينص في مادته الأولى (أن مصر دينها الرسمي هو الإسلام) وفي مادته الثانية (أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع). ونسأل سؤالاً حاسمًا وأساسيًّا: من مع الدستور ومن ضده؟

٣- وتؤمن المؤسسة الدينية بقضايا الوطن ولا تستطيع أن تقبل أو أن تتصور أن تستعين بالأجنبي أو تستعديه على بلادنا أو شعبنا تحت أي مبرر أو عنوان أو مصلحة، وأظن أن هذه الثوابت لا علاقة لها بشخص الحاكم، وإنما هي ناشئة من شعور فطري بحب الأوطان، وشعور ديني يكرس هذا الشعور الفطري ويباركه، وأظن ذلك كان على مر الأزمان، وليس مختصًّا بعصرنا أو بحالتنا الراهنة.

٤- المؤسسة الدينية في مصر لها منهجها ويتمثل هذا المنهج في نقل المذهب السني بمذاهبه الأربعة المعروفة المشهورة (الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة) مع الاعتراف بالمذاهب الأخرى التي يتبعها المسلمون في العالم أصولاً

وفروعًا على منهج الفهم السليم، وهي: (الجعفرية والزيدية والإباضية) بل والظاهرية التي يؤيدها مجموعة من العلماء هنا وهناك.

كما أنها في تخيراتها الدينية كثيرًا ما تتسع دائرة الحجية عندها إلى مذاهب المجتهدين العظام كالأوزاعي والطبري والليث بن سعد، وغيرهم في أكثر من ثمانين مجتهدًا في التاريخ الإسلامي. تستأنس بآرائهم وقد ترجحها لقوة الدليل أو لشدة الحاجة إليها أو لمصلحة الناس أو لتحقيق مقاصد الشرع الشريف، وهو المنهج الذي ارتضته الجماعة العلمية في عصرنا هذا شرقًا وغربًا وعند العقلاء من جميع مذاهب المسلمين والحمد لله رب العالمين.

٥- والمؤسسة الدينية في إدراكها للشرع الشريف أو في إدراكها للواقع المعيش تسلك مسلك التوثيق الذي نراه أساسًا من أسس ديننا، يقول رسول الله ﷺ فيما أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه: **«كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع»**[١] فينشئ المسلمون علم القراءات ينقلون فيه كتاب الله من غير تحريف ولا تصحيف، وعلوم الحديث رواية ودراية ينقلون فيها كلام رسول الله ﷺ بمنهج علمي غير مسبوق، وعلم أصول الفقه وعلوم العربية ليفهموا من خلالها الفهم المنضبط للنص الشرعي الوارد إلينا بلغة العرب، وهذا المنهج أثر عليهم وهو تأثير إيجابي في إدراكهم للواقع بحيث كانت تعاملاتهم معه مبنية على الوقائع المؤكدة وليس على الأخبار الطائرة أو على الآراء من هنا أو هناك مما جعل كثيرًا من الناس يظنون بداية أن المؤسسة الدينية تتخلف عن أداء واجبها، ثم بعد ذلك يظهر عند الجميع أنها لم تتخلف، بل إنها مؤسسة رصينة تعرف توثق الأخبار وكيف تقومها وكيف تتعامل معها.

٦- المؤسسة الدينية أدت دورها وما زالت تؤديه ولن تتخلى عنه في ظل ظروف بالغة الصعوبة تحاول دائما أن تكون وفية لدينها ووطنها وتاريخها، وإذا أراد الناس الاستفادة منها وبخبرتها ومجهوداتها فهي على أتم استعداد لذلك، ولم تتأخر، ولن تفعل، وإذا لم يريدوا وأعطوا ظهورهم فقد أضاعوا على أنفسهم خيرًا كثيرًا، وإذا أصروا على إعطاء ظهورهم لها فهم الخاسرون، أما جعلها مشجبًا (شماعة) تعلق عليها أخطاء الآخرين وما يمور ويفور في نفوسهم فأراه أنه ليس من مكارم الأخلاق، وليس من لهجة الصدق، بل هو قادح في المروءة ومعطل لكثير من الفهم.

---

(١) أخرجه مسلم في مقدمة «صحيحه» حديث (٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢-٥) المؤسسة الدينية في مصر

لقد كان هناك هجوم عنيف على المؤسسة الدينية في مصر آخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. أذكر منها مواقف طريفة تدل على ما ورائها إلا أن المؤسسة الدينية ظلت تقوم بدورها الديني والاجتماعي، وظل أيضا بعضهم يهاجمها دون إدراك لبقائها وازديادها وتوسعها، ودون إدراك أن ما تُنتقد به المؤسسة الدينية مبني على الانطباع والأخبار، وليس على إدراك صحيح للواقع أو تحليل مستتير له، مما جعل اليوم أشبه بالأمس ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾[(١)].

١- فبعد ما فصل محمد علي باشا المؤسسة الدينية عن الحياة المدنية وتخلص من عمر مكرم، وأرسل البعثات إلى فرنسا للدخول في مفهوم الدولة الحديثة وجعل هناك التعليم الموازي فأصبح لدينا تعليم مدني وتعليم ديني. وبغض النظر عن الآراء التربوية والآثار الاجتماعية حول ازدواجية التعليم فإن هذا الوضع باق إلى يومنا هذا مع كثير من الحلول التي طبقت، والتي يمكن أن نعالجها فيما بعد، فأقول إنه بعدما فعل محمد علي هذا وحدث بعد ذلك الاحتلال الإنجليزي بما ترتب عليه من آثار نفسية واجتماعية، فإننا نرى هجومًا شرسًا على الإمام محمد عبده وكانت هناك جريدة (حمارة منيتي) تهاجم الإمام في جلِّ أعدادها حتى كان بائع الجرائد ينادي عليها - كما أخبرنا بذلك مشايخنا الذين شاهدوها شفاهة - على باب المزينين بالأزهر، وعند خروج الشيخ وتلامذته من درسه، ينادي البائع: (المفتي والحمارة) فكان الشيخ يبتسم ويعطيه جنيهًا ذهبيًّا ليشتري منه جريدة لا يزيد ثمنها على عدة ملاليم، ويسكت الرجل حتى ينتهي من صرف الجنيه ذلك الثروة الكبيرة حينئذ، وبعد شهر أو شهرين يعاود النداء فيقول له الشيخ: هل نفد المال؟ ويعطيه جنيها آخر مبتسمًا؛ ولأن الشيخ وعلى الرغم من صداقته بالخديوي إلا أنه رفض استبدال وقف له بدون مقابل وهاجت الصحف على الشيخ محمد عبده، فأين ذهبت؟ وهل يسمع الناس بها؟ وظل محمد عبده إمامًا له مدرسة في التجديد والإصلاح لا يزال الناس يذكرونها ويحتفلون بها حتى يومنا هذا، ونحن نحتفل بمرور مائة عام على وفاته.

(١) من الآية ١٧ من سورة الرعد.

٢- ويذكر أحمد أمين في كتابه الماتع (حياتي) كم لاقى من عنت من الناس من جراء لبسه للزي الأزهري وهو صغير، ويصف كيف يعتدي عموم الناس على العلماء حتى وهم يسيرون في الطريق، وتظل المؤسسة الدينية صابرة محتسبة لوجه الله تعالى لا تريد من الناس جزاءً ولا شكورًا حتى قيام ثورة ١٩١٩م، فإذ بالجميع يرجع إلى الصدر الحنون الذي ثار مرتين في وجه الفرنساوية المحتلين من قبل، وقتل أحد أفراده ساري عسكر كليبر، وأسلم الثالث في القيادة مينو (عبدالله مينو) وتزوج من زبيدة البكري، وفي ثورة ١٩١٩م نسي عموم الناس موقفهم من المؤسسة الدينية، ونسيت المؤسسة الدينية موقف الناس منها وعادت ملتحمة معهم.

٣- وإذا قرأنا الأعمال الكاملة لبيرم التونسي رأينا سبًّا ولعنًا للشيخ محمد بخيت المطيعي في ألفاظ جارحة، لا أظن أنني قادر على ذكرها هنا، ورأينا سبًّا ولعنًا للأزهر ومشيخته، لا أظن أنني قادر أيضًا على ذكره لخروجها عن حد الأدب ومخالفتها للنظام العام والآداب بما يشكل جريمة خدش الحياء، فلنتراجع هناك، ولكن ماذا كان بعد ذلك؟ كان أن تاب بيرم التونسي وأعلن توبته صريحة ولم يجعل في حل من يروي عنه ما سبق به لسانه وفارت به نفسه من قبل، ومن تاب تاب الله عليه حتى إنه أنشأ في ذلك رائعته التي غنتها أم كلثوم (نداني لبيته لحد باب بيته) وكانت توبة صدوقًا رجع فيها بيرم إلى ربه وإلى مجتمعه، بل وإلى دينه وختم له بالسعادة.

٤- وبأسلوب آخر نرى منتقدين للمؤسسة الدينية ونخص منهم من عرف بالوطنية أو الإصلاح أو الفكر المستقيم، ونترك من لم يتصف بهذه الصفات؛ لأنه لا كلام لنا معه أما أولئك المخلصون فكلامهم قد خرج منهم ابتغاء الإصلاح لا الإثارة، والنفع لا الضر، ومناقشتنا لآرائهم إنما هي للوصول إلى ما يفيد الناس في حاضرهم ومستقبلهم.

نشر الكاتب الكبير سلامة أحمد سلامة في عموده يوم الخميس ٢٠٠٥/٧/١٤ في جريدة الأهرام ما نصه: (وفي اعتقادي أن علماء المسلمين أو بعبارة أخرى فقهاء السلطة في العالم الإسلامي لم يعودوا مؤهلين للتصدي للتحريف والتجريف الذي يطال الإسلام. وبعد أن اندمجت المؤسسات الإسلامية في أجهزة الدولة أحجم المسلمون عن الاستماع لفتاواهم، ولم تعد استنكاراتهم للتطرف باسم الدين تجد آذانًا صاغية. وحين تصدر المؤسسة الدينية فتاواها بحسب الطلب تلبية لأغراض سياسية، فإنها تحدث من البلبلة ما يهوي بمصداقيتها إلى الحضيض.

والكلام قد يكون صدر من قلب مهموم بهم المسلمين وهم الناس، ولكنه له مردود يجب أن ننبه إليه؛ لأنه يستغل في غير ما هو له، ويجب أن نقف جميعًا ضد هذا المردود بما فينا الكاتب نفسه. هل ما في اعتقاد الكاتب واقع فعلاً؟ هيا بنا نعالج المسألة من الواقع لا من الانطباع والقرارات المسبقة.

٥- عبر التاريخ الإسلامي ظهرت فرق كثيرة في المشرق والمغرب انحرفت عن الجادة وأرجفت وأسالت الدماء، وكان علماء المسلمين هم الحصن الذي تحطم عليه هؤلاء لسببين، الأول: هو أن كلامهم مبني على المنهج العلمي السليم. والثاني: هو أن كلام أهل الأهواء والبدع مخالف للفطرة السليمة، كما أنه مخالف لسنة الله في خلقه، وعلى مر العصور لم تهدأ هذه الانحرافات ولم تنته ولن تنتهي وهذا ليس من فشل العلماء جميعًا كما يظن الكاتب، ولا أن العلماء فقهاء السلطان، ولا أن الدين لا يقول شيئا في السياسة، ولا أن الدولة تستعمل العلماء في مواقف سياسية كل ذلك تفسير قاصر للقضية برمتها.

بل إن هذا الانحراف جاء من الخروج عن المرجعية، والخروج عن المرجعية سببه المشارب والأهواء والمصالح التي تكون في أيدي قواد الجماعات أو عموم الناس الذين لا يعرفون من أين يأخذون دينهم. وهذه الجماعات عبر التاريخ، إما أن تفصل الناس عن مصادر الشرع (الكتاب والسنة)، وإما أن تفصلهم عن علمائهم، وكلام الكاتب يثير موضوعًا خطيرًا آخر، وهو أنه يدعو الناس ويدعو العلماء إلى مجاهرة النظام بالرفض؛ إثباتًا لحالة الرفض فقط، أو إلى التهور والخروج عن النظام وعلى المجتمع حتى يقال عن العالم إنه شجاع، وحتى يستمع الناس إليه وحتى يكون ممن صدع بالحق في وجه سلطان جائر، فإن ذلك مما يلتذ به الناس، فهل هذا مقبول؟

إن العلماء يقومون بهذا الدور ولكن ليس على سبيل إثبات الحالة أو طلب الدنيا، وإنما يقولون الحق ويقيمون عليه الدليل ويطلبون وجه الله لتحقيق مقاصد الشرع ومصالح الناس ويتكلمون في الشأن الوطني ويستفيضون فيه؛ فإذ ببعضهم يغتاظ لأن عالم الدين يجب عليه أن يبقى في مسجده دون سواه، وهذا أمر سبب في ذاته فكر الإرهاب مع طائفة أخرى من الأسباب سنتناولها تباعًا.

وأنا أسأل الكاتب: أي الفتاوى التي صدرت حسب الطلب والتي أحجم المسلمون عن سماعها؟ هل القتلة هم المسلمون؟ ماذا يقصد الكاتب بهذا التعميم (أحجم المسلمون)؟ أليس هذا مخالفًا للواقع أن يطلق على مجموعة من المرجفين مع مجموعة من الحيارى لفظ (المسلمين) وهي كلمة تفيد العموم.

وأنا أدعو الكاتب الكبير أن يراجع نفسه وانطباعاته، وأن يذكر لنا فتوى أو اثنتين مما صدرت تحت الطلب، وعلى الجميع أن يعرفوا الفرق بين الفتوى والموعظة والرأي الشخصي، وعلى الجميع أن يعرفوا أن إلقاء القول على عواهنه، وعدم التوثق منه وأخذه من غير مصادره، واعتماد الأخبار السيارة مصدرًا مخالف للتوثيق الذي يسعى إلى معرفة الحق في نفسه (يتبع).

(٣-٥) المؤسسة الدينية في مصر

واقع المؤسسة الدينية أنها ما زالت تقوم بدورها الوطني والقومي والإسلامي وهي بإذن الله في الريادة والقيادة دائمًا، لا نرضى بواقعنا، ولا نستكين لإنجازاتنا ولكن يجب أن تعلم الحقيقة ونحن في عالم متغير، ولتكن لغة الأرقام مع لغة الكيف دليلاً على ذلك.

١- فدار الإفتاء المصرية نشأت سنة ١٨٩٥م وكان أول من تولاها هو فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر حينئذ الشيخ حسونة النواوي، ثم تولاها من بعده الأستاذ الإمام محمد عبده من سنة ١٨٩٩م حتى ١٩٠٥م حيث انتقل إلى رحمة الله تعالى، وفي خلال هذه السنوات الست أصدر الإمام محمد عبده ٩٦٤ فتوى مسجلة في سجلات دار الإفتاء، وعدد السكان لا يزيد عن عشرة ملايين نسمة، ودار الإفتاء بعد مائة عام باقية تؤدي دورها في مبنى جديد أدخلت فيه وسائل التقنيات الحديثة من أجهزة الحاسب الآلي وأجهزة الاتصالات المتطورة، وانتقلت من قصر رياض باشا رئيس وزراء مصر في مجمع المحاكم بالعباسية إلى المبنى المستقل الكبير الذي يجاور مشيخة الأزهر بطريق صلاح سالم عبر هذه السنوات المائة، والذي أشرف على هذه البناية ودفعها دفعًا هو فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الجامع الأزهر عندما تولى الإفتاء سنة ١٩٨٦م فأنهاها سنة ١٩٩٢م.

فعدد الفتاوى التي تصدر شهريًا من دار الإفتاء في أيامنا هذه ثمانية أضعاف عدد الفتاوى التي صدرت في عهد الإمام محمد عبده في ست سنوات، ومع مراعاة أن عدد السكان قد زاد سبعة أضعاف، فيتضح لنا أن الألف فتوى التي صدرت في ست سنوات في عهد الإمام محمد عبده كان ينبغي أن تكون ٧٠٠٠ فتوى في ست سنوات لاعتبار النسبة العددية في السكان، مع افتراض أن ارتباط الناس بمؤسستهم الدينية كمًا، ولكن عندما يصبح عدد الفتاوى هو ٨٠٠٠ فتوى في كل شهر. فهل يا ترى ما زال الأمر يحتاج إلى دليل لقيام المؤسسة الدينية بدورها؟ وإلى دليل لشدة التصاق المسلمين بمؤسستهم الدينية؟ وإلى دليل إلى وهم إحجام المسلمين عن مرجعيتهم الدينية؟

٢- وتسجل دار الإفتاء كل ما صدر عنها من فتاوى، فليس منها فتوى واحدة كانت تحت الطلب أو فصلت لأحد من الناس، أو لم تراع الكتاب والسنة ورضى الله ورسوله وما عليه السلف الصالح من الأمة، أو مصلحة الناس، أو مقاصد الشرع، ويمكن مراجعتها كلها فقد وضعنا فتاوى السنوات المائة بعد حذف المكرر على قرص يباع بعشرة جنيهات في منافذ بيع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وصدرت في ٢٣ مجلدًا إلى الآن، ولنا موقع على

الإنترنت تنشر عليه الفتاوى الجديدة، والتي نقوم بترجمتها إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية خاصة ما يهم حياة المسلم في الغرب، وييسر عليه عيشه، ويجعله سفير الإسلام الصحيح وداعية بحاله قبل قاله لهذا الدين العظيم، وتتلقى الدار مئات الفتاوى والأسئلة شهريًّا عن طريق البريد الإلكتروني، والموقع من العالم كله وتجيب عليها وتتفاعل معها.

٣- يستطيع المسلم أن يرجع إلى هذا الموقع وعنوانه www.dar-alifta.com ويطلب منه الفتوى، لا أن يأخذها من هنا أو هناك فقد قال رسول الله ﷺ: «**كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع**»[١]. ونقل الفتوى شهادة وهو يقول ﷺ: «**أرأيت الشمس فعلى مثلها فاشهد**»[٢]، وقد نسبت لي الأخبار السيارة إما عن حسن قصد أو عن سوئه أني حرمت المظاهرات أو أحللت الرشوة أو قتل السفير الإسرائيلي بالقاهرة أو الكويز أو العري أو الخمر أو المخدرات في سلسلة مضحكة مبكية من المهاترات التي أنكرناها ورددنا عليها وما زال يحلو لبعضهم أن يتشدق بها. وعدم التوثق وعدم التوثيق يدخل صاحبه في دائرة الكذب المحرم شرعًا. وقال بعضهم: إن هناك أشياء لا يمكن إلا وأن تكون قد صدرت منكم، فقلت له: كيف هذا؟ فقال: لقد نشرت مرات. وهذه عقلية مرفوضة مع ما نراه ونعرفه من أن أغلب الناس لا يتوثقون التوثق الذي تعلمناه حين نقل القرآن ونقلت السنة ونقل الفقه والعلم إلى من بعدنا، والتوثيق ثقافة يجب أن تشيع حتى نصل إلى العقلية العلمية ونخرج من عقلية الخرافة والانطباعات الهشة.

٤- أما الجامعة الأزهرية فإنها أصبحت أقدم جامعات الدنيا بعد مرور ألف سنة من عملها المتصل وأصبحت أكبر جامعات الدنيا بعد أن أصبح عدد طلابها ٤٠٠ ألف طالب، وبلغ عدد أساتذتها سبعة آلاف وكلياتها نحو سبعين كلية، فهي بهذا أكبر من أي جامعة في مصر، وأكبر من أعظم الجامعات في العالم من هارفارد بأمريكا، وكمبردج بلندن، وطوكيو باليابان، وهي جامعة تؤدي دورها، واستطاعت أن تطور أساليب الدراسة في المائة سنة الأخيرة حتى وصلت إلى اعتمادها في العالم، ووسعت من دراستها فلم تعد تقتصر على العلوم الشرعية، بل أيضا درست العلوم المدنية، بعد تخرج الطالب من المعاهد الأزهرية التي اهتمت ولا زالت بحفظ القرآن، وهي المزية التي ما زالت مصر هي الأولى فيها شيوخًا، وحفظة، وتلاميذ على كل دول العالم، وما زالت المسابقات الدولية تحتاج إلى مصر

---

(١) أخرجه مسلم في مقدمة «صحيحه» حديث (٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧/ ٤٥٥) حديث (١٠٩٧٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

في حكامها والمصريون يحصدون الجوائز الأولى منها عبر السنين، فلا تزال مصر هي مصدر القرآن وقراءاته للعالم الإسلامي كله، وما زالت مصر هي سبب الخير وحفظ كتاب الله في العالم كله، وما زالت جامعة الأزهر هي مصدر الدراسة الأكاديمية المتخصصة عالية الشأن، وما زال أساتذتها يدرسون في كل العالم الإسلامي، بل والعالم الغربي ويرأسون الأقسام ويحتفظون بكراسي الأستاذية في الشرق والغرب، فهل هذا الواقع المرئي الملموس يحتاج إلى دليل.

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

٥- أما وزارة الأوقاف فهي تشرف على الدعوة من خلال أكثر من تسعين ألف مسجد في مصر، ومن خلال أربعين ألف خريج من خريجي الأزهر الشريف أئمة يحتاج إليهم الناس، وتقوم الوزارة بعمل دورات تدريبية عالية المستوى لوصل هؤلاء الدعاة بالواقع المتطور وبشبكة المعلومات الدولية وأدوات التحليل لفهم المضمون في كافة الجوانب وفي الترجمة والنشر عن طريق المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ولجانه، ووضعت نظامًا يمنع العبث بالدعوة أو أن يتصدر فيها من ليس بكفء، فشرطت لمن يصعد المنبر أن يكون خريجًا من الأزهر أو دار العلوم، أو عنده من الكفاءة ما يمكنه من ذلك عن طريق تصريح يمنح للخطيب من مديريات الأوقاف، وذلك استجابة لمطلب لدى الكافة لضبط الدعوة وعدم تصدر غير الكفء، ولكن لم نعدم من يعترض على ذلك، ويرى أن في هذا تضييقًا على الدعاة، وأنه لا يصح التضييق عليهم، وأن ذلك سُبة في جبين الدعوة في مصر، والسؤال المطروح ماذا يريد هذا المعترض؟ إنه يريد أن يعترض لا أكثر ولا أقل، فهو ينكر على المؤسسة الدينية إذا تركت وينكر عليها إذا فعلت، فاللهم أجرنا في مصيبتنا مرتين.

٦- أما مجمع البحوث الإسلامية فقد أصدر حتى الآن ثمانية وعشرين مجلدًا كبيرًا تشتمل على الأبحاث التي قدمت في مؤتمراته المتتالية، ومطبوعاته من الكتب العلمية وصلت إلى مئات غير محصورة لدي، ويجمع بين أعضائه نخبة العلماء والمتخصصين في كافة العلوم والفنون والتخصصات ومحاضر جلساته منذ إنشائه إلى اليوم مسجلة وتوصياته ومؤتمراته وقراراته وفتاويه وآراؤه وتخيراته مسجلة منشورة متاحة، وله صلات بالمجامع التي قلدته وسارت على نهجه ونشأت بعده، وما زال يأتيه من كل الدنيا شرقًا وغربًا المسائل فيدرسها دراسة مستفيضة ويرد عليها بعلم مبني على الحقائق بعد درس واع لها.

وأذكر أن جامعة الأزهر قد وافقت على إنشاء مركز دراسات السكان لبحث المسائل المستحدثة مثل أطفال الأنابيب، والتدخل الجيني ونحوهما، ونشر المعترضون ما نشروا ضد هذا المركز وضد الأزهر حتى وصل ببعضهم أن اتهم الأزهر بالعمالة لأمريكا، وقام المركز تحت إشراف أ.د جمال الدين أبو السرور بدراسة الموضوعات الراجعة إلى السكان، وعقد أكثر من ندوة ومؤتمر وخرج بمجموعة كبيرة من الأبحاث والرؤى عرضت على مجمع البحوث ودرسها في سنتين متتاليتين من غير عجلة ولا تواني، وأصدر المجمع رأيه بعد هذه الرحلة العلمية، وظل المركز حتى الآن يعمل في صمت، ونسي الجميع ما صدر من تشكيك واستهانة، وهذا هو الفرق بين عقل العلم الذي تحميه المؤسسة الدينية، وبين عقل الخرافة الذي حاربته ولا تزال تحاربه.

(٤-٥) المؤسسة الدينية في مصر

١- ونستمر في رؤية واقعية لحال المؤسسة الدينية في مصر، وأداء دورها حتى نخلص إلى المأمول منها وفيها، فنرى بعثات الأزهر في كل مكان تشارك في نقل هذا الدين لمن بعدنا عن طريق التدريس وعن طريق الدعوة في المراكز الإسلامية المختلفة من واشنطن إلى لندن إلى روما غربًا، وإلى الفلبين وبروناي وباكستان شرقًا. فللأزهر بعثاته في كل مكان في آسيا وإفريقيا وأوربا تقوم بدورها، ولديه وافدين من أكثر من ستين دولة يدرسون في مصر وهم يرجعون إلى بلادهم فيتصدرون أعلى المراكز الدينية والعلمية فمنهم رئيس الدولة أو رئيس الوزراء، وتصدر كثير منهم القضاء والإفتاء والوزارة في بلادهم وهم في غاية التمكن والنجاح.

وكلما وجد الأزهر كلما وجد أهل السنة والجماعة، ووجد الإسلام بمفهومه الوسطي الرائق، ووجد الفهم الصحيح المبني على المنهج العلمي الرصين لنصوص الدين والفهم الواقعي للحياة وكيفية العيش فيها. هذا واقع يصرخ بهذه الحقائق البسيطة التي يعد إنكارها مكابرة رديئة، ويمكن أن نفكر في تطوير ما هو حادث أو تفعيله حتى يقوم بدور أكبر أو تمويله حتى ينتشر في مواجهة الانحرافات المتعددة، أما انتقاده ووصفه بالفشل أو القصور أو التقصير فهو منهج غير سديد، ولكن:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

٢- وإذا أضفنا إلى ذلك مجهود المعاهد الأزهرية التي زادت عن سبعة آلاف معهد كلها بنيت بالجهود الذاتية، نقلت الناس من الظلمات إلى النور ومن الجهل إلى العلم، وحاول المنهج الأزهري أن يحافظ على هويته مع تطور رهيب حوله، وحاول أن يكون على قدم المساواة مع التعليم العام بعد صراع استمر أكثر من ثلاثين سنة في أوائل القرن العشرين، وبعد أن كانت المعاهد خمسة معاهد وعدد طلابها لا يزيد عن ثلاثة آلاف أصبحت سبعة آلاف معهدٍ بها مليون ونصف مليون طالبٍ، فإذا كان عدد السكان قد زاد من أول القرن العشرين إلى آخره خمسة أضعاف، فإن المعاهد زادت ألفًا وأربعمائة ضعفٍ، والطلاب زادوا خمسمائة ضعفٍ، وقد وصل المنتمون للأزهر من الأحياء إلى عشرة ملايين نسمة حول العالم ما بين ٦ سنوات إلى ٩٦ سنة، فهذا يبين مدى قيام المؤسسة الدينية بدورها، ومدى التحام الناس بها.

٣- وإذا رجعنا مرة أخرى إلى فكر المؤسسة الدينية في مقابلة فكر الصدام وجدنا أن الفكر الصدامي يفترض أمورًا ثلاثة وهي:

أولاً: أن العالم كله يكره المسلمين وأنهم في حالة حرب دائمة للقضاء عليهم وأن ذلك يتمثل في أجنحة الشر الثلاثة الصهيونية (يهود) والتبشير (نصارى) والعلمانية (إلحاد)، وأن هناك مؤامرة تحاك ضد المسلمين في الخفاء مرة وفي العلن مرات، وأن هناك استنفار للقضاء علينا مللنا من الوقوف أمامه دون فعل مناسب.

ثانيًا: وجوب الصدام مع ذلك العالم حتى نرد العدوان والطغيان، وحتى ننتقم مما يحدث في العالم الإسلامي هنا وهناك، ووجوب الصدام يأخذ صورتين الأولى: قتل الكفار الملاعين، والثانية: قتل المرتدين الفاسقين، أما الكفار الملاعين فهم كل البشر سوى من شهد الشهادتين، وأما المرتدون الفاسدون فهم من شهد الشهادتين وحكم بغير ما أنزل الله وخالف فكرهم، وهذه الصياغات كما نرى فيها شيء كثير من التلبيس والتدليس والجهالة ولكنها سوف تجذب كثيرًا من الشباب.

ثالثًا: أن فكرهم يراد له أن يكون من نمط الفكر الساري، وهذا معناه أنه لا يعمل من خلال منظمة أو مؤسسة يمكن تتبع خيوطها بقدر ما يعمل باعتباره فكرًا طليقًا من كل قيد يقتنع به المتلقي له في أي مكان ثم يقوم بما يستطيعه من غير أوامر أو ارتباط بمركز أو قائد.

وعليه فإن الفوضى سوف تشيع بصورة أقوى وتنتشر بصورة أعمق، وهذه النظرية لها ارتباط عضوي بنظرية الفوضى الخلاقة التي لعلنا أن نفرد لها كلامًا مستقلا فيما بعد، وهي المصطلح الذي شاع في الاستعمالات السياسية والأدبية في الآونة الأخيرة وإن كان الكثيرون لا يدركون أصوله ومعانيه وآثاره والنموذج المعرفي المنتمي إليه.

٤- هذه الأركان لذلك الفكر تخالف منهج المؤسسة الدينية، وإذا أردنا أن نقاوم هذا الانحراف فيجب علينا أن نؤكد على مرجعية المؤسسة الدينية ليس لدى الدولة فقط، بل باعتبار ذلك مشروعًا حضاريًّا إنسانيًّا، ودستورًا يلتزم به الإعلام والأقلام والمفكرون.

ويجب علينا أن لا نبخل على هذه المؤسسة عند أداء دورها بالمال الذي هو عصب الحياة، ولقد دعا رسول الله ﷺ الناس في مكة فآمن به ما لا يزيد عن مائتي شخص عبر ثلاث عشرة سنة، ثم لما هاجر إلى المدينة وجاء المال دخل

الناس في دين الله أفواجًا، فإذا أكدنا على المرجعية ومولنا دور المؤسسة الدينية في مقاومة الانحراف تغير الحال واستقر، وللمؤسسة الدينية فكر واضح بإزاء هذه الأركان الثلاثة نفصله في وقت لاحق.

٥- أما خصائص هذا الفكر فإنه يرى من حيث يدري أو لا يدري، قصد أو لم يقصد أن الإسلام دين إقليمي وكأنه نزل للعرب فقط أو لابد أن يبقى في بلاد المسلمين فقط، وفكر أهل السنة أن الإسلام دعوة وما دام دعوة فهو عالمي قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[1]. وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[2] وما دام كذلك فإن الصدام لا يصلح أساسًا له ومن هنا كان مفهوم الجهاد قاصرًا ومشوشًا عند هؤلاء حيث اقتصر على الاستدلال بالقتال ثم تمادوا في الاختزال حتى خلطوا بين القتل والقتال.

والجهاد مفهوم شامل يشمل الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس، والجهاد الأصغر وهو جهاد القتال لصد العدوان ورفع الطغيان يقول ربنا: ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾[3]. ويقول رسول الله ﷺ: «**قدمتم خير مقْدَمٍ، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، مجاهدة العبد هواه**»[4] وفي رواية: «**جهاد القلب**»[5]. ويقول ربنا في شأن دستور القتال في سورة البقرة: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾[6].

---

(١) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية ٢٨ من سورة سبأ.

(٣) الآية ٧٨ من سورة الحج.

(٤) أخرجه البيهقي في «الزهد الكبير» ص١٦٥ حديث (٣٧٣)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٣/ ٥٢٣) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

(٥) ذكر العجلوني هذا الحديث في «كشف الخفاء» (١/ ٥١١) وقال: «هو مشهور على الألسنة وهو من كلام إبراهيم بن عبلة».

(٦) الآية ١٩٠ من سورة البقرة.

وهذا الاختزال من المفهوم الروحي للجهاد والشامل للممارسة إلى الأصغر فقط، ثم من القتال إلى القتل، هو خصيصة ذلك الفكر، ويضاف صفات أخرى وهي:

أولاً: عدم إدراك الواقع.

ثانيًا: المشرب المتشدد في فهم ما عرفوه من معلومات، أما أهل السنة فقد فهموا قول رسول الله ﷺ: **«إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق»**[1]، وفهموا ما وصفت به عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ حيث قالت: ما خُيِّرَ رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، وكان أبعدَ الناس عن الإثم[2].

ثالثًا: الإحباط واليأس والشعور بالظلم.

رابعًا: التفكير السطحي سواء في فهم النص أو إدراك الواقع أو الجسر الواصل بينهما وهو ما يتم تعليمه والتدريب عليه والتربية به في المؤسسة الدينية اعتمادًا على قوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ۝١٢٢** ﴾[3] وبذلك نرى آراءهم واتجاهاتهم وسلوكهم ومواقفهم وأحكامهم على الأشياء باطلة، وهي الخمسة التي يجب على الدارسين عند تحليلهم للظاهرة أن يقفوا عندها.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٩٨) حديث (١٣٠٧٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٦٢) وصححه.

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «المناقب» باب «صفة النبي ﷺ» حديث (٣٥٦٠)، وفي كتاب «الأدب» باب «قول النبي ﷺ: يسروا ولا تعسروا وكان يحب التخفيف واليسر على الناس» حديث (٦١٢٦)، وفي كتاب «الحدود» باب «إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله» حديث (٦٧٨٦)، ومسلم في كتاب «الفضائل» باب «مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرماته» حديث (٢٣٢٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) الآية ١٢٢ من سورة التوبة.

٦- فالمؤسسة الدينية إذن لا تلقي القول على عواهنه وهي تؤكد جلالها ولا تذكر غير الواقع ولا تغالي أو تخفي شيئًا، وتتخذ من سورة العصر دستورًا جامعًا لها قال تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾[1].

(١) سورة العصر.

(٥-٥) المؤسسة الدينية في مصر

المؤسسة الدينية في مصر لها موقف واضح في تاريخها وحاضرها من أعداء الإسلام ومن أدعياء الإسلام، فأعداء الإسلام - وهم من خارج أبنائه - الذين يعادونه ويرفضون التعاون معه ويعملون على حربه وأذية أهله، وأدعياء الإسلام هم من المنتسبين إليه، ولكنهم على قسمين: المنافقين والمرجفين، وحذرنا الله سبحانه وتعالى من هذه الطوائف الثلاثة ونعى عليهم.

وموقف المؤسسة الدينية يقوم على امتثال أمر الله ورسوله فيهم جميعا، وهذه الأسس نراها واضحة في المصادر التي يأخذ منها المسلمون دينهم، ونرى المعترض على المؤسسة الدينية يريدها أن تنتهج منهجًا آخر، يراه من عاطفته أو انطباعه هو، أو من رغبته وأمنيته إن كان صادقا، أو من شهوته ومصلحته إن كان قد اختلط عليه الطريق.

١- فأول الأسس هو التأكد من المعلومات ووقوعها فعلا وفهمها فهمًا جيدًا؛ يقول رسول الله ﷺ: **«إن الله كره لكم ثلاثًا: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال»**[١]، وقال رسول الله ﷺ: **«إياكم والظنَّ؛ فإن الظَّن أكذبُ الحديث»**[٢]، ويقول: **«بئس مطية الرجل: زعموا»**[٣]، أي أسوأ عادة للرجل أن يستخدم لفظة "زعموا" للتلميح عن غرضه، فينقل الأمر بدون تثبت، وكثرة تلك الأخبار التي تستخدم هذا المنهج تُكوّن العقلية الهشة التي لا تعتمد على الحقائق في التفكير، بل تعتمد على الإشاعات والأكاذيب والأهواء.

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الزكاة» باب «قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ وكم الغنى» حديث (١٤٧٧)، ومسلم في كتاب «الأقضية» باب «النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهي عن منع وهات» حديث (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «النكاح» باب «لا يخطب على أخيه حتى ينكح أو يدع» حديث (٥١٤٤)، وفي كتاب «الأدب» باب «ما ينهى عن التحاسد والتدابر» حديث (٦٠٦٤)، وفي باب «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾» حديث (٦٠٦٦)، وفي كتاب «الفرائض» باب «تعليم الفرائض» حديث (٦٧٢٤)، ومسلم في كتاب «البر والصلة والآداب» باب «تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش» حديث (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١١٩)، وأبو داود في كتاب «الأدب» باب «في قول الرجل زعموا» حديث (٤٩٧٢)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٥/ ٢٥٢) من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.

٢- تَتْبع المؤسسة الدينية منهج التثبت من المعلومات الذي أكد عليه الإسلام، والذي عن طريقه نقل الدين إلينا، ويتم ذلك بخصال الحلم والأناة وحسن الخلق والعفو والصفح والحكمة، قال رسول الله ﷺ لأشج عبد قيس: «**إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم، والأناة**»[١]، وفي رواية الطبراني: «**يحبهما الله ورسوله**»[٢] وهذا ما افتقده كثير من المعترضين على المؤسسة الدينية حيث يطالبونها بأن تبادر بعد كل هَيْعَة ومَيْعَة، وأن تتبع الأخبار فتتفاعل مع صادقها وكاذبها، وهي لم تفعل هذا في حياتها الطويلة ولن تفعله إن شاء الله تعالى؛ لأن ذلك يذهب بجلالها ويخالف ما تعلمته من دين الله ويقول الله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾[٣]. ويقول سبحانه: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[٤]، ويقول سبحانه: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾[٥]، ويقول: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[٦].

(١) أخرجه مسلم في كتاب «الإيمان» باب «الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتبليغه من لم يبلغه» حديث (١٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﵁.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٣٤٥)، وابن حبان في «صحيحه» (١٦/ ١٧٩) حديث (٧٢٠٣)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٣٨٨) وحسنه.

(٣) الآيتان ١٠٩، ١١٠ من سورة البقرة.

(٤) الآية ١٢٥ من سورة النحل.

(٥) من الآية ٢٥٦ من سورة البقرة.

(٦) الآيتان ٨، ٩ من سورة الممتحنة.

٣- تبني المؤسسة الدينية أحكامها على فهم شامل للقرآن والسنة، وعلى فهم عميق لهما في ذات الوقت، والخروج عن الشمول أو العمق منهي عنه قال تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(١)، ويقول سبحانه: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾(٢).

ولذا نراها تفرق بين مفهوم القتال ودستوره وبين القتل المحرم وإرجاف المرجفين، يقول تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾(٣) ويقول سبحانه: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾(٤).

٤- وهناك من يتذكر المؤسسة الدينية إذا أرادها لتعليق قصوره أو تقصيره عليها، وتاريخ المؤسسة الدينية أنها اختصت بحماية العبادة والدعوة والعلم الشرعي منذ عصر محمد علي، واستقل التعليم المدني بسيره دون تأثير من المؤسسة الدينية، ونشأت الجامعات ابتداء من الجامعة الأهلية حتى صارت الجامعات المصرية اثنتا عشرة جامعة مستقلة بالمجلس الأعلى للجامعات، وجامعة الأزهر مستقلة في نفسها تتبع المجلس الأعلى للأزهر، ومع هذا نرى بعض دعاة العلمانية ينعون على المؤسسة الدينية فشلهم في تحويل الناس إلى فكر العلمانية الشاملة التي يريدونها، فصار الأمر مضحكًا يدعو إلى الأسف وإلى الشفقة، ونحن ننصح بأن يراجعوا أنفسهم وأن يدرسوا تاريخ الشعوب ومقتضيات الفطرة الإنسانية ومكانة الدين فيها، وأن يعلموا أن التجارب السابقة التي كانت أكثر جدة وأعمق تأثيرًا

(١) من الآية ٨٥ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٧١ من سورة آل عمران.
(٣) الآية ١٩٠ من سورة البقرة.
(٤) الآيتان ٩٣، ٩٤ من سورة النساء.

مثل تركيا لم تخرج الناس من الدين، وأن فرنسا تراجع الآن مناهج تعليمها بعد فشل العلمانية في تنحية الدين من حياة الناس والنتيجة أخرجت جيلاً يرثى لحاله، والرئيس (بوش) يدعو الآن لتدريس نظرية (التصميم الذكي للكون والحياة) وهي نظرية تشجع فكرة أن هناك قوة خفية تقف وراء التطور البشري وخلق الكون بجانب نظرية (التطور والنشوء والارتقاء) حيث قال ما نصه: (إن التلاميذ في المدارس ينبغي أن يتعلموا نظرية التصميم الذكي كنظرية منافسة للنشأة والتطور) [نقلا عن صحيفة الوشنطن بوست الأربعاء ٣/ ٨/ ٢٠٠٥]، وقد أثارت تصريحات بوش انتقادات حادة من جانب خصوم نظرية "التصميم الذكي" الذين يقولون إنه لا يوجد دليل علمي على تأييدها ولا يوجد أساس تربوي لتدريسها. ويقول الجانب الأكبر من العلماء في المؤسسة البحثية العلمية إن نظرية (التصميم الذكي) لم تختبر ولكنها مجرد مسعى يتم التسويق له ببراعة لإدخال التفكير الديني - خاصة المسيحي - في تفكير التلاميذ.

نأمل من أولئك أن يقرءوا مصادرهم في الغرب ولا يقفوا عند ستينيات القرن العشرين، فهناك تجربة قد غيرت كثيرًا من الأفكار وكثيرًا من المبادئ والأسس، ونرجو ألا ينطبق عليهم كلام سارتر في مقدمة (معذبو الأرض) حيث يقول (إذا قلنا: هنا أخوة. قالوا: هناك خوه خوه يصيحون بها وهم لا يعرفون معناها).

٥- لقد حمَتِ المؤسسةُ الدينيةُ العبادةَ بالاتباع لا الابتداع، وكان منهجها وسطيًّا قائمًا على الحجة والبرهان، وأسس علمية رصينة في مجال التوثيق والفهم وأدوات منهجية، واهتمت بالدعوة وكانت الأسس هي الحكمة والموعظة الحسنة، واهتمت بالعلم وكان أساسها المنهج والعقلية العلمية لا الانطباع والخرافة، وهذه الثلاثة هي التي يحتاجها الناس في حياتهم: عبادة مخلصة، ودعوة نيرة وعلم نافع يزكي النفس ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾[1]، وتخرج المسلم الذي يعمر الأرض ﴿ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾[2]، ويعبد الله على حق ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[3].

(١) الآيتان ٩، ١٠ من سورة الشمس.

(٢) من الآية ٦١ من سورة هود.

(٣) من الآية ١٤ من سورة غافر.

والمؤسسة الدينية في مسيرتها لا تهتم كثيرًا بالاتهامات، وإنما تسمع للنصيحة، فـ «**الدين النصيحة**»[1] ولكن قال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾[2].

٦- وإذا كان هذا هو حال المؤسسة الدينية وفكرها، وأنه يمكن الاستفادة منها الاستفادة الأكمل، فنحن نعلم أننا في عالم لا يقف عند حَدٍّ وأنه مستمر في سيره وتطوره، وأننا نحتاج إلى العمل ليل نهار من أجل أن نثبت أقدامنا في هذا العالم، وحتى نستمر في أداء المهمة التي أُوكلت إلينا.

إنَّ وصفنا لواقع المؤسسة الدينية لا يعني أننا انتهينا من واجبنا وأننا أدينا ما علينا، بل الذي تعلمناه في تلك المؤسسة ومن مشايخها الكرام - رحمهم الله - أن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة، وأن الإنسان عليه أن يقوم بواجب الوقت - وهو دائم ومستمر - وأن: «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**»[3]. و«**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**»[4]، وأن طلب العلم والعمل من المهد إلى اللحد، ومع المحبرة إلى المقبرة، وإنما ما ذكرناه هو لتصحيح الصورة القاتمة التي تصدر عن كثير من الناس من غير علم ولا اطلاع على واقع أو حقيقة، والتي تشتمل على تحميل مسئولية دون إعطاء سلطة، بل مع التأكيد المستمر على نفي السلطة، بل والخوف والفزع بشأنها، وهذا شأنهم إذا سلبت السلطة، فلا تسأل أيها الناصح الكريم من سلبت منه.

٧- المأمول من المؤسسة الدينية أن تدخل في تقنيات العصر، ولقد بدأت في الدخول، ولكنَّ هذا يحتاج إلى مال كثير وإلى جهد أكبر وإلى همة لا تتوقف، ونحتاج إلى وجود عالمي متصل بالوجود الداخلي، والتمثيل لدى المؤسسات الدولية، وتحتاج من الجميع الالتفاف إلى مرجعيتها التي كانت لها ولا زالت تقوم بها، ولا ينبغي لمن أراد الاستفادة أن يؤخرها عن مكانها التي جعله الله لها.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب «الإيمان» باب «بيان أن الدين النصيحة» حديث (٥٥) من حديث تميم الداري ﷺ.

(٢) الآية ١١٦ من سورة الأنعام.

(٣) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الرقاق» باب «القصد والمداومة على العمل» حديث (٦٤٦٤)، (٦٤٦٥)، ومسلم في كتاب «صلاة المسافرين وقصرها» باب «فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره» حديث (٧٨٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٧/ ٣٤٩) حديث (٤٣٨٦)، والطبراني في «الأوسط» (١/ ٢٧٥) حديث (٨٩٧)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٣٣٤) حديث (٥٣١٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

تحتاج المؤسسة الدينية إلى قناة فضائية وإلى تقوية جريدتها التي نجحت في إصدارها وإلى نشر مجلتها على مستوى العالم التي تصدر منذ أكثر من ثمانين سنة، وإلى تدريب مستمر على كل المستحدثات والمستجدات.

فاللهم أرشدنا إلى الصواب، ووفقنا إلى ما تحب وترضى، وثبت أفئدتنا على حب الإيمان والعمل الصالح، وسدد خطانا وتقبل منا صالح أعمالنا، وافتح علينا فتوح العارفين بك، آمين وصلاة وسلامًا على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

الحوزة الأزهريـة

ظل الأزهر عبر القرون منارة للعلم ينقله غضًّا طريًّا من جيل إلى جيل حتى مدحه شوقي في قصيدته العصماء وهـو يفتتحها بقوله:

قُمْ فِيْ فَمِ الـدُّنيا وَحَـيِّ الأزْهَـرَا   وَانْثُرْ عَلَى سَمْعِ الزَّمَـانِ الْجَـوْهَرَا

وخاطبَ الأزهرَ مبجلاً له في تلك القصيدة حيث قال:

يا مَعهَـدًا أَفْنَـى القُـرونَ جِـدَارُهُ   وَطَوَى اللَّيَـالِيَ ركنُـهُ وَالأَعْصُـرا

وَمَشَى عَلَى يَبَسِ المَشَـارِقِ نُـورُهُ   وَأَضَـاءَ أَبـيَضَ لُجِّهَـا وَالأَحمَـرَا

وقال فيها وقد ذكَّرته حلقاتُ الأزهر بزمن الأئمة:

وَمَشَى إِلَى الحَلَقاتِ فَـانفَجَرَتْ لَـهُ   حلَقًـا كَهَـالاتِ السَّـماءِ مُنَـوِّرا

حَتّـى ظَنَنّـا الشَّـافِعِيَّ وَمالِكًـا   وَأَبَا حَنيفَـةَ وَابـنَ حَنبَـل حُضَّـرَا

١- ومع كل تطور للأزهر كان هناك شوق كامن للعصر السابق، وكان كل تطور لمناسبة العصر ولتحقيق مهمة الأزهر، وكان الشوق للمنهج القديم لعظمته وشدة إبهاره، ولقد بدأ التطوير منذ زمن ليس بالقريب، بدأ من الشيخ حسن العطار الذي كان له موقف واضح من الحملة الفرنسية، ورأى أن هناك نقطة فارقة على وشك الحدوث بين الشرق والغـرب سيتفوق فيها الغرب على الشرق، فأنشأ حوزة أزهرية يحاول فيها معرفة هذا الأمر، وكيف سنتعامل مع تراثنا ومـع واقعنا الجديد، وأرسل تلميذه رفاعة رافع الطهطاوي إلى باريس مع البعثات العلمية التي أرسلها محمد علـي باشـا، وأمره أن يكتب له عن كل شيء عن الطعام، والشراب والملابس والعادات والتقاليد والآراء والمفاهيم، فكتب لـه مـا صار بعد ذلك (الإبريز في محاسن باريز) ولعلنا نفرد لحسن العطار مقالاً يكشف عن هذا التوجه.

٢- وفي الستينيات اشتقنا إلى الأزهر القديم فتم افتتاح كلية الدراسات الإسلامية والعربية في جامع الأزهر، وظلت تدرس الكتب القديمة والمناهج الرصينة في نفس المسجد على نظام الحلقات (التي انتهت بإنشاء مباني الكليات الثلاث الشرعية سنة ١٩٣٦م) واستمرت كلية الدراسات كذلك حتى سنة ١٩٨٠م حيث انتقلت من المسجد إلى الحرم الجامعي لتحتل مبنى معهد القاهرة قديمًا، والذي كانت فيه كلية التجارة بجامعة الأزهر، ورجع المسجد مرة أخرى من غير دروس كانت قائمة فيه، حتى رأى الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق عليٌّ جاد الحق أن يعود للأزهر بريقه التراثي، فأنشأ الدراسات الحرة بالجامع الأزهر والتي كانت تبدأ قبل العصر وجعل الدكتور محيي الدين الصافي عميد كلية أصول الدين حينئذ مشرفًا عليها والذي قام باختيار جماعة من العلماء للتدريس في هذه الدراسات وظلت تعمل حتى دخل مبنى الجامع الأزهر في دور التجديد والإصلاح ثم تم تجديده وافتتاحه سنة ١٩٩٧م.

٣- وفي شهر سبتمبر سنة ١٩٩٨م استأذنت وزير الأوقاف الدكتور محمود حمدي زقزوق في إرجاع الحوزة الأزهرية واستخرجت منه تصريح الخطابة في مسجد السلطان حسن والتدريس في الأزهر، وطلبت منه أن يكون ذلك في رواق الأتراك، وبدأت الدروس بعد الشروق من كل يوم لمدة ستة أيام في الأسبوع، قرأنا فيها علم الحديث وقواعد الفقه، وأصول الفقه، وعلم التوحيد، والمنطق ومصطلح الحديث، والتفسير.

ففي علم الحديث قرأنا «البخاري» ثم «مسلم» ثم «أبو داود»، ثم «سنن الترمذي»، ثم «موطأ مالك»، ثم «سنن النسائي»، ووصلنا فيها إلى نصفها، وفي قواعد الفقه قرأنا «الأشباه والنظائر» للإمام السيوطي، وفي أصول الفقه قرأنا «جمع الجوامع»، و «تشنيف المسامع» و «المنهاج» للبيضاوي، و «التمهيد» للإسنوي مرات، وفي المنطق قرأنا «السُّلَّم»، وفي التوحيد قرأنا «الخريدة» و «الجوهرة» بشرحيهما، وفي التفسير قرأنا الزمخشري، وفي الفقه قرأنا متن «أبي شجاع»، ومتن «الزبد»، وفي التصوف قرأنا «الحكم العطائية» و «منازل السائرين» للهروي، و «مختصر إحياء علوم الدين»، ووصلنا فيه إلى العبادات كل ذلك من سنة ١٩٩٨م حتى سنة ٢٠٠٤م.

٤- وفي هذه الفترة شارك في الحوزة أئمة من أساتذة الأزهر فدرس فيها الشيخ عوض الله حجازي رئيس جامعة الأزهر الأسبق التوحيد مرتين، ودرس فضيلة الشيخ مصطفى عمران المنطق عدة مرات في كتب مختلفة، ودرس الشيخ المرحوم محمد أحمد سحلول النحو، ودرس فضيلة الشيخ محمد طايل عضو مجمع اللغة العربية شيئًا من

الخصائص لابن جني، ودرس الشيخ مختار المهدي إمام أهل السنة والجماعة بالجمعية الشرعية وأستاذ النحو بجامعة الأزهر، ودرس الشيخ بركات عبدالفتاح دويدار التوحيد.

وكان عدد الطلاب يزيد على مائتي طالب من كل الدنيا ومن كل التخصصات وحضر الطلاب والطالبات من الأزهر ومن غير الأزهر بكل مراحل العمر، والدراسة مفتوحة لمن شاء أن يحضر، وبنيت الدراسة على قراءة الكتب القديمة وعلى فتح باب المناقشة، وعلى الحوار حولها وكيفية الوصل بين الأصل وبين العصر، ومميزات منهج أهل السنة في فهم النص وفي فهم الواقع وفي الوصل بينهما.

٥- وفي سنة ٢٠٠٤م قدم الأستاذ الدكتور حسن الشافعي وهو ابن الأزهر وكان وكيلا لدار العلوم، وكان رئيسًا للجامعة الإسلامية بإسلام آباد، وهو عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة - مقترحًا أن تطور الحوزة الأزهرية وأن تمتد إلى مساجد كثيرة خارج الأزهر، مع العودة إلى قراءة الكتب الأصلية وعرض الأمر على رئيس جامعة الأزهر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب، وعلى معالي وزير الأوقاف الأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق.

ووافق معالي الوزير على اتساع الحوزة، وعلى استمرارها بصورة تكون أكثر رسوخًا وتمكنًا، بل رصد لها من ميزانية الوزارة مبلغًا لتقوم بدورها، وإن كان الأساتذة يقومون بذلك في الأغلب الأعم على سبيل التبرع حبًّا في العلم، وقيامًا بأداء واجب التبليغ، وبدأ من سنة ٢٠٠٤م حتى اليوم والدروس قائمة في الرواق العباسي يدرس فيها رئيس الجامعة، وهو من هو في علم التوحيد والفقه المالكي وعلوم المعقول والمنقول، ويدرس فيها د. محمد عبدالفضيل نائب رئيس الجامعة، وكان مشهورًا عنه وهو أستاذ في كلية أصول الدين أنه السعد التفتازاني قد جُمع مع الشريف الجرجاني (وهما من أكبر علماء الكلام في التاريخ الإسلامي) ودرس فيها الدكتور حسن الشافعي، وكلهم يعيش ويدرك مشكلات الواقع ومطلع على ثقافات شتى، وأما العبد الفقير فأدرس في الرواق العباسي أصول الفقه من كتاب لب الأصول، وغير من ذكرت كثير من علماء الأزهر السابق ذكرهم، وغيرهم أيضًا.

٦- وعلى هامش تلك الدروس، هناك الدروس التي في رواق الأتراك، في القراءات والتجويد والنحو والفقه والمواريث والحديث استمرارًا لما بدأ، ويقوم أيضا معيدو الدرس ممن تخرج من الأزهر وحصل على الشهادة الأكاديمية، ثم حرص على حضور الحوزة الأزهرية منذ نشوئها حتى اليوم، فصار قادرًا على إعادة درس الكبار وتفصيل مجمله، ونظامُ معيد الدرس معروف في تاريخنا قد أخذه الناس عنا.

٧- زار الحوزة كثير من علماء الأرض شرقًا وغربًا، بجميع مذاهبهم سنية وشيعية وإباضية، ومدحوا الأزهر أن يعود إلى هذه الطريقة التي تعطي الحرية للعلم بهذه الصورة الفريدة، واستطاع كثير من الطلبة الوافدين من البلاد العربية أو الإسلامية في آسيا وإفريقيا أن يستفيدوا منها أيما إفادة، وحضر إليها كثير من الطلبة المسلمين في أمريكا ولندن، وقرءوا فيها معنى المنهج الوسطي وكنوز التراث الإسلامي، وجريمة الإرهاب وما يفعله بالمسلمين وحضارتهم، وعرفوا الفكر المستنير والطريق القويم، وأنه صَدَقَ رسول الله ﷺ حيث يقول: **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»**[1] يقول أحد أبناء الحوزة شعرًا يمدحها وهو الأستاذ أشرف سعد:

هَـذِي الْمَـآذِنُ تَسْـتَعِيدُ شَـبَابَهَا ... قَدْ لاحَ فَجْرٌ فِي سَمَا الدُّنيا سَرَى
تَحْتَ القِبَـابِ العَـامِرَاتِ تَوَافَـدَتْ ... أَجْنَاسُ شَتَّى الـرَّاغِبِينَ مِـنَ الـوَرَى
أَقْمَـارُ هَـذِي يَسْـتَنِيرُ ضِـيَاؤهَا ... مِنْ شَمْسِ مَنْ حَازَ الجَبِـينَ الأزْهَـرَا

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة» باب «قول النبي ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون وهم أهل العلم» حديث (٧٣١١)، ومسلم في كتاب «الإمارة» باب «قوله ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم» حديث (١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ.

(١-٢) السُّنة والشِّيعة

يحزننا ما يجري في العراق من فتنة عمياء تظهر رأسُها بين السنة والشيعة، وكثير من الناس يتساءلون: ما السُّنة؟ وما الشيعة؟ وما الخلاف بينهما؟ وهل يعترف بعضهم ببعض؟ وهل هما كدينين منفصلين كما يدعي بعضهم في الغرب؟ أقول: إن الأزهر الشريف قد اعترف بالمذاهب الفقهية الثمانية، التي يقلدها المسلمون في العالم في عصرنا الحاضر، وهي الأربعة السنية (الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة) واثنان من الشيعة (وهما الجعفرية والزيدية) واثنان من خارج ذلك وهما (الإباضية والظاهرية) وهذه المذاهب الثمانية هي التي تكون الموسوعة الفقهية التي بدأت في سنة ١٩٦٠م بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، والتي وضع برنامجها العلامة المرحوم محمد فرج السنهوري ومعه آخرون من كبار رجال الفقه في مصر، وكان قبل ذلك قد أصدر الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت قرارًا باعتماد المذهب الجعفري، واعتماد الأخذ منه عند أهل السنة، وهذا كله نراه مسطورًا في كتب الفريقين عبر التاريخ، يعرض هذا رأي هذا، ويعرض ذاك رأي الآخر مرة لمناقشته، ومرة لاعتماده، ومرة لنصرته وترجيحه، مما يدل على أنهما على دين واحد، وعلى قبلة واحدة هي الكعبة المشرفة، وعلى مصدر واحد هو كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، يصومون شهر رمضان، لا يختلفون فيه، ويصلون الخمسة، ويحجون البيت، فما الخلاف بينهما إذن؟

١- يرى أهل السنة أن الرواية المعتمدة عن رسول الله ﷺ، تشمل نقل الصحابة كلهم عنه، وعدد الصحابة الذين رأوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ١١٤ ألف صحابي، صلى عليه في المدينة عند انتقاله إلى الرفيق الأعلى نحو عشرين ألف صحابي، والرواة عنه نحو ١٨٠٠ صحابي، أي ما لا يزيد عن ١% من عددهم، والرواة الذين في مسند أحمد، وهو كتاب كبير يشتمل على نحو ثلاثين ألف حديث، لا يزيد عن ٩٩٠ صحابيًّا كثير منهم لم يرو إلا حديثًا واحدًا، وفي صحيح الإمام البخاري ما يزيد على ألفي حديث من غير المكرر، والصحابة الرواة ٢٥٤ صحابيًّا (ومع المكرر بلغت عدد الأحاديث أكثر من ٧٥٠٠ حديث، فإنه كان يكرر الحديث الواحد أكثر من مرة، طبقًا لما يستفيده منه من أحكام في الأبواب المختلفة). وعدد الأحاديث التي رُويت عن النبي ﷺ من طريق أهل السُّنة لا يزيد عن ٥٠ ألف حديث، رُويت بنحو مليون سند، منها الصحيح، ومنها الضعيف، ومنها المقبول، ومنها المردود.

٢- ويرى الشيعة أن الرواية لا تكون معتمدة إلا إذا كانت عن سيدنا عليٍّ - كرَّم الله وجهه ورضي الله عنه - وذلك من طريق نسله الشريف الذي حفظه الله سبحانه وتعالى، وعصمه من الخطأ، فكانت العصمة لسيدنا الحسن بن علي رضي الله عنه من بعد أبيه، ثم لأخيه الحسين من بعده، ثم لابنه علي زين العابدين من بعده، ثم لابنه محمد الباقر من بعده، ثم لابنه جعفر الصادق من بعده، وإليه تنسب الجعفرية، ثم لابنه موسى الكاظم من بعده، ثم لابنه علي بن موسى الرضا من بعده، ثم لابنه محمد بن علي الجواد، ثم لابنه علي بن محمد الهادي، ثم لابنه الحسن بن علي العسكري، وأخيرًا لابنه محمد بن الحسن العسكري، ويعتقد الشيعة أنه هو المهدي، ومن هنا سميت بالإثنا عشرية، ومرويات الشيعة جمعها عالم كبير هو الإمام المجلسي في كتاب كبير طبع قديمًا في خمس وعشرين مجلدًا، وطبع حديثًا في مائة وعشرة مجلدًا، ويشتمل على عشرات الآلاف من الأحاديث، بعضها صحيح، وبعضها ضعيف، فمنها المقبول، ومنها المردود.

٣- وهذا الكم الهائل من الرواية عند كل من الفريقين قد اتحد في مساحة كبيرة جدًّا، واختلف في مساحة أقل، ولقد صدرت عدة محاولات لرصد هذا الاتحاد، لجعله منطلقًا للتقريب بين المذهبين، ولإعلام أتباع كل منهما أنهما يتفقان أكثر مما يختلفان، شأنه في هذا شأن كل المدارس العلمية التي تنتمي إلى دين واحد بأصول واحدة، وكانت المحاولة الأولى للتقريب بين المذاهب، عن طريق بيان المشترك في الرواية على يد العلامة الإباضي يوسف أطفيش في كتابه الذي طبع في أواخر القرن التاسع عشر بمصر تحت عنوان (جامع الشمل) طبع على الحجر في مجلد، تتبَّع فيه الروايات المقبولة عند المذاهب المختلفة جميعًا، ثم طبع في سلطنة عمان في مجلدين طباعة حديثة، ولقد حاول السيد محمد الحسيني الجلالي في جامع الأحاديث أن يبين الروايات المشتركة بين السنة والشيعة، فخرج كتابًا ماتعًا طبعه أولا في شيكاغو، ثم بعد ذلك طبعه في إيران في خمس مجلدات، وهو مجهود علمي محترم يبين القاعدة المشتركة التي تجمع بين الفريقين.

٤- وعندما يطلع الإنسان على هذه الحقائق فإنه يزداد تعجبًا، ويسأل: إذن ففيم الخلاف؟ لأن الاختلاف في اعتماد الرواية، سوف يسبب بدون شك اختلافًا في الفقه، والاختلاف في الفقه بسيط؛ لأن الفقه مبني على الظن، وما كان مبنيًّا على الظن فإن للاجتهاد مجالاً فيه، وإذا كان الأمر أمر اجتهاد، فإنه يجب على كل واحد منا أن يقبل اجتهاد المجتهد الآخر.

فالشيعة تبيح زواج المتعة، وهو زواج يتفق فيه الزوجان على تأقيت العقد، وجعل مدة له ينتهي بمجرد انتهائها، ويجيزون للزوج أن يتزوج هذا الزواج فوق الأربعة المنصوص عليهن في سورة النساء، ويجيزون أيضًا الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها، وأهل السنة يحرمون زواج المتعة، ويحرمون هذا الجمع، ويمكن القول أن هذا الموضع هو أكثر المواضع في الفقه اختلافًا بين الفريقين، وهو كما ترى لا يدعو إلى هذا الحزن العميق الذي في قلوب العامة من الطرفين.

٥- إذن فلننتقل إلى الرؤية الكلية العقدية، فنرى أن أحد أهل السنة قد ذهب إلى الحوزة العلمية الشيعية في القرن العشرين، وجلس سَنَةً، وجمع عشرين سؤالاً يعترض بها على مذهب الشيعة الإمامية، وهو العلامة موسى جار الله المتوفى بالقاهرة، وألَّف بها كتابًا أسماه: «الوشيعة في الردِّ على دين الشيعة» وقال إنه قد عرضه على الحوزة العلمية فلم تجب عنه، ولكننا رأينا ردًّا عليه من جملة من علماء الشيعة، لعل أخصرهم وأوضحهم هو العلامة شرف الدين الموسوي، وكتابه عنوانه: «الرد على أسئلة جار الله»، فما هي هذه الأسئلة؟ وما الرد عليها؟ نراها في الأسبوع القادم. (يتبع)

(٢-٢) السُّنةُ والشِّيعة

والمسائل التي تتعلق بالرؤية الأساسية بين السنة والشيعة قد تنحصر في خمسة مسائل اكتنفها كثير من الغموض عبر التاريخ، وولدت مِحنًا بين الفريقين، وإن كانت هذه المحنُ في أصلها سياسي، إلا أن هذه الخلافات الخمسة كانت مبررًا عند كثير من الناس بإشعال الفتنة بين الفريقين، وتعميق الهوة بينهما، وهو ما لا نرضاه في حياتنا المعاصرة، حيث اطلع كل فريق على ما يقوله الآخر، ونشأت دعوات التقريب، وتأكدت ونمت وحققت مكاسب كبيرة، ولا يزال أمامنا الكثير من الجهد، حتى يتم القضاء على هذا الاحتقان المفتعل، الذي لا يرضى عنه الله ولا رسوله ولا المؤمنون.

١- اتهمت الشيعة بالقول بالبداء، وكلمة (البداء) تعني أن الله - سبحانه وتعالى، وجل جلاله - يغير رأيه، وهو ما أنكرته الشيعة تمامًا، وفسرت ما ورد من عبارات حول هذا المصطلح، بما فسر به أهل السنة (القضاء المعلق) فأهل السنة يقولون: إن القضاء منه مبرم، ومنه معلق، أما الذي هو مبرم فهو علم الله الذي لا يتغير ولا يتبدل، وأما الذي هو معلق، فذلك المسطور في اللوح المحفوظ، والذي يمكن أن يغيره الله سبحانه وتعالى بسابق علمه وبإرادته المطلقة وقدرته التي لا نهاية لها، وحملوا عليه حديث رسول الله ﷺ: **«لا يَرُدُّ الْقَضَاءَ إلاّ الدُّعَاءُ وَلا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إلاّ الْبِرُّ»**[1] وحديث: **«لا يَأْتِي ابْنَ آدَمَ النَّذْرُ بِشَيْءٍ لَمْ يَكُنْ قَدْ قَدَّرْتُهُ وَلَكِنْ يُلْقِيهِ الْقَدَرُ وَقَدْ قَدَّرْتُهُ لَهُ أَسْتَخْرِجُ بِهِ مِنْ الْبَخِيلِ»**[2].

وعلى ذلك فلا خلاف في الحقيقة، إنما هو خلاف موهوم نتج من سوء الفهم، ومن حمل الألفاظ على غير معانيها الاصطلاحية التي استقرت في أذهان الناس، وهذا ما يعرف بالخلاف اللفظي، وهو ما لو اطلع كل فريق على ما قاله الآخر لقال به.

٢- القول بتحريف القرآن، ولقد اعتذرت الشيعة عما ورد مما يوهم هذا المعنى القبيح، بأن هذا اللفظ باستعمال القراءات الشاذة التي يذكرها أهل السنة أيضا في كتبهم، غير معتبرة ولا معتمدة، لأنها لم ترد بسند متواتر عن المصطفى ﷺ،

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب «القدر» باب «ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء» حديث (٢١٣٩) من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه، وقال: «وهذا حديث حسن غريب».

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «القدر» باب «إلقاء النذر العبد إلى القدر» حديث (٦٦٠٩)، ومسلم في كتاب «النذر» باب «النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئًا» حديث (١٦٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ للبخاري.

وأن الشيعة والسنة على السواء، يقولون بحفظ كتاب الله الذي بين أيدينا، والذي لم يختلف عليه المسلمون قط عبر العصور، وهو ذلك الذي بين دفتي المصحف المعروف المشهور، وكل الأمة يقولون بحفظه كما ورد في سورة الحِجْر: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾[1]، فعاد الخلاف أيضًا إلى اللفظ دون المعنى.

٣- القول بتكفير الصحابة، ولم نر لأحدٍ من الأئمة المعصومين - عند الشيعة - كلامًا مخالفًا في الصحابة الكرام، ورأينا أن علماء الشيعة وقادتهم في القرن العشرين ذكروا في كتبهم الترضية على أبي بكر وعمر، وخفت الغلواء بشأن الصحابة الكرام، وعرضت المسألة من ناحية عاطفية لا تستلزم كل هذا العداء الذي قد ملأ قلوب العامة من الطرفين، فيدعي الشيعي أن السيدة فاطمة - عليها السلام - وهكذا كان يذكرها الإمام البخاري في صحيحه - كانت قد خاصمت أبا بكر، وغضبت عليه من أجل أرض فدك بخيبر، في مسألة فقهية تتعلق فيما إذا كان النبي ﷺ قد ترك تركة، أو: «**إنَّا معاشر الأنبياء لا نورث**». وهذا هو الجانب العاطفي في المسألة.

٤- قضية من أحق بالخلافة، سيدنا عليٌّ - كرَّم الله وجه ورضي الله عنه - فقط، وهو قول الشيعة، أو ترتيب الخلافة كما حدثت أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، وهو قول أهل السنة، وكما ترى فإنها مسألة تاريخية، لكنها مثلت - ولا تزال تمثل - عند الفريقين أساسًا يبنى عليه غيره، وهي ما تعرف بقضية الإمامة وهي أنها لابد فيها من الوصاية، والنصر، وهو ما تدعيه الشيعة، أو أنها مسألة تتعلق بالاجتماع البشري، وهي متروكة لاختيار المسلمين عامة بالانتخاب الحر، وهو ما تدعيه السنة.

٥- التقية، وهي عند الشيعة، وتعريفها السني: أن يتكلم الإنسان بغير ما يعتقد، وعدوا هذا بابًا من أبواب النفاق، أو الكذب، أو الضعف، أو الخداع، أو نحو ذلك من الصفات الذميمة، إلا أن الشيعة أجابوا على هذا بأن تعريفها يكاد يكون حكاية مذهب الخصم، وحكاية مذهب الخصم وإن خالفت معتقد من يتكلم، إلا أنها ليست واحدة من هذه المعاني القبيحة المذكورة التي تتردد بين النفاق والخداع، وإنما هو وضع قد تمليه على الإنسان ظروف سياسية خاصة في عصور الجور، وتقييد حرية الرأي، فيضطر الإنسان إلى أن يحكي مذهب الغير، وليس إلى الكذب أو نحو ذلك.

---

(١) الآية ٩ من سورة الحجر.

٦- وأمثال هذه الخلافات، والتي يمكن في الحقيقة تجاوزها لا يمكن أن نقبل في عصرنا الحاضر أن تكون سببًا لدمٍ يراق بين الفريقين، ولا لعدوان يسبب حربًا أهلية فيما بيننا، بل إن الوحدة فرض ديني يجب على الأمة كلها أن تمتثل إليه، وهو ما رأيناه في كلام القيادات الواعية من الفريقين، ورأيناه في حركة التقريب التي احتضنتها مصر من أواسط القرن العشرين، ثم شاعت منها إلى سائر بلاد العالم، نسأل الله أن يوحد قلوب أمة سيدنا محمد ﷺ على الخير.

إِنَّا نحنُ نزَّلنا الذِّكرَ وإِنَّا لهُ لَحَافِظُونَ.

هذه هي الآية التاسعة من سورة الحجر في القرآن الكريم، وهي وعد من الله الذي أنزله بأن يحفظه، ولم يكن في مقدور سيدنا محمد ﷺ ولا أحد من البشر من بعده أن ينفذ هذا الوعد. ولكن الواقع الذي نعيشه يؤكد أن الوعد قد تم، ويزداد الإعجاز عبر الزمان من كل جهة؛ فإن القرآن لم يحفظ في الخزانات بعيدًا عن الناس، بل حفظه كثيرون حتى الأطفال بالملايين في كل مكان، وزاد من الإعجاز أن حفظه من لم يتعلم العربية ولم يعرف فيها كلمة واحدة.

وقد تعرض القرآن الكريم لمحاولات التحريف فلم تفلح، ولمحاولات الترجمة الخاطئة السيئة النية فلم تؤثر فيه، ولمحاولة الطباعة المحرفة، فبقي كما هو، ولمحاولة تقليده ومحاكاته بسيئ الكلام وركيكه فلم يزحزح عن مكانته، بل إن كل ذلك أكد معجزته الباقية عبر الزمان، وأعلى من شأنه في صدور الناس، وكان كل ذلك بالرغم مما اشتمل عليه من العدوان والطغيان سببًا في تمسك المؤمنين به، وبابًا جديدًا للدعوة إلى الله ودخول الناس في دين الله أفواجًا، وبدلا من إبادة المسلمين التي أرادها مشركو مكة ومن بعدهم الفرس والروم ومن بعدهم الفرنجة والتتار ومن بعدهم الاستعمار والتعصب في الشرق والغرب بدلاً من ذلك انتشر الإسلام وأصبح عدد المسلمين أكبر أتباع دين، وقد شهدت بتلك الحقيقة موسوعة جينز للأرقام القياسية، وهم يقدرون الآن بمليار وثلاثمائة مليون نسمة، وأحب أن أروي شيئا من هذه الرحلة القرآنية:

١- نزل القرآن بلغة العرب، وظل محتفظًا بلغته إلى يومنا هذا، وهذا الاحتفاظ جعله مرجعًا لكل من حاول أن يترجمه إلى لغة أخرى، ولقد ترجم منذ العصور الأولى خاصة ما ورد منه في رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأكاسرة والقياصرة؛ حيث وردت بعض الآيات في هذه الرسائل فترجمت إلى لغات المرسل إليه أثناء تلاوتها عليهم، والآن ترجم القرآن إلى أكثر من مائة وثلاثين لغة بعضها ترجم مرة واحدة، وبعضها ترجم أكثر من مائتين وخمسين ترجمة كما هو الحال في اللغة الإنجليزية مثلا، وكثير منها ترجم مرات عديدة، وفي كل الأحوال يبقى النص القرآني هو المرجع، فالترجمة قد تكون سيئة النية وقد تكون من نص آخر غير العربية (كترجمة شوراكي إلى الفرنسية والترجمة إلى الأسبانية... إلخ) وقد تكون من شخص يجهل إحدى اللغتين أو اللغة المترجم إليها، وقد تكون ترجمة مذهبية أو طائفية أو شارحة لرأي المترجم.

وفي كل الأحوال قد تكون مفككة وركيكة التركيب وقد تكون بليغة راقية الأسلوب، ولكن يبقى الأصل العربي ليرفع النزاع ويمثل الإسلام تمثيلاً حقيقيًا من غير تحريف أو تخريف، وهذه مزية تفرَّد بها القرآن عن سائر الكتب المقدسة.

٢- نقل القرآن بالأسانيد المتصلة المتكاثرة التي بلغت حد التواتر الإسنادي والجملي، ولقد أورد ابن الجزري في كتابه «النشر في القراءات العشر» أكثر من ألف سند من عصره (القرن التاسع الهجري) إلى القراء العشرة وهم قد نقلوا القرآن ممثلين عن مدن بأكملها كلها يقرأ كما كانوا يقرءون، وهذا ما يسمى بالتواتر الجملي؛ فلأن الناس جميعًا يقرءون القرآن في مدينة معينة بهذه الطريقة وبهذا الأداء فكان هؤلاء القراء مجرد مندوبين عنهم وممثلين لقراءاتهم وحافظين لطريقتهم في التلاوة وارتضاهم أهل كل مدينة لما رأوا فيهم مزيد الاهتمام وتمام العلم، فشهدوا لهم جميعا بذلك.

فهناك ابن كثير (القارئ وليس المفسر) في مكة، وهناك نافع وأبو جعفر في المدينة المنورة، وهناك عاصم والكسائي وحمزة في الكوفة، ويعقوب وأبو عمرو بن العلاء في البصرة، وابن عامر في الشام، وخلف في بغداد وهؤلاء العشرة يقرءون قرآنًا واحدًا وطريقة كل واحد في القراءة تفسر القرآن تفسيرًا يجعله واسعًا قادرًا على أن يكون مصدرًا للهداية إلى يوم الدين مع تغير الأحوال وتطور العصور.

والقرآن ما زال بين أيدينا قرآنًا واحدًا، وامتلأت كتب التاريخ والأخبار بمن قرأه قراءة خاطئة أو تعمد تحريفه، وظل القرآن كما هو لا يتزحزح ولا يتغير ولا توجد فيه نسخ كثيرة، ولا يحتار المسلم بين نسخة وأخرى ولا يحتاج إلى أن يتخير منها عدة نسخ، بل هو قرآن واحد من طنجة إلى جاكرتا ومن غانا إلى فرغانة. وكان جديرًا بعد كل هذا أن يتغير لكنه لم يكن كذلك، إنه محفوظ في الواقع المعيش، ويحلو لبعض الناس أن تحشر هذه المخالفات من كتب التاريخ وهي مذكورة لتبين للناس أجمعين وفي كل العالم أن هذا الكلام من الحجارة التي ألقيت على القرآن أثناء مسيرته لم تؤثر فيه، وأنه تعرض لكثير من الضجيج ولكثير من الهجمات، فكان جبلاً شامخًا، ليس من حول المسلمين وقوتهم؛ فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، بل بحفظ الله له كما وعد سبحانه.

٣- ثم رأينا تقريبًا كل مائتي عام من يقوم فيحاول محاكاة القرآن تكبرًا أو مدعيًا للنبوة أو الألوهية أو سافرًا أو مفسدًا في الأرض أو غير ذلك، فرأينا مسيلمة يحاول أن يحاكي جرس القرآن في كلمات هي أقرب إلى المزحة منها إلى الهداية، وكذلك سجاح وهي امرأة ادعت النبوة وأسقطت من فوقها شيئًا من الصلاة، وجاءت محاولة أبي العلاء

المعري في كتابه «الفصول والغايات» وإن صدقت الرواية فإنه يكون النزق اللغوي الذي يغري صاحبه بمثل هذه المحاولة، ويروى أن الناس قالت له: لما لا نجد عليه طلاوة كما نجدها في القرآن. قال: اقرءوه أربعمائة سنة في المحاريب تجدوا له طلاوة. (وكأن طلاوة القرآن جاءت من إلف الناس لا من جرسه الذاتي الداخلي) ونسي أبو العلاء إن صح عنه هذا أن القرآن كان عليه طلاوة وله حلاوة حينما أُنزل وليس بعد أربعمائة عام حتى قال الوليد بن المغيرة وهو لم يؤمن ولم يسلم: «إن له لطلاوة وإن عليه لحلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما هو بقول هذا بشر». وكتاب «الفصول والغايات» مطبوع مرتين موجود بالأسواق يمكن لأي شخص أن يقرأه وسيعلم حينئذ ما معنى القرآن؟ وما معنى كلام الله؟ وما الفرق بين كلام الله وكلام البشر؟ وأن هذا القرآن ما كان في مقدور أحد أن يفتريه من دون الله.

وعند ابن المقفع الأديب المشهور مترجم كليلة ودمنة كتاب حاول فيه أيضًا ذلك وهو (الدرة البهية) وهو مطبوع أيضًا وإن كان أصغر حجمًا بكثير من (الفصول والغايات) وهو إن صح ما قيل في شأنه فإنه دلالة أخرى على ذلك.

وهناك كتاب (البيان) وكتاب (الأقدس) عند البهائيين، وهناك محاولة هزلية من بيرم التونسي نراها في مجموعته الكاملة التي نشرت بالهيئة المصرية العامة للكتاب، وقد أعلن بيرم التونسي التوبة وصدقت توبته من هذه المحاولة الهزلية التي سخر فيها من حزب الوفد ومن سعد زغلول بما يشبه جرس القرآن وكان رحمه الله يقول: (لا أجعل في حل من يروي عني ما قلته) ثم ألف في هذه التوبة أغنية (نداني لبيته لحد باب بيته) التي غنتها أم كلثوم يتكلم فيها عن رجوعه وتوبته إلى الله بعد إسرافه على نفسه.

٤- وعلى شبكة المعلومات الدولية نرى أنيس سورس وهو مسيحي من فلسطين غادرها سنة ١٩٧٦م قد ألف شذرات أسماها (الفرقان الحق) وجعله في ٧٧ سورة واختار أسماء لها تشبه أسماء سور القرآن تبدأ بسورة الفاتحة وحملها العقائد اليهودية والمسيحية وطبع كتابه في دار نشر أومجا ٢٠٠٠ بأمريكا، ويباع كتابه هذا بعشرين دولارًا أمريكيًّا.

وهو دليل آخر على عظمة القرآن بصورة قاطعة، فالفرق بين فرقان سورس الذي يعلن أنه من عند نفسه وبين القرآن الكريم كالفرق بين المخلوق والخالق. وإذا قرأت هذا المؤلف فمرة تضحك، ومرة تحصل لك كآبة، وعلى كل حال تجده مفككًا ويحزن المرء أن يضيع عمره في هذا الهراء. مقارنة بسيطة بين هذا الكلام وبين القرآن تعلي من مكانة القرآن في

نفسك وتعرف أنه من عند الله فعلاً، وتتم كلمة الله في حفظه على مر العصور، إن حفظة القرآن وتوفيق الله لهم في علوم القرآن وأسانيدها ليس من عملهم بل من إرادة الله.

إن العشرين سنة القادمة هي سنين القرآن والدراسات القرآنية فهو كتاب هداية لمن أراد أن يجعله كذلك، وهو يتضام ويغلق أمام من أراد العبث به أو معه. قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾[2]، فهو هدى للمتقين وحجة على المفسدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) الآية ٤٤ من سورة فصلت.

(٢) الآية ٨٢ من سورة الإسراء.

ثالثًا: مقالات القواعد والمسائل

لا ينسب لساكت قول

هذا أصل من أصول الفقه الإسلامي والقضاء، وهو أصل أيضًا من أصول العدالة والإنصاف، وهذا قول الإمام الشافعي بعد تأمل الشريعة من ناحية، والحياة من ناحية أخرى، وللأسف فإن كثيرًا من الناس خرج عن هذه القاعدة فحاد عن مقتضى العدالة وأخذ الساكت بجريرة غيره وطالبوا المفترى عليه أن يتكلم وإلا صح الافتراء وثبت الاتهام، ولابد أن نعود في تأصيل ثقافتنا إلى مقتضيات العدل قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[1]. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾[2].

١- فالإنسان إما أن يصدر منه قول أو فعل، يُحكى عنه، أو لا يصدر عنه لا قول ولا فعل فينسب إليه، أما الحكاية عنه فتعتريها العوارض البشرية؛ ولذلك فقد تكون حقًا وقد تكون باطلة، فإذا كانت دقيقة وصادقة فلا إشكال، وعلى هذا تكون الشهادة لله قال تعالى:﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾[3].

وإقامة الشهادة تستلزم الصدق فيها، ومحاولة عدم الوقوع في العوارض البشرية، والعوارض البشرية هي، السهو: وهو إذا ذَكّره أحد تذكر، والنسيان: وهو إذا ذكره أحد لا يتذكر. والغفلة: وهي حالة يخلط فيها الناقل بين الأحداث والخطأ

(١) الآية ٩٠ من سورة النحل.
(٢) الآية ٨ من سورة المائدة.
(٣) من الآية ٢ من سورة الطلاق.

ويتمثل في الفهم غير الصحيح للقول أو الفعل وقد يأتي هذا الخطأ من التحمل أو من الحمل أو من الأداء، وأخطاء التحمل تتعلق بسماع جزء من الكلام، أو بالخطأ في دلالة الألفاظ على معانيها، أو نحو ذلك، وأخطاء الحمل تأتي من الجهل بالحقيقة والمجاز، أو بحمل المشترك على معنى غير مراد للمتكلم، أو عدم فهم النقل في اللغة، أو التفريق بين المترادفات، أو الجمع بين المتفرقات، أو نزع الكلام من سياقه وسباقه ولحاقه، أو الخطأ في التعميم وعدم مراعاة الشروط المقيدة للإطلاق، وأخطاء الأداء تتمثل في العبارة التي يؤديها الناقل حيث لا تكون منطبقة على ما تحمل؛ أو ما يريد لعجز في القدرة اللغوية أو لاستهانة بها.

ومن العوارض البشرية الكذب: وهو خطأ متعمد عن سوء نية، ولذلك فهو خطيئة ويكون لحقدٍ، أو تدبير سيئ، أو خجل، أو نحو ذلك، ومنها أيضًا الذهول: ويكون عن عدم تركيز الأمر وقلة العناية به، ويكون عن دهشة من أمر طارئ. ومن العوارض البشرية الإكراه من الغير سواء أكان أدبيًّا أو ماديًّا.

وكل هذه العوارض التي تعتري الإنسان تجعل الأصل أنه "لا ينسب لساكت قول"، فالناقل قد يقع في شيء من العوارض البشرية، فإذا سكت المنقول عنه لا ينسب له قول ذلك القائل ولابد من التحري، ومن هنا اخترع المسلمون علوم التوثيق في جانب القرآن وضبطوا المسألة غاية الضبط، ليس فقط على مستوى الآية أو الكلمة أو الشكلة، بل على مستوى الأداء الصوتي، وفي جانب السنة أبدوا أكثر من عشرين علمًا لضبط الرواية، والنبي ﷺ يحذر من هذا فيقول: «**من كذب عليَّ متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار**»[1] وفي جانب العلوم المختلفة أوجدوا أسانيد الدفاتر أي الكتب في العلوم جميعًا ونراهم في جانب القضاء يؤكدون على العدالة والضبط في الشاهد، فليس كل أحد تقبل شهادته، بل لابد من حالة نأمن فيها تقليل العوارض البشرية، وضبط النقل متمثلا بالحديث النبوي الشريف، فعن ابن عباس قال: سُئل النبي ﷺ عن الشهادة. قال: «**هل ترى الشمس؟**» قال: نعم. قال: «**على مثلها فاشهد**»[2].

٢- أما إذا لم يكن قد صدر عنه القول أو الفعل أصلا فهو أشد من الحالة الأولى، ولا يكلف قطعًا برد كل بهتان عليه، ويذكر الإمام السخاوي في «الضوء اللامع» أبياتًا عن شيخه يلخص فيها تلك الحالة[3]:

(١) أخرجه البخاري في كتاب «العلم» باب «إثم من كذب على النبي ﷺ» حديث (١١٠)، وأخرجه مسلم في مقدمة «صحيحه» باب «تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ» حديث (٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧/ ٤٥٥) حديث (١٠٩٧٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٨).
(٣) «الضوء اللامع» (١٠/ ٣٢٥).

كم مــن لئيم مشى بــالزور ينقلــه   لا يتقــي الله لا يخشــى مــن العــار
يــود لــو أنــه للمــرء يهلكــه   ولــم ينلــه ســوى إثــم وأوزار
فــإن ســمعت كلامــا فيــك جــاوزه   وخــل قائلــه فــي غيــه ســاري
فمــا تبالي السما يومــا إذا نبحت   كل الكــلاب وحــق الواحــد البــاري
وقــد وقعــت ببيــت نظمــه درر   قد صاغه حــاذق فــي نظمــه داري
لو أن كل كلب عــوى ألقمتــه حجــرًا   لأصــبح الصــخر مثقــالا بــدينار

٣- وعلى الرغم من تقرر هذه القاعدة في الشرع نقلا وشهادة وقضاء وعلمًا، فإن الشرع استثنى منها - شأن كل قاعدة - ما يستوجب الاستثناء لغرض صحيح آخر، ففي الحديث الصحيح أن عائشة رضي الله عنها قالت لرسول الله ﷺ: البكر تستأمر فتستحي فتسكت. قال: «**سكاتها إذنها**»(١)، فأيام ما كانت الناس تستحي وكان الحياء خلقا كريمًا كانت البنت تخجل عندما يتقدم لها خاطب فإذا سألها أبوها استحت، فقدر الشرع هذا الحياء، والنبي ﷺ يقول: «**الحياء خير كله**»(٢)، فاكتفى بصمتها عن إذنها، وهي أيضًا إذا كرهته أو رفضته لا تخجل من إبداء رأيها والجهر به، ومن هنا جاء في الثقافة الشائعة (السكوت علامة الرضا) وهو علامة قاصرة على البكر التي تستحي فتعميم هذه العلامة ليس بسديد.

٤- هل لنا أن نؤصل أصولاً لحياتنا الثقافية نرجع إليها جميعًا، وتكون بمثابة الدستور، أو بمثابة ميثاق الشرف الثقافي، أو إننا سنظل هكذا في متاهة حوار الطرشان نسير من غير أصول نسعى في حياتنا الثقافية على غير هدى.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب «الإكراه» باب «لا يجوز نكاح المكره» حديث (٦٩٤٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) أخرجه مسلم في كتاب «الإيمان» باب «بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان» حديث (٣٧) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

المعاصرة حجاب

مما مَنّ الله به على المسلمين أن أبدعوا (علم التوثيق) على غير مثال سابق، فلم يأخذوه من أمة خلت، ولم يقلدوا أحدًا من الناس فكان من العلوم التي وضعوها وكملت غاية الكمال، وعلم التوثيق مثله في ذلك مثل (علم الفهم) أو ما يسمى (بأصول الفقه)، فإنه علم بديع نشأ من حضارة المسلمين، وهذان العلمان يحتاجهما العالِم الذي يتمسك بالمنهج العلمي فيوثق مصادره ويتأكد من معلوماته حتى لا يقع في عقلية الخرافة ولا في حد الانطباع التي لا ضابط لها ولا رابط.

١- ومن علوم التوثيق عند المسلمين (علم القراءات القرآنية) (وعلم رواية الحديث) الذي تولد عنه (علم الجرح والتعديل) والذي يهتم بالبحث في أحوال الرواة ومدى ضبطهم ومدى اتفاقهم مع الأصول المروية ومدى اختلافهم في ذلك، وتولد منه قواعد كثيرة من ألطفها وأرقها هذه القاعدة الفريدة، التي تدل على عمق في الفهم، ورقة في الشعور، واعتذار للآخرين، وعدم التسرع في إصدار الأحكام العشوائية، والعدل حتى مع المخالف، وإن شئت فقل خاصة مع المخالف، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[١] وهي قاعدة (المعاصرة حجاب).

٢- ومعنى هذه القاعدة أن المعاصرة بين اثنين لا تتيح لكل منهما أن يعرف الآخر كما ينبغي؛ وذلك لأن الصورة الذهنية التي تتكون عند كل واحد منهما عن الآخر تكون ناقصة، فقد يكمل الشخص كلامه الذي حمل على غير مراده، وقد يغير رأيه الذي ذهب إليه، بل قد يغير مشربه أو مذهبه بالكلية، وقد يتحول المرء من محب إلى كاره ومن كاره إلى محب، وهذا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[٢] ولقوله ﷺ: «**القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء**»[٣]. وعلى ذلك فإن الاختلاف الناشئ بين اثنين من قبل الرأي هو اختلاف نسبي قد يتغير، والموقف الذي حمل الشخص على القدح في زميله قابل للتبدل والانتهاء.

---

(١) من الآية ٨ من سورة المائدة.

(٢) من الآية ٢٤ من سورة الأنفال.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب «القدر» باب «ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن» حديث (٢١٤٠)، وابن ماجه في كتاب «الدعاء» باب «دعاء رسول الله ﷺ» حديث (٣٨٣٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

وهذه قاعدة قررها جمهور السلف رضوان الله عليهم، يقول ابن عباس ﷺ: «خذوا العلم حيث وجدتم، ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض؛ فإنهم يتغايرون تغاير التيوس في الزريبة»[١].

وقال مالك بن دينار - رحمه الله: «يؤخذ بقول العلماء والقراء في كل شيء إلا قول بعضهم في بعض؛ فإنهم أشد تحاسدًا من التيوس».

وقال ابن حجر - رحمه الله: "كلام الأقران لا يُعبأ به، لاسيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد. وما ينجو منه إلا من عصمه الله. وما علمت أن عصرًا من الأعصار سلم أهله من ذلك سوى الأنبياء والصديقين، ولو شئت لسردت من ذلك كراريس"[٢].

٣- ومن هذه القاعدة تولدت قاعدة أخرى تقيدها وتنظمها وتفسرها وهي: «لا يقبل كلام الأقران بعضهم في بعض». وهذا معنى المعاصرة حجاب، فهي لا تنفي قبول الجرح والتعديل من أهله، بل تتكلم عما إذا تكلم أحدهم في أخيه وقرينه مخالفًا لباقي الناس الذين مدحوا وعدلوا وأقروا بفضل هذا الإنسان، فإذا جاء عظيم من الفضلاء وقدح هذا المزكى المعدل فإنه لا يقبل منه ذلك؛ حيث لا يقبل جرح القرين بقرينه بهذه الصفة، وعللوا ذلك وبينوا سببه بأن المعاصرة حجاب.

٤- إذن يمكن قبول جماعة كثيرة من أهل الاختصاص تجرح إنسانًا وترفضه ولكن المعاصرة حجاب بين الأقران، وليس مطلق العصر يخفي حقائق الأشياء والأشخاص، بل العصر حجاب بين القرين وأخيه من نفس مستواه يحجب عنه عدله ويئول له الأمر حتى يقدحه مبررًا ذلك لنفسه أولاً بأن فيه هذه الأخطاء التي يجب إنكارها.

٥- ولقد حدث في التاريخ الإسلامي تنابذ بين الكبار منهم: «أبو نعيم الأصبهاني» توفي ٤٣٦هـ «وابن منده» توفي ٥١١هـ، حتى قال الحافظ الذهبي عن ما دار بينهما: «وكلام ابن منده في أبي نعيم فظيع، لا أُحبُّ حكايته، ولا أقبل قول كلٍّ منهما في الآخر... كلام الأقران بعضهم في بعضٍ لا يُعبأ به، لاسيّما إذا لاح لك أنّه لعداوةٍ أو لمذهب أو لحسد»[٣]، «والمغيرة» توفي ١٠٥هـ «والسبيعي» توفي ١٢٩هـ «والأعمش» توفي ١٤٨هـ. فقد روى جرير

(١) «فيض القدير» (٤/ ١٦٤).
(٢) «لسان الميزان» (١/ ٢٠١).
(٣) «ميزان الاعتدال» (١/ ٢٥١).

عن مغيرة أنّه قال: «ما أفسد حديث أهل الكوفة غير أبي إسحاق والأعمش». قال الذهبي: «لا يسمع قول الأقران بعضهم في بعض»[1]، «وأحمد» توفي ٢٤١هـ «وهشام بن عمار» توفي ٢٤٥هـ فقد قال أبو بكر المروزي: «ذكر أحمدُ بن حنبل هشامَ بن عمّار فقال: طيّاش خفيف»[2].

ومن ذلك ما كان بين «الفلاس» توفي ٢٤٩هـ و«السمين» توفي ٢٣٥هـ حيث ذكر أبو حفص الفلاس محمّدَ بن حاتم البغدادي السمين - من رجال مسلم وأبي داود - فقال: «ليس بشيء». فتعقّبه الذهبي قائلاً: «هذا من كلام الأقران، الذي لا يسمع»[3].

ومنه ما كان بين «عبدالمغيث بن زهير» توفي ٥٨٣هـ و«أبي الفرج بن الجوزي» توفي ٥٩٧هـ، وقد وقعت العداوة والفتنة الشديدة بينهما، وكلاهما حافظان فقيهان حنبليّان، كان سببها اللعن على يزيد بن معاوية، كان عبدالمغيث يمنع من لعنه، وكتب في ذلك كتابًا وأسمعه للناس، فكتب ابن الجوزي في الردّ عليه كتابًا سمّاه «الرد على المتعصّب العنيد المانع من ذمّ يزيد»، ثمّ تلا ذلك مسائل أُخرى، وقد مات عبدالمغيث وهما متهاجران.

ومنه ما كان بين «مطين» توفي ٢٩٧هـ و«ابن أبي شيبة» توفي ٢٣٥هـ فقد ذكر الحافظ ابن حجر بترجمة محمّد بن عبدالله بن سليمان الحضرمي الملقّب بـ: «مطيَّن» حطّ الحافظ محمّد بن عثمان بن أبي شيبة عليه، وحطّ مطيّن على ابن أبي شيبة، وأنّ أمرهما آلَ إلى القطيعة. فقال ابن حجر: "ولا نعتدّ - بحمد الله - بكثير من كلام الأقران بعضهم في بعض"[4].

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٩٩).
(٢) السابق (١١/ ٤٢٧).
(٣) السابق (١١/ ٤٥١).
(٤) «لسان الميزان» (٥/ ٢٣٣).

قال الذهبي: "كلام الأقران بعضهم في بعضٍ يحتمل، وطيّه أولى من بثّه". وعقد له ابن عبدالبرّ في «جامع بيان العلم» بابًا خاصًّا استوفى الكلام فيه على ذلك؛ ولذلك لم يلتفت أهل الجرح إلى مَنْ تُكلّم فيه بسبب المعاصرة - كما يُعلم ذلك من كتب الرجال - ولو عملوا بمقتضاه لما بقي في يدهم راوٍ واحد يُحتجّ به.

٦- فالمعاصرة تجعلنا أكثر تأنيًا في قبول الآراء، وفي نفس الوقت تجعلنا أكثر مقاومة لأنفسنا في اتهام الأقران والآخرين ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1].

(١) الآية ٩٠ من سورة النحل.

خذ بفتواه

من العبارات الشائعة في كتب الفتوى قولهم: (خذ بفتواه ولا تلتفت إلى تقواه) وهي قاعدة جليلة تنبه على الفرق بين علم الدين وبين التدين العملي، وأن علم الدين هو علم كسائر العلوم، له مبادئ وقواعد ومصطلحات ومناهج وكتب وترتيب ومدارس وأسس وتاريخ و.... إلخ

وهو يحتاج أيضًا إلى أركان العملية التعليمية، التي لا يتم العلم إلا بها، وهي: الطالب، والأستاذ، والكتاب، والمنهج، والجو العلمي. وأن طريق التعلم له درجات مختلفة كدرجات التعليم العام ثم التعليم الجامعي ثم الدراسات العليا بدرجاتها المختلفة، وله أيضًا أساليبه المختلفة للتمكن منه، بعضها نظري، وبعضها تطبيقي، وبعضها حياتي وعملي، كما أن أداءه يختلف من رسالة علمية إلى كتاب مقرر، إلى بحث في مجلة محكمة، إلى بحث للمناقشة أو كمحور في مؤتمر للجماعة العلمية يخبر فيه صاحبه تلك الجماعة بنتائج.

وسيظل أمر الجماعة العلمية دائما مختلفًا تبعًا للمنح الربانية، والعطايا الصمدانية، والمواهب التي يمنحها الله لكل شخص يتميز بها على الآخرين، وسيظل أمر التخصص العام مُراعى والتخصص الدقيق مطلوب، وسيظل هناك فارق بين من ينجح في تحصيل الدروس ولا ينجح في الحياة، ومن ينجح فيها ومن وصل إلى مرتبة الحجة والمرجعية، ولا يحسن التعامل مع الحياة أو يحسن التعامل معها كما قال شوقي في أواخر قصيدة (كتابي):

وكم مُنْجِبٍ في تلقي الدروس　　　تلقَّى الحياةَ فلم يُنْجِبِ

وكل هذه المعاني نراها في كل مجال، ولعل أقرب مجال ينطبق عليه ما ينطبق على علم الدين هو مجال الطب، وعلم الطب، انظر إلى كل ما ذكرناه وكأننا نتكلم عن علم طب الأبدان، في حين أنني كنت أؤكد على علم حفظ الأديان، وكل ذلك يختلف عن حق الناس في رعاية صحتها والوقاية من الأمراض والعلاج منها، ومبادئ الحياة الصحية الصحيحة التي يتمناها كل إنسان، بل هي من حقه، كما يختلف علم الدين عن التدين الذي هو لازم لكل إنسان ويحتاجه كل أحد من الناس، بل يحتاجه الناس على مستوى الفرد والجماعة والأمة.

١- على الرغم من وضوح الفرق بين علم الدين والتدين، أو علم الطب ومراعة الصحة العامة، إلا أن هذا الفرق غير معترف به في غالب ثقافتنا، ونرى خلطًا ضارًّا له صور منتشرة في جميع القطاعات لم ينج منه إلا من رحم الله – وهم قلة في ثقافتنا السائدة – وأرجو الله أن يفتح البصائر بهذه الدعوى لمراجعة جد مهمة لمواقف كثير من علمائنا ومفكرينا بشأن موقفهم من هذه البدهية.

٢- إننا نرى ما يؤكد أنه ليس هناك اعتراف بالفرق بين علم الدين والتدين، من ذلك أن أستاذ العلوم أو الزراعة أو الصحافة أو الهندسة أو الطب صار يتكلم في شأن الفقه، ويناقش الفتوى التي صدرت ممن تخصص وأمضى حياته في المصادر وإدراك الواقع، وما هذا إلا لأنه مثقف ديني، أو لأنه لا يعرف، أو لم يقتنع بالفرق بين علم الدين وبين التدين، ويرى أن الأمر مباح ومتاح للجميع.

٣- وكذلك نرى عدم إدراك لمعنى الفتوى؛ حيث يتم الخلط بينها وبين السؤال أو الرأي والذي يكون حظ السؤال الجواب، وحظ الرأي إبداؤه ثم مناقشته، فالفتوى مثل حكم القاضي لا يتتبعه القاضي بعد صدوره وليس قابلاً للنقاش، ولكن هو قابل للاستئناف عند محكمة أعلى أو للنقض أو الإبرام عند محكمة أكبر، وعلى ذلك فعدم الرضا بالفتوى يتطلب فتوى من جهة أعلى، ولا يتطلب اعتراضًا من هنا أو من هناك، وعدم الرضا بأمر الطبيب، لا يعني إهمال الأمر، بل يستلزم الاستشارة ممن هم أكثر منه مرجعية أو علمًا أو خبرة ولا يحق لأحد من الناس أن يناقش الطبيب في رأيه ويكتفي بذلك لرفض الطب والجلوس بلا علاج.

إن كثيرًا من الناس يفزع إذا ما نبهناه إلى هذا المثال ويبادر برفضه ويدعي أن ذلك حجرًا على الرأي أو على حريته، والأمر لا يتعلق برأي ولا بحُرِّية بقدر ما يتعلق بمنهج للفكر المستقيم يجب اتباعه بدلا من هذه المهزلة السخيفة بأن يَهْرِف كل أحد بما لا يعرف.

٤- وكذلك نرى أن السؤال عندما يوجه لطلب معلومة يعتقد السائل والسامع أن الإجابة فتوى، ومرة سأل سائل عن معلومات عن زوجات النبي ﷺ فأجبناه فاعتبر ذلك إفتاء منا، وعندما لم نجبه اعتبر ذلك رفضًا للقيام بواجب الفتوى، وهناك أسئلة عن أوضاع سياسية يبدي فيها الرأي، والحكم الشرعي يكون على الفعل البشري المجرد فلا يفرق صاحبنا بين هذا وذاك ويتكلم ولو على صفحات الجرائد السيارة ويحدث بلبلة عند المتلقي، أسأل الله ألا تكون مقصودة، وألا يكون ذلك المنهج يراد منه تحويل علم الفتوى إلى نطاق الآراء القابلة للنقاش بدون اتباع ما تستلزمه هذه الصناعة من ترتيب وما تحتاجه من نظام وما تقوم به من علم.

٥- أما الجزء الثاني من المقولة: (ولا تلتفت إلى تقواه) فليس بمجرد محافظة الإنسان على صحته صار طبيبًا، ولا بمجرد التزام الإنسان بدينه صار عالمًا، بل يحتاج الأمر إلى الأكاديمية التي نطالب الجميع وفي جميع المجالات أن يعودوا إليها وأن ينتهي نظام الهواة، وأن يبقى العلم - والعلم وحده - سندًا للتخصص الدقيق، وأن نقضي على (أبو العُرِّيف) الذي يعيش فينا، ومن أمثال العامة التي تمثل حكمة التاريخ وتجارب البشرية (أعط العيش لخبازه ولو أكل نصفه).

أطب مطعمك

يسأل كثير من الناس عن أسباب شيوع سوء الأخلاق في العالم كله من حولنا، وأحد أهم تلك الأسباب - في رأيي - هو سوء الطعام، والنبي ﷺ يقول: «**أطب مطعمك تكن مستجاب الدعاء**»[1]. وهو حديث مكون من مقطعين، الأول: أطب مطعمك، وهو أمر يطلب فيه رسول الله ﷺ أن يطيب الإنسان مطعمه، وذلك على مستويين:

المستوى الأول: أن يكون الطعام حلالاً، ومعنى هذا أن يكون مصدر الدخل حلالاً ليس فيه شيء من الرشوة أو السرقة أو الاختلاس أو الاغتصاب أو التدليس أو الغش، ويكون أيضًا بعيدًا عما حرم الله من المطعومات كالخمر والخنزير والميتة والدم المسفوح، قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] بل إن قصة آدم عليه السلام في القرآن بينت نكد أكل الطعام المخالف وجعلته سببًا للطرد من الجنة قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[3]. وقال الحسن البصري رضي الله عنه: «كانت بلية أبيكم آدم أكله، وهي بليتكم إلى يوم القيامة»، فإن كان الطعام من مال حلال، وهو مما أحل الله من المطعومات دخل الطاعم حد استجابة الدعاء.

المستوى الثاني: هو أن يكون الطعام نفسه طيبًا في مذاقه، وفي إعداده، والذي يطلب هذا النوع من الطعام هو رقيق القلب، رهيف الحس الذي لا يدفعه الجوع لملء البطن دون تلذذ بالتذوق والاستحسان، وهي صفة نراها في قوله تعالى عن أهل الكهف بعد بقائهم ٣٠٩ سنة في سبات ونوم: ﴿ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾[4] فلم يدفعهم الجوع إلى طلب أي أكل ولو كان حلالا في ذاته، وفي مصدره، بل طلبوا أن يكون مرتبطا

١٨٤

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦/ ٣١١) حديث (٦٤٩٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام.
(٣) من الآية ٢٢ من سورة الأعراف.
(٤) من الآية ١٩ من سورة الكهف.

بأنه الأزكى، ثم تشير الآية إلى كَمية الطعام وأنها برزق منه، ولم يقولوا: فليأتكم به، وهنا نرى العلاقة مع الطعام نتيجة تزكية النفس، ونرى في حديث رسول الله ﷺ أن تزكية النفس من طيب المطعم حيث ذكر: «**الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب. يا رب. ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له؟!**»[(١)].

تناول الطعام يجب أن يكون منضبطًا؛ لأن له أثرا في حياتنا اليومية بجميع جوانبها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وهذه الضوابط تؤخذ من القرآن والسنة، فمنها:

١- قوله تعالى:﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[(٢)]، فالكم مهم ينظمه رسول الله ﷺ في الحديث الذي يرويه المقدام بن معدي كرب؛ حيث قال: «ما ملأ آدمي وعاء شرًّا من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن غلبته نفسه فثلث طعام، وثلث شراب، وثلث للنفس»[(٣)].

٢- ويدرك السلف الصالح هذا المعنى فيقول ابن ماسويه الطبيب لما قرأ هذا الحديث: لو استعمل الناس هذه الكلمات لسلموا من الأمراض والأسقام، ولتعطلت المارستانات ودكاكين الصيادلة. ويقول المروزي للإمام أحمد بن حنبل: هل يجد الرجل في قلبه رقة وهو شبع؟ قال: ما أرى ذلك. وقال إبراهيم بن أدهم: "من ضبط بطنه، ضبط دينه، ومن ملك جوعه، ملك الأخلاق الصالحة، وإن معصية الله بعيدة عن الجائع، قريبة من الشبعان، والشبع يميت القلب" وهذه المقولة تلخص تلك العلاقة التي كانت مرئية وعند فقدها فقدنا الشيء الكثير.

٣- ويجعل الله سبحانه وتعالى من محاسن الأخلاق إطعام الطعام، فيقول سبحانه: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾[(٤)]، فإطعام الطعام الطيب الحبيب إلى النفس - ولابد أن يكون بهذه الصفة - من صفات الذين يحبهم الله.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب «الزكاة» باب «قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها» حديث (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) من الآية ٣١ من سورة الأعراف.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب «الزهد» باب «ما جاء في كراهية كثرة الأكل» حديث (٢٣٨٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٤/ ١٧٧) حديث (٦٧٦٨)، وابن ماجه في كتاب «الأطعمة» باب «الاقتصاد في الأكل وكراهية الشبع» حديث (٣٣٤٩)، وابن حبان في «صحيحه» (١٢/ ٤١) حديث (٥٢٣٦)، والحاكم في «مستدركه» (٤/ ٣٦٧) حديث (٧٩٤٥).

(٤) الآيتان ٨، ٩ من سورة الإنسان.

٦- بل جعل الإطعام طريقًا لتكفير الذنوب، واشترط أن يكون من أحسن الطعام وأعلاه، قال تعالى في كفارة اليمين: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾[1]، وأوسط معناها أعلى، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[2]، بل لابد من أن يكون حلالا له مذاق هو من أحسن ما يطعم الإنسان به أهله.

٤- وهكذا رأينا زمننا الجميل يهتم الناس بحسن الطعام وإعداده والجلوس له، وعدم الإسراف فيه، وعدم الاستهانة بشأنه، حتى جعلوا الاستهانة بالطعام من كفر نعمة الله على الإنسان، ورأيناهم يتفننون في ذلك حتى مع بساطة الطعام، والمصريون والشاميون وغيرهم مشهورون في التعامل مع «الفول» - مثلا - وهو من الأكلات الشائعة البسيطة، فيقدمون بأشكال شتى وطرق مختلفة، فأين هذا من (كل وأنت تجري) (**Take away**) وأين هذا من عصر الهمبورجر والصفيح (يقصدون صفيح المشروب البارد).

٥- وسن لنا رسول الله ﷺ آداب الطعام، فقال لابن عباس رضي الله عنهما: «**يا غلام، سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك**»[3] وقال ﷺ: «**من أكل طعامًا، فقال الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه**"[4].

وقد حث الشرع على التؤدة والتمهل في الأكل، وعدم العجلة والإسراع فيه، وقد ذمت امرأة زوجها بهذه العادة السيئة في حديث أم زرع الذي قصته السيدة عائشة رضي الله عنها على النبي ﷺ؛ حيث قالت عن هذه الزوجة: «**قالت السادسة: زوجي إن أكل لف، وإن شرب اشتف، وإن اضطجع التف، لا يولج الكف، ليعلم البث**»[5] فدل ذلك على أن هذه الصفة في الأكل والشرب من مساوئ الأخلاق ومذموم الصفات.

---

(١) من الآية ٨٩ من سورة المائدة.

(٢) من الآية ١٤٣ من سورة البقرة.

(٣) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الأطعمة» باب «التسمية على الطعام والأكل باليمين» حديث (٥٣٧٦)، ومسلم في كتاب «الأشربة» باب "آداب الطعام والشراب وأحكامهما» حديث (٢٠٢٢) من حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٤٣٩)، وأبو داود في كتاب «اللباس» حديث (٤٠٢٣)، والترمذي في كتاب «الدعوات» باب «ما يقول إذا فرغ من الطعام» حديث (٣٤٥٨)، والحاكم في «مستدركه» (١/ ٦٨٧) حديث (١٨٧٠)، (٤/ ٢١٣) حديث (٧٤٠٩) وصححه من حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه.

(٥) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «النكاح» باب «حسن المعاشرة مع الأهل» حديث (٥١٨٩)، ومسلم في كتاب «فضائل الصحابة» باب «ذكر حديث أم زرع» حديث (٢٤٤٨).

وقال ﷺ: **«المؤمن يأكل في معًى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»**[1] وقال ﷺ: **«طعام الاثنين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة»**[2].

٦- ومن رفض هذا المنهج، وسار مسرفًا في أكله، ولا يبالي من أين كسب رزقه، ولا يبالي بطيب مطعمه، ولا يطلب استجابة الدعاء والخلق الحسن، فإنه يكون قد وضع نفسه في دائرة الترك، وفلسفة الترك في القرآن عظيمة، ولها منهجها نلحظها في مسألة الطعام، حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** ۝٣ ﴾[3]، ولعلنا نتوسع في بيان فلسفة الترك، وموقف القرآن منها؛ لأنها نافعة للمسلم في عصرنا.

٧- علينا إذن أن نرجع إلى الطعام الحلال، حتى نقضي على الشر في أنفسنا، والفساد في مجتمعاتنا والاختلال في العالم. دعوة قد يراها بعضهم بعيدة، ولكن علينا أن نسعى، وليس علينا إدراك النجاح. قال رسول الله ﷺ: **«عرضت عليَّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل، والرجلين، والنبي وليس معه أحد»**[4] يعني ولا يضره ذلك أنه كان على الحق، ولابد من التغيير **«ابدأ بنفسك ثم بمن يليك»**[5]، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الأطعمة» باب «المؤمن يأكل في معى واحد» حديث (٥٣٩٣)، (٥٣٩٤)، (٥٣٩٧)، ومسلم في كتاب «الأشربة» باب «المؤمن يأكل في معى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء» حديث (٢٠٦١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الأطعمة» باب «طعام الواحد يكفي الاثنين» حديث (٥٣٩٢)، ومسلم في كتاب «الأشربة» باب «فضيلة المواساة في الطعام وأن طعام الاثنين يكفي الثلاثة ونحو ذلك» حديث (٢٠٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الآية ٣ من سورة الحجر.

(٤) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الطب» باب «من لم يرق» حديث (٥٧٥٢)، ومسلم في كتاب «الإيمان» باب «الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة» حديث (٢٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، واللفظ للبخاري.

(٥) هذا حديث مشهور أصله في الصحيحين؛ البخاري في كتاب «النفقات» باب «وجوب النفقة على الأهل والعيال» حديث (٥٣٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: **«أفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»**، ومسلم في كتاب «الزكاة» باب «الابتداء في النفقة بالنفس ثم أهله ثم القرابة» حديث (٩٩٧) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما بلفظ: **«ابدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شيء فلأهلك»**، وبهذا اللفظ ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٢٤).

الجمرات وأزمة الفكر (١)

نقطع تسلسل ما بدأناه بالكلام عن النسبي والمطلق حيث بقيت لنا حلقة واحدة فيه، وذلك لهذا الحدث المروع الذي يجب ألا يمر مرور الكرام، وأن نقف عنده لنقرأ حال الأمة من خلاله، ولنضع أيدينا على الخلل في التفكير الفقهي الذي أدى إلى الحادث المأسوي، فمات نحو ثلاثمائة وأربع وستين من الرجال والنساء، ومن جنسيات كثيرة، وأصيب آخرون بإصابات مختلفة وهم يؤدون منسكًا من المناسك التي لها دلالة نفسية يمنع من تحصيلها والتمتع بأثرها هذه الأزمة الفكرية، وهذه الحالة بالعقلية الفقهية التي يصر عليها الكثير.

١- لقد منّ الله عليَّ بالحج هذا العام، واتصل بي في مكة رئيس بعثة الحج المصرية معالي الوزير سامح فهمي بغرض الاجتماع ببعض أعضاء البعثة؛ حيث فهموا من كلام بعض العلماء في مكة أنه لا يجوز الرمي إلا من الزوال إلى المغرب، وأن من يفعل غير ذلك، فقد ارتكب حرامًا وتحمل إثمًا، وأن المسلم جاء هنا ليغسل الذنوب لا ليرتكبها، وفهموا أن الحج بهذه الصفة "أعني أنهم يرمون في أي ساعة من الليل أو النهار" يكون منقوصًا، بل فهم بعضهم أنه يكون باطلاً.

هذا في حين أن السلطات السعودية قد حددت أوقاتًا لكل بعثة ولكل دولة، فكان نصيب مصر من الساعة الثانية عشر ونصف مساء إلى الساعة السابعة صباحًا، وهو ما يعني أن سلطات تنظيم الحج قد أخذت بالفتوى الصادرة من جهات عديدة في السنين الماضية بأنه يجوز للمسلم أن يرمي الجمرات في أي ساعة شاء من ليل أو نهار.

وهو نص البيان الذي أصدره مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف (هيئة كبار العلماء) وأصدرت دار الإفتاء المصرية هذا المعنى مرارًا، وهو أمر قد صدرت فيه فتاوى من العلماء منذ أكثر من ثلاثين سنة، بل إنه في الفقه الإسلامي الموروث ذهب إليه اثنان من كبار المجتهدين، وهما طاوس بن كيسان اليماني، ومجاهد وكان من تلامذة حبر الأمة، وابن عم النبي ﷺ عبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما، وكثير من المحدثين منهم العلامة عبدالله آل محمود وألف فيها كتابًا، والعلامة الشيخ يوسف القرضاوي، وغيرهم كثير.

ولقد أيدت وزارة الحج السعودية هذه الفتوى واعتمدتها في العمل من السنة الماضية؛ ولذلك رأينا أن البنود لا تمنع الناس لأداء هذا المنسك في أي وقت كان، كما كان يحدث في سنين ماضية؛ حيث لم يكن عدد الحجاج قد زادت إلى هذا الرقم الكبير، فقد وصل إلى ثلاثة ملايين في هذا العام.

٢- الأزمة تبدأ في الفكر الفقهي الذي يأبى الاجتهاد ويجهله، والاجتهاد هو بذل الوسع في فهم النصوص الشرعية لاستنباط الأحكام منها، ولقد ركد الفكر الفقهي، وركن إلى التقليد وإلى الاكتفاء بفقه الأوراق دون رغبة في دراسة الواقع، وهو أمر جد خطير ليس فقط في حدوث مثل هذه الحوادث، بل إنه خطير أيضًا من الناحية الدينية التي ترى في هذا التصرف نوعًا من الضلال والإثم أن ينظر أحدهم إلى ما سطر في الكتب فيوقعه في فتاويه من غير نظر إلى الواقع الذي يفتي فيه.

ويقول القرافي في كتابه الفروق: «والجمود على المنقولات أبدًا ضلال في الدين، وجهل بمقاصد علماء المسلمين، والسلف الماضين»[1]، وهو يؤيد ما سطره ابن تيمية في كيفية الفتوى من وجوب إدراك الواقع، وأن الفتوى مبنية (على أصلين: أحدهما: المعرفة بحالهم، والثاني: معرفة حكم الله في مثلهم[2]، فالمعرفة بالحال جزء لا يتجزأ من الفتوى.

٣- فظهر لنا إذن أن الرمي بعد الزوال ليس محل اتفاق أو إجماع بين العلماء، وعلى ذلك فهو من المسائل المجتهد فيها التي يجوز لنا أن نفهم النص لتحقيق مصلحة الواقع، وليس في هذه المسألة نص بذاتها، بل إنه مأخوذ من عموم قوله ﷺ: «**خذوا عني مناسككم**»[3] مع أنه قد رمى الجمرة عند الزوال قبل الصلاة.

وهذا العموم مع ذلك الفعل لا يدل على الوجوب الذي ذهب إليه كثير من العلماء عبر التاريخ، فالمناسك منها ما هو ركن كالوقوف بعرفة، وطواف الإفاضة والسعي، ومنها ما هو ركن وفيه خلاف في ركنيته كالحلق والتقصير لشعر الرأس، ومنها ما هو واجب لو فاته في الحج بعذر فلا إثم عليه ويجب عليه أن يذبح ذبيحة لله، ولو تركه بغير عذر فهو آثم، ويذبح نفس الذبيحة أيضًا، ومنها ما هو سنة أو هيئة من سنن أو هيئات الحج تاركها لا إثم عليه ولا ذنب، فالقول بالوجوب استدلالا بعموم ذلك الحديث محل نظر واجتهاد منذ القديم، والتمسك بهذا الفهم مع هذه الحالة الموجودة نوع من أنواع الضلالة كما يقول القرافي رحمه الله تعالى.

---

(١) «الفروق» للقرافي (١/ ١٧٧- ١٧٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥١٠).

(٣) هذا اللفظ أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٥/ ١٢٥) حديث (٩٣٠٧) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، وأخرج مسلم في «صحيحه» في كتاب «الحج» باب «استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا» حديث (١٢٩٧) نحوه من حديث جابر أيضًا يقول: رأيت النبي ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر ويقول: «لتأخذوا مناسككم؛ فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه».

ويؤكد ذلك المعنى قوله ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[١] فالصلاة هدفها الخشوع: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ ﴾[٢] وذلك حتى يتذكر المؤمن ربه، فيقلع عن الفحشاء والمنكر ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[٣] والصلاة تشتمل على أركان وسنن وهيئات فلا تصح إلا باستيفاء أركانها، ولكن وضع اليمنى على اليسرى، ورفع اليدين عند التكبير، وقولنا سمع الله لمن حمده هيئات لا تبطل الصلاة بتركها.

وليس معنى قوله ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**» أن كل هذه الهيئات من أركان الصلاة، بل ولا أن تركها يستوجب إثمًا، ولكن الإثم الصحيح هو أن يشتغل بهذه الهيئات حتى يذهب خشوعه، وحتى تصير الصلاة مجرد شعيرة ظاهرية لا علاقة لها بأن يترك الفحشاء أو المنكر التي يمارسها خارج الصلاة، فتفقد الصلاة بهذا الاهتمام الزائد هدفها ومراد الله فيها.

وكذلك واجب الرمي، له هيئة في الزمان لا تجعلنا نهلك أنفسنا، ولم يأمرنا الله بذلك، بل أمرنا بخلافه فقال تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾[٤]، وقال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[٥]، وقال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[٦].

فإذا انضم إلى ذلك أن الحج بُنِيَ على التيسير، فلم يُسأل فيه رسول الله ﷺ عن شيء قُدِّم أو أُخِّر إلا قال: «**افعل ولا حرج**»[٧]، ولم يُسأل عن شيء فيه عذر من تأخير في الزمان أو ضيق في المكان، أو حال اعترت من حج معه إلا وقد أباح له ذلك، فأين هذا من عقلية قد أغلقت نفسها على الأوراق فضاع من ضاع بسببها.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب «الدعوات» باب «الدعاء بعد الصلاة» حديث (٦٣٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) الآيتان ١، ٢ من سورة المؤمنون.
(٣) من الآية ٤٥ من سورة العنكبوت.
(٤) من الآية ١٩٥ من سورة البقرة.
(٥) من الآية ٢٩ من سورة النساء.
(٦) من الآية ١٥١ من سورة الأنعام.
(٧) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الحج» باب «الفتيا على الدابة عند الجمرة» حديث (١٧٣٦)، ومسلم في كتاب «الحج» باب «من حلق قبل النحر أو نحر قبل الرمي» حديث (١٣٠٦) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

الجمرات وأزمة الفكر (٢)

يبدو أننا في حاجة للتأكيد على أن وقوع الحادث المروع بموسم الحاج في هذا العام، كان سببه في الأصل عدم الالتفات للنصوص والقرارات الميسرة، التي إذا ما التزم بها الحجيج تجنبنا كثيرًا من تلك الأزمات.

فمعلوم أن عدد الذين قضوا نحبهم من المصريين وغيرهم من البلاد الإسلامية والبلاد التي بها أقلية مسلمة كان كبيرًا بحيث تجاوز عدد من قضى نحبه في أي من الأعوام السابقة، فهل كان ذلك لتقصير الجهات المسئولة في توعية المسلمين؟ أم لعدم النظام والجمود العقلي على فهم معين؟ أم أن هناك شيئًا آخر لا نعرفه؟

وقد أولت وزارة الأوقاف المصرية اهتمامها في أهم قضيتين في ذلك الشأن، **الأولى:** تتعلق برمي الجمار بحيث يكون طوال اليوم، وليس بعد وقت الزوال فقط؛ للتيسير على الحجاج وحفاظًا على أرواحهم، وأن تكون هناك توسعة في الإنابة، حيث تم التنبيه على أن يقوم الشباب بالرمي إنابة عن الشيوخ المرضى في أي وقت بالليل أو النهار.

أما القضية الثانية: هي مسألة المبيت بمزدلفة، حيث تم التأكيد على ضرورة الانصراف من مزدلفة عقب النفرة الأولى للحجيج بعد الجمع بين صلاتي المغرب والعشاء، خاصة أن المبيت بمزدلفة يعتبر سنة وليس ركنًا من أركان الحج.

وقد أعد معالي وزير الأوقاف الدكتور زقزوق برنامجًا للتوعية شمل ٢٥٠ إمامًا ضمن بعثة الحج المصرية هذا العام، وقد شملت حملة التوعية ما قرره مجمع البحوث الإسلامية من قبلُ.

فقد أقر مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف بعض الحلول لتفادي وقوع حوادث مماثلة لحادث التدافع الذي وقع في أثناء رمي الحجاج للجمرات في منى في موسم الحج عام ١٤٢٤هـ، الموافق بداية فبراير عام ٢٠٠٤م، حيث أرسلت لجنة تابعة لمجمع البحوث خطابًا باسم الأزهر إلى وزير الحج السعودي ومفتي السعودية، وتم إرسال ذلك الخطاب فور موافقة المجمع في جلسته الأخيرة في ٢٤ مارس ٢٠٠٤م على تفويض شيخ الأزهر في إعداد ذلك الخطاب الذي يشمل اقتراحات طرحها أعضاء المجمع.

وقد افتُتح ذلك الخطاب بالنص التالي: "من منطلق التعاون الصادق والإخاء بين علماء المسلمين في أمور دينهم، وحرصًا على سلامة الحجاج، يتقدم مجمع البحوث الإسلامية بمقترحات حتى لا يتكرر الحادث الذي ألم بضيوف الرحمن في ساحة الرمي بموسم الحج هذا العام".

وكانت أولى تلك المقترحات ما نصه: "التوسع في إباحة زمن رمي الجمرات في جميع الأيام الخاصة به، بحيث يكون الرمي ٢٤ ساعة في كل يوم من هذه الأيام نظرًا للزحام الشديد الذي يحدث كل عام خلال أداء الحجاج لهذه الشعيرة، ويترتب عليه في الغالب عنت شديد يلم بهم، وضرر عظيم للضعفاء قد يصل إلى الموت، خاصة أنه من المعلوم من الدين بالضرورة أن من أهم أسباب مشروعية الحج المحافظة على النفس وإحياءها، ومنع الضرر والهلاك عنها، وبذلك تكون كل مناسك الحج - بما فيها رمي الجمار - محققة للغرض الذي شرع له الحج، ومؤكدة لحكمة مشروعيته، وهو إحياء النفس، وعليه فلا يتصور أبدًا أن تكون مناسك العبادة التي شرعت لإحياء النفس سببًا في هلاكها، ولذلك فإن بعض الفقهاء من المسلمين - قديمًا وحديثًا - صرحوا بجواز الرمي في أي وقت".

كما تضمن ذلك الخطاب مقترحًا آخر كان نصه: "ضرورة الإنابة في الرمي للنساء وغير القادرين عن طريق نشر الوعي بين الحجيج بأن من الخير للنساء وغير القادرين أن يوكلوا غيرهم من الرجال والقادرين لرمي الجمرات عنهم حتى لا يتعرضوا للضرر والزحام الشديد".

ونص كذلك على: "العمل بمبدأ التعاقب في الرمي أيام التشريق الثلاثة بمنى، وذلك بتفويج الحجيج وتقسيمهم، مع الجمع بحيث يجمع رمي يومين في يوم واحد لكل طائفة مع مراعاة الترتيب خاصة أنه لا حرج في ذلك شرعًا؛ لأن أيام التشريق كلها زمان واحد للرمي".

وختم ذلك الخطاب اقتراحاته بالإشارة إلى حلول أخرى غير فقهية، وكان نصه في ذلك الشأن: "إن هناك تيسيرات أخرى تتعلق بجوانب هندسية من حيث توسيع الأماكن المخصصة للرمي وهي متروكة للسلطات في المملكة العربية السعودية؛ لأن أهل مكة أدرى بشعابها".

ولعلنا في حاجة لنقل المزيد من الفتاوى والتأصيل الفقهي لعرض الأقوال التي تجيز الرمي في أي وقت، وننقل من ذلك فتوى العلامة مصطفى الزرقا - رحمه الله - حيث قال: "رمي الجمرات يكون في الأيام الأربعة كلّها من الصّباح قبل الزوال في مختلف الاجتهادات، ولو في غير يوم النّفر للمستعجِل وغيره؛ لأن في الرمي قبل الزوال تيسيرًا كبيرًا على الناس حتى على غير المستعجِل لأجل النفر، فإن الماكِث أيضًا قد يحتاج إلى التبكير في الرمي اجتنابًا للزِّحام الشّديد في الحَرّ الشديد، ولا يخفَى أن المكلَّف عليه أن يتبع أحد المذاهب المُعتبرة، ويتقبّل الله تعالى منه، فإن الدين يُسر بنصِّ الحديث الثابت".

وقد ذيل فضيلة الشيخ الزرقا فتواه بذكر مذاهب من أجاز الرمي في أي وقت وعد منهم الإمام الباقر محمد بن علي من آل البيت (كما في بداية المجتهد)، وكذا الإمام الناصر من الزّيديّة (كما في البحر الزخار) وكذا من التابعين عطاء وطاوس (كما في نيل الأوطار) فقال هؤلاء جميعًا: إن الوقت في اليوم الثاني أيضًا يبدأ من الفجر، فيرمي قبل الزوال مُطلقًا، وفي قول آخر عند الحنفيّة أيضًا غير القول المشهور: أنّ اليومين الثاني والثالث أيضًا يجوز الرّمي فيهما قبل الزّوال. انتهت فتوى الشيخ الزرقا.

ولقد صرحت لجريدة الأهرام المصرية بتاريخ (٤-١-٢٠٠٥) تصريحًا بهذا الشأن، وأكدت في ذلك التصريح على: "أن من فَضّل المزاحمة التي تؤدي إلى الأذى لنفسه ولغيره هو آثم شرعًا، ويخشى عليه من عدم قبول حجه، وذلك تأسيًا برسول الله ﷺ عندما نظر إلى الكعبة فقال لها: «**أنت حرام، ما أعظم حرمتك وأطيب ريحك! وأعظم حرمة عند الله منك المؤمن**»[١] وعلى ذلك فإن الأخذ بفتوى إجازة رمي الجمرات في ساعات اليوم كله وليس الرمي في وقت محدد واجب شرعي على الحجاج؛ تفاديًا لحدوث أي مكروه" كان ذلك نص تصريحي لجريدة الأهرام منذ أكثر من عام.

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١/ ٢١٥) حديث (٦٩٥) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٨١) وسكت عنه.

كل حركاتنا وفي كل حين، وهذا نجده واضحًا في أمرين:

٢- الأول في العبادات فبداياتها ذكر، وجوهرها ذكر، وختامها ذكر، قال تعالى: ﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾[1]، وقال ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»[2]، وفي الصيام قال تعالى: ﴿ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[3]، وقال سبحانه في شأن الحج: ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾[4] وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾[5].

٣- الثاني في العادات ففي السنة الشريفة التي جعلت قبل الطعام: بسم الله، وفي نهايته: الحمد لله، وفي أول اللقاء: السلام عليكم ورحمة الله، وهو ما يقوله المصلي في نهاية صلاته يستقبل بها العالم والحياة، وفي الانصراف من المنزل: بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، وعند الدخول إلى المساجد: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وعند الخروج: اللهم افتح لي أبواب فضلك، وجمع كثير من العلماء أذكار الصباح والمساء في كتب مفردة منهم النووي في كتابه "الأذكار" والشوكاني في "تحفة الذاكرين" وابن الجزري في "الحصن الحصين" وابن تيمية في "الكلم الطيب"، وابن القيم في كتابه "الوابل الصيب"، وغيرهم كثير حتى رصدوا في كل حركة من حركات الإنسان ذكرًا مخصوصًا له فيها.

---

(١) الآية ١٥ من سورة الأعلى.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب «المساجد ومواضع الصلاة» باب «تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته» حديث (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

(٣) من الآية ١٨٥ من سورة البقرة.

(٤) من الآية ١٩٨ من سورة البقرة.

(٥) من الآية ٢٠٣ من سورة البقرة.

٤- وقال رسول الله ﷺ نصيحة عامة: «**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْباً مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ**»[١]، ومن الواقع المحسوس أن اللسان لا يكون رطبًا مع كثرة الذكر بل يجف، ولكن هذا الجفاف المحسوس الملحوظ الذي هو عند الله هو الرطوبة المحمودة وهذا مثيل لقوله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ**»[٢]. وقوله ﷺ: «**لَا يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ - إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ وَالرِّيحُ رِيحُ مِسْكٍ**»[٣].

فمعلوم من الواقع أن خلوف الفم وهو رائحته الكريهة مما يحرص الإنسان على إخفائها، وقد يكرهها ويمل منها إلا أن الرسول ﷺ يلفت إلى حقيقة أخرى وراء الحس، وهو قيمة هذا الذي تكرهه عند الله ﴿ **فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا** ﴾[٤]، ويقول النبي ﷺ في نفس هذا المعنى: «**أَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ**»[٥].

فإن الإنسان قد يكره الوضوء في البرد، ولكن مع كراهيته له فإن فيه الثواب العظيم، ويسأل كثير من الناس أنهم يفعلون الطاعة وهم لا يحبونها فهل هذه خطيئة؟ والإجابة أن هذا محض الإيمان؛ فإن الإنسان إنما يفعلها حينئذ لأنه يطيع ربه مع مخالفة هواه.

٥- ومن أجل هذا الحديث كان مشايخنا يأمروننا أن لا نشرب بعد الذكر حتى يظل أثر جفاف الريق باقيًا عند الذاكر،

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٨٨، ١٩٠)، والترمذي في كتاب «الدعوات» باب «ما جاء في فضل الذكر» حديث (٣٣٧٥)، وابن ماجه في كتاب «الأدب» باب «فضل الذكر» حديث (٣٧٩٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٣/ ٩٦) حديث (٨١٤)، والحاكم في «مستدركه» (١/ ٦٧٢) حديث (١٨٢٢) وصححه من حديث عبدالله بن بسر ﷺ.

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الصوم» باب «فضل الصوم» حديث (١٨٩٤)، وباب «هل يقول: إني صائم إن شتم؟» حديث (١٩٠٤)، ومسلم في كتاب «الصيام» باب «فضل الصيام» حديث (١١٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الجهاد والسير» باب «من يجرح في سبيل الله عز وجل» حديث (٢٨٠٣)، ومسلم في كتاب «الإمارة» باب «فضل الجهاد والخروج في سبيل الله» حديث (١٨٧٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) من الآية ١٩ من سورة النساء.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب «الطهارة» باب «فضل إسباغ الوضوء على المكاره» حديث (٢٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فيشعر بشيء كبير من البركة، ويكون الفم مع جفاف الريق ما زال رطبًا ليس باللعاب أو بالماء بل بذكر الله وأثر ذكر الله، وهذا المعنى وإن لم يرد صراحة في الحديث، وليس تكليفًا مباشرًا من النبي ﷺ إلا أن الإمام الشافعي قد لاحظه في حديث الخلوف فقال بكراهية إزالة الخلوف بعد صلاة الظهر حتى يبقى المكلف في معية المسك الرباني إن صح التعبير.

٦- أما منهج المسلمين في الذكر فقد أعلوا من شأن ما أسموه بالكلمات العشر المباركات وهي: "سبحان الله، الحمد لله، لا إله إلا الله، الله أكبر، لا حول ولا قوة إلا بالله [وهذه الخمسة أسموها الباقيات الصالحات] استغفر الله، ما شاء الله، حسبنا الله ونعم الوكيل، إنا لله وإنا إليه راجعون، توكلت على الله" ثم تُوِّجت بالصلاة على النبي ﷺ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾(١).

ومن هذه الكلمات العشر ما يذكر بها المؤمن بعد صلاته قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَفَلاَ أُعَلِّمُكُمْ شَيْئاً تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ وَلاَ يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلاَّ مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ؟**» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «**تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ مَرَّةً**»(٢).

٧- وسميت الكلمات الخمسة بالباقيات الصالحات تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾(٣)، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**اسْتَكْثِرُوا مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ**». قِيلَ: وَمَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**التَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ وَالتَّسْبِيحُ وَالْحَمْدُ للهِ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ**»(٤).

٨- إن ذكر الله بأسمائه الحسنى منهج تربية للإنسان، وسنعود إلى ذلك مرة أخرى لنرى ما اشتملت عليه هذه الأسماء من الجلال والجمال والكمال وكيف تتجلى على الإنسان في عمله الذي يعمر به الكون.

---

(١) من الآية ٥٦ من سورة الأحزاب.

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الأذان» باب «الذكر بعد الصلاة» حديث (٨٤٣)، ومسلم في كتاب «المساجد ومواضع الصلاة» باب «استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته» حديث (٥٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ لمسلم.

(٣) الآية ٤٦ من سورة الكهف.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٧٥) حديث (١١٧٣١)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢/ ٥٢٤) حديث (١٣٨٤)، والحاكم في «مستدركه» (١/ ٦٩٤) حديث (١٨٨٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٣/ ١٢١) حديث (٨٤٠) واللفظ له من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الحب الذي اشتقنا إليه

الحب شعور إنساني عظيم، يدل على الحياة، كما يدل على الإنسانية، وهو أحد مشتقات الرحمة وآثارها، فالرحيم هو الذي يحب، ومن أحب دل على أنه رحيم، والحب عطاء، والحب كرم، والحب حالة فريدة؛ ولذا قالوا: من أحب لا يكره، وإذا فُقد الحب دل ذلك على فقد الرحمة، وإذا فُقدت الرحمة فلا تسأل بعد ذلك عن مدى الفساد في الأرض، ومدى الظلم المنتشر ومدى التدهور المستمر.

١- إلا أن الحب في الإسلام تعدى كونه شعورًا وأحاسيس إلى كونه فريضة وواجبًا، وتعدى الحب بمعناه الفردي بين الرجل والمرأة إلى معناه الشامل الذي يجعله مقياسًا للحياة، وأساسًا للسلوك، ومفتاحًا للأخلاق، فالحب للحياة بأشيائها وأحداثها وأشخاصها ومبادئها أمر مقرر في القرآن الكريم، ولكن بعد تحويله إلى طاقة فاعلة للخير والحق والقوة والتعمير.

٢- ولنبدأ بما يحبه الله وما لا يحبه، وهي مجموعة من الآيات التي ترسم دستور الحب الحقيقي غير المزيف؛ حيث يختلط الحب حينئذ بالشهوة والرغبة ويختلط حينئذ بالمصلحة الخاصة المشبوهة، في حين أن الحب الحقيقي شفاف دائم، قد يشتمل على الشهوة دون فساد، وقد يشتمل على المصلحة دون أنانية، وقد يشتمل على الغاية دون خيانة، إنه حب اشتقنا إليه.

فيقرر القرآن حب الأشياء ولا يجعلها دليلا على الخير دائمًا يقول الله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[١]، ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾[٢]، ويقول في حب المبادئ: ﴿ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾[٣].

(١) الآية ٢١٦ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٥٦ من سورة القصص.

(٣) من الآية ٢٢ من سورة النور.

٣- فما يحب الله؟ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[١]. وقال سبحانه: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾[٢]. ﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[٣]. ﴿ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٤]. ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[٥]، ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[٦]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾[٧].

٤- فهذه ثمان صفات أخبر القرآن الكريم بأن الله يحبها في عباده، فهو يحب من عبده إذا أخطأ أن يرجع عن خطئه، حتى لو تكرر الخطأ أو الخطيئة، فهو يقبل التوبة من عبادة ويعفو عن كثير، ويقول رسول الله ﷺ: **«كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»**[٨]. والتوبة فلسفة كبيرة في عدم اليأس، وفي وجوب أن نجدد حياتنا وننظر إلى المستقبل، وأن لا نستثقل حمل الماضي، وإن كان ولابد أن نتعلم منه دروسًا لمستقبلنا، لكن لا نقف عنده في إحباط ويأس، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. التوبة فيها رقابة ذاتية تعلمنا التصحيح وتعلمنا التوخي والحذر في قابل الأيام، وهي من الصفات المحبوبة فلنجلعها ركنًا من أركان الحب.

٥- والله يحب أيضًا المتطهرين في ظاهرهم وباطنهم، فإن كانت التوبة من قبيل الطهر الباطني، فإن النظافة من الطهر الظاهر، والنظافة في الجسد والثياب والأثاث والمكان جزء لا يتجزأ وركن ركين في عبادة الله عند المسلمين ﴿ **أن**

---

(١) من الآية ٢٢٢ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٧٦ من سورة آل عمران.
(٣) من الآية ١٩٥ من سورة البقرة.
(٤) من الآية ١٤٦ من سورة آل عمران.
(٥) من الآية ٤٢ من سورة المائدة.
(٦) من الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.
(٧) الآية ٤ من سورة الصف.
(٨) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٩٨) حديث (١٣٠٧٢)، والترمذي في كتاب «صفة القيامة والرقائق والورع» حديث (٢٤٩٩)، وابن ماجه في كتاب «الزهد» باب «ذكر التوبة» حديث (٤٢٥١)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٧٢) حديث (٧٦١٧) وصححه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾[1]، ولنجعل الركن الثاني هو التطهر، وهو معنى يمكن أن يتحول إلى إجراءات محددة في حياتنا على مستوى الأمة وعلى مستوى الجماعة، وعلى مستوى الفرد.

٦- فإذا اتصف الواحد منا بالتوبة والطهر فإنه يتصف بالتقوى وهي الخوف الناتج من الحب وليس الناتج عن الخشية، فالتقي هو الذي يخاف أن يغضب حبيبه، وهو الذي يخاف على حبيبه، وهو الذي يمتنع عن كل ما يؤذيه ويسارع في هواه.

لـو كنـت حقًّـا حبـه لأطعتـه إن المحـب لمـن يحـب مطيـع

٧- وإذا كان التقي يبدأ بنفسه، فإن المحسن يتعدى إحسانه لغيره، ولذلك أحب الله المحسنين، وثواب الفعل المتعدي نفعه إلى غيره أكبر وأحسن من الفعل الذي قد يكون قاصرًا. إن هذا يدل على نسق مفتوح؛ مفتوح على الناس، مفتوح على العالم، مفتوح على الآخر، فهذا ركن رابع من أركان الحب.

٨- فإذا فعلنا ذلك فلابد من الصبر والمثابرة والاستمرار فإن «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**»[2] والصبر صفة تتحول إلى ملكة راسخة في النفس، والله يحب الصابرين، أي أنه لا يحب الحائر المتردد الذي يبدأ العمل ثم يتركه، وهو الركن الخامس من الحب.

٩- والعدل أساس الملك، ولذا فإن الله يحب العدل ويأمر به ويرشدنا إلى أنه قيمة مطلقة لا تتغير ولا تتبدل كما يراها بعض من عبد المصالح وأخرج الله من حياته، فأصبح بذلك ظالمًا، والله لا يحب الظالمين، بل يحب المقسطين. هل هذه الحقيقة أصبحت لدى بعض البشر محل نظر أو مناقشة؟ يبدو من تصرفاتهم أنها أصبحت كذلك، فعلى هؤلاء أن يدركوا أن الحب قد فقد أحد أركانه إذا فقد العدل، ولا حقيقة للشيء بدون ركنه.

---

(١) من الآية ١٢٥ من سورة البقرة.

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الرقاق» باب «القصد والمداومة على العمل» حديث (٦٤٦٤)، (٦٤٦٥)، ومسلم في كتاب «صلاة المسافرين وقصرها» باب «فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره» حديث (٧٨٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

١٠- فإذا أضل الناس أو قدر الله عليهم حرمانهم من نعمة الحب ودخلوا في غيره من الكراهية، فعلينا ألا ننساق إليهم قال النبي ﷺ: «**لا تكونوا إمعة تقولون: إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا**»[١].

١١- إن هذه الصفات هي التي تُعد ناشر الخير والسلام، تعد المجاهد في سبيل الله: الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر الذي يريد أن يمنع الشر ويرفع الطغيان والعدوان، وحينئذ لا نجد المفسد الذي يدعي الإصلاح، ولا المرجف الذي يدعي الإسلام قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾[٢]. ولا نجد من يلبس الحق بالباطل قال سبحانه: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ ﴾[٣].

(والترجمة الدقيقة لكلمة [Terrorism] هي كلمة [الإرجاف] في العربية، واسم الفاعل مرجف وجمعها المرجفون، وليس الإرهاب الذي هو بمعنى قوة الردع وليس الإفساد في الأرض، وهذا بالمناسبة من قبيل تحرير المصطلح).

هذا جانب من الحب وله جوانب أخرى.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب «البر والصلة» باب «ما جاء في الإحسان والعفو» حديث (٢٠٠٧) وحسنه، والبزار في «مسنده» (٧/ ٢٢٩) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٢) الآيتان ٢٠٤، ٢٠٥ من سورة البقرة.

(٣) الآيتان ٦٠، ٦١ من سورة الأحزاب.

العنف الأسري

شاع في عصرنا ظاهرة العنف الأسري، والمقصود بها ذلك العنف الذي يكتنف سلوك الزوج مع زوجته، وسلوك الزوجة مع زوجها، وسلوك كل من الوالدين مع الأبناء، وسلوك الأبناء مع كل من الوالدين، ومع إخوتهم فيما بينهم، ثم سلوك أفراد الأسرة مع الجيران، ومع الأقارب، وفي الحياة العامة، فهذه عشرة صور اكتنف العنف جلها أو اكتنفها كلها، ويسأل كثير من الناس عن حكم الإسلام في هذا العنف من ناحية، وعن أسباب هذه الظاهرة وكيفية علاجها من ناحية ثانية، وعن آثارها المدمرة من ناحية أخرى.

١- أما حكم هذه الظاهرة فهي تعد مخالفة بكل المقاييس للدين الإسلامي، سواء كانت على المستوى الفردي، أو المستوى الجماعي، أما على المستوى الفردي فقد أمرنا بالرفق، ففي الحديث الشريف: «**إن الله يحب الرفق في الأمر كله**»(١)، وقال ﷺ: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه**»(٢)، «**إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق**»(٣).

وأمرنا رسول الله ﷺ بصلة الأرحام، فالزوج وجهه رسول الله ﷺ فقال: «**خيركم خيركم لنسائه وبناته**»(٤) ووصفته السيدة عائشة رضي الله عنها أنه: «كان في مهنة أهله»(٥) أي أنه كان ﷺ يشتغل بمساعدة الزوجة في مهامها؛ تعليمًا لأمته كيف يتعاملون داخل الأسرة، ويقول أنس بن مالك: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الأدب» باب «الرفق في الأمر كله» حديث (٦٠٢٤)، وفي كتاب «الاستئذان» باب «كيف يرد على أهل الذمة السلام» حديث (٦٢٥٦)، وفي كتاب «الدعوات» باب «الدعاء على المشركين» حديث (٦٣٩٥)، ومسلم في كتاب «السلام» باب «النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام» حديث (٢١٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب «البر والصلة والآداب» باب «فضل الرفق» حديث (٢٥٩٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٩٨) حديث (١٣٠٧٤) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٦٢) وصححه.

(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦/ ٤١٥) حديث (٨٧٢٠)، وابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢٦٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب «الأدب» باب «كيف يكون الرجل في أهله؟» حديث (٦٠٣٩).

قال لي أفًا قط، ولا قال لي لشيء لِمَ فعلت كذا؟ وهلا فعلت كذا؟»[1] وأمر الزوجة بأن تجعل علاقتها مع زوجها علاقة ربانية، تطلب بها ثواب الله قبل كل شيء، وترجو منه سبحانه وتعالى أن يأجرها في الدنيا والآخرة، على ما قد تكون تصبر عليه، قال تعالى: ﴿ **فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ** ﴾[2].

ويوجه الآباء فيقول: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا**»[3]، ويوجه الأبناء فيجعل بر الوالدين مكافئ التوحيد ﴿ **وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا** ﴾[4]، ويأمر الجميع بحسن الجوار، فيقول: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن**». قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «**من لا يأمن جاره بوائقه**»[5] ويأمر بصلة الرحم، وبفعل الخير، قال النبي ﷺ: «**أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»[6]، وقال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ **وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[7].

وحتى نقيم تلك النصوص الشرعية يجب أن نعمق في وجداننا قيمة العفو، فإن العفو وسيلة ناجحة في تحقيق الرفق والود والتعاون، الذي بهم نقضي على العنف في الأسرة وفي حياتنا كلها، ولقد كثرت نصوص الكتاب والسنة في ترسيخ تلك الفضيلة في دعوة حثيثة للمؤمنين للتخلق بها، ومن أمثلة تلك النصوص ما أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالصفح؛ حيث قال: ﴿ **فَٱصْفَحِ**

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الأدب» باب «حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل» حديث (٦٠٣٨)، ومسلم في كتاب «الفضائل» باب «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا» حديث (٢٣٠٩).

(٢) من الآية ٣٤ من سورة النساء.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب «البر والصلة» باب «ما جاء في رحمة الصبيان» حديث (١٩٢٠) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وقال الترمذي: «وحديث محمد بن إسحاق عن عمرو بن شعيب حديث صحيح».

(٤) من الآية ٣٦ من سورة النساء.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب «الأدب» باب «إثم من لا يأمن جاره بوائقه» حديث (٦٠١٦) من حديث أبي شريح الخزاعي ﷺ.

(٦) أخرجه ابن ماجه في كتاب «الأطعمة» باب «إطعام الطعام» حديث (٣٢٥١)، والدارمي في كتاب «الصلاة» باب «فضل صلاة الليل» حديث (١٤٦٠)، وفي كتاب «الاستئذان» باب «في إفشاء السلام» حديث (٢٦٣٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ١٤) حديث (٤٢٨٣) وصححه من حديث عبدالله بن سلام ﷺ.

(٧) من الآية ٧٧ من سورة الحج.

﴿ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾[١] وأمر الله بالعفو في قتل النفس فقال سبحانه: ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾[٢]. وأمر بالعفو عن غير المسلمين، وفي أشد مواقف العداء منهم للإسلام، فقال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾[٣].

وأمر الله تعالى رسوله ﷺ بالعفو عن المؤمنين فقال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾[٤]. وأمره بالعفو عن اليهود رغم خسة صفاتهم، فقال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[٥]، وبين ربنا أن العفو وسيلة لتحصيل عفو الله فقال سبحانه: ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٦] وأثنى الله على العفو ومن يتخلق به فقال تعالى: ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[٧]. وقال: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾[٨].

---

(١) من الآية ٨٥ من سورة الحجر.
(٢) من الآية ١٧٨ من سورة البقرة.
(٣) من الآية ١٠٩ من سورة البقرة.
(٤) من الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.
(٥) الآية ١٣ من سورة المائدة.
(٦) من الآية ٢٢ من سورة النور.
(٧) من الآية ١٣٤ من سورة آل عمران.
(٨) الآية ٤٣ من سورة الشورى.

٢- هذه هي المنظومة الشرعية التي تقي من العنف الأسري على مستواه الفردي أو شيوعه الجماعي، وعدم الاهتمام بتربية النشء على هذه المعاني، وتكريس الأنانية حتى في الإعلان عن الطعام والحلوى للأطفال، مضاف إلى توتر الحياة من ضجيج وضوضاء وسرعة حراك البرنامج اليومي للإنسان، وضيق الملابس الذي انعكس سلبًا على أعصابه، ومجموع المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، كانت من الأسباب التي أدت إلى تفكك الأسرة، وإلى سوء الخلق، وإلى العنف الأسري.

٣- ومن هنا يتضح العلاج والذي يبدأ بعملية التربية، والتربية عملية مرتبة لها أبعادها، ولها أركانها، لا تقتصر فقط على التعليم ولا على التدريب، ولا تقتصر فقط على المدرسة، بل لابد من اشتراك الإعلام، وتكوين ثقافة سائدة للمجتمع تقيه هذه الظاهرة السلبية، وتدفع به إلى الأمن والاستقرار، وهذا يحتاج إلى مزيد الاهتمام، وهناك ظواهر كانت موجودة منذ أربعة عقود حوربت وحصرت بكل الوسائل حتى لم نعد نسمع عنها بصورة فجة كما كانت، وتراجعت كثيرًا بسبب المجهودات التي بذلت فيها منها: ظاهرة الغش الجماعي، وظاهرة العنف الطلابي خاصة بين البنات، وظاهرة الاعتداء الجماعي على المباني الدراسية أو على الأساتذة، وهي أمور لم تعد بهذه الحدة التي كانت عليها، وفي سبيلها للانتهاء التام إن لم تكن قد انتهت بالفعل.

عسى الله أن ينهي هذه الظاهرة من مجتمعنا، وجميع المجتمعات الإسلامية، ومن الأرض كلها إنه رءوف بعباده.

رابعًا: مقالات وصف المؤتمرات والأحداث والأماكن

كنت في لندن

١- في سبيل تصحيح صورة الإسلام والمسلمين ذهب وفد رفيع المستوى إلى إنجلترا في الشهر الماضي لمحاولة فتح باب الحوار فيما يهمّ الشرق والغرب، ويكون خطوة في نزع فتيل الصدام، ووضع خطط التعاون المثمر، فالصدام ليس من صالح العرب ولا المسلمين، ولا البشرية في مجملها، والداعين إليه إنما يدعون إلى فساد في الأرض وبعضهم يظنه أو يعتقد جازمًا أنه واقع لا فكاك منه، وأنه يتعامل معه ولا يدعو له، والأمر عندنا غير ذلك، فالصراع أمر موجود ولكنه طارئ عارض، وليس هو أساس العلاقة بين الإنسان والكون، ولا بين الإنسان وأخيه الإنسان، بل العلاقة هي التكامل، والتعاون والتعارف، وكنت في هذا الوفد الذي بذل وزير الأوقاف جهدًا كبيرًا مشكورًا في الإعداد له مع وزارة الخارجية المصرية.

٢- وهناك حاولنا أن نتلمس هاجس العقل الغربي ومشكلاته مع الإسلام والمسلمين في صورة أكثر تحديدًا، وفي نقاط واضحة؛ تمهيدًا للتفاوض ومحاولة لإدراك الأزمة وتفريغ خطورتها، ووضع أسس التعاون إن نجحنا في ذلك من خلال:

أ- أهمية فصل المسائل اللاهوتية - بمصطلحهم - عن مسائل التعاون المشترك، وبناء مستقبل من التفاهم المثمر مع حفظ الهوية والأطر العامة بين الطرفين.

ب- أهمية اعتماد مرجعية روحية من طرف بلاد المسلمين، وعدم عزل المسلمين في الغرب عن مهبط الوحي وأرض الرسالات، وأن المرشح لهذا الدور هو الأزهر الشريف؛ لتعددية الدارسين فيه، ولوسطيته، وعمقه التاريخي، وتعبيره الأكاديمي عن الإسلام، وعدم تلوث سمعته بشيء من الصدام والعنف، والحكمة التي تَميَّز بها دعاته وعلماؤه وغير ذلك.

٣- وحددنا النقاط الأهم التي تشغل البال الغربي حيث تتمثل فيما يلي:

- عمليات الاستشهاد في فلسطين، وموقفنا بشأنها يتمثل بأن ذلك لم ينشأ من فتوى دينية سابقة، كما هو متصور أو يُراد أن يُتصور، وأن الأمر مرده إلى التضييق اليهودي واليأس والإحباط الذي يصيب الفلسطينيين، وأن أول فدائي كان مسيحيًّا، وأن الأمر امتد إلى الفتيات - حيث كان من الشائع أن الذكور يفعلون هذا؛ لأن الإسلام يبشرهم بسبعين حورية في الجنة - وأن الفتاوى التي حَرَّمَت لم تمنع العمليات الفدائية، ولم تدفع إليها؛ لأن السبب هو الإحباط وليس الدين، وأن الادعاء بأن الدين وراء ذلك لن يؤثر كثيرًا في الواقع لأنه ليس صحيحًا، فلابد من معرفة السبب الحقيقي وإزالته، والسبب الحقيقي هو طريقة تعامل الكيان الصهيوني مع القضايا السياسية والإنسانية.
- الشذوذ الجنسي باعتباره حقًّا من حقوق الإنسان، والرد يدور حول أن هذا لم يتفق عليه كحق من حقوق الإنسان، وأن جميع الأديان تحرمه، وحقوق الإنسان المعتبرة الملزمة هو ما اتفق عليه البشر لا ما يدعو إليه بعضهم.
- هل الدولة في الإسلام دينية؟ وموقفنا أنها مدنية لا علمانية تجعل الحكم للبشر دون الله في الأرض، ولا دينية تجعل المؤسسات الدينية تحكم، بل هي مدنية ترعى شئون الناس لإتاحة العبادة وعمارة الأرض وتزكية النفس مع الإيمان بعدم وجود الطبقية والتفرقة العنصرية، والإيمان بالحرية والشورى، والتعددية الدينية والفكرية والسياسية.
- الردة وعقوبتها، وموقفنا يدور حول أن الإسلام لا يريد منافقين، ولذلك ترك حرية الاعتقاد ﴿ **فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾[1]، ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ** ﴾[2]، ﴿ **لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ** ﴾[3]، وإن عدم السماح لتغيير البيانات مرجعه إلى الدستور والقانون والنظام العام الذي دائمًا يكون شأنًا داخليًّا يختلف باختلاف التركيبة السكانية والثقافة السائدة، وإذا كان المرتد معلنا بحيث يخرج على النظام العام، فإن جميع نظم العالم تؤاخذ بالخيانة العظمى وعقوبتها غالبًا الإعدام، إلا أن هذا الحدَّ بهذه الصفة لم يتم تطبيقه - في مصر مثلا - منذ أكثر من ألف سنة.

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الكهف.
(٢) الآية ٦ من سورة الكافرون.
(٣) من الآية ٢٥٦ من سورة البقرة.

- الحوار مع الآخر، وموقفنا هو فتح باب الحوار بين الحضارات والمجتمعات والثقافات والديانات المختلفة، وأن فكرة الصراع ليست في الإسلام حيث أكد على التكامل بين الإنسان والكون، وبين الحاكم والمحكوم، وبين الرجل والمرأة، وبين صاحب العمل والعمال، وأن الحوار يزيل كثيرًا من العوائق ويحسن إدارة الأمور.
- التطور الاقتصادي والاجتماعي في بلاد المسلمين، وموقفنا هو أننا نسعى دائمًا إلى وضع الخطط للتنمية الشاملة، وإعطاء مساحة أكبر للحريات تتناسب مع قدرة الشعوب، وهناك تطوير دائم لمناهج التعليم بما يسمح باستيعاب معلومات العصر وبناء الإنسان في ظل موروثه الثقافي وفي ظل حاجاته العصرية.
- مسألة خطف المسلم أطفاله من زوجته الغربية، وهروبه إلى بلاده بهم، وموقفنا أننا لا نشجع الزواج بغير المسلمة إن كان الأمر يؤدي إلى النزاع، وأنه لا يجوز شرعًا التفرقة بين الأم وابنها، إلا أن الأب له أيضًا حق الرعاية والعناية مع الأم سواء بسواء.
- قضية اندماج المسلم في مجتمعه، وعمله في المخابرات والجيش في تلك الدول، وموقفنا أن المسلم له هذا وأن له طبقًا لقوانين البلاد الديمقراطية أن يعتذر عن كل ما لا يوافق عقائده مما يراه ظلمًا أو انحرافًا، وهذا منصوص عليه في القانون الأمريكي.
- الموقف من الأقليات غير المسلمة، فمصادر الإسلام وتاريخه يؤكدان على سماحة الإسلام مع الأقليات، فإنهم ما زالوا موجودين حتى اليوم في بلاد المسلمين يتمتعون بحق المواطنة الكاملة في ظل دساتير حرة وديمقراطية.

٤- ما مر كان موقفنا مما يظنوه تقصيرًا في الإسلام أو من المسلمين، وبعد ذلك طرحنا عليهم مطالبنا التي إذا استجيب لها تحقق الأمن والاستقرار في علاقة المسلم بالغرب سواء كان هذا المسلم في مجتمعه الغربي، أو في المجتمعات العربية، فطلبنا منهم:

- أن يقوموا بتصحيح مناهج التعليم من الأخطاء التاريخية والعلمية التي تسببت في تشويه صورة الإسلام والمسلمين في الغرب.
- وطلبنا منهم العمل على تخفيف حدة الهجمة الإعلامية على الإسلام والمسلمين إن لم يتسنَّ وقفها، وإتاحة مساحة إعلامية للرد على هذه الهجمة وتبيين الحقائق.

- كما طلبنا منهم تغيير القوانين التي بنيت على التمييز ضد المسلمين، وعدم سن قوانين مثيلة في المستقبل مما يضيق على المسلمين في المجتمعات الغربية، فيكون مبررًا للتصرفات غير المسئولة التي تزعزع الأمن والاستقرار في تلك المجتمعات.
- وطلبنا منهم المساعدة في التنمية البشرية، والمعاونة على محاربة الإرهاب، وقلنا: إن مصر دعت قبل تلك الأحداث إلى مؤتمر عالمي لمحاربة الإرهاب؛ وأن مصر باعتبارها أكبر دولة إسلامية عربية قد عانت من الإرهاب معاناة شديدة، وكانت من أحرص الدول على محاربة الإرهاب، وأن مصر طالبت بتسليم الإرهابيين باعتبارهم متطرفين لا يمثلون الإسلام ولا المسلمين، ولكن إنجلترا رفضت، في حين أنها تدرس طلبًا أمريكيًّا بتسليم بعضهم الآن.
- ودعوناهم إلى عمل برتوكول بين المسلمين والغرب لاندماج المسلمين في بلادهم الغربية، ينص على تحديد المرجعية والاعتراف بها من قبل الحكومات، والأزهر هو المرشح لذلك، وأن يحتوي هذا البرتوكول على مراجعة المناهج التعليمية المناهضة للإسلام والمسلمين، ومراجعة القوانين التي تضيق عليهم أو تتعصب ضدهم، وبينا لهم استعداد الأزهر للمساهمة في بناء البرتوكول، ولقد ساد جو من التفاهم المتبادل، وانتهى الأمر بوعد من وزيرة الدولة المعنية بملف الشرق الأوسط بمجلس اللوردات برفع الأمر إلى وزير الخارجية لاتخاذ اللازم بهذا الشأن.

٥- وفي الختام نريد أن نوضح ما الذي يجب أن تقوم به مؤسساتنا من أمور تجعلنا على مستوى الأحداث، ونعبر عن تلك المصداقية التي طالبنا بها غيرنا، فيجب علينا أن نهتم بما يلي:

- الاهتمام باللغات الأجنبية، والمصطلحات المعاصرة وعدم ترديد ما يضرنا منها، والاهتمام ببناء أعمال تأسيسية لتوجيه الأعمال المناسبة إلى اللغات الأوربية، وأن ليس كل كتاب يصلح للترجمة أو يكون نافعًا حتى لو ترجم ترجمة دقيقة، بل لابد من مراعاة العقلية الغربية.
- كما أنه يجب على مؤسساتنا الدينية إصدار فتاوى واضحة بشأن المسائل المثارة مثل: (شهادة المرأة - ميراثها - التعدد في الزواج - الحدود - الجهاد) تبين هوية الإسلام وأن هذا من أحكامه التي لا ينبغي المساس بها، وإلا كان ذلك خلطًا بين المسائل اللاهوتية - على حد تعبيرهم - ومسائل التعاون المشترك.

- ويجب على مؤسساتنا أن تمكن من دراسة الأديان الأخرى ومقارنتها بتوسع ودقة في جامعة الأزهر، حتى نكون قادرين على المتابعة العلمية، ونكون قادرين أيضًا على الحوار العلمي الدقيق لما في ذلك من أهمية في المستقبل بل والحاضر.
- كما يجب علينا جعل الأزهر مؤسسة مرجعية في الغرب، وأول ذلك تفعيل مجمع البحوث وضم غير المصريين له حتى يصبح عالميًّا، كما ينص على ذلك قانون ١٠٣ لسنة ٦١ بخصوص هذا الشأن.
- ويجب علينا في مجال خدمة القرآن تأليف كتاب يعد مدخلاً لقراءة القرآن القراءة الصحيحة التي لا تجعل القارئ يجتزئ بعض النص ويترك بعضه، والكتابة في موضوعات القرآن كل على حدة بصورة أدبية تكون بمثابة بديل عن ترجمة ألفاظ أو معاني القرآن.

وقد شعرت أننا في حاجة إلى عمل مبادرة مع جماعات العنف العالمية المنتمية إلى الإسلام تشترك فيها دول كثيرة تبدأ عن طريق الإعلام ودعوتهم إلى كلمة سواء حتى نكون على مستوى الأحداث التي تجري من حولنا، لعلنا أن ندرأ الفساد عن الأرض. ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[1].

(١) من الآية ٣٩ من سورة فصلت.

جاءت لجنة الحريات وذهبت

زارني في مكتبي وفد يطلق على نفسه "لجنة الحريات الدينية الأمريكية" والتي أحدثت زيارته لمصر ردود فعل مختلفة، وتذكرت تلك الوفود التي كانت تأتي سيدنا رسول الله ﷺ، بعضها كان يأتي مؤمناً يبايع على الإيمان والخروج من ظلم الجاهلية إلى عدل الإسلام، وبعضها كان يأتي مناقشاً يستجلي حقيقة الأمر ويتدبر معانيه، وبعضها كان يأتي للفتنة ومحاولة التجسس كما جاء وفد الروم إلى كعب بن مالك وهو في العزل في قصة الثلاثة المخلَّفين في سورة التوبة، ولا أريد أن أصنف اللجنة، فرسول الله ﷺ قد قابل الجميع، وليس عندنا ما نخفيه أو نخافه والحمد لله رب العالمين، ولكن من حق الناس أن يعرفوا ما حدث، وأترك التحليل لغيري.

١- سألتني اللجنة أول ما سألت عن أوضاع الهندوس في مصر، ومدى إعطائهم حريتهم، وتعجبت من مدى معلومات اللجنة الأمريكية، وقلت لهم لا يوجد أي هندوس في مصر، وكتاب "لفيدا" المقدس لدى الهندوس لم يترجم إلى العربية، والمصطلح الهندوسي لا يعرف في العربية حتى اليوم مثل (الجورو، بيضة العالم.... إلخ)، وفي الإحصاء الرسمي سنة ١٩٦٠ الذي صدر ليبين عدد أتباع الأديان في مصر فنَصَّ على عدد المسلمين والمسيحيين واليهود وأديان أخرى - هكذا في ذلك الإحصاء - وعدد أتباع الأديان الأخرى حينئذ في مصر كان ثلاثة أشخاص فقط، ويظهر أنهم كانوا صينيين "كونفوشيوسيون" أخذوا الجنسية المصرية، وماتوا فلم يظهروا في أي إحصاء لاحق، وأتذكر أنه كان هناك محرقة لجثث الهندوس العاملين في السفارة الهندية بمدينة نصر، وأنها أغلقت بعد تطور نقل الجثمان بالطائرات؛ حيث إن تكلفة حرق الجثث في تلك المحرقة أصبح أكثر تكلفة من نقلها بعدما أصبحت المواد الحافظة للجثمان أكثر توفرًا من ذي قبل، وكتاب "الحوار لكنفوشيوس" مترجم للعربية، أما "الفيدا" فلا، هذا كل ما نعرفه عن الهندوس في مصر.

٢- قالوا: والبهائيون؟ قلت: البهائيون كان لهم معبد بالعباسية، وكل كتبهم التي بالعربية طبعت في مصر، وظلوا يمارسون شعائرهم حتى سنة ١٩٦٠ حيث منعوا لأسباب سياسية وقانونية تتعلق بالتعاون مع اليهود في فلسطين مما يندرج تحت طائلة القانون الذي يمنع التجسس مع العدو أو غيره، فهل التجسس يباح في أمريكا، أو أنه أصبح من حقوق الإنسان، وتم هذا بناء على القرار الجمهوري رقم ٢٦٣ لسنة ١٩٦٠. قالوا: لا، إن بعض الناس يسيء

استخدام الحقوق ويقع في الجريمة، قلت لهم: إنني دعوتهم للنقاش منذ ربع قرن مضى فلم يستجيبوا. قالوا: فما هي مطالبهم. قلت: لا نعرف للبهائيين مطالب. وكان رسام الكاريكاتير "حسين بيكار" بهائيًّا، يكتب هذا في بطاقته الشخصية - مخالفًا للقانون - وظل يمارس عمله في جريدة الأخبار إلى أن مات وهو يناهز التسعين.

قالوا: فلمَ لا تسمحون بتسجيل بيان "بهائي" في الأوراق؟ قلت: لأن البهائية منشقة من تحت عباءة الإسلام، وهم يعترفون بنبوة سيدنا محمد ﷺ، وبقداسة القرآن، وعلى ذلك يكون الأمر أمر مذهب، وليس عندنا كتابة المذهب في الأوراق الرسمية، أما اعتقادهم ما يوجب تكفيرهم، فهذا أمر ديني وليس مدنيًّا شأنهم شأن القاديانية والدروز وغيرهم من النحل التي انشقت عن الإسلام ولابد من أن نحترم قانون البلاد.

٣- قالوا: وحقوق الإنسان؟ قلت: حقوق الإنسان التي اتفق عليها البشر أتت مع الرسل الكرام، ومقاصد الشرع خمسة هي: حفظ النفس، والعقل، والدين، وكرامة الإنسان، وملكه، وهي الأهداف العليا للشريعة، لكن لعلكم تتكلمون عن حقوق الشواذ، والتي ظهرت في وثائق الأمم المتحدة بعنوان «الجماعات المستهدفة» والتي تهتمون بها كثيرًا في أمريكا، فهذا الشذوذ الجنسي لم يتفق عليه البشر، ولا يوجد في إعلان ١٩٤٨ لحقوق الإنسان، ورفضته كل الأديان، حتى فرنسا العلمانية، ونحن نرفضه ولن نقبله، وأريد أن أسأل عن المستقبل الأسود لهذا الهراء، هل الانتحار من حقوق الإنسان؟ هل المخدرات من حقوق الإنسان؟ وقد أبيحت في هولندا، ووزعت في الشوارع على الراغبين في سيارات مخصصة لهذا الغرض، هل الاشتغال بالدعارة من حقوق الإنسان؟ ولقد وصلت في تركيا إلى الحد الذي تدفع فيه المرأة المسئولة عنها أعلى نسبة ضرائب هناك حتى استحقت لسنوات متتالية جائزة الدولة لأعلى دافعٍ للضرائب، وعندما حجبتها الدولة عنها في سنة من السنين رفعت أمرها للقضاء - من المعلوم أن الانتحار والدعارة والمخدرات محرمة في الولايات المتحدة - ولم أتلق جوابًا، بل انتقلت اللجنة إلى السؤال التالي، وأنا لا أدري حقًّا إلى أين نذهب كبشر في ظل هذا الإلحاد الأسود.

فمن المفزعات هذا الخبر الذي جاء من ألمانيا أن اثنين قد اتفقا على أن يقتل أحدهما الآخر ويأكل لحمه، ووثقا الاتفاق لدى السلطات المختصة، ونُفِّذَت الجريمة. فهل يا ترى سنرى من يجعل هذا من حقوق الإنسان؟ ﴿ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾[1].

(١) من الآية ١٨ من سورة هود.

وتذكرت حينئذ قوله تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[١].

وفهمت الآية الأخيرة وكأنها قد نزلت الآن لتعبر عما نحن فيه وتسلي قلوب المؤمنين.

٤- قالوا: والشيعة؟! قلت لهم: وما الشيعة! الشيعة إخواننا، وليست هناك مشكلات ولا طلبات. قالوا: مصادرة الكتب. قلت: مجمع البحوث لا يصدر قرارًا ضد كتاب إلا إذا كان فيه ازدراء للصحابة أو سب للأئمة، والشيعة أنفسهم قد راعوا هذا منذ زمن بعيد، فعندما طبعوا «بحار الأنوار» للمجلسي وهو من أكبر الكتب التي جمعت مرويات الآثار عند الشيعة حيث يقع في ١١٠ مجلدات حذفوا خمسة مجلدات من ٢٩-٣٣ حيث اشتملت على مثل هذا، فكانت لفتة كريمة تدعو إلى الوحدة لا إلى الفرقة.

٥- لم يتطرق الحديث إلى المسيحيين، ولا اليهود الذين لم يزيدوا عن ٦٣ شخصًا الآن في مصر، ولهم في القاهرة وحدها ثلاثة معابد، ولم يتحدثوا عن عباد الشيطان، وهم شباب لا يعرفون أصلا مَن الشيطان؛ كما أنهم لا يعرفون الدين، وتابوا إلى الله بعد إرشادهم، ولم يسألوا عن الشنتو ولا التنياسكيو وهي أديان منتشرة في اليابان لا يسمع بها أحد عندنا والحمد لله رب العالمين، فهل يمكن أن نقرأ عمل اللجنة وعمل الفرحين بها في ظل هذا الحوار.

٦- في مقابل هذه اللجنة اجتمعت مع اللورد "كيري" كبير أساقفة كانتربري السابق - الكنيسية الإنجليكانية - الذي زار مصر في الأسبوع الماضي مع السيدة حرمه، واستمعت إليه في محاضرة ماتعة ألقاها في قاعة الاحتفالات الملحقة بكتدرائية جميع القديسيين بالزمالك، والتي كان حريصًا فيها أن يصحح ما فهم من كلمته التي ألقاها في روما؛ حيث أكد على إبعاد تهمة الإرهاب والعنف عن دين الإسلام، ورد على أولئك الذين يحاولون إلصاق الإرهاب بالإسلام في أوربا، ودعا في محاضرته إلى التعاون بين المسلمين والمسيحيين وكل المؤمنين ضد العلمانية التي تنحي الله

(١) الآيات من ٥٤: ٥٩ من سورة النمل.

عن حياة البشر، وتهتم بالعالم دون أن تعرف أن رب العالم به تستقيم الأمور، ويتم السلام مع النفس ومع الآخرين، لقد كانت زيارته على النقيض من زيارة اللجنة.

نعم كانت الوفود مختلفة لاختلاف النيّات، فهناك نية صالحة وهناك نية طالحة، ويرشدنا ربنا فيقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[1].

(١) الآية ١١٩ من سورة التوبة.

الأمة وأزمة الثقافة والتنمية

هذا عنوان مؤتمر دُعيت إليه لإلقاء المحاضرة الافتتاحية فيه بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة في الأسبوع الماضي، ونظمته جهات ثلاث تعاونت على عقده وهي: برنامج حوار الحضارات بالكلية تحت رعاية عميدها الفاضل الدكتور كمال المنوفي، ورئاسة الدكتورة نادية مصطفى، ومنسق البرنامج د. سيف عبدالفتاح، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي تحت رئاسة د. عبدالحميد أبو سليمان، والبنك الإسلامي للتنمية في جدة التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي.

ومن كثرة المؤتمرات واللقاءات وآلاف وملايين البحوث والأوراق المكدسة على الأرفف منذ سنوات زادت على المائة عام ذهبت إلى المؤتمر بطريقة عادية فقد تعودنا الذهاب والكلام والانصراف.

وتسلمت الأبحاث، وألقيت كلمتي الافتتاحية وانصرفت، وأخذت في تقليب الأبحاث كالمعتاد وفوجئت أن من حق الأساتذة المشاركين أن أنبه إلى أبحاثهم حيث شعرت أن الأمر هذه المرة مختلف، وأنه عسى أن يكون ذلك هو الضوء الذي ينير أو هو أول الخيط الذي يتبع.

شارك في المؤتمر وفي كتابة الأبحاث نحو خمسين عالمًا من مصر والسعودية وماليزيا وأمريكا والمغرب والأردن وإيران في تخصصات مختلفة من السياسة والاقتصاد والتربية والاجتماع والشريعة والإعلام والهندسة واللغة والفلسفة، ومن الأبحاث المقدمة - وكلها جديرة بالقراءة والمتابعة واستخلاص منهج للعمل منها - أتكلم عن ثلاثة فقط لضيق المقام:

١- بحث الدكتور رفعت العوضي تحت عنوان «القيم الإسلامية الحاكمة لتنمية المجتمع» وهو أستاذ الاقتصاد في جامعة الأزهر. وجعل أول هذه القيم هي قيمة الحرية: الحرية في العقيدة، والحرية في السياسة، والحرية في الاقتصاد. ويرى أن هذه القيمة في محاورها الثلاثة تلك هي أول الطريق للتنمية الشاملة؛ فإن الإنسان الحر هو الذي ستصدر منه التنمية، ويكون مهيئًا لعملية الاستخلاف وإعمار الأرض. والقيمة الثانية هي الإعمار: وهو مبني على مدى وضوح علاقة الإنسان بالكون والحياة ومبني على مدى التفاؤل والتشاؤم في مجال الاقتصاد ومبني على توظيف ذلك في الواقع. والقيمة الثالثة قيمة الصلاح الاقتصادي التي تلتزم بها الدولة، وهي لابد أن تتخلق بأخلاق في إدارة ماليتها وتتخلق بأخلاق أخرى في حماية الحافز عند الأفراد. ثم القيمة الرابعة قيمة الصلاح الاقتصادي التي يلتزم بها الأفراد. والخامسة قيمة الصلاح الاقتصادي التي يلتزم بها الغني. والسادسة قيمة الصلاح الاقتصادي التي يلتزم

بها الفقير. السابعة ثقافة المقاومة، ويتكلم فيها عن وجوب تربية أفراد المجتمع على مقاومة الخطر الخارجي أيًّا كان شكله، وأن الهروب من المواجهة لن ينجي الهارب، ولن ينجي وطنه، وأن التسليم بأي نوع من المطالب ولو جزئيًّا يؤدي إلى ضياع الهمة ويؤدي بالحتم إلى قبول ما هو أسوأ لغير مصلحة الوطن، وأن ثقافة المقاومة من شأن مؤسسات كثيرة فهي مسئولية جماعية.

٢- والبحث الثاني بحث الدكتور سعيد إسماعيل تحت عنوان: «ازدواجية التعليم وأثرها على ثقافة الأمة» وهو أستاذ التربية بكلية التربية بجامعة عين شمس، وبجانب المتعة التأريخية للبحث في دراسته لقضية ازدواجية التعليم خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، وأنواع هذه الازدواجية وسلبياتها وأسبابها وطرق التخلص من هذه الازدواجية ودرجاتها؛ فإنه نبه على أمر لابد أن نكرر التأكيد عليه وهو قضية الاهتمام باللغة العربية الفصيحة ووظائفها في حياة الأمة، وكيفية استثمار إمكاناتها في التطور للوفاء بالحاجات الحضارية المتجددة وتنميتها لإرساء وحدة الأمة الفكرية وتطويرها وإشاعتها في الحياة العامة وسيلة للتفكير، ووضع لذلك مقترحات جديرة بالنظر والتنفيذ وهو من كبار خبراء التربية في مصر والعالم العربي والإسلامي.

٣- ويأتي البحث الثالث للدكتور عمار علي حسن تحت عنوان «الطرق الصوفية وعملية التنمية في العالم الإسلامي» وهو باحث في العلوم السياسية فكتابته في الموضوع ليست من الداخل، بل نظر خارجي يدرس ويحلل ويتوقع ويتكلم بحرية الناقد الذي يحسب ما للشيء وما عليه، ونخرج من بحثه إلى أن التاريخ يؤكد أنه تحول إلى مؤسسة مؤثرة وأن الرهان عليه من قبل الأمريكان بعد أحداث ١١ سبتمبر محل نظر، فالتصوف في صورته النقية والفاعلة قد يكون المخرج الحقيقي للأمة وهو منفذ يمكن منه التربية واسترجاع الهمة المفقودة ومعنى الجهاد الواسع الذي يشمل جهاد النفس والعمل الصالح والعمار، ونبه البحث على دور الزوايا وعلاقتها بالعلم والثقافة السائدة التي نحتاج إليها للخروج من الأزمة.

٤- تميزت الأبحاث بالدخول في الموضوع مباشرة، وبوضوح مقترحات قابلة للتطبيق، وببرامج عمل واضحة في ذاتها وفي أهدافها وفي النموذج التي تنطلق منه، وعلى الطرف الآخر من هذا المجهود المشكور أرى أن الثقافة السائدة الآن في مجتمعاتنا بعد هذه المرحلة الطويلة خلال القرنين الماضيين قد وصلت إلى حالة من الأزمة كما عبر عنها عنوان المؤتمر، وأن التنمية المبتغاة التي ندعو إليها تحتاج إلى الخروج من تلك الأزمة، وإلا فإن التنمية أيضًا في

أزمة، وأُشبه هذه الثقافة المأزومة بسيارة قد غرزت في رمل أو وحل وأن إخراج هذه السيارة من الوحل ليس هو كل شيء فإننا عندما أردنا أن نخرجها وجدناها مكبلة بالكوابح، وعند فك هذه الكوابح وجدناها قد صدأت في أجزائها وعندما جلونا الصدأ عنها وجدناها معطلة تحتاج إلى إصلاح فني وعندما أصلحناها وجدناها من غير وقود، فلما اجتهدنا فَجِئنا بالوقود اكتشفنا أنه لا يوجد سائق لها، وعندما أوجدنا السائق بالتي واللتيا لم يكن يعرف الطريق فسار بنا في متاهة، وكلما رأى شيئًا ظنه هو الطريق الصحيح فسار فيه ثم رجع فضاع الوقت، وأظلم الليل فازدادت المتاهة وازداد الإجهاد به وبنا... فهل من مخرج معقول؟ هذه الأزمات نمارسها سويًّا الآن، فمنا من هو في مرحلة الغرز، ومنا من هو في مرحلة الكوابح، ومنا من هو في مرحلة الصدأ، ومنا من هو في مرحلة العطل، ومنا من هو في مرحلة فقد السائق أو فقد الطريق أو الإجهاد المزري.

٥- هذه محاولة للوصف وليست تشاؤمًا محبطًا، بل دعوة إلى أن نلملم شعثنا ونفكر بأصالة، خارجين عن التقليد لغيرنا أو بسحب الماضي في حياتنا، وألا نخرج عن هويتنا، وهذا ممكن حتى الآن، ونخاف - إن استمرت الأزمة ولم تؤخذ بجدية أكبر - أن نصل إلى مرحلة لا نجد فيها السائق ولا حتى السيارة أصلا، وحينئذ فإن الأزمة ستصير كارثة بكل المقاييس، وحتى ننبه إلى نقاط واضحة فإنه لابد من مراجعة مناهج التعليم الأساسي والعالي ومراجعة قومية لا تقتصر على اتجاه ولا تتبع مناهج الغير، بل تنطلق من رؤيتنا التي لابد أن تصاغ في صورة واضحة أيضًا.

نحن شعب يؤمن أن الإنسان مخلوق لخالق، وأنه مكلَّف في هذه الحياة الدنيا، وأن هناك يومًا آخر نعود فيه إلى ربنا، وأن الإنسان مكرم ومحترم وليس مجرد جزء من الكون أو مادة تجري عليه الأحداث بعبثية، وأن الأمر صادر عن حكيم سبحانه. ونحن شعب نؤمن بالحرية والتعددية وأن البحث العلمي لا نهاية له ولا حد له ولا سقف يحده. ولكن نستعمل منتجات العلم في العمارة لا في الفساد، وأننا ندعو إلى الإبداع لا إلى الهتر، وأننا نحترم الأسلاف ونرى أنهم قاموا بواجب عصرهم، كما يجب علينا أن نقوم بواجب عصرنا، وأننا نحترم الأسرة، ونحترم الجماعة في جمعيتها وأعني بذلك كله الشعب المصري بكل طوائفه المسلمين والمسيحيين، بل إن هذا النموذج هو نموذج العرب جميعًا.

٦- وبعد مراجعة مناهج التعليم يجب تحويل مشروع الثقافة إلى مطلب قومي يشترك فيه الإعلام بكل مكوناته، وهذا يحتاج إلى جهد وعمل غير تقليدي وطاقة غير عادية، بل يحتاج إلى العمل بالليل والنهار. إلا أن الوضع النفسي

لشعبنا عبر التاريخ يسمح بالأمل والاعتماد على أن استثارة هذا عند جمهور الرأي العـــام يلقـــى قبـــولاً ونشـــاطًا وحراكًا.

٧- وأرى أن حركة البعثات العلمية يجب أن ترجع مرة أخرى خاصة إلى البلاد الجادة، وأخص جامعة الأزهر بشيء كبير من إرجاع البعثات التي أرجعت لنا رجالا من وزن الإمام عبدالحليم محمود، أو محمد الفحـــام، أو محمـــود حمدي زقزوق، وأستاذه محمد البهي، ورئيس الجامعة أحمد الطيب، والأسبق عبداللطيف بدوي، رحم الله من انتقل وبارك فيمن يسعى لصالح البلاد والعباد إنه نعم المولى ونعم النصير.

حقيقة الإسلام ودوره في المجتمع المعاصر

هذا عنوان المؤتمر الإسلامي الدولي الذي نظمته مؤسسة «آل البيت» للفكر الإسلامي بالمملكة الأردنية الهاشمية بالعاصمة عمان من الرابع إلى السادس من يوليو الجاري ٢٠٠٥، تحت رعاية حضرة صاحب الجلالة الملك عبدالله الثاني عاهل الأردن، الذي حضر حفل الافتتاح وألقى كلمة بليغة تدور حول هذا المعنى وحول رسالة عمان التي سبق وأن أصدرها في رمضان الماضي يلخص فيها حقيقة الإسلام والمعوقات التي تواجه المسلم، وكيفية تصحيح صورته في العالمين، وهي محاور هذا المؤتمر أيضًا، ولقد حضرت هذا المؤتمر مع معالي وزير الأوقاف الدكتور محمود حمدي زقزوق، ورئيس جامعة الأزهر الدكتور أحمد الطيب، والدكتور أحمد كمال أبو المجد نائب رئيس منظمة حقوق الإنسان المصرية، ومجموعة من العلماء المصريين، ومجموعة من العلماء من كل الدنيا، ومن كل المذاهب الفقهية.

وقُدمت أبحاث مهمة زادت عن خمسين بحثًا، وكانت إدارة المؤتمر طلبت عدة فتاوى من مرجعيات دينية سنية وشيعية وإباضية من مختلف أنحاء العالم حول عدة أسئلة، واتفقت الإجابات جميعًا على معنى واحد ورأي واحد؛ لأن هذه الإجابات هي هوية الإسلام التي لم يحدث فيها خلاف بين أحد من العقلاء عبر العصور، والتي أصبحت عند بعضهم محل نظر بناء على البعد الشديد من جانب هؤلاء عن الجماعة العلمية.

١- وتكونت تلك الفتاوى من ثلاثة أسئلة: الأول يقول: هل من يتبع ويمارس أيًّا من المذاهب الإسلامية الثمانية وهي: الحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي، والجعفري، والزيدي، والإباضي، والظاهري. يجوز أن يعد مسلمًا؟

وكانت إجابته هي: إن الإسلام أوسع دائرة من نتاج عقول المجتهدين، فإنه يصلح لكل زمان ومكان ولكل العالمين، فأمة الإسلام تخاطب كل الناس في جميع الأحوال، فمن صدَّق بالنبي المصطفى ﷺ فهو من أمة الإجابة، ومن لم يصدق فهو من أمة الدعوة. وأجمع المسلمون شرقًا وغربًا وسلفًا وخلفًا على أن المجتهد هو الذي يتبع كلامه في تبليغ دين الله، وذلك بعد استيفاء شروط الاجتهاد المبينة في علم أصول الفقه وهو من أهل الذكر الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1].

(١) من الآية ٤٣ من سورة النحل، ومن الآية ٧ من سورة الأنبياء.

وقد وصل بعض الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم - إلى تلك الدرجة، فنقلت مذاهبهم إلى تلاميذهم التابعين، ونقلت مذاهب التابعين إلى تابعيهم ومن بعدهم حتى القرن الرابع الهجري، فظهر المجتهدون حتى وصل عددهم نحو تسعين مجتهدًا قد اتبعت مذاهبهم واعتمدت آراؤهم، ثم شاعت المذاهب الثمانية ووصلت إلينا بالتواتر مع قيام العلماء عبر العصور بخدمتها كاستخراج أدلتها، والتثبت من منقولاتها، والقيام بتصحيح ما استدل به كل مذهب من الحديث النبوي الشريف أو الآثار الواردة عن مصدرها، والبحث في دلالة الألفاظ الواردة في كتب تلك المذاهب من جهة اللغة ومن جهة الشرع، فكانت تلك المذاهب هي الأكثر شيوعًا وهي: الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة - ويطلق عليها المذاهب السنية - والجعفرية، والزيدية، والإباضية، والظاهرية - وهي المذاهب غير السنية - والخلاف بين تلك المذاهب إنما هو في نطاق المظنون ولم يقع بينها خلاف في المقطوع به الذي يكفر منكره، والحمد لله رب العالمين.

وعلى ذلك فإنه من يتبع أي واحد من المذاهب الإسلامية أو يمارس في حياته شيئًا منها فهو مسلم صحيح الإسلام، وهذا يتفق مع أمر الله لنا بأن نعتصم بحبل الله، وأن نكون أمة واحدة وألا نختلف فتختلف قلوبنا، قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[١] وقال تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾[٣].

٢- والسؤال الثاني يقول: ما حدود التكفير في الإسلام؟ وهل يجوز أن يكفّر الذين يتبعون الأشعرية أو الصوفية؟

وكانت إجابته: إن المسلم الذي يشهد بلسانه الشهادتين لا يخرج من دين الإسلام إلا إذا أتى بشيء من المكفرات قاصدًا عالمًا مختارًا، كتصريحه بأنه كفر، أو أن ينكر وجود الله، أو أحقية رسالة النبي ﷺ، أو أحقية القرآن الكريم، وأنه ليس

---

(١) الآية ١٠٣ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ٦٣ من سورة الأنفال.

(٣) الآية ٩٢ من سورة الأنبياء.

كلام الله، أو يسجد لصنم، أو يستحل الكبائر كشرب الخمر وزنا المحارم والزنا بوجه عام، أو غير ذلك من البلايا التي لا يقول بها مسلم من أهل القبلة.

والسادة الأشاعرة - رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم - هم جمهور العلماء من الأمة وهم الذين صدوا الشبهات أمام الملاحدة وغيرهم، وهم الذين التزموا بكتاب الله وسنة سيدنا رسول الله ﷺ عبر التاريخ، ومن كفرهم أو فسقهم يخشى عليه في دينه. قال الحافظ ابن عساكر في كتابه «تبيين كذب المفتري»: «اعلم - وفقني الله وإياك لمرضاته وجعلنا ممن يتقيه حق تقاته - أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة، وأن من أطلق عليهم لسانه بالثلب ابتلاه الله قبل موته بموت القلب».

وعليه فالخائض في الأشاعرة والصوفية على خطر عظيم، ويخشى أن يكون من الخوارج والمرجفين الذين قال الله فيهم: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ ﴾[(١)].

٣- أما السؤال الثالث فكان يقول: من يجوز أن يعد مفتيًا في الإسلام وما شروطه؟

وكانت إجابته هي: إن المفتي هو المجتهد الذي تكلم عنه الأصوليون، والمجتهد هو من يقوم بعملية الاجتهاد، وهي بذل الجهد في استنباط الحكم الشرعي من الأدلة المعتبرة. روى الخطيب في كتابه «الفقيه والمتفقه» عن الإمام الشافعي قوله: «لا يحل لأحد أن يفتي في دين الله إلا رجلا عارفًا بكتاب الله: بناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وتأويله وتنزيله، ومكيه ومدنيه، وما أريد به، ويكون بعد ذلك بصيرًا بحديث رسول الله ﷺ ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن، ويكون بصيرًا باللغة، بصيرًا بالشعر، وما يحتاج إليه للسنة والقرآن ويستعمل هذا مع الإنصاف، ويكون مشرفًا على اختلاف أهل الأمصار، وتكون له قريحة بعد هذا، فإذا كان هكذا فله أن يتكلم ويفتي في الحلال والحرام، وإذا لم يكن هكذا فليس له أن يفتي»[(٢)].

---

(١) الآية ٦٠ من سورة الأحزاب.

(٢) «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي (٢/ ٣٣٠- ٣٣١).

وينبغي لذلك العالم الذي ألمَّ بالقرآن الكريم وعلومه، والسنة النبوية وعلومها، واللغة العربية وعلومها أن يتبع منهجًا في الإفتاء وذلك بحسب ترتيب الأدلة، فإذا سئل عن مسألة بحث عن حكمها في القرآن، فإن لم يجد ففي السنة، فإن لم يجد فيعمل القياس، حتى يستنبط الحكم الذي يطمئن إليه قلبه، ويشترط في هذا الحكم ألا يخالف الإجماع. وأما الأدلة المختلف فيها كالاستحسان وشرع من قبلنا، فإن أداه اجتهاده إلى صحة شيء منها أفتى به، وإذا تعارضت عنده الأدلة فعليه أن يفتي بالراجح منها.

٤- هذا مضمون ما أجبنا به واتفقنا عليه - علماء السنة وعلى رأسهم فضيلة الإمام الأكبر، وعلماء الشيعة كسماحة السيد محمد سعيد الحكيم، والشيخ إسحاق الفياض، والشيخ بشر النجفي، والعلامة آية الله محمد علي التسخيري، وإمام المذهب الإباضي الشيخ أحمد بن حمد الخليل مفتي سلطنة عمان، والشيخ إبراهيم الوزير من المذهب الزيدي باليمن، ومجمع الفقه الإسلامي، وغيرهم كثير.

فعسى الله أن يرشد الشباب إلى الدين الحق الذي أنزله الله على سيدنا محمد ﷺ، ويعينهم على أن يعيشوه.

السفر إلى أيرلندا

في وفد إسلامي مسيحي يمثل مصر بشعبها كله سافرت رئيسًا لذلك الوفد الذي يشترك فيه المطران منير حنا أنيس، مطران الكنيسة الأسقفية بالقاهرة، وفضيلة الشيخ فوزي الزفزاف وكيل الأزهر الأسبق، ورئيس لجنة الحوار بين الأديان، وعضو مجمع البحوث الإسلامية، وكان من المفترض أن يصحبنا الدكتور علي السمان عضو تلك اللجنة إلا أنه قد منعه عارض صحي، نسأل الله له الشفاء.

سافرنا إلى أيرلندا، تلك الجزيرة التي تنقسم إلى شمال وجنوب، فالجزء الشمالي يتبع المملكة المتحدة (بريطانيا) وعدد سكانه ١,٧ مليون، وينقسم إلى قوميين وهم ينتمون عادة إلى الكاثوليكية الرومية، ويتبعون من الناحية الدينية الكرسي البابوي بالفاتيكان، ومشربهم هو الانفصال عن بريطانيا، وتوحيد أيرلندا بجزأيها وتكريس اللغة الأيرلندية التي تختلف تمامًا عن الإنجليزية، وإلى اتحاديين يريدون الاتحاد ببريطانيا، وهم من البروتستانت، يتبعون من الناحية الدينية غالبًا كنيسة كانتربري بلندن، وهناك مستقلون قلة لهم توجهاتهم الخاصة.

أما الجزء الجنوبي فهو جمهورية مستقلة تتبع النظام الرئاسي وعليها الآن رئيسة منتخبة، هي السيدة ماري مكاليس، وعدد سكان الجزء الجنوبي ٣,٤ مليون نسمة، ولقد ظل النزاع طويلا بين دعاة الانفصال ودعاة الاتحاد، بين الكاثوليك والبروتستانت، واحتاج الأمر إلى حوار مسيحي مسيحي، يتعلق بإنهاء النزاع خاصة بعد دخول أيرلندا الجنوبية إلى الاتحاد الأوربي، وخاصة في عصر يتجه إلى العيش سويًا في قرية عالمية واحدة.

ومن المعلوم أن عاصمة أيرلندا الشمالية هي مدينة «بلفاست»، وعاصمة جمهورية أيرلندا هي «دبلن»، وكانت فكرة هذه الزيارة قد بدأت عندما زار وفد الكنيسة الإنجيليكية وشاهد هذا التعايش الواقعي الذي يعيشه المسلمون والمسيحيون فيها جنبا إلى جنب، بحيث إنك لا تستطيع أن تميز بين أحد منهم في شوارع القاهرة ولا في الحياة العامة، وبالمقارنة بالحالة الأيرلندية التي استمر فيها النزاع أكثر من ثمانمائة عام في حروب طاحنة، وصدام قد وصل إلى حد القتال، مما جعلهم يتشوفون لنقل تلك التجربة المصرية، وعرضها على المؤسسات الرسمية والعلمية والمدنية بأيرلندا؛ لتكريس الحوار المسيحي المسيحي من جهة، والمسيحي الإسلامي من جهة أخرى، خاصة بعد بروز الجالية الإسلامية الكبيرة بالنسبة إلى عدد السكان.

فقد وصل المسلمون في أيرلندا الشمالية إلى أكثر من ٥ آلاف، وفي أيرلندا الجنوبية إلى أكثر من ٢٠ ألف.

ورتب إلى هذه الزيارة برنامج لتؤدي غرضها من عرض الصورة المصرية من ناحية، ولتفعيل الحوار من ناحية أخرى.

ولقد استُقبل الوفد من قِبَل المؤسسات المختلفة الدينية والعلمية، ومن قبل الحكومة البريطانية والأيرلندية استقبالا يدل على تشوف حقيقي لإنجاح مهمته، ويدل أيضًا على وعي حضاري تنتقل فيه أيرلندا من حالة النزاع والصراع الدائم إلى استقرار يتشوف إلى المستقبل، وإلى سلام دائم.

التقينا برئيسة جمهورية أيرلندا السيدة ماري مكاليس، التي أعلنت تفهمها لضرورة الحوار المسيحي المسيحي والمسيحي الإسلامي، ولضرورة التعاون المشترك بيننا جميعًا من أجل السلام، ومن أجل تصحيح الصور المشوهة القائمة في أذهاننا، بعضنا عن بعض، ولقد كان تكوين الوفد المصري من المسلمين والمسيحيين معًا له أكبر الأثر في هذا الشأن.

القضية الأخرى التي تعد بادرة خير هي إعداد جمعية (C.M.S) لمجموعة من المطويات تعرِّف بالإسلام وأركانه، وموقفه من الأنبياء السابقين، واحترامه لسيدنا عيسى عليه السلام، واعتبار الإيمان به نبيًّا جزء لا يتجزأ من إيمان المسلم، وتقديس المسلمين للسيدة العذراء، وإيمانهم بالميلاد العذري للسيد المسيح، مع مجموعة من الأخلاق التي أيدها الإسلام ودعا إليها، وهو الأمر الذي يعد جديدًا أن يتكلم الناس ابتداء بصورة صحيحة حسنة النية ليس فيها عداء ولا استبطان شر عن دين لا زال يصفه كثير من الناس بما ليس فيه من عنف أو إرهاب أو مواقف هي عكس ما يدعو إليه ذلك الدين.

ومن هذه المطويات دروس من الكتاب المقدس تبين كيف نتعاون مع بقية البشر، ومع جيراننا، ومع أقربائنا، ومن هو الإنسان الطيب، ذلك الذي يعبد الله ويعمر الأرض، ويزكي النفس، ووجدنا كل ذلك قد أعد على أسطوانة ليزر (CD) ووضعت له خطة لتوزيعه بصورة تقرب أهداف هذه الرحلة، وهو أمر جديد أيضًا، رأينا فيه آثار الرحلة قبل أن ننتهي منها.

لقد زرنا مركز جمعية «آل مكتوم الإسلامية» في (دبلن) ووجدنا الجماعة الإسلامية مندمجة في المجتمع من غير أن تترك هويتها، ووجدناهم يُدَرِّس لأبنائهم في مدارس قد لاقت احترام الجميع، ووجدناهم قد أنشئوا علاقات حميمة فيما بينهم وبين أفراد المجتمع الأيرلندي.

وزرنا مكتبة «شستر بيتي» ونظر بعضنا إلى بعض وتذكرنا الكنوز التي في دار الكتب المصرية، وفي المكتبة الأزهرية، ومقارنتها بتلك التي نراها من مخطوطات، وتأسفنا لعدم قدرتنا على إبراز كنوزنا بهذه الصورة الرائقة الفائقة، ولا يسعنا إلا أن ندعو الله ونشتد في الدعاء أن يوفقنا لإبراز ما لدينا كهذه الصورة المشرفة التي رأيناها في هذه المكتبة، والتي كنت أظن أنها من أقدم مكتبات العالم، فاتضح أن «شستر بيتي» هذا إنما هو مهندس وضع مقتنياته في تلك المكتبة، وقد جاء بها في أوائل القرن العشرين من التحف التي استطاع أن يحصل عليها من الشرق الأوسط مصر وغيرها، وفوجئت أن وفاته كانت سنة ١٩٦٨م، فإذ بهذه المقتنيات القليلة التي لا يمكن أن نقارنها بما عندنا قد أصبحت أحدوثة العالم، فما الذي سيفعله العالم لو عرف ما عندنا وقدمناه إليه بهذه الصفة، وأظن الأمر لا يتعلق بقلة المال أو قلة العلم، وإنما هو يتعلق بالهمة والإرادة، فإن تنظيم هذه الكنوز يمكن أن يدر مالا يسدد ديون مصر، وينطلق بها انطلاقًا آخر، والله أعلم.

ولقد شاركت سفاراتنا المصرية مشكورة، سواء سفارتنا في لندن عن طريق السكرتير الأول الأستاذ حسام زكي، وتحت رعاية سفيرنا جهاد ماضي في الجزء الشمالي، وكذلك سفارتنا لدى جمهورية أيرلندا بحضور سفيرنا لديها السفير إبراهيم خيرت، حيث بذلوا كل جهد مشكور لإنجاح هذه المهمة.

ولعل هذه الزيارة تكون مثالا لزيارات متكررة، ولتعاون مستمر، لنقل التجربة المصرية وتصحيح المفاهيم الخاطئة، وتفعيل الحوار البناء.

نحن والآخر

انعقد في دولة الكويت مؤتمر «نحن والآخر» تحت رعاية سمو رئيس الوزراء الشيخ ناصر الصباح، نظمته وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت في الفترة من ٦: ٢٠٠٦/٣/٨، وركز المؤتمر على ما الذي يجب أن نفعله نحن قبال الآخر، وذلك بعد أن نفهم ما الذي يريده الآخر منا، وما الذي نريده من الآخر، والتركيز هنا على واجباتنا نحن لقوله ﷺ: **«ابدأ بنفسك، ثم بمن تعول»**[1].

كما أنه عالج أيضا "نحن" أي: العلاقة فيما بين المسلمين بعضهم مع بعض، وحضر المؤتمر نحو ثلاثمائة من العلماء والمفكرين والباحثين من كافة أركان الأرض، ومن جميع الدول من المسلمين وغير المسلمين، من السنة والشيعة، وخرج بتوصيات أولها: تكوين لجنة متابعة لتنفيذ قرارات المؤتمر. ولقد تشكلت فعلا وكانت أهم التوصيات هي البدء في بث فضائية باللغة العربية والإنجليزية والفرنسية تبين صحيح الإسلام، واتفق المجتمعون جميعًا على أنهم سيكونون وراء هذه القناة بجهودهم وعلمهم وخبرتهم، وأنه قد آن الأوان لأن تبدأ هذه القناة الفضائية فورًا.

ولقد قابل رؤساء الوفود سمو أمير البلاد صباح الأحمد الصباح الذي وافق على هذا المشروع من خلال دولة الكويت، وهذه القناة لازال المسلمون يتشوفون إليها ويطالبون بها خاصة في السنوات العشر الأخيرة.

١- إن هذه القناة يجب أن تقوم ببيان صحيح الإسلام، ولا تشغل نفسها بالردود ولا بالهجوم على الآخر، ويجب أن تبث باللغة العربية من أجل وحدة الداخل حتى تنصهر كل المذاهب الإسلامية والتيارات العاملة في بوتقة واحدة، وتكون وتحديات العصر كشيء واحد، بمطالب موحدة مع احتفاظ كل بمذهبه ومشربه، فإن الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية، وهذه الوحدة الفكرية الثقافية مع بقاء التعدد لم تحدث بعد وإن كانت في غاية الأهمية.

---

(١) هذا حديث مشهور أصله في الصحيحين؛ البخاري في كتاب «النفقات» باب «وجوب النفقة على الأهل والعيال» حديث (٥٣٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «**أفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول**»، ومسلم في كتاب «الزكاة» باب «الابتداء في النفقة بالنفس ثم أهله ثم القرابة» حديث (٩٩٧) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما بلفظ: «**ابدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شيء فلأهلك**».

ونحن نتذكر ما كتبه الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله تعالى - حول دستور الوحدة الثقافية عند المسلمين، والذي دعا فيه إلى ما شعر به في هذا الشأن - ولقد احتُفل بذكرى رحيله العاشرة بنقابة الصحفيين بالقاهرة يوم السبت الماضي - وكذلك باللغة الإنجليزية - وهي اللغة الأكثر انتشارًا في العالم الآن - من أجل خطاب عقل الآخر الذي يشتمل على الشرق والغرب، وإن كانت علاقتنا بالشرق علاقة بين متماثلين بخلاف علاقتنا مع الغرب الذي يرى في كثير من الأحيان أنه الحضارة الواحدة، أو من أن الحياة بنيت أساسًا على الصراع ولا تسير إلا به، أو يتبنى نظرية صدام الحضارات التي لابد فيها من غالب ومغلوب، أو لابد فيها من استعمار وهيمنة، وأن المكون العقلي لهذا التيار لن يتخلى عن هذا، وهو مخالف لجل الأديان في العالم، والتي ترى أن الأصل هو الوفاق لا الشقاق، وأن الصراع أمر حادث لكنه عارض، لا ندعو إليه في مبادئنا، بل نتعامل معه كحقيقة واقعة وليس كهدف مراد.

٢- ينبغي أن تكون هذه القناة قناة حضارة تشتمل على الجانب الإخباري، وعلى الجانب العلمي، وعلى الجانب الوثائقي، وعلى الجانب التعليمي، وعلى الجانب الفكري، وعلى دراسة التاريخ، بالإضافة إلى دارسة السياسة والجغرافيا والاقتصاد من جهة نظر المسلمين، مع تطعيمها ببرامج الثقافة الدينية، ولا تكون قناة مختصة بالشأن الديني فقط؛ من تلاوة القرآن وشرح الأحاديث وبيان أحكام الفقه الموروث ونحو ذلك، فالهدف الذي ترمي إليه ليس هو حمل الناس على الإسلام، بل بيان صحيحه حتى يفهموا من هم المسلمون، وما هو الإسلام، فيكفوا شرهم عنا، ويمدوا أيديهم إلينا لبناء الحضارة والتعاون في المشترك، مع ترك المهاترات، والقدح في المصالح، وحب الاستعلاء في الأرض.

فهناك فرق بين هذه القناة وبين كثير من القنوات العاملة التي تؤدي خدمة الدين للمسلمين - وهو أمر جليل في ذاته - ولكننا نهدف هنا إلى شيء آخر، وهو أن نجد للمسلمين قدما يضعونها في طريق مسيرة الحضارة الإنسانية في العصر الحديث.

٣- ينبغي أن نحشد لهذه القناة كل الإمكانيات، ويجب عمل وقف يضمن استمرارها واتساعها وتلبية الاحتياجات المتزايدة كل يوم بشأنها، ووضع نظام دقيق يجعل الدفع ذاتيًا، ويجب أن يشارك في هذه القناة الجهات الحكومية، وغير الحكومية، ورجال الأعمال، والمختصون، والمهتمون حتى تكون محضنًا لبناء الكوادر الإعلامية التي تخدم الإسلام كحضارة، وتخدم الإسلام كدين، وتخدم المسلمين كأمة لها تاريخها ولها واقعها، ونأمل من وزارة الأوقاف

والشئون الإسلامية بدولة الكويت أن يكون عنوان مؤتمرها القادم حول هذه الفضائية يقدم فيها الباحثون والخبراء والمختصون بحوثهم وخبراتهم وآراءهم فيها حتى إذا ما ولدت ولدت قوية، وحتى إذا ما استمرت استمرت باستراتيجية واضحة، تسير من نجاح إلى نجاح.

٤- ولقد قامت وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت في عهد وزيرها الأستاذ الدكتور عبدالله معتوق المعتوق بعمل أمانة لمشروع الوسطية، وجعلت عليه أمينًا عامًّا المفكر الإسلامي والعالم الكبير أ.د عصام البشير وزير الأوقاف السابق بدولة السودان، وهذه الوسطية - كمنهج حياة وكفكر ديني - هي التي ينبغي أن تشيع في الفكر الإسلامي الآن، وهي التي من خلالها صدر بيان عمان الذي اعترف بالمذاهب الإسلامية كلها، والذي كان بيانه الافتتاحي من فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر، والذي تأكد وتأيد في اجتماع منظمة المؤتمر الإسلامي في مكة المكرمة في شعبان الماضي سنة ١٤٢٦هـ، والذي وقعه أكثر من مائتي عالم ومرجع من مراجع الفقه الإسلامي في العالم. وهذه الوسطية هي التي ينبغي أن تكون استراتيجية هذه الفضائية.

٥- ولعلنا بذلك - إن وفقنا الله - نكون مندرجين تحت قوله تعالى: ﴿وَجَـٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾[1].

(١) الآية ٧٨ من سورة الحج.

بنك الطعام

حضرت في الشهر الماضي بدء مشروع بنك الطعام بمصر، وهو مشروع خيري لسد فجوة الجوع كما أمرنا الله سبحانه وتعالى، ووصف المتقين بهذه الصفة فقال: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾[1]، وذم ربنا صنفًا من الناس يحتجون بالقدر كي لا ينفقوا في سبيل الله ويطعموا الفقراء، فقال في شأنهم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾[2] وأمر سبحانه أهل مكة بعبادته، وامتن عليهم بأنه أطعمهم بعد جوع، فقال تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾[3].

وقال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»[4] وقد أمر النبي ﷺ بإطعام الجائع على رأس خصال الخير، فقال ﷺ: «**أطعموا الجائع، وعودوا المريض، وفكوا العاني**»[5].

والطعام من الضرورات الإنسانية الأساسية، والضرورة يعرفها الفقهاء المسلمون بأنها: ما لم يتناولها الإنسان هلك أو قارب على الهلاك، وأدون منها الحاجة، وهي إذا لم يتناولها الإنسان أصابته مشقة، ثم يذكرون بعد ذلك ثلاث مراتب

---

(١) الآية ٨ من سورة الإنسان.

(٢) الآية ٤٧ من سورة يس.

(٣) الآيتان ٣، ٤ من سورة قريش.

(٤) أخرجه ابن ماجه في كتاب «الأطعمة» باب «إطعام الطعام» حديث (٣٢٥١)، والدارمي في كتاب «الصلاة» باب «فضل صلاة الليل» حديث (١٤٦٠)، وفي كتاب «الاستئذان» باب «في إفشاء السلام» حديث (٢٦٣٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ١٤) حديث (٤٢٨٣) وصححه من حديث عبدالله بن سلام ﷺ.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب «الأطعمة» باب «قول الله تعالى: ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ﴾» حديث (٥٣٧٣)، وفي كتاب «المرضى» باب «وجوب عيادة المريض» حديث (٥٦٤٩) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

وهي: المنفعة، والزينة، والفضول؛ فالمنفعة: تجري بها عادة الناس، وليس لها علاقة بضرورة الإنسان في بقائه حيًّا أو مشقته أثناء الحياة، والزينة أعلى من ذلك، أما الفضول: فهو بوابة الإسراف المنهي عنه، فهو في ذاته مباح، ولكن يمكن أن ينهى عنه إذا دخل في حد الإسراف.

وهذا التقسيم التفصيلي الذي نراه عند الفقهاء المسلمين لم أره عند علماء العلوم الاجتماعية والإنسانية؛ حيث يسمون الضرورة بالحاجة الحرجة، ويسمون الحاجة بكلمة الحاجة أيضًا، ويقصدون بالحاجة الحرجة: الطعام، وترى هذا في علوم الغذاء والتغذية، ويقصدون بالحاجة كل ما يحتاجه الإنسان من مسكن وكساء وغيرها، ولعل تقسيم الفقهاء يزيد من دراسة المشكلة الاقتصادية عند الاقتصاديين؛ حيث يعرفونها بأنها: كثرة الحاجات مع قلة وسائل الإشباع نسبيًّا، وعدم التفصيل بين الضرورة والحاجة بهذا الشأن ولد خلطًا في تصنيف الغرائز حيث سموها بالحاجة، وعاملوها وكأنها ضرورة مرة، وأنها غير ضرورية مرة أخرى.

ومفهوم الطعام عند المسلمين في تراثهم يتمثل في: القوت، والفاكهة، والإصلاح، والدواء؛ ويقصد بالقوت: ما يحتاج إليه الإنسان ليقوم جسمه من غير مرض، ومثلوا له بالبلح والعنب والحبوب كالقمح، والشعير، والفول، والذرة. ويقصد بالفاكهة: الخضروات والفواكه بمفهومها الزراعي في عصرنا هذا، والإصلاح ويقصد به: الملح والبهارات ونحوها، وهي تصلح الطعام وتجعله أكثر استساغة حتى يقبل عليه الإنسان. والدواء: ما يؤخذ للعلاج، والماء والسوائل تدخل في مفهوم الطعام أيضًا؛ لأنها تؤخذ عن طريق الفم الذي يقوم بالطعم، ولذلك فإنني أرى أن بنك الدواء ينبغي أن يكون جزءًا من المشروع، ولكن بعد استيفاء شروط التعامل مع الدواء حيث إن التعامل معه له شروط تفوق التعامل مع سائر الطعام.

والطعام وهو أحد الأساسيات الثلاثة للإنسان، وفتح بنك له هو أول خطوة في المشروع الأكبر الذي يشمل الكساء، ثم السكنى، والذي يقضي حينئذ على ظاهرة أولاد الشوارع التي ملأت العالم وبدأت تسري عندنا، والتي هي سبة في جبين البشرية؛ خاصة من دان بالإسلام "دين الرحمة والتكافل".

والطعام هو أساس حساب احتياجات الإنسان؛ حيث إنه يمثل ٤٠% من الدخل غالبًا في أي مستوى من المستويات الثلاث وهي: مستوى الكفاف، ومستوى الكفاية، ومستوى الكفاءة، وهذه مستويات المعيشة الثلاث لها علاقة بتحديد مستحق الزكاة، فالزكاة تعطى لمن هو دون مستوى الكفاف حتى يصل إلى مستوى الكفاية، ويمكن تحويل هذا النظر في أرقام تختلف قطعًا باختلاف البلد، وباختلاف الأزمان، وباختلاف الأعراف السائرة بين الناس.

فمستوى الكفاف: هو ذلك القدر الذي يقوم به الإنسان بحاجاته الأساسية، والطعام هو البداية؛ لأنه على مستوى الضرورة، ويحسب ذلك طبقًا لعلم التغذية بحاجة الإنسان بالسعرات الحرارية، وبشكل يتكون فيه الطعام اليومي في صورة وجبات ثلاث أو أربع، ومن المجموعات الغذائية المختلفة من نشويات وبروتينات وسكريات وفيتامينات وأملاح ومعادن ونحوها من المجموعات التي تراعى عند تكوين الطعام حتى لا يصاب الإنسان بالأمراض.

فالبالغ من الرجال يحتاج نحو ٣ آلاف سعر حراري يوميًا، ومن النساء نحو ألفي سعر، والطفل يحتاج ١٥٠٠ سعر في تفاصيل وجداول في علم التغذية، والسعر الحراري هو مقدار الطاقة اللازمة لرفع ١جم ماء مقطر من درجة حرارة ١٣,٥ْ (درجة مئوية) إلى ١٤,٥ْ (درجة مئوية)، ولكل نوع من أنواع الطعام قدر من السعرات الحرارية تحسب بواقع وحدة ١٠٠جم، تمد الجسم بهذه الاحتياجات.

ويمكن للوجبة الرخيصة أو المتوسطة أو الغالية أن تحدد تكلفة الطعام اليومي للفرد، وللأسرة النووية (وهي الأسرة التي تتكون من زوج وزوجة وطفل) فإذا زادت الأسرة في عددها فبحسابه.

وفي بعض البلدان تكون تكلفة السكن مرتفعة؛ بحيث إنها تحسب سنويًا لحالها دون أن تدخل في هذه المعادلة.

أما حد الكفاية، فيضاف إلى ما سبق مسألة التعليم، ومسألة العلاج، ومسألة الأمن الاجتماعي، ومسألة الأنشطة من رياضة، وفنون وآداب.

أما حد الكفاءة فيضاف إلى ما سبق بناء ملكات والتدريب عليها؛ كإتقان اللغات والرياضة الترفيهية والمشاركة الاجتماعية والسياسية، ذلك ونحن نعطي من الزكاة من كان في حد الكفاف حتى نصل به إلى حد الكفاية، ونعطي أعلى حد الكفاية حتى يصل إلى حد الكفاءة من الصدقة؛ حيث إن الزكاة لا تجوز لغني، ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ، أما الصدقة فتجوز للغني.

ولقد وضعت الأمم المتحدة وهيئات الغذاء والأدوية العالمية دراسات حول كل ذلك، أرجو أن تدخل في تدريس مناهج الزكاة عند المسلمين؛ لفهم كلام التراث الإسلامي بعمق، وحتى نرى كيف أن هذه الحضارة التي بنيت على ذلك الدين كانت حضارة إنسانية راقية، ونأمل أن تستمر على ذلك، وما ذلك على الله ببعيد.

(٣-١) أزمة الدنمارك

بمناسبة معرض الكتاب، والأزمة الحاصلة الآن بين العالم الإسلامي وبين الغرب للإساءة لسيدنا رسول الله ﷺ، أردت أن أكتب شيئًا حول الفرق بين حرية الرأي، وحرية التعبير، وعلاقة ذلك بالمبدأ الديمقراطي، وبالإسلام.

فليس فقط الدين مختلفًا، والعقلية مختلفة، والتاريخ مختلفًا، والثقافة مختلفة، بل أيضًا التناول مختلف، ورأيت أنَّ فتح هذا الباب في غاية الأهمية، ونحن ندعو إلى بناء جسور الحوار والتفاهم بين البشر، وأن هذه الاختلافات في لغة الحوار وفي المفاهيم تعد عقبة شديدة تهدم كل ما نبني، وتعطِّلنا كلما انطلقنا، وتُغَبِّش الهدف الذي نريد أن نصل إليه.

وكنت أتمنى أن تكون المساحة التي أكتب فيها اليوم أكبر من ذلك؛ حتى أستطيع الوصول إلى عقل القارئ بصورة متكاملة عن هذه القضية الحساسة، ولكن ليس كل ما يتمنّاه المرء يناله.

١- كِتاب «الديمقراطية في أمريكا»، وهو من جزأين تأليف «ألكسيس توكفيل» وترجمة وتعليق: الأستاذ أمين مرسي قنديل، طبع عالم الكتب، وطبع فيها ثلاث طبعات آخرها سنة ١٩٩١م، وكانت هذه الترجمة عن الطبعة السادسة عشرة، والتي أعدها وعلق عليها «آندريه جاين» وحظي هذا الكتاب بتصدير من الدكتور محسن مهدي، أستاذ الدراسات العربية بجامعة «هارفارد» وهو كتاب مهم للغاية؛ فقد ألَّفه صاحبه في أوائل القرن التاسع عشر بالفرنسية، ونُشر في أمريكا في سنة ١٨٦٢م بترجمة إنجليزية، ثم تراه يُنشر حتى يومنا هذا؛ ولذلك فهو من قبيل الكتب الأساسية الشارحة لتلك الأصول التي نبحث عنها لفهم لغة الآخر، ومكوِّنات عقليته، وهو الأمر اللازم لتحليل المضمون وقراءة الأحداث، وأهم من ذلك كله كيفية التعامل.

معرض الكتاب ذكَّرني بذلك الكتاب، ولا أدري إذا كان ما زال موجودًا في الأسواق أم أن نسخه قد نفدت، لكنه ذكرني أيضًا بكثير من الكتب الأساس، التي يجب علينا أن نطَّلع عليها بعد أن أصبحنا في قرية واحدة، أو في بحر واحد نشعر بالأمواج فيه سويًّا، وبدرجة واحدة.

٢- في ذلك الكتاب يقول: إن أساس الديمقراطية هو السعي إلى المساواة، وإن هذا يُحدِث مشكلة يواجهها كهنة الديمقراطية والداعيين إليها مع الحرية ومفهومها، فهناك حرية الرأي والاعتقاد، وهناك حرية التعبير، وإن حرية الرأي والاعتقاد مكفولة لكل أحد منذ مذهب التجاريين. وكلام «آدم سميث»: «دعه يعمل دعه يمر»، وإن هذا يقتضي تلك القضية، وهو ما لا نجد فيه بأسًا في الدين الإسلامي، الذي قرر حرية العقيدة في أجلى صورها، وأخَّر المحاسبة عليها إلى يوم القيامة، وليس في الحياة الدنيا، فقال تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾[2]، وقال: ﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾[3].

أما حرية التعبير فسوف تتقاطع مع عقائد الآخرين من جهة، ومع المساواة من جهة أخرى، وإذا كانت هذه مشكلة عند كهنة الديمقراطيين من أول القرن التاسع عشر، فالعجيب أنها ما زالت مشكلة ونحن في القرن الحادي والعشرين.

بالرغم من أنهم قرروا بوضوح في كتبهم فقالوا: إن هناك رؤيتين للحرية: الأولى مرفوضة، وهي ترى التحرر من القيود والضوابط جميعها، بحيث يستطيع أن يفعل الإنسان كل ما يريد، وهو الأمر الذي يُحَوِّل الاجتماع البشري إلى فوضى عارمة لا يمكن تصورها فضلا عن قبولها. والثانية: ترى أن الحرية تعني استقلال الإرادة والحرية في التعبير بما يتلاءم مع الاجتماع البشري، والالتزام بالضوابط التي يتفق عليها جماعة البشر؛ كالضوابط الدينية والأخلاقية والعرفية التي يتصالح عليها المجتمع. والحرية بهذا المنظور توجَّه على أنها الوجه الآخر من المسئولية، فقبل أن يعلم الإنسان أنه يتمتع بالحرية يعلم أنه مسئول عن تلك الحرية وتلك الاختيارات والأقوال والأفعال أمام المجتمع البشري الذي يعيش به.

وبذلك يتبين لنا أن تقييد حرية الفرد من مقتضيات قيام المجتمع الإنساني، خاصة مع تشابك المصالح واختلاف الأهواء، وتظل الحرية معنى نسبيًا يتفاوت بتفاوت الزاوية التي يُنْظَر منها إليها، حتى لو تحدد نطاقها وأعطيت وصفًا

(١) من الآية ٢٩ من سورة الكهف.
(٢) من الآية ٢٥٦ من سورة البقرة.
(٣) من الآية ٨٠ من سورة النساء.

معينًا - سياسيًا أو اقتصاديًا أو دينيًا .. إلخ - فقد يكون المقصود الحرية من قيد معين بالمعنى السياسي، أو الحرية بقصد تحقيق غرض معين بالمعنى الاجتماعي.

٣- بعدما تسافلت الصحيفة الدنماركية ونشرت ما نشرت من الإساءة إلى سيد الأكوان ﷺ، رأينا صحيفة نرويجية تفعل مثل ذلك، ثم في فرنسا، بدعوى أنهم يريدون اختبار هذه المسألة، ولكنهم عرضوها بطريقة ساذجة فجة، وليست بنفس الطريقة التي تكلم عنها «ألكسيس توكفيل» الفرنسي الأصل في كتابه المشار إليه.

وهذا يبين لنا أن الرصانة والتفكير المستقيم قد انسحب من عند جمهور الغوغائيين، وهي سمة من سمات العصر، نسأل الله اللطف بنا فيها.

٤- حرية التعبير عند فقهاء المسلمين حرية ملتزِمة، لا يجوز العدوان على مقدسات الآخرين، وحتى لو عبدوا الوثن، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٠٨ ﴾[1]. وقال تعالى في صفات عباد الرحمن: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨٦ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ٨٩ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٣ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥

(١) الآية ١٠٨ من سورة الأنعام.
(٢) من الآية ٦٣ من سورة الفرقان.
(٣) من الآية ٨٣ من سورة البقرة.

ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾[1].

وهذه الآيات يجب أن تكون أساس التعامل في هذه الأزمة؛ لأنها هي الإشارات الربانية المعصومة من الهوى والزلل والقصور والتقصير، يجب علينا أن نتأملها، وأن نستخرج منها قاعدة لإدارة الأزمات. (يتبع).

(١) الآيات ٨٥: ٩٩ من سورة الحجر.

(٢-٣) أزمة الدنمارك

وها قد أكدت الأحداث الأليمة صحة رؤيتنا في المقالة السابقة لوجوب استخلاص قاعدة لإدارة الأزمات، فإذ بنا نرى من يحرق السفارات في ثورة عاطفية جامحة استوجبت تقديم الاعتذار من بعضنا، وفي هذا ما لا يخفى من إضعاف قضيتنا، ومن التفريط في أي مكاسب يمكن أن نكون قد توصلنا إليها في شهور عدة.

وهيا بنا مرة أخرى نتجاوز الأحداث الأليمة؛ لأننا في الحقيقة ننظر إلى المستقبل ونريد أن نؤسس إدارة للأزمات تشتمل على محاولة عدم الوقوع فيها أصلا، وعلى منعها قبل حدوثها.

١- والتفكير المنطقي يجعلنا ندرس الحالة الراهنة ونحاول أن نتلمس أسباب هذه الأزمة بشيء من الإنصاف، وأرجو أن لا تمر كلمة الإنصاف بصورة عابرة، بل هي مكوِّن من مكونات العقل المسلم، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[١]، ويقول رسول الله ﷺ: «ابدأ بنفسك، ثم بمن تعول»[٢]، ويقول: «يبصر أحدكم القَذَاةَ في عين أخيه، وينسى الجِذْعَ في عينه»[٣]، وسنبدأ برؤية القذاة في عين الآخر، ثم بعد ذلك ننتقل إلى جذع النخلة الذي في أعيننا.

٢- مناهج التعليم في الغرب تشوِّه صورة الإسلام والمسلمين، سواء في التاريخ الإسلامي، أو التشريع، أو العقيدة، أو الواقع، أو في مصادر الإسلام، بصورة تولِّد الكراهية عند الأطفال الغربيين للإسلام والمسلمين، ولقد قام البروفسور «عبدالجواد فلاتوري» - رحمه الله تعالى - ومعه مجموعة بَحْثِيَّةٍ بدراسة مفردات تلك الصورة المشوَّهة للإسلام

(١) من الآية ٨ من سورة المائدة.

(٢) هذا حديث مشهور أصله في الصحيحين؛ البخاري في كتاب «النفقات» باب «وجوب النفقة على الأهل والعيال» حديث (٥٣٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «**أفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول**»، ومسلم في كتاب «الزكاة» باب «الابتداء في النفقة بالنفس ثم أهله ثم القرابة» حديث (٩٩٧) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما بلفظ: «**ابدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شيء فلأهلك**».

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» ص٢٠٧ حديث (٥٩٢)، وابن حبان في «صحيحه» (١٣/ ٧٣) حديث (٥٧٦١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

والمسلمين في المناهج الدراسية في الغرب، خاصة في ألمانيا، وكان نتاج تلك الدراسة ثمانية مجلدات حصر فيها كل هذه الصور، وطبعتها له جامعة «كولن» بألمانيا في أواخر الثمانينيات وحتى بدايات التسعينيات، وهي موجودة حتى الآن تُباع في الأسواق، ثم جعل لها ملخصا باللغة العربية، ويمكن اعتماد هذه الدراسة العلمية التي انبثقت من الواقع في مطالبة الغرب والاتحاد الأوربي بوجوب تصحيح صورة الإسلام والمسلمين في المناهج التعليمية الغربية، وهكذا سيسري إلى أمريكا أيضًا ثم إلى سائر العالم.

وهذا التصحيح قد بُذلت فيه محاولات عدة لكنها باهتة؛ مما أدى إلى ترسيخ الصورة السيئة في أذهان الغربيين، وهو ما يخالف كل المواثيق الدولية لحقوق الإنسان وكلَّ القوانين الدولية التي استقرت على عدم التمييز العنصري أو العرقي أو الديني، وقامت علاقتها على أساس من حرية العقيدة والعمل والانتقال وحرية الرأي.

٣- ومن القذاة التي في أعينهم بعض القوانين سيئة السمعة التي تحاصر المسلمين في عقائدهم أو عباداتهم، وآخرها ما حدث في فرنسا في قضية الحجاب، وينبغي الدعوة إلى تنقية هذه القوانين؛ لأنها تخالف دساتير هذه البلاد، وذلك عن طريق تحريك الدعوى القضائية والسياسية في هذا المجال.

٤- وبخصوص الحالة الدنماركية فإن القانون الدنماركي ينصّ في مادته رقم ١٤٠ على أنه: «في حالة قيام أي شخص بالسخرية أو الاستهزاء العلني بتعاليم أو مبادئ أي شخصية دينية معترف بها رسميًّا يُحكم عليه بالغرامة أو عقوبة الحبس لمدة قد تصل إلى أربعة أشهر».

كما تنصّ المادة ٢٦٦ب على الآتي

١- في حالة قيام أي شخص بنشر أو السعي إلى نشر جملة أو قول يهدد أو يهين أو يشوّه سمعة أو يسبُّ جماعة من الناس على أسس تمس عرقهم أو لونهم أو جنسيتهم أو جذورهم العرقية أو معتقداتهم أو جنسهم يُحكم عليه بالغرامة أو عقوبة الحبس لمدة قد تصل إلى عامين.

٢- عند توزيع العقوبات، يؤخذ في الاعتبار صفة المؤسسة الناشرة كأحد عوامل إثارة الفتنة.

٣- فإذا رفع المسلمون دعوى إلى القضاء الدنماركي في أزمة الرسوم فرفض القاضي الاستماع، فإنه يفعل ذلك لأحد أمرين؛ لأنه لا يعترف بأن الإسلام دين، وهو ما يخالف الحالة الدنماركية، وإما أن يكون منكرًا للعدالة، وهي جريمة في القانون الدولي. فتأمل.

٤- وكذلك من مكونات القذاة في عينهم قضية العزل والتهميش للجماعات المسلمة، وهي في مقابلة قضية الاندماج، وهو موضوع متشعب جدير بالدراسة تلعب فيه التفرقة العنصرية دورًا كبيرًا، كما أنه أيضا تلعب فيه ثقافة المسلمين دورًا سلبيًّا مقابلا.

٥- ومن القذاة أيضًا عدم السماح بأي جزء أو مساحة من الإعلام حتى يعرِض المسلمون أنفسهم، كما أتيح لهم شيء من ذلك - ولو بصورة قليلة - في أستراليا، حيث سُمح لهم بإنشاء الصحف والإذاعات، وبمساحات في الإعلام بكافة وسائله تمكنهم من أن يشرحوا أنفسهم، وهذا يهيئهم لعملية الاندماج، ويذيب كثيرًا من الثلوج التي ينشئها التعصب والتمييز.

إن عدد المسلمين في الدنمارك أكثر من ٢٠٠ ألف دنماركي، بعضهم من الدنماركيين الأصليين، وأغلبهم من المهاجرين، وطبقًا لسجلات الأزهر الشريف - ومنذ سنة ٢٠٠٢م وحتى نهاية سنة ٢٠٠٥م - أسلم من دولة الدنمارك وحدها من السكان الأصليين نحو أربعين شخصًا، وهو عدد كبير بالنسبة لدولة لا يتجاوز عدد سكانها خمسة ملايين.

٦- يجب على المسلمين أن يستفيدوا من هذه المحن، بنقلة نوعية تؤدي إلى معيشتهم بصورة أكثر مشاركة في الحضارة الإنسانية، وبمستقبل أكثر استقرارًا وأمنًا لهم وللعالم كله، ومن أجل ذلك - ومن خلال التفكير العقلي المنطقي - يجب عليهم أن يستعملوا كل الوسائل المتاحة لهم، فنُذَكِّر المنظمات التي تقوم الآن بمحاولات دولية لاستصدار القوانين وقرارات لحماية المسلمين من العدوان بما نصتْ عليه المادة ٢٠ من العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية من أنه: «تمنع - بحكم القانون - كل دعوى للكراهية القومية أو العنصرية أو الدينية، والتي من شأنها أن تشكل تحريضًا على التمييز أو المعاداة أو العنف».

وأكدت الجمعية العامة للأمم المتحدة في القرار رقم ٥٩ (د-١) المؤرخ ١٤ ديسمبر ١٩٤٦م، من أن: «أحد العناصر التي لا غنى عنها لحرية الإعلام توافر الإرادة والقدرة على عدم إساءة استعمالها، والالتزام الأدبي بتقصي الوقائع دون تعريض، ونشر المعلومات دون سوء قصد».

هذه هي القذاة، فإنها قذاة ضخمة تحتاج إلى عمل كثير، فما هو إذن جذع النخلة الذي في أعيننا. (يتبع).

(٣-٣) أزمة الدنمارك

الذي تعلمناه من دين الإسلام أنه دعوة عالمية، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[٢] ومعنى هذا أننا أمة دعوة، ومقتضى الدعوة تبليغها بصورة لافتة للنظر، وعرضها على الناس، بشروط قد حددها الله سبحانه وتعالى؛ أول هذه الشروط هو: حرية العقيدة وعدم الإكراه عليها، قال تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾[٤]، وقال تعالى:﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾[٨].

ومن شروط الدعوة أن تكون بالحكمة، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾[٩]، ومن شروطها أن تكون على بصيرة، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾[١٠]، ومن شروطها أن تكون شفافة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ

(١) الآية ٢٨ من سورة سبأ.
(٢) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.
(٣) من الآية ٢٩ من سورة الكهف.
(٤) الآية ٦ من سورة الكافرون.
(٥) من الآية ٢٥٦ من سورة البقرة.
(٦) الآية ٢٢ من سورة الغاشية.
(٧) الآية ٥٦ من سورة القصص.
(٨) من الآية ٤٨ من سورة الشورى.
(٩) من الآية ١٢٥ من سورة النحل.
(١٠) من الآية ١٠٨ من سورة يوسف.

ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾[1]، فجعل كتم البينات والهدى من الكبائر التي تؤدي إلى الفساد في الدين، وإلى الأذية والضرر في الخلق؛ ولذلك استوجبت لعنة الله، دلالة على أنها من الذنوب الكبائر، ولعنة اللاعنين الذين يتأذون بذلك في الحياة الدنيا. ولكن من رحمة الله سبحانه وتعالى أن فتح باب الرجوع والعودة للإصلاح فقال بعدها: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾[2].

١- تكشف أزمة الدنمارك على أننا قد قصرنا في عرض ديننا بصورة لافتة للنظر، وهذا يستلزم منا مجهودًا علميًّا ودعويًّا يتجاوز ما نحن عليه الآن بصورة جذرية، ولقد نشأت في جامعة الأزهر والحمد لله رب العالمين كلية اللغات والترجمة، وخرجت كثيرًا من الأجيال، ولكننا نحتاج إلى المزيد من هذا التوجه بإرسال البعثات من الأزهر الشريف للدراسة في الغرب، وتقبل بعثات الآخرين إلينا وهو ما شرعت فيه جامعة الأزهر بالفعل.

٢- تفعيل دور الخريجين من هذه الكليات للعمل بالمراكز الإسلامية بالخارج، مع إتاحة الفرصة لهم للمعيشة في هذه البلاد بصورة مستمرة؛ لأن اللغة لا تكتسب، وهي كالكائن الحي لا تنمو إلا بطول المراس والمعاشرة، والاطلاع على دقائق العقلية وكيفية الخطاب، ولابد من أوضاع مستقرة لهؤلاء الأئمة يمثلون فيها بحالهم قبل أقوالهم الإسلام، وكثيرًا ما نرسل هؤلاء الأئمة، ثم نسحبهم بعد أربع سنوات أو خمسة وهي أزمان لا تكفي للتفاعل والأداء الحسن الذي نرجوه.

لابد من إنشاء مرصد تكون مهمته الرصد والتحليل لكل ما يكتب وينشر ويذاع عن الإسلام في الخارج باللغات المختلفة، ومناقشته وتجهيز البيان الواضح بإزاء تلك القضايا وعدم ترك الأمور تتراكم حتى تصل إلى حد الانفجار، فقد يكون إنشاء قناة فضائية تتكلم بالإنجليزية خاصة أمر في غاية الأهمية، وهو ما لم يتم حتى الآن بصورة تتناسب مع العصر الذي نعيش فيه.

٣- نريد بصورة مستمرة عمل مؤتمرات الحوار والذي يدعى فيها رجال الصحافة والإعلام في كل مكان، وتتم المناقشات حول المصطلحات والصور الذهنية التي تتعسف مع الإسلام والمسلمين فيما يسمى (بالإسلام فوبيا).

---

(١) الآية ١٥٩ من سورة البقرة.

(٢) الآية ١٦٠ من سورة البقرة.

٤- عمل مناهج متخصصة ودراسات عليا لدراسة الخلاف الحضاري بين الشرق والغرب، وطرحها للحوار مع كافة المؤسسات الفكرية والإعلامية والجامعية والثقافية، وعدم حصر ذلك في النطاق الأكاديمي.

٥- تفعيل الاتفاقات القائمة بين جامعة الأزهر وسائر الجامعات والمؤسسات العالمية، وهي كثيرة - والحمد لله، ولكن تحتاج إلى مزيد من العمل والجهد.

٦- إنشاء مراكز للترجمة والنشر من العربية وإليها؛ للاطلاع على خلاصات التراث الإسلامي، ومكونات العقل المسلم، وعلى كيفية الاستفادة من التراث الإنساني، والتواصل بيننا وبين العصر - خاصة في مجال البحث العلمي - وبيان أخلاقيات هذا البحث ونظر الإسلام إليه، وكيفية نقل التكنولوجيا اختراعًا وإبداعًا، وليس استهلاكًا وتقليدًا، مع الحفاظ في نفس الوقت على الهُوية؛ وهي أمور تحتاج إلى مزيد من التفكير، وإلى مزيد من تطوير القوانين، وإلى مزيد من المشاركة الفعالة.

هل نرى في يوم من الأيام مجلة تصدر بالإنجليزية يكون لها توزيع عالمي، تشرح للناس من هم المسلمون، في تاريخهم وفي واقعهم، في أفكارهم وفي عقائدهم؟

أتعرف كم يتكلف هذا البرنامج من أموال؟ أتعرف كم يحتاج من فرق عمل ذات كفاءة عالية في تخصصات مختلفة؟ أتعرف أن الانشغال بهذا البرنامج بدلا من كثير من اللغو الذي نحياه، ومن التوجهات الفكرية والصورة الذهنية لكثير من المسلمين عن الإسلام نفسه - يحتاج منا إلى تحولات جذرية وتغيرات في طريقة التفكير وفي المسائل المطروحة التي تشغل الذهن المسلم والتي اختزل الدين فيها؟ أتدرك الآن مع هذه النقاط البسيطة أن جذع النخلة في أعيننا،أم أنه قد صدق فينا قول الإمام الشافعي:

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا
ونهجو ذا الزمان بغير ذنب ... ولو نطق الزمان لنا هجانا
وليس الذئب يأكل لحم ذئب ... ويأكل بعضنا بعضا عيانا

أم أننا قد دخلنا في نطاق قول المتنبي:

أغاية الدين أن تحفوا شـــواربكم   يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

فمثل هذه الأزمات تحتاج إلى إدارة واعية، يمكن أن نلخصها في كلمات، ثم نفصل القول فيها فيما بعد؛ إدراك الواقـــع على ما هو عليه، والحكمة في معالجة الأمور، واعتبار المقاصد والمآلات، والاستفادة من الأزمة لما بعدها، والعمل على عدم تكرارها، وكسب أرض جديدة منها؛ حتى تكون المحنة منحة.

عطف الألف المألوف على اللام المعطوف

هذا عنوان كتاب لأبي الحسن الديلمي من رجال القرن الرابع الهجري، فهو نص قديم منذ أكثر من ألف عام يتناول مسألة الحب الإلهي والحب بوجه عام، فيقارب مقاربة بارعة ويدرس درسًا مستوعبًا ويحلل بدقة ظاهرة الحب.

١- أبو الحسن الديلمي هو عالم صوفي سني، وهو مجهول تاريخ الميلاد والوفاة ولكنه عاش أكثر أعوام حياته - إن لم يكن كلها - في القرن الرابع الهجري، وتربى في مدرسة شيخ شيراز الكبير أبي عبدالله محمد بن خفيف الذي توفي عام (٣٧١هـ= ٩٨٢م) وكان الديلمي قد التقى بابن خفيف سنة ٣٥٢هـ ومكث معه عشرين عامًا يتلقى منه الأخلاق الكريمة بتربية صافية قد افتقدناها في حياتنا الثقافية والروحية - نرجو الله أن تعود - ولقد تتلمذ العلامة ابن خفيف - أستاذ الديلمي - على شيخ الشافعية ابن سريج المتوفى عام (٣٠٦هـ)، ودرس العقيدة على الإمام أبي الحسن الأشعري المتوفى عام (٣٢٤هـ)، ولبس خرقة التصوف على يد شيخه رويم وهو أبو الحسن رويم بن أحمد وقيل: ابن محمد بن يزيد بن رويم البغدادي شيخ الصوفية توفي عام (٣٠٣هـ)، وصحب الجريري المتوفى عام (٣٤٤هـ) وأبا العباس بن عطاء المتوفى عام (٣٠٩هـ)، وكان صديقًا للحلاج عام (٣٠٩هـ)، ولكنه نصح مريديه أن يسلموا له حاله ولا يقتدوا به في شطحاته.

٢- كتب الديلمي سيرة شيخه ابن خفيف، وقد فقدت النسخة الأصلية التي كتبها بالعربية، وبقيت النسخة المترجمة إلى الفارسية والتي ترجمها ابن جنيد الشيرازي، ونشرت بتركيا عام ١٩٥٥م على يد الأستاذة المنصفة الألمانية «أنا ماري شيمل» ثم نقلها إلى العربية عن نشرة أنا ماري الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا - رحمه الله - في القاهرة عام ١٩٧٧م.

٣- ورث الديلمي عن شيخه ابن خفيف مذهبه الفقهي فكان شافعيًّا، ورأيه الاعتقادي فكان أشعريًّا، ومشربه الصوفي المعتدل، واهتمامه العميق بموضوع (المحبة)، ونزعته القوية إلى السياحة والرحلة، وعاش بين فارس والعراق وغيرهما من أقطار العالم الإسلامي، في هذا القرن الزاهر التي بلغت فيه الحضارة الإسلامية أوج ازدهارها، إلى أخريات القرن الرابع، كما صحب الفيلسوف أبا حيان التوحيدي المتوفى سنة (٤٠٠هـ)، وروى عنه في كتاب «العطف»، والطبيب أبا عبدالله البيطار المتوفى سنة (٣٨٣هـ) والعديد من شيوخ الصوفية، وكتب خمسة مؤلفات

لم يصلنا منها إلا كتاب «العطف» الذي نتكلم عنه، وترجمة كتاب «السيرة» الذي كتبه في سيرة شيخه والذي ذكرناه آنفًا.

وقد ترك الديلمي ومؤلفاته - خاصة كتابه «عطف الألف المألوف على اللام المعطوف» - أثرًا واضحًا في التقاليد الروحية لمدرسة شيراز الصوفية، من خلال الشيخين البارزين ابن بكران الشيرازي الذي روى كتاب «العطف» عن الديلمي، ثم المقاريضي المتوفى (٥٠٩هـ) الذي رواه عن ابن بكران - حسب السند المثبت على المخطوطة الوحيدة الباقية من الكتاب في مكتبة جامعة توبنجن بألمانيا - ورواها من بعدهما الصوفي الشهير «روزبهان البقلي الشيرازي» المتوفى سنة (٦٠٦هـ) الذي تمتلئ مؤلفاته الثلاثة المتداولة: «مبهر العاشقين»، و«شرح شطحيات»، و«مشرب الأرواح» بالاقتباسات والنقول عن كتب الديلمي، وبخاصة كتابه «عطف الألف المألوف على اللام المعطوف».

وقد يبدو عنوان الكتاب غريبًا، وهو نتاج تقليد متداول حينذاك في التعبير الرمزي عن علاقة الخالق ﷻ بخلقه؛ وهي علاقة المحبة والتعاطف؛ فالألف رمز للذات الإلهية التي هي معدن الحب الحقيقي والجمال الخالص، واللام - عندهم - رمز للوجود الإنساني أو الكون الجامع المتمثل في آدم أو الإنسان، والعلاقة المتبادلة بين الجانبين يرمز لها بالألف واللام أو اللام ألف (لا) التي هي علاقة الألفة والتعاطف والمحبة في أكمل صورها وأصفاها، وهي التي تتجلى في نفوس العارفين، وتملأ حقائقها أفئدتهم حين يجذب الرب زمام إرادة العبد إليه - وذلك هو العطف - فيشغله به عما سواه، وإن كان يتذوق في الوقت نفسه مظاهر الجمال في كل شيء، ويعيش الحب بمستوياته وأبعاده الكونية المتعددة، والحب دوما هو للحبيب الأول سبحانه، والحنين إنما هو لأول منزل في الجنة كما قال أبو تمام:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدا لأول منزل

٤- لقد بقيت هذه الدرة الثمينة في أصدافها، حتى كشف عن جوهرها باحث فرنسي هو الأستاذ «فاديه» فأخرج الكتاب للناس أوائل الستينيات من القرن الماضي بالقاهرة دون تحقيق علمي للنص العربي، ثم أصدر ترجمة فرنسية له في مطلع الثمانينيات، ثم اشتغل الباحثان الأمريكي «جوزيف بل» - أستاذ اللغة العربية بجامعة برجن بالنرويج - والمصري الدكتور «حسن الشافعي» - الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة وعضو مجمع اللغة العربية وهو مجمع الخالدين بمصر، ورئيس الجامعة الإسلامية بباكستان سابقا - بترجمة الكتاب إلى الإنجليزية فتوافرت لخدمة

نصه النفيس خبرات تعرف طبيعة الموضوع في أبعاده الروحية ولغته الفنية ومضامينه الفكرية بشكل عميق، ثم في حساسية التذوق والتعبير عن ذلك كله في ترجمة إنجليزية رائقة صافية كما يقول النقاد المتخصصون.

٥- ويبدأ المؤلف كتابه - بعد المقدمة - بالخطة التفصيلية للموضوعات، ثم يقدم استدلاله على جواز إطلاق وصف العشق والمحبة على الله تعالى، ثم يتحدث عن الجمال وارتباطه بالحب وفضله وفضل المحب والمحبوب والحب، ثم يورد بابًا رابعًا عن سر التسمية وأصل كلمتي الحب والعشق في العربية مزاوجًا بين أقوال اللغويين وتأويلات الصوفية.

وبعد ذلك يدخل المؤلف في صميم الموضوع فيفرد بابًا للكلام في المحبة، فيوضح أصل الحب وماهيته، ويبين الخلاف في حقيقته ومنبعه، ووصفه، ويبين الحب الممدوح، ويفصل في منكري الحب، ثم يتكلم عن أثر الحب وعلاماته، وآراء المحبين في علامات الحب والعشق، وتقسيم الحب إلى أنواع كحب الله للعبد، وحب العبد لله، وحب العباد في الله، ويتكلم عن علامات كل قسم من هذه الأقسام، ثم يتكلم عن حب الخواص وحب العوام وحب كل ذي روح من إنسان وحيوان وطير.

ويختم كتابه بالحديث عن كمال الحب ويذكر أخبار موت المحبين الإلهيين من الأنبياء والأولياء - سلام الله ورضوانه عليهم أجمعين - وقد يعجب القارئ لهذا الكتاب الذي مضى على تأليفه أكثر من ألف عام، لما يتسم به من طابع صوفي ونزعة روحية بطبيعة الحال يتدفقان في طرافة محببة، وبساطة موحية، ممتزجا بمشاعر حميمة، وملاحظات دقيقة، تنم عن نفس نبيلة، وعقل متفتح، وتأمل طويل، وذات تكاد تختلط بطبيعة الموضوع.

٦- لا نشك في أن سيكون لهذه الترجمة الإنجليزية من هذين العالمين الجليلين الأثر الحميد - بإذن الله - في تجاوب العقول المنصفة والقلوب النزيهة في الغرب، مع هذا الخطاب الموضوعي المعبر في تلقائية وصدق عن حقيقة ديننا وثقافتنا، بعيدًا عن الخطاب الاعتذاري واللهجة الدفاعية التي قلما تستهوي تلك العقول والقلوب.

ولئن كانت الترجمة الإنجليزية قد صدرت - بحمد الله - في ثوبها القشيب في «إدنبرة» خلال الأشهر الأخيرة من العام الماضي واسمه بالإنجليزية (**A Treatise on Mystical Love**) فعسى أن يصدر النص الأصلي العربي عما قريب، وقد أنجزه الباحثان على نهج علمي بمقدماته وفهارسه، وتدقيقاته وتعليقاته الخصبة الغنية - بإذن الله - في القاهرة على نحو يليق بعاصمة الثقافة العربية، فتتعانق الجهود، وتتعاطف القلوب على الضفتين في لقاء فكري وروحي حميم ببركات الديلمي وشيخه ابن خفيف - رحمهما الله - فيصدق في ذلك الحال قول الشاعر ابن خفاجة:

فلما اجتمعنا قلت من فرحي به ... من الشعر بيتا والدموع سواقيا

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما ... يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

هذا هو العمل الصالح والكلم الطيب الذي يرفعه الله تعالى ويقبله، وهذا نموذج يحتذى به، عسى أن يدرك كثير من أصحاب الطاقات كيف يعملون في صمت على منهج مستقيم في عرض إسلامنا على العالمين من غير ضجيج مفتعل أو صمت مريب.

رحيل الشيخ أبي بكر سراج الدين

رحل عن عالمنا أحد الأعلام الكبار صباح الخميس الموافق الثاني عشر من مايو من هذا العام بمنزله بمقاطعة «كنت» بإنجلترا، ودفن في حديقة بيته بعد أن عاش يرعاها محبًا للأزهار والجمال، وهي الحديقة التي تطل على الريف المترامي حولها، وهو الشيخ «مارتن لينجز» - والذي تسمى بعد ذلك بـ «أبي بكر سراج الدين» - وولد في «لانكشير» في يناير ١٩٠٩ من أسرة بروتستانتية؛ من والدين أحباه كثيرًا، ورأيا فيه النباهة، بل والولاية من الصغر، فلم يعترضا عليه في شيء طوال حياته حتى منّ الله عليه بالإسلام.

أمضى طفولته المبكرة في أمريكا حيث كان يعمل والده، وعندما عاد إلى بريطانيا التحق بكليته «كليفتون» حيث ظهرت عليه مواهب القيادة، ثم انتقل إلى «أكسفورد» لدراسة اللغة الإنجليزية على يد (**c.s lewis**) عام ١٩٣٥ والذي رأى فيه نباهًا ينبغي أن يصاحبه، ثم درس في «ليتوانيا» الأدب الإنجليزي، وكان من أصدقاء «مارتن لنجز» اثنان على نفس روحه التواقة لمعرفة الحق، والبحث عن الحقيقة؛ أحدهما «باترسن» - والذي أسلم بعد ذلك وأسمى نفسه «الشيخ حسين» ودفن بمقابر المماليك بالقاهرة - والآخر أسلم بطريق آخر وأسمى نفسه «الشيخ داود» ومات في إنجلترا - سافر «باترسن» إلى الصين بحثا عن الحقيقة في «الكنوفوشوسية» وأراد «مارتن لنجز» الذهاب إلى الهند بعد أن غير مذهبه إلى (الكاثوليكية) فلم يجد مراده، ففكر في (الهندوسية) وأثناء السفر إلى الهند عن طريق القاهرة سنة ١٩٤٠ التقى بالمفكر الفرنسي المسلم «رينيه جينو» - وهو الشيخ عبدالواحد يحيى الذي توفي سنة ١٩٥٠ ودفن بالقاهرة بجوار الشيخ حسين المذكور، وأولاده ما زالوا بها حتى الآن نفع الله بهم - فوجد ما أراده فيه فأسلم ورجع «باترسن» إلى مصر وأسلم وعمل في جامعة القاهرة - فؤاد الأول حينئذ - وتوفي في حادث فروسية.

تزوج «مارتن لنجز» من السيدة «ليزلي سمولي» سنة ١٩٤٤ وهي التي أسلمت أيضًا، وأسمت نفسها «رابعة» وهي تعيش الآن في هذا المنزل الريفي «بكنت» بعد رحيل شريك العمر، والتي اتفقت مع أفكاره طوال الستين عامًا الأخيرة.

وكان وهو في القاهرة يسكن بجوار الهرم في قرية نزلة السمان، وظل في القاهرة حتى سنة ١٩٥٢، وكان يفصل جلبابه الذي حرص على ارتدائه دائمًا عند الحاج عاشور في مدخل خان الخليلي، وكان الحاج عاشور من أولياء الله الصالحين رحمهم الله جميعًا.

كان «مارتن لينجز» يود لو أمضى حياته في مصر ما لم تتدخل أحداث السياسة، فقد أعقبت ثورة ١٩٥٢م مظاهرات معادية للبريطانيين، قتل فيها ثلاثة من زملائه في الجامعة، وجرى تسريح الأساتذة الإنجليز من الجامعة، وكانت عودته

إلى لندن عام ١٩٥٢ مشوبة بالصعاب؛ فقد كانت المنافسة الأكاديمية تستلزم ما يربو على مجرد التدريس في ليتوانيا ومصر، وكان الحل الوحيد هو التقدم لنيل الدكتوراه، ونشر له في ذلك الحين كتاب كان قد كتبه في مصر وهو كتاب «اليقين، المذهب الصوفي في الإيمان والكشف والعرفان» وكان عليه أن يحصل على ليسانس في اللغة العربية، ثم حصل بعده على الدكتوراه، وكان موضوعها (الشيخ أحمد العلوي) ونشرت بعنوان «ولي صوفي من القرن العشرين» وقد كان من أعمق كتبه أثرًا بوصفه منظورًا فريدًا للروحانية الإسلامية من داخلها، وعمل «لينجز» عام ١٩٥٥م بالمتحف البريطاني، وهو الأمر الذي أدى إلى لفت انتباهه إلى الخط القرآني وتبلور في كتابه «الفن القرآني في الخط والتذهيب» وقد توافق صدوره مع قيام مؤسسة مهرجان العالم الإسلامي عام ١٩٧٦م.

وقضى «لينجز» الثلاثين عامًا التالية في كتابات لجمهوره الذي كان يزداد، وقد كان أحد كتبه العديدة مبنيًّا على رسالته لنيل الماجستير، وصدر بعنوان «محمد رسول الله وحياته من أقدم المراجع» عام ١٩٧٣م ثم كتاب «شكسبير في ضوء الفنون التقديسية» عام ١٩٦٦م والذي أعيدت طباعته عام ١٩٨٤ بمقدمة للأمير ولي العهد أمير (ويلز) بعنوان «سر شكسبير» حيث يعرض للأصول التراثية في أعمال شكسبير في التراث الأفلاطوني والمدرسي، وكتابه عن «الفن القرآني في الخط والتذهيب» عام ١٩٧٦، والذي أعيدت طباعته عام ٢٠٠٤ بعنوان «روائع الخط والتذهيب القرآني»، وقد كان خاتمة أعماله «مكة؛ تاريخ المدينة المقدسة من عصر ما قبل الإبراهيمية حتى اليوم» والذي نشر عام ٢٠٠٤.

وكان للقاء «لينجز» بـ «رينيه جينو» عظيم الأثر في ظهور أنوار الهداية التي اجتمعت فيما عرف بـ «مدرسة التراث»، وقد كان من أحد نتائجها الحاسمة نقد العالم الحديث في تضخمه المادي، واكتشاف الحكمة التي تربعت في قلب كل الأديان، سواء أكانت الزرادشتية أو البوذية أو الهندوسية، ثم اليهودية والمسيحية والإسلام؛ تلك الحكمة التي هي النور الفطري الذي خلقه الله في قلوب الناس، والذي منه يمكن دعوتهم إلى الحق، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[1]، وقد عاش في نور تلك الهداية حتى نهاية حياته المباركة.

ولقد أسلم «مارتن لينجز» على يد الشيخ عيسى نور الدين الذي كان سويسريًّا، فأسلم على ولي الله أحمد العلوي المستغانمي الجزائري، وطريقته قائمة إلى الآن في مستغانم بالجزائر، وكتبه مطبوعة منتشرة.

(١) الآية ٣٠ من سورة الروم.

وكان لـ «لينجز» اهتمام بالغ برمزية الألوان ودلالاتها وتطورها عند المسلمين، كتب يقول في كتابه «روائع فن الخط والتذهيب القرآني»: أُعطي اللون الأزرق أسبقية واضحة على الأخضر والأحمر، وسرعان ما ارتفع إلى منزلة مساوية للون الذهبي في المشرق، بينما في المغرب كان الأزرق يأتي في المرتبة الثانية، وبقيت للون الذهبي صدارته الأصلية.

إن أهمية هذين اللونين يمكن تقديرها من واقع أن أية أصباغ تضاف إنما تأتي في أغلب الأحوال في دور ثانوي. زد على ذلك أن المرء يجد في جميع الطرز والفترات التاريخية تقريبًا أمثلة لمصحف يُعتمد فيه بشكل مطلق على الأزرق والذهبي، وهذا الإطلاق نفسه قد يكون ملحوظًا في صفحات أي مصحف كان حتى إن جاء تذهيبه بألوان عديدة في صفحات أخرى.

إن الأزرق هو لون اللامتناهي، وهو يتطابق مع الرحمة، إذ إن ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[1] فأعظم رمز لهذه اللانهائية هو السماء المحيطة بالكل، أما الاسم الإلهي لها فهو الرحمن، وهو أول أسماء الرحمة، والوحي يعبر عن الجذور الجوهرية للرحمة.

إذا كان الأزرق يحرر بواسطة اللانهائية، فالذهبي مثله في ذلك مثل الشمس، يحرر لكونه رمزًا للروح، فهو بالتالي يتعالى عن كل عالم الصور. إن اللون الذهبي، من ذات طبيعته، (يفلت) من قيد الصور إلى درجة أن الخطاط الذي يكتب باللون الذهبي عليه أن يخطط حواف كتابته باللون الأسود حتى يعطيها الأثر الفعال من الناحية الصورية، ولكونه لون النور، فإن الذهبي مثله في ذلك مثل الأصفر، وهو رمز ذو صلة جوهرية بالعلم خارجيًا، هو يعني التدريس والظهور (أو التجلي)، أما الأزرق في حضور الذهبي فهو يعني أن الرحمة ميالة إلى الكشف عن ذاتها.

وما ذُكر قليل من كثير عن «مارتن لينجز» وأعماله التي كان لها -وسيبقى - ذلك المغزى العميق في عالم مضطرب، إلا أن شخصيته هي التي أثرت على الذين عرفوه، بما فيهم كثير من الشباب الذين كانوا يسعون إليه في المشورة الروحية، وهذا أيضًا سوف يستمر معهم طوال حياتهم في خوفهم من ألا يجدوا له مثيلاً. رحمه الله رحمة واسعة ورزق الأمة أمثاله. آمين.

إننا في حاجة إلى دراسة أولئك الأعلام الذين أسلموا دراسة علمية تؤكد عالمية ذلك الدين وصلاحيته لكل زمان ومكان.

(١) من الآية ١٥٦ من سورة الأعراف.

مسجد السلطان حسن ومدرسته

بسم الله الرحمن الرحيم

إن لله تعالى في الأرض بيوتًا مجدها وكرمها وأعلى شأنها، وجعلها سبحانه مكانًا لإعلان العبودية له وحده لا شريك له، وهذه البيوت ما كان لها أن تُقام ولا تُرفع ويذكر فيها اسمه بغير إذنه سبحانه وتعالى، فهي بإذن الله شرعًا؛ حيث أمر بذلك، قال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾ ﴾[1]، وحرم سبحانه وتعالى أن يقرب مسجده الحرام مشرك يعلن فيه العبودية لغير الله، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ ﴾[2]، بل إن الله سبحانه وتعالى أمر أن لا يدعى في أي من المساجد إلا الله ولا يعبد إلا هو، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴿١٨﴾ ﴾[3]. فالمساجد مأمور بها شرعًا، وكانت على مراده في الكون، فالكل مقهور تحت إذنه الكوني سبحانه وتعالى.

١- من هذه المساجد المباركة "مسجد السلطان حسن" بالقاهرة، فتشرف هذا المسجد ببنائه في أرض الكنانة، وشرف أرض الكنانة بوجوده فيها، فاجتمع في تلك البقعة المباركة شرف كبير، فهيا بنا نتعرف على هذا المسجد من حيث بنيانه وفخامته وأهدافه.

بدأ السلطان حسن في بناء مدرسته الشهيرة سنة (٧٥٧هـ= ١٣٥٦م) بعد أن استتب له الأمر وأصبحت مقاليد الأمور في يديه، واستمر العمل بها ثلاث سنوات دون انقطاع حتى خرجت على النحو البديع في البناء والعمارة.

والمدرسة أو مسجد السلطان مساحته ٧٩٠٦ أمتار مربعة، أي ما يقرب من فدانين، وهي على شكل مستطيل غير منتظم الأضلاع، ويبلغ امتداد أكبر طول له ١٥٠ مترًا، وأطول عرض ٦٨ مترًا، وهو خال من جميع الجهات؛ ولذلك

---

(١) الآية ٣٦ من سورة النور.

(٢) من الآية ٢٨ من سورة التوبة.

(٣) الآية ١٨ من سورة الجن.

فللمسجد أربع واجهات، وتقع الواجهة الرئيسية في الضلع الشمالي الذي يبلغ طوله ١٤٥ مترًا، وارتفاعه ٣٧,٨٠ مترًا، ويؤدي الباب الرئيسي للمسجد إلى مدخل يؤدي إلى الصحن وهو مربع الشكل تقريبًا يبلغ طوله ٣٤,٦٠ مترًا، وهو مفروش بالرخام، ويتوسطه فسقية للوضوء تعلوها قبة خشبية تقوم على ثمانية أعمدة.

وحول الصحن من جهاته الأربع إيوانات المدرسة، أكبرها إيوان القبلة، وتبلغ فتحته ١٩,٢٠ مترًا، وعمقه ٢٨ مترًا، ويتوسط الإيوان دكة المُبَلِّغ، وهي من الرخام، ويوجد في صدر الإيوان محراب كبير مغطى بالرخام الملون والمحلى بالزخارف مورقة تتخللها عناقيد العنب، ويجاور المحراب منبر من الرخام له باب من النحاس المفرغ.

ويكتنف المحراب بابان يوصلان إلى القبة التي تقع خلف المحراب، وهي مربعة، طول كل ضلع من أضلاعها ٢١ مترًا، وارتفاعها إلى ذروتها ٤٨ مترًا، وبها محراب من الرخام محلى بزخارف دقيقة، وبالجانب القبلي الشرقي المنارتان العظيمتان، ويبلغ ارتفاع كبراهما ٨١,٥٠ مترًا.

ويحيط بالصحن أربع مدارس للمذاهب الأربعة تعد مساجد صغيرة محدقة بالجامع الكبير، وتتكون كل مدرسة من إيوان وصحن تتوسطه فسقية، وتحتوي كل مدرسة على ثلاثة طوابق تشتمل على غرف الطلبة والدرس، ويطل بعضها على صحن المدرسة وبعضها الآخر يطل على الواجهات الخارجية، وتعد المدرسة الحنفية أكبر المدارس؛ إذ تبلغ مساحتها ٨٩٨ مترًا.

٢- وقد قرر حسن لكل مذهب من المذاهب الأربعة شيخًا ومائة طالب، في كل فرقة خمسة وعشرون متقدمون، وثلاثة معيدون، وحدد لكل منهم راتبًا حسب وظيفته، وعين مدرسا لتفسير القرآن، وعين معه ثلاثين طالبًا، عهد إلى بعضهم أن يقوموا بعمل الملاحظة، وعين مدرسًا للحديث النبوي، وخصص له راتبًا قدره ٣٠٠ درهم، ورتب له قارئًا للحديث.

وعين بإيوان مدرسة الشافعية شيخًا مفتيًا، ورتب معه قارئًا، يحضر أربعة أيام من كل أسبوع، منها يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة، ويقرأ القارئ ما تيسر من القرآن والحديث النبوي، كما عين مدرسًا حافظا لكتاب الله عالما بالقراءات السبع، يجلس كل يوم ما بين صلاة الصبح والزوال بإيوان الشافعية، وجعل معه قارئًا يحفظ من يحضر عنده من الناس.

ولضمان انتظام العمل بالمدرسة عين السلطان حسن اثنين لمراقبة الحضور والغياب؛ أحدهما بالليل والآخر بالنهار، وأعد مكتبة وعين لها أمينا، وألحق بالمدرسة مكتبين لتعليم الأيتام القرآن والخط، وقرر لهم الكسوة والطعام؛ فكان إذا أتم اليتيم القرآن حفظًا يعطى ٥٠ درهمًا، ويمنح مؤدبه مثلها مكافأة له.

وعين السلطان طبيبين: أحدهما باطني، والآخر للعيون، يحضر كل منهما كل يوم بالمسجد لعلاج من يحتاج من الموظفين والطلبة.

٣- وقد احتفل السلطان حسن بافتتاح مدرسته قبل إجراء باقي الأعمال التكميلية، وصلى بها الجمعة، وأنعم على البناءين والمهندسين، وقد ظل اسم المهندس الفنان الذي أبدع هذا العمل مجهولا قرونا طويلة حتى كشف عنه الأستاذ "حسن عبدالوهاب"، وتوصل إليه وهو "محمد بن بيليك المحسني" من خلال الكتابة الجصية الموجودة في المدرسة الحنفية. [تم تصويب هذه المعلومة عن طريق د. صالح لمعي حيث ذكر لي أن محمد بن بيليك المحسني ليس هو المهندس، وإنما كان المتحدث باسم السلطان فيما يتعلق بالقصور والمنازل وبناء الأسوار، وله مرتبة بالحكومة هي (إمرة عشرة) راجع مقال إنهم يقتلون الجمال].

فهذا هو مسجد السلطان حسن الذي يمثل نموذجًا فريدًا للمسجد الجامع الكبير، حيث تم تأسيسه وانتظم العمل فيه؛ ليقوم بأهم الأعمال في المجتمع المسلم من تعليم العلم، وعلاج الناس، وغير ذلك الكثير، والله سبحانه نسأل أن تعود وظيفة المسجد الجامع الكبير إلى ما كانت عليه في عصر ازدهار المسلمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

القسم الثاني:

مقالات وموضوعات متفرقة

ويضم هذا القسم تسعة عشر موضوعًا تم سردها على النحو التالي:

القسم الثاني: مقالات وموضوعات متفرقة

تجديد الفقه

جاءت الشريعة الإسلامية بمدح التجديد، وبيان أهميته، بل إن نصوص الشرع الشريف نفسها تؤكد ذلك المعنى، فالناظر في نصوص الشرع الشريف يجد أنها جاءت بمدح التجديد، وبيان أهميته، فتارة يحدثنا الشرع الشريف عن التجديد باعتباره أمرًا واجب التنفيذ، ويحث عليه المسلمين وذلك في مقام الإيمان، فإن الإيمان نفسه يبلى ويَخْلق ويحتاج إلى أن يجدد في قلوب الموحدين، وذلك في قول النبي ﷺ لأصحابه: «**جددوا إيمانكم**». قيل: يا رسول الله، وكيف نجدد إيماننا؟ قال: «**أكثروا من قول لا إله إلا الله**»[1].

وتارة يحدثنا الشرع عن التجديد في الدين باعتبار أنه نعمة يمن الله بها على هذه الأمة الخاتمة، ومن هذا قول النبي ﷺ: «**إن الله يبعث إلى هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها**»[2].

منذ ذلك الحين وعلماء الأمة يمتدحون التجديد، ويرون أنه أمر ديني ونعمة من نعم الله علينا، والتجديد لم يكن قط موضع اتهام وريب في العصور الصالحة، أما في ذلك العصر النكد الذي أخبرنا بقدومه الصادق المصدوق، وهو عصر التزييف والتلفيق والخداع، فأصبح الحليم حيران، لأن الناس يسمون الأشياء بغير أسمائها فكما قال النبي ﷺ: «**إن أناسا من أمتي يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها**»[3].

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٣٣، ٣٥٩) حديث (٨٣٨٧)، (٨٦٩٥)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٨٥) حديث (٧٦٥٧) من حديث أبي هريرة ﷺ، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٥٢)، وقال: «وإسناده جيد».

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب «الملاحم» باب «ما يذكر في قرن المائة» حديث (٤٢٩١)، والطبراني في «الأوسط» (٦/ ٣٢٤) حديث (٦٥٢٧)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٦٧- ٥٦٨) حديث (٨٥٩٢)، (٨٥٩٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، وذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٢٨٢) وقال عن إسناد الطبراني: «رجاله ثقات».

(٣) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٧/ ٣٥٢) حديث (٤٣٩٠)، والحاكم في «مستدركه» (٤/ ١٦٤) حديث (٧٢٣٧) وصححه، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٢٩٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وإنما ذلك لأن أقواما في عصرنا الحديث ما أرادوا أن يفصحوا عن نواياهم الخبيثة، وأرادوا أن يتمتعوا بالانتماء إلى الإسلام ظاهرا فلا يفقدون عشيرتهم وذويهم، وهم في أعماقهم يكنون كل الكراهية للإسلام وأهله؛ وحيث إنهم أرادوا أن يهدموا الإسلام من الداخل سموا أعمالهم واقتراحاتهم دعاوى للتجديد والتطوير، وهي في الحقيقة تخريب وتدمير.

فشاع عند العامة من المتدينين تلك السمعة السيئة عن التجديد وأهله ودعاته، وواجه علماءُ الإسلام المخلصون في دعوتهم للتجديد أشدَّ الصعوبات في بيان ما يقصدونه من كلمة التجديد، وذلك بسبب اختلاط الأوراق والتلبيس الذي لا يتوقف ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تجديد الفقه الذي نقصده:

ما هو تجديد الفقه الذي نقصده ونعنيه؟ إن التجديد الذي نعنيه هو تجديد في القوالب والوسائل التي نعرض فيها فقهنا الإسلامي، فيدور أساس التجديد المقصود على إدراك الواقع المتغير، والذي تغير تغيرًا جذريًّا في أقل من ثلاثة قرون، وكأن الدنيا منذ بدء الخليقة وحتى قرابة ثلاثة قرون لم تتغير بهذا الشكل السريع المخيف الهائل.

ولأننا نتكلم عن التجديد في مجال معين، ألا وهو الفقه الإسلامي، فيجب أن نذكِّر بحقيقة علم الفقه قبل الحديث عن التجديد فيه.

تعريف الفقه:

الفقه في الاصطلاح: هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية. والمراد بالعلم: المعرفة وليس المراد منه ما يتبادر من لفظه خاصة عند المناطقة؛ لأن العلم إذا أطلق دل على القطع، والفقه من باب الظنون.

والمراد من الأحكام الشرعية: هي أحكام الشرع من حيث الوجوب، والحرمة، والندب، والكراهة، والإباحة. والمراد من العملية: الاحتراز عن علم العقائد فلا يبحث في الأحكام الشرعية العملية، كما قاله الباجي.

وهذا العلم لابد أن يُكتسب من أدلة تفصيلية، والدليل التفصيلي هو الشاهد من نص الكتاب أو السنة أو نقل الإجماع أو ذكر القياس في المسألة التفصيلية بعينها؛ فدليل وجوب الصيام قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾[1]، فهذا الجزء من الآية أو تلك الآية هي الدليل على وجوب الصيام.

والحقيقة أن تجديد الفقه يتضح تمام الإيضاح بالمزج بين ثلاثة عناصر أساسية هي:

١- المصادر.

٢- إدراك المصادر في ظل إدراك الواقع.

٣- ربط المصادر بالواقع.

وسوف نفصل الكلام في كل عنصر من هذه العناصر فيما يلي:

أولاً: المصادر

فالفقه موضوعه فعل المكلف، وفعل المكلف أمر واسع؛ لأن المكلف يمارس في حياته كل الأنشطة ويمارس بأفعاله كل مناحي الحياة، وعلى ذلك فنحن في حاجة إلى بيان الممنوع والمشروع في هذه الأفعال: "افعل ولا تفعل" وهنا يأتي دور الفقه الذي يصف الأفعال البشرية بالحظر أو بالإباحة، وهذه الإباحة قد تصل إلى حد الوجوب أو الندب وقد تصل أيضًا إلى الكراهة وهذا الحظر قد يكون حرامًا وقد يكون أيضًا مكروهًا، فالأحكام خمسة: الواجب، والحرام، والمباح، والمندوب، والمكروه.

إذن أمامنا أحكام خمسة نصف بها أفعال البشر جميعًا في أي مجال كان، فكيف ذلك؟ يتأتى هذا بإدراك ثلاثة أركان أو عناصر أو أقطاب ينبغي أن تتضح في أذهاننا وضوحًا تامًّا ولا تغيب على كثير من الناس، أول هذه الأركان: المصادر الشرعية، والمصادر الشرعية المرعية التي وردت إلينا إنما هي القرآن والسنة.

---

(١) من الآية ١٨٣ من سورة البقرة.

ثانيًا: إدراك المصادر في ظل إدراك الواقع

والعنصر الثاني لهذه العملية بعد إدراك المصادر - لم يهتم الفقهاء القدماء ببيان الواقع؛ لأن هذا ليس من مسائل علم الفقه، بل إنهم اهتموا بالتنبيه على إدراكه، فدائمًا يُنبهون إلى أن ندرك هذا الواقع ولا يصوغون لنا ما الواقع.

إدراك الواقع بعوالمه الأربعة:

يشتمل الواقع على عوالم أربعة، وهذه العوالم الأربعة قد جاءت بالاستقراء، ومعنى أنها قد جاءت بالاستقراء أنه يمكن زيادتها في كل عصر، ويمكن زيادتها عند كل إنسان يرى مدخلا آخر لدراسة الواقع، إذن فهذه الخمسة سنذكرها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، أو على سبيل الطاقة الذهنية، وليس على سبيل منع الغير من أن يضيف إليها أو يتعمق فيها أو يفصل أو يقتصر على بعضها إلى آخره. فهي مداخل لا تمنع أحدًا من التفكر فيها ابتغاء الإدراك الصحيح للواقع المعيش. وهي: عالم الأشياء، وعالم الأشخاص، وعالم الأحداث، وعالم الأفكار. وهذه العوالم الأربعة لها مناهجها.

العالم الأول: عالم الأشياء: فالتعامل مع عالم الأشياء قد يكون بالمنهج التجريبي، وقد يكون المنهج التجريبي الذي اكتشف فيه الإنسان الحقائق عن طريق المجهر - سواء كان التلسكوب أو الميكروسكوب، سواء في عالم المجرات أو في عالم الذرة - قد يكون هو المنهج الذي أثبت نجاحه وهو الذي اقتصرت عليه مدلول كلمة **Science** في اللغة الإنجليزية، بل اعتبر بعض الفلاسفة أن حضارة الإنجليز المتقدمة الآن لما تقدم الساكسون وتأخر غيرهم تعتمد على الـ **Science** فإنها حضارة اعتمدت على ما ترجمناه نحن بكلمة علم، وعلم في اللغة العربية ليست هي تمامًا الـ **Science** بل هي أمر آخر يوصل إلى اليقين سواء كان من المنهج التجريبي أو من غيره من المناهج.

إذن فعالم الأشياء ينبغي علينا أن ندرك كيف نتعامل معه، نتعامل مع حقائقه ونعمل على إدراكه على ما هو عليه، وهذا المنهج التجريبي الذي يصلح للأشياء قد لا يصلح للأشخاص وهو العالم الثاني.

العالم الثاني: عالم الأشخاص: الإنسان فريد في التصور الإسلامي؛ لأنه مخلوق قد كرمه ربه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[1] فالإنسان هو بنيان الرب – سبحانه وتعالى – وهذا الإنسان مميز بأنه قد خالف البهائم وقد خالف عالم الجماد وقد أصبح مكرمًا بحمل الأمانة: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾[2]؛ لأنه لم يهيئ نفسه بعد هذا التحمل للقيام بها: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[3]. فينبغي علينا أن ندرك أن عالم الأشخاص له منهج آخر، وهذا هو ما يدعو له الطب الحديث، حيث خرج من دراسة جزئيات الأمراض إلى دراسة الإنسان ككل، وإلى الخروج من الطرق الإمبريقية الحادة التي سيطرت على فكر الطب ردحًا من الزمان إلى الطريقة الإنسانية، وأنه ينبغي علينا أن نراعي في هذا الطب الإنسان كإنسان، لأنه مختلف وغير متكرر ولا يصلح لهذا ما قد يصلح لهذا، ولأجل ذلك بدأ الطب الحديث يعدل كثيرًا من مفاهيمه حتى في مجموعات الأدوية وحتى في التعامل مع الإنسان تشخيصًا وعلاجًا وتعاملا وتفاهمًا، مما يعطينا إشارة للنظر في مجال التعامل الشرعي مع الإنسان بتلك الاعتبارات.

العالم الثالث: عالم الأحداث: والأحداث يمكن أن يكون لها مناهج لفهمها وتحليل مضمونها وربطها ومعرفة مآلاتها وكيف نتعامل معها حتى ننظر في النهاية إلى قضية الفعل البشري "نفعل أو لا نفعل" بمقياس المصالح وبمقياس تحقيق المنافع وبمقياس تحصيل اللذات ووسائلها في إطار الإباحة ودفع الآلام ووسائلها.

العالم الرابع: عالم الأفكار: وعالم الأفكار له مناهج للتعامل معه: هناك مناهج المقارنات، وهناك مناهج المقاربات، والمقصود بالمقارنات فلسفة الصراع ومصادرة الحق، والمقاربات: ويقصد بها: المكابرة واعتقاد الكمال في أنفسنا،

(١) الآية ٧٠ من سورة الإسراء.
(٢) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.
(٣) الآيات ٤: ٦ من سورة التين.

ويقتضي منها أنه لا يصل أحد من البشر إلى شيء ما إلا ونحن قد وصلنا قبله، وهكذا إلى أن يمثل هذا حجابًا لنا عن الاستفادة حتى عن القبول والرفض، وهناك منهج الانتقاء العشوائي.

إذن هناك منهج المقاربات، ومنهج المقارنات، ومنهج الانتقاء العشوائي، وكلها مناهج فاسدة باطلة ينبغي علينا أن نتخلى عنها إذا أردنا أن نتعامل مع الأفكار السائدة أو السائرة أو المهيمنة - في بعض الأحيان - أو القادمة - في أحايين أخرى - ينبغي علينا أن ندشن هذه المناهج للتعامل بحيث تكون مناهج أصلية مؤسسة من غير رد فعل ومن غير مقارنات أو مقاربات أو انتقاء عشوائي.

ثالثًا: ربط المصادر بالواقع:

القضية الثالثة - وهي المهمة بل الأهم - قضية الربط بين المصادر وإدراكها وإدراك الواقع، فلا يكفي لواحد أن يعيش مع المصادر ويتدرب على كيفية استنباط واستثمار الأحكام الشرعية المرعية منها، ولا أن يدرك الواقع ويعيش فيه بدقة ويتنبأ بدراسته المستقبلية عما سيكون فيصح تنبؤه دائمًا ويستعمل الـ **back casting** في الـ **Fore casting**، ولا يكفي هذا لإحداث الفقه الجديد بل لابد أن يعيش رابطًا بين هذا الذي استثمره يوقعه على ذلك الواقع المعيش.

إذن إدراك الواقع قد يمثل في ذهن ذلك المجدد مرحلة التصوير فإنه يريد أن يتصور الواقع على ما هو عليه، ولا يتكلم ويهرف بما لا يعرف ويوقع كلامًا مكتوبًا في الكتب على واقع قد تغير تغيرًا شديدًا ولم يعد هو المذكور في الكتب، يقول الإمام القرافي في كتاب «الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام»: وهو ضلال مبين ومن يفعله ضال مضل، هذا الكلام يقوله في القرن السابع الهجري.

ويتم ذلك الربط بعد أن يتم التصوير، ينبغي عليه أن يكيف ما صور بعد أن يعرف المشكلة فالطبيب يلجأ إلى التشخيص، والتشخيص هو مرحلة التكييف عند المجدد ثم بعد ذلك يظهر حكم الله في مثل هذا.

حدود التجديد والاجتهاد في الفقه الإسلامي

تعرض للمجددين من علماء المسلمين قضيتان؛ **الأولى:** هي التزامنا الأدبي والأخلاقي بعد أو قبل التزامنا الديني أمام الله ﷻ، بأننا ورثة لهذا التراث الطيب الذي قام به أئمتنا وعلماؤنا عبر التاريخ من لدن الصحابة الكرام وإلى يومنا هذا، وهذا التراث والنتاج الفكري عاش عصره وأدى كل إمام واجب وقته، ولا ينبغي إطلاقًا إذا ما رأينا اختلافًا في المسائل التي نعيشها أن نتهمهم بالقصور أو التخلف، أو مثل هذه الدعاوى التي تخالف الواقع والحقيقة.

فهم أدركوا واقعهم إدراكًا دقيقًا، وساروا في المنهج العلمي الذي يتلخص عندهم كما تقرر في تعريف مدرسة الرازي لأصول الفقه بأنه أولا: إدراك مصادر البحث، ثانيًا: كيفية طرق البحث، ثالثًا: شروط الباحث، وهي الثلاثة التي أشار إليها "روجرز بيكون" بعد ذلك، فإن أصحاب الرازي يعرفون أصول الفقه بأنه: "معرفة دلائل الفقه إجمالا، وكيفية الاستفادة، وحال المستفيد" هذا كلام البيضاوي في "المنهاج" والرازي في "المحصول".

فهذا هو المنهج الذي ينبغي علينا أن نسير عليه كما سار أسلافنا، ونقوم بواجب وقتنا كما قاموا بواجب وقتهم. فيجب علينا أن نتعلم منهم كيف كانوا يفكرون؟ وكيف تعاملوا مع هذه المصادر؟ وما الضوابط والخطوط والأطر التي لا يمكن أن نتعداها؟ وما المجالات التي يمكن فيها الخلاف؟ وفي نفس الوقت لا نجمد على مسائل عصرهم التي ارتبطت بواقعهم، والتي لا تنسجم مع واقعنا بسبب الثورة الهائلة في الاتصالات والمواصلات والتقنيات الحديثة، وخاصة بعد نشوء الشخصية الاعتبارية واستقرارها بهذا الشكل، وبعد وجود هذه الشركات عابرة القارات، وهذه الطرق السريعة والحديثة في التمويل عبر البنوك. كل تلك الأشياء تسببت في تغير الواقع المعيش تمامًا عما كان، مما يحتم علينا إدراك هذا الواقع الجديد، والتعامل معه بمنهج السلف الصالح؛ حتى نصل إلى المقاصد الشرعية التي ينبغي أن نصل إليها.

إذا انطلقنا من العلم الموروث – وهو أصول الفقه – نجد أن الأساس فيه هو إدراك النص وتحديد الحجة، فالحجة هي الكتاب والسنة؛ ولا يمكن التعامل مع الحجة إلا من خلال علوم التوثيق الخاصة بهذين الأصلين "الكتاب والسنة". وعلم أصول الفقه يجيب عن أسئلة مهمة خاصة بتوثيق تلك الحجة مثل: ما الفرق بين القراءة المتواترة والشاذة؟ وما الفرق بين الحديث الصحيح والضعيف؟ ما الذي يكون محل قطع؟ ما الذي يكون محل ظن؟

فعلم أصول الفقه - بعد هذا التوضيح - هو الأساس لفهم النص الذي هو مصدر البحث، وهو تحصيل حكم الله في أعمال البشر، ولكن هناك واقع معيشي بعوامل متشابكة له سمات: عالم الأشخاص، والأشياء، والأحداث، والأفكار، هذه العوالم الأربعة متصفة بالتطور والتركيب والتعقد والتغير والتجاوز والنسبية والتقاطع في نحو ثلاثين صفة لهذا العصر.

ينبغي على المجتهد أن يكون عنده القدرة على النظر في النص وطريقة فهمه وفي الواقع وطريقة فهمه، ثم عليه أمر ثالث وهو كيفية الوصل بينهما، كيف يغير هذا الواقع بمؤسسات وبأفكار وبعقود تتواءم مع هذه الأحكام التي قد حصلها من النص؟ هذا الواقع يدفع العالم أن يبدع ولا يبتدع، فيبدع بمعنى أن ينشئ ما لم يكن قد نشأ من قبل، ولا يبتدع بمعنى ألا يخرج عن مقتضيات ذلك النص الكريم الشريف وهو الوحي؛ إذ إن هذا يحتاج منا أن نعرف أن مصادر معرفتنا هي: الوحي والكون معا، وأن الوحي هو كتاب الله المسطور، والكون هو كتاب الله المنظور، وكلاهما قد صدر عن الله تعالى هذا عالم الخلق وهو الكون، وذلك عالم الأمر وهو الوحي، ولذلك لا تناقض بينهما، فهما مصدران من مصادر المعرفة لدى المسلم، وقد أشار الكتاب العزيز إلى هذين المصدرين فقال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

أما القضية الثانية:

وهي أننا متمسكون بالحفاظ على هويتنا، ولا نريد محو ثقافتنا وتراثنا، فنستعمل أصول الفقه لفهم النص المقدس، ونستعمل عقولنا بأدوات شتى قد لا تكون معنا الآن لإدراك واقعنا، فإن عناصر النموذج المعرفي الإسلامي تختلف وتتقاطع مع بعض الأديان والمذاهب الأخلاقية، هذا الذي ينحي قضية الألوهية، ولا أقول ينكرها، وينحي قضية الغائية، وينحي قضية الإطلاق ويقول بالنسبية، وينحى قضية الآخرة، ويعيش للدنيا فقط. مما يترتب عليه اختلاف في النظام والتحليل والسلوك اختلافًا تامًّا عن النموذج المعرفي الإسلامي، فالمسلم عندما يكون متشبعًا بهذا النموذج المعرفي يكون صاحب قضية يلتزم بالعمل من أجلها أمام الله ثم أمام الناس.

---

(١) من الآية ٥٤ من سورة الأعراف.

فكان ينبغي أن تكون أداتنا لفهم الواقع مختلفة، ولكن جامعاتنا تدرس العلوم الاجتماعية والإنسانية على نفس النموذج المعرفي الغربي، وليس على النموذج المعرفي الإسلامي؛ لأن إدخال هذا النموذج إلى حيز التدريس في الجامعات يحتاج إلى ما يمكن أن نسميه بالصناعات الفكرية الثقيلة، التي تحتاج إلى بناء أسس هذه العلوم بناءً مؤسسًا على الواقع وإدراكه بصورة قوية صناعية كأصول الفقه الذي وضعه علماؤنا، وتوَّجه الشافعي بالرسالة ثم بعد ذلك توجه بهذا التراث الضخم.

ونحن في عصرنا هذا نفتقد هذه الأداة، فإن أصول الفقه يوفر للمجتهد ما يحتاجه لفهم النص، ولكن ليس هناك ما يوفر فهم الواقع، فغياب هذه الأداة يفسر لنا كثيرًا من أسباب اختلاف العلماء في المجامع الفقهية، وإنكار بعضهم على بعض، فمدى إدراك الواقع هو أساس اختلاف الفتوى في العصر الحديث.

إن واجب وقتنا هو بناء أداة لإدراك الواقع، وبتأمل الواقع نجد سمات أساسية واضحة تصل إلى ثلاثين سمة منها: التجاوز، والجوار، والنسبية، والتغير، والتركب، والتقاطع، والتطور... إلخ، وهذه السمات منها السلبي، ومنها الإيجابي، فينبغي أن ندرك المساحة السلبية في تلك السمات حتى نتمكن من تنحيتها بقدر الإمكان، أو تفاديها، وكذلك ندرك المساحة الإيجابية التي يمكن أن نستعملها لتمكين الدين والمنهج الذي أمرنا الله به في حياتنا الدنيا.

كما يجب على المجتهد في أثناء الاجتهاد أن يكون له سقف وخط لا يتعداه، ألا وهو نص الكتاب وصحيح السنة بعد توثيقهما وقبول هذا التوثيق، فلا يمكن أن نقبل الخروج عن القطعي الذي في الكتاب والسنة، ولذلك لابد أن نضيف من ضوابط الاجتهاد الفقهي الإجماع، فالإجماع ضابط مهم جدًّا، فلا يجوز لنا الخروج عليه بحال من الأحوال.

كذلك ينبغي الاهتمام باللغة العربية التي نزل بها النص، لأن هناك طوائف من الذين ادعوا التجديد قدحوا في دلالات اللغة، ومن هنا يبدأ الخطأ؛ حيث يتسع المجال لكل من شاء أن يقول في دين الله ما شاء، فلا نقبل دعوى التلاعب باللغة، وهي ما يدعو إليها معسكر ما بعد الحداثة، حيث تمثل هذه الدعوى القدح في دلالات اللغة، وليست اللغة العربية وحدها إنما أي لغة يريدون جعل وظيفة اللغة مجرد التلقي، واللغة في الحقيقة الأداة والتلقي، فالاستعمال من صفة المتكلم، والحمل من صفة السامع، والوضع قبلهما، وبذلك فإنهم يسعون إلى تفسير النص الشريف حسب انطباعات المفسر، دون الالتزام بدلالات اللغة، فنستطيع أن نقول: إن النص الشريف، والإجماع، ودلالات اللغة، وهي مع ما يأتي أسقف ينبغي للمجتهد ألا يتعداها.

ينبغي على المجتهد كذلك مراعاة مقاصد التشريع؛ إذ تمثّل النظام العام وهي: حفظ النفس، والعقل، والدين، وكرامة الإنسان - حسب التسمية المعاصرة وكانت تسمى قديمًا بالعِرض أو النسل - والملك - وهي تسمية معاصرة كذلك والتسمية القديمة المال - وإنما رَتبتُ هذه المقاصد بهذا الترتيب؛ لأنه ليس مُتفق على ترتيبها بشكل معين، فالشاطبي بدأ بالدين، والزركشي يورد الخلاف في هذا الترتيب، وهذا الترتيب أراه مناسبًا للتفكير وللعصر كذلك، فالإنسان يحافظ على نفسه ثم على عقله ثم يكلَّف فيحافظ على دينه ثم يحافظ على كرامته وملكه. وعلى هذا الترتيب نكون قد جعلناه نظامًا يصلح لغير المسلمين أيضا؛ لأنه متفق عليه بين البشر، فليس هناك نظام قانوني يبيح القتل العدوان، أو يبيح السرقة إلى يومنا هذا في أي مكان، مما يجعل هذا النظام العام يتسع للتعددية الحضارية التي فعلها المسلمون عندما أبقوا غير المسلمين بكافة طوائفهم.

والمبادئ الدينية التي تبين أنه ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[١] ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾[٢] ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾[٣]، وهو ما يسمى بفورية القوانين و....إلخ من المبادئ الحاكمة للعقل المسلم، والقواعد الفقهية مثل: الأمور بمقاصدها، والضرر يزال، واليقين لا يرفع بالشك، والعادة محكمة، وكذا المشقة تجلب التيسير.

فبعض هذه القواعد خلاصة الفقه، وهذه القواعد يتفرع منها قواعد أخرى، لابد لنا من إدراك المنهج، ولابد لنا من عملية التجريب التي تسقط المشخصات، وتبقي المعنى لابد لنا من النظر إلى المآل، لابد لنا من النظر إلى المصالح، لابد لنا من إدراك مراتب هذه المقاصد وأن منها ضرورية وحاجية وتحسينية ودرجات العلاقات البينية بينها وهو ما لم يتم إلى الآن.

فكتاب المقاصد نجده يتكلم عن المقاصد ومراتبها، ولكن لا يتكلم عن العلاقات البينية، فإن هذا محتاج إلى عمل كثير حتى نستطيع أن نُفعلها، أي نجعلها أداة أو آلة بيننا، إذا حدث هذا فهذه بعض ضوابط الاجتهاد، ولابد أن تكتمل من إدراك النص وإدراك الواقع، ومن الوصل بينهما، لابد أن يكون تحت سقف صريح النص والإجماع واللغة والمقاصد والمصالح والمبادئ والقواعد.

(١) من الآية ١٦٤ من سورة الأنعام.
(٢) الآية ٣٩ من سورة النجم.
(٣) من الآية ٩٥ من سورة المائدة.

فإذا كان الاجتهاد على هذا الشكل من إدراكه للنص والواقع ومن الوصل بينهما تحت هذه المظلة، فإن اجتهاده اجتهاد صحيح خاصة في الجانب المالي الذي نحن في أشد الحاجة إليه؛ لأن العبادات - والحمد لله - ليس هناك فجوات كبيرة فيها ولا هناك مستحدثات تعكر صفوها أو تعطل مسائلها ومقاصدها وثمرتها بقدر ما حدث في عالم المال.

وبعد ذلك العرض يتضح لنا مفهوم التجديد الذي نقصده وكيفيته، وهو بإدراك الواقع بعوالمه المختلفة، وربط الواقع بالمصادر، مع الالتزام بالحدود الأساسية للمجتهد المسلم.

زكاة الفطر شعيرة إسلامية وفضيلة

خلق الله الإنسان واعتنى به، فأرسل إليه الرسل، وأنزل إليه الكتب، وشرع له الشرائع، تلك الشرائع التي تهدف إلى السمو بالإنسانية والرقي بها في أعلى درجات الكمال، ويترتب على الامتثال بها تطهير النفس البشرية من كل دنس، وشفاء القلب من كل مرض.

ويتأكد ذلك المعنى بجلاء في الزكاة حيث ينم اسمها على كل تلك المعاني العظيمة، فالزكاة في اللغة تعني: النماء، والزيادة، والطهر، والصلاح، وصفوة الشيء، وما أخرجته من مالك لتطهره به، وقد استعملها القرآن الكريم بمعنى الإنفاق في سبيل الله من المال ومعنى الصلاح، قال الله تعالى: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾[1] قال الفراء: أي صلاحًا، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾[2] أي ما صلح منكم ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾[3] أي: يصلح من يشاء.

والزكاة التي يخرجها المسلم من ماله ليطهر بها نفسه تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: زكاة المال، وهو مقدار يخرجه الإنسان من إجمالي ثروته بشروط معينة كحولان الحول، وبلوغ النصاب، ويخرج هذه المال إلى أصناف محددة من الناس كالفقراء والمساكين وغيرهم، وهي على أي مال سواء كان ذلك المال نقديًا، أو ما يشبهه من ثروة حيوانية (الأنعام) أو ثروة زراعية (كغلال الحبوب) أو ثروة متداولة كالبضائع (عروض التجارة) فكل هذه الأصناف وغيرها مما قد نفرد لها حديثًا خاصًّا يوضح أحكامها تفصيلا تسمى زكاة مال.

والقسم الثاني من الزكاة: زكاة الفطر، والفطر: اسم مصدر من قولك: أفطر الصائم إفطارًا، وأضيفت الزكاة إلى الفطر لأنه سبب وجوبها، وقيل لها: فطرة، كأنها من الفطرة التي هي الخلقة. قال الشيرازي صاحب "المهذب": «ويقال

---

(١) الآية ٨١ من سورة الكهف.

(٢) من الآية ٢١ من سورة النور.

(٣) من الآية ٢١ من سورة النور.

للمخرج: فطرة - بكسر الفاء - لا غير، وهي لفظة مولدة لا عربية ولا معربة، بل اصطلاحية للفقهاء، أي: زكاة الخلقة» وممن ذكر هذا صاحب "الحاوي"[1].

والمقصود بزكاة الفطر شرعا: صدقة تجب بالإفطار من رمضان - ويمكن أن تخرج قبل ذلك - بمقدار محدد على كل نفس، يخرجها العائل عن نفسه وعمن تلزمه نفقته، وتخرج للفقراء والمساكين وكذلك يمكن أن تكون لباقي الأصناف الثمانية الذين ذكرهم الله في آية مصارف الزكاة، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾ ﴾[2].

حكمة زكاة الفطر:

وقد شرع الله زكاة الفطر لحكم عالية، وأغراض غالية، نذكر منها التكافل الاجتماعي، وتعميق روح الإخاء الإنساني بين أفراد المجتمع المسلم، فينبغي على المسلم الذي أغناه الله من فضله ألا ينسى أخاه الفقير، وأن يسعى على تهدئة نفسه، وراحة باله من سؤال الناس في ذلك اليوم، حتى يفرح في العيد - هو ومن يعول - مثلما يفرح أخوه الغني، وقد قال النبي ﷺ: «**أغنوهم في هذا اليوم**»[3] أي عن السؤال، فحث الدين الإسلامي على الرفق بالفقراء بإغنائهم عن السؤال في يوم العيد، وإدخال السرور عليهم في يوم يُسَرُّ المسلمون بقدومه عليهم.

ومن مقاصدها كذلك تطهير من وجبت عليه بعد شهر الصوم من اللغو والرفث، فعن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما قال: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، وطعمة للمساكين، من أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات»[4].

---

(١) راجع: «المجموع شرح المهذب» للنووي (٦/ ٦١).

(٢) الآية ٦٠ من سورة التوبة.

(٣) أخرجه الدارقطني في «سننه» (٢/ ١٥٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب «الزكاة» باب «زكاة الفطر» حديث (١٦٠٩)، وابن ماجه في كتاب «الزكاة» باب «صدقة الفطر» حديث (١٨٢٧)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٦٨) حديث (١٤٨٨) وصححه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

حكم زكاة الفطر:

واتفقت المذاهب الأربعة على وجوب زكاة الفطر على كل مسلم يقدر على إخراجها، إلا ما نقل في قول عن المالكية بأنها سنة، وقد ضعف هذا القول العلامة الدسوقي، ولا يشترط في القدرة على الإخراج ملك نصاب زكاة المال على ما ذهب إليه الجمهور، فمن ملك قوت يومه، وزاد عن ذلك مقدار الزكاة وجب عليه إخراجها. وهي صاع من الحبوب من غالب قوت أهل البلد، ومقدار ذلك الصاع يختلف باختلاف كثافة نوع الحبوب الذي يخرج منها الإنسان، فمثلا صاع الأرز ٢,٤٠٠ كيلو جرام، أما في الدقيق فسيكون أقل وهكذا، ونرى في هذه الأيام أفضلية إخراج زكاة الفطر مالاً، وعلى ذلك فستتراوح قيمتها بين ٣ إلى ٧ جنيهات في أيامنا هذه. [نهاية عام ٢٠٠٥].

الأفضل أن تخرج زكاة الفطر نقودًا:

وقد ذهبنا إلى القول بإخراج زكاة الفطر من النقود موافقة لمذهب طائفة من العلماء يعتد بهم، كما أنه مذهب جماعة من التابعين، منهم: الحسن البصري حيث روي عنه أنه قال: "لا بأس أن تعطي الدراهم في صدقة الفطر"، وأبو إسحاق السبيعي، فعن زهير قال: سمعت أبا إسحاق يقول: "أدركتهم وهم يعطون في صدقة الفطر الدراهم بقيمة الطعام"، وعمر ابن عبدالعزيز، فعن وكيع عن قرة قال: جاءنا كتاب عمر بن عبدالعزيز في صدقة الفطر: "نصف صاع عن كل إنسان أو قيمته: نصف درهم". وهو مذهب الثوري، وأبي حنيفة، وأبي يوسف.

وهو مذهب الحنفية، وبه العمل والفتوى عندهم في كل زكاة، وفي الكفارات، والنذر، والخراج، وغيرها. وهو أيضًا مذهب الإمام الناصر، والمؤيد بالله من أئمة أهل البيت الزيدية. وبه قال إسحاق بن راهويه، وأبو ثور، إلا أنهما قيدا ذلك بالضرورة، كما هو مذهب بقية أهل البيت، أعني جواز القيمة عند الضرورة، وجعلوا منها: طلب الإمام المال بدل المنصوص.

وهو قول جماعة من المالكية كابن حبيب، وأصبغ، وابن أبي حازم، وابن دينار، وابن وهب، على ما يقتضيه إطلاق النقل عنهم في تجويز إخراج القيم في الزكاة الشاملة لزكاة المال وزكاة الرءوس، بخلاف ما نقلوه عن ابن القاسم وأشهب، من كونهما أجازا إخراج القيمة في الزكاة إلا زكاة الفطر وكفارة الأيمان[1].

(١) راجع: «مصنف ابن أبي شيبة» (٢/ ٣٩٨)، «بدائع الصنائع» للكاساني (٢/ ٢٥)، «السيل الجرار» للشوكاني (٢/ ٨٤)، «البحر الزخار» لابن مرتضى (٣/ ٢٠٢).

كل هؤلاء العلماء ذهبوا إلى ذلك، هذا في عصورهم القديمة وقد كان نظام المقايضة موجودًا، بمعنى أن كل السلع تصلح وسائل للتبادل وخاصة الحبوب، فكان يباع القمح بالشعير، والذرة بالقمح وهكذا، أما في عصرنا - وقد انحصرت وسائل التبادل في النقود وحدها - فنرى أن هذا المذهب هو الأوقع والأرجح، بل نزعم أن من خالف من العلماء قديمًا لو أدرك زماننا لقال بقول أبي حنيفة، ويظهر لنا هذا من فقههم وقوة نظرهم.

كما أن إخراج زكاة الفطر نقودًا أولى للتيسير على الفقير أن يشتري أي شيء يريده في يوم العيد؛ لأنه قد لا يكون محتاجًا إلى الحبوب، بل هو محتاج إلى ملابس، أو لحم، أو غير ذلك، فإعطاؤه الحبوب يضطره إلى أن يطوف بالشوارع ليجد من يشتري منه الحبوب، وقد يبيعها بثمن بخس أقل من قيمتها الحقيقية، هذا كله في حالة اليسر، ووجود الحبوب بكثرة في الأسواق، أما في حالة الشدة وقلة الحبوب في الأسواق، فدفع العين أولى من القيمة مراعاة لمصلحة الفقير.

فضل زكاة الفطر:

ولزكاة الفطر فضل عظيم، وثواب جزيل، لا يعلمه إلا الله، وقد أعلمنا الله ببعض ذلك الفضل والثواب، وذلك الفضل والثواب قد يكون لارتباط هذه العبادة الجليلة بعبادة صيام رمضان فقد روي عن النبي ﷺ أنه سئل: أي الصوم أفضل بعد رمضان؟ فقال: «**شعبان لتعظيم رمضان**». قيل: فأي الصدقة أفضل؟ قال: «**صدقة في رمضان**»[1]. وزكاة الفطر صدقة تخرج في رمضان كما صح عن ابن عمر أنه كان يؤديها قبل العيد بيوم أو يومين[2].

قال محمد بن مصطفى الخادمي: «ودفع القيمة أفضل من دفع العين على المذهب، ومن فضائلها: قبول الصوم، والفلاح، والنجاة من سكرات الموت، وعذاب القبر كذا عن المنية والسراجية»[3].

ما ذكر قليل من كثير في شأن زكاة الفطر وما يتعلق بها من أحكام وحكم عالية وفضائل، نسأل الله أن يوفقنا لصالح الأعمال ابتغاء وجه الله، ويتقبل منا ما وفقنا فيه من أعمال، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب «الزكاة» باب «ما جاء في فضل الصدقة» حديث (٦٦٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ٣٠٥) حديث (٨٣٠٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب «الزكاة» باب «صدقة الفطر على الحر والمملوك» حديث (١٥١١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) «بريقة محمودية» (٤/ ١٩١).

السِّلم كأساس من أسس التقدم في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين، ونور الله المبين، سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وأصحابه الطيبين، وأتباعه الصادقين السالمين من العيوب والأغيار. وبعد؛

فلا شك أن السِّلم والأمن الدوليين من ناحية، والتقدم الاجتماعي والإنماء الاقتصادي من ناحية أخرى - أمور وثيقة الترابط متبادلة التأثير، وعلى نقيضه فإن العنف والحرب لهما تأثير سلبي على مسيرة التقدم، ورفاهية المجتمع المسلم.

وحتى تتضح هذه المعاني، ويمكننا الحكم عليها بالرفض أو القبول، فلابد أولا أن نذكر معاني هذه الكلمات في لغة العرب؛ كي ترتسم الصورة الحقيقية لهذه الألفاظ في الذهن، كي يتسنى لنا الحكم عليها فإن الحكم على الشيء فرع من تصوره.

فالسِّلْمُ في اللغة العربية بالكسر: السَّلامُ، والسلام اسم من أسماء الله تعالى. والسَّلامُ في الأَصل السَّلامة. يقال: سَلِمَ يَسْلَمُ سَلامًا سَلامة ومنه قيل للجنة: دار السَّلام لأَنها دار السَّلامة من الآفات. وقال الزجاج: سُمِّيَتْ دارَ السَّلامِ لأَنها دارُ السلامَة الدائمة التي لا تنقَطع ولا تَفْنى وهي دار السَّلامة من الموت والهَرَمِ والأَسقام، والسَّلِيمُ اللديغ كأَنهم تفاءلوا له بالسلامة.

أما الحَرْبُ في اللغة: فهي نَقِيضُ السِّلم، أُنثى، قال الأزهري: أَنَّثُوا الحَرْبَ لأَنهـم ذَهَبُوا بها إلى المُحارَةِ، وكذلك السِّلْمُ والسَّلْمُ يُذْهَبُ بهما إلى المُسالمةِ فتؤنث. وأَصلُها الصِّفةُ كَأَنها مُقاتَلَةٌ، حَرْبٌ، وجمعها حُرُوبٌ. وقد حارَبه مُحارَبةً وحِرابًا، وتَحَارَبُوا واحْتَرَبُوا وحارَبُوا بمعنى. ورجُلٌ حَرْبٌ ومِحْرَبٌ - بكسر الميم - ومِحْرابٌ: شَديدُ الحَرْب.

والرِّفْقُ في لغة العرب: ضد العنف وقد رَفَقَ به يرفق بالضم رِفْقًا ورَفَقَ به وأَرْفَقَهُ وتَرَفَّقَ به كله بمعنى، وأَرْفَقَهُ أيضا نفعه والرِّفْقَةُ الجماعة ترافقهم في سفرك بضم الراء وكسرها أيضًا والجمع رِفَاقٌ تقـول منـه رَافَقَهُ وتَرَافَقُـوا في السفر والرَّفِيقُ المُرَافِقُ والجمع الرُّفَقَاءُ فإذا تفرقوا ذهب اسم الرفقة ولا يذهب اسم الرفيق وهو أيضًا واحد وجمع كالصديق قال الله تعالى: ﴿ وَحَسُنَ أُوْلَتِيكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾(١).

(١) من الآية ٦٩ من سورة النساء.

وأمـــا العُنْفُ فهو في اللغــة: بالضــم ضد الرفق تقول منه: عَنُفَ عليه بالضم عُنْفا وعَنُفَ به أيضا والتَّعْنِيف التعيير: واللوم، وعُنْفُوانُ الشيء: أوله.

هذه معاني الكلمات الأربعة: السلم، الرفق، الحرب، العنف، والتي سيدور موضوع مقالنا هذا عن الآثار الإيجابية للسلم والرفق في تقدم المجتمعات المسلمة، وكذلك الآثار السلبية لكل من الحرب والعنف على مسيرة الشعوب المسلمة في التقدم الحضاري.

ولا شك أن الإسلام أمر بتعمير الأرض إذ قــال الله ســبحانه: ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[١]، وقد جعل الله القيام بالوظائف والأعمال التي يحتاج إليها الناس في معاشهم من الفروض، ولم يجعلها من المباح أو المستحب، وقد أجمع أهل العلم أن المريض في المجتمع المسلم إن لم يجد طبيبًا، فقد نال الإثــم والعقاب كل المجتمع، وكذلك في مجال التجارة والصناعة، وما عليه استقرار معايش الناس، فالتقدم في المجتمع المســلم، هو الوصول إلى أعلى مستويات خدمة المجتمع في جميع مجالات حياته، كالوصول لأعلى مستويات الحفاظ على صحته وبدنه، وكذلك الوصول لأعلى مستويات التعليم، وأعلى مستويات المواصلات والاتصالات، وتوفير مياه الشرب، وما إلى ذلك من حاجات ضرورية، ولا شك كذلك أن من سعى لتوفير هذه الخدمات لتحقيق خدمة المجتمع هو مــأجور عنــد الله وممدوح عن خلقه جميعًا.

وقد ساهمت الحضارة الإسلامية بنصيب وافر في تقدم مختلف مجالات العلم والطب والمنجزات التي تحققت في العالم قديمًا وحديثًا، وما تخلفت الأمة عن مسايرة ركب الحضارة في كثيــر من المجــالات إلا بسبب الحروب التي شنها عليها غيرهم من المستعمرين الطامعين في خيراتها، وما عندها من موارد طبيعية، وعلمية استفاد منها رواد النهضة الحديثة في فرنسا.

ومن هذا نعلم لماذا حثَّ الإسلام على السلم والأمن، وما لهما من تأثير بالــغ الأهمية على استقرار حياة البشر وتقدمها في جميع المجالات، ولكي نعلم مدى تأثير السلم والأمن على التقدم بالنسبة للشعــوب، فعلينا أن نلقي نظرة على الآثــار

(١) من الآية ٦١ من سورة هود.

المدمرة للحروب على الشعوب والتقدم والرقي، فكما يقال: الضدُّ يُظهر حُسنه الضدُّ، فإن أول مقومات الرقي والتقدم للأمة هي صلاحية أفراد المجتمع صحيًّا وبدنيًّا لأداء وظائفهم، فعندما نعلم أن للحروب والعقوبات الاقتصادية آثارًا وخيمة على صحة الأمم وعافيتها.

فقد اتضح من الدراسات أن هذه الأحداث قد سبَّبت من الوفيات وحالات العجز أكثر مما سبَّبه أيُّ مرض من الأمراض الرئيسية. فقد دمَّرت الحروب المجتمعات والأُسَر، وغالبًا ما كانت السبب في وقف تطوُّر النسيج الاجتماعي والاقتصادي للأمم.

وقد شملت آثار الحروب والعقوبات الاقتصادية إلحاقَ أضرار بدنية ونفسية طويلة الأمد بالأطفال والبالغين، وانخفاض رأس المال المادي والبشري. كما كان لفرض عقوبات اقتصادية على البلدان آثارٌ صحية سلبية، غالبًا ما عرقلت تشغيل القطاع الصحي.

فالحرب العالمية الأولى كانت حصيلتها ٣٠ مليون قتيل فيما كانت حصيلة الحرب العالمية الثانية ٥٤,٨ مليون قتيل إضافة إلى المعاناة الإنسانية الضخمة وآلاف المليارات من الخسائر المادية وتورط العالم بأسره بشكل أو بآخر في هذه الحروب والثورات والقلاقل، وما زال بعضها مستعمرًا من حولنا كفلسطين، والعراق حديثًا، وما في جمهوريات الاتحاد السوفييتي سابقًا وكما في يوغسلافيا وأفغانستان وغيرها.

فإن الحروب تعمل على تدمير الحياة وانهيار الاقتصاد، كما أنها تحد من طموحات الإنسانية في تحقيق حياة سعيدة في بيئة آمنة، فضلا عن تلوث البيئة واستهلاك الجزء الأكبر من الموارد التي يجب أن توضع في خدمة محاربة الفقر وفي تحقيق التنمية المستدامة.

أما عن آثار التلوث فحدث ولا حرج، ففي الولايات المتحدة الأمريكية هناك ٢١٤٠١ موقعًا ملوثًا تلوثًا كبيرًا والعديد منها ملوث بالإشعاعات العالية بسبب تفجير ١٨٠٠ قنبلة هيدروجينية في مختلف أنحاء العالم خلال العمليات التجريبية تم تفجير ربعها في الجو وينتج التسلح ٩٧% من مخلفات المواد عالية السُّمِّية و٧٨% من المواد ذات الخاصية الإشعاعية المتوسطة والمنخفضة السمية أي: ما يعادل ١,٤ مليار كوري وهذا يساوي ٢٨ ضعف الإشعاعات التي أطلقتها حادثة تشيرنوبل (٥٠ مليون كوري).

ويحدث كل هذا تحت ظروف التدريب العادية بدون نشوب الحروب، ودعونا نلق نظرة على الإرث الذي خلفته لنا الحرب الباردة: المليارات المؤلفة تم صرفها خلال سباق التسلح، ومليارات مؤلفة أخرى يجب صرفها الآن للتخلص من فائض هذه المعدات الخطيرة، كميات هائلة من المخلفات الحربية الخطيرة يجب التخلص من سميتها ومن ثم التخلص منها، ومواقع لا تعد ولا تحصى تلوثت تربتها ومياهها تنتظر إعادة تأهيلها وتنظيفها، وتلال من الأسلحة الفائضة من الطراز القديم يجب أن يجري تفكيكها بطريقة مقبولة (آمنة بيئيًّا)، ففي ألمانيا وحدها هناك حوالي ٥٠٠٠ عبء من هذا النوع خلفتها جيوش الروس والأمريكان وجيش ألمانيا الشرقية سابقًا وراءها، وتقدر كلفة التخلص من هذه المواد مليون مليون مارك ألماني.

فإن الحرب خلفت الخسائر في الأرواح، ومعاناة الجرحى، ومشوهي الحروب، إضافة إلى تراجع القيم الإنسانية، وفساد المعتقدات والقيم، والآثار السلبية على الإنسان والطبيعة تفوق بكثير المكاسب التي جناها المنتصر من الحرب.

كل ذلك وغيره الكثير يجعلنا على يقين تام بأنا - نحن المسلمين والعالم من حولنا - في أشد الحاجات للسلم والأمن من أي وقت آخر؛ لأنه لا سبيل للوصول إلى التقدم المنشود الذي هو غاية كل حكومات العالم إلا عن طريق السّلم، وإن آثار حرب واحدة كفيلة بتأخير الأمة مئات السنين فضلا عن توقفها بلا تقدم في هذه السنوات.

وقد كانت الحروب والصراعات منذ القدم والفساد وسفك الدماء، أسباب إرسال الله للرسل، وإنزال الله للكتب، وكانت هذه هي الوظيفة الأساسية لكل الديانات السماوية، وعملت تلك الأديان على إنقاذ البشرية من ظلمات الجهالة، وأدخلت في قلوب الناس الإيمان والطمأنينة من خلال تعاليمها السماوية وسلوك المؤمنين بها، لما للدين من تأثير كبير على السلوك والفكر والشعور، ولقد تجلى هذا التأثير واضحًا في التراث الإسلامي كما يمكن ملاحظته من خلال التأثر الهائل في الحياة اليومية للمسلمين، فالإسلام منهج حياتي وميثاق شرف ونظام قانوني يتخلل حياة المسلم بكافة وجوهها.

فالإسلام الحنيف جاء إلى البشرية ليخرجها من الاستبداد والجور، ويأخذ بيدها نحو العدالة والأمان، لا أن يرمي بها في متاهات البطش والعنف التي لا يجنى منها سوى الويلات والآهات.

الآخرين، حيث قال سبحانه في كتابه العزيز: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٧١ ﴾[١].

ومقارنة بما ذكر من وحشية في الحروب، وسفك الدماء وخراب ودمار للبلاد والعباد من حروب المعتدين - نجد أن سيرة المصطفى ﷺ نظيفة من هذه التهم، بل إن تحركاته العسكرية التي بلغت نحو ثمانين غزوة وسارية كانت كلها بسبب دفع الظلم ورد العدوان، فلم يحدث القتال الفعلي في كل هذه التحركات سوى في سبع مواقع فقط في سيرته ﷺ أثناء نشره للدعوة الإسلامية.

وسوف تجد نتائج مذهلة في هذه المواقع منها: أن المحاربين كانوا كلهم من قبائل مُضَر أولاد عمه ﷺ ولم يقاتله أحد من ربيعة ولا قحطان، وأن عدد القتلى من المسلمين في كل المعارك ١٣٩، ومن المشركين ١١٢، ومجموعهم ٢٥١، وهو عدد القتلى من حوادث السيارات في مدينة متوسطة الحجم في عام واحد، وبذلك يكون عدد القتلى في كل تحرك من تلك الثمانين ٣,٥ شخص، وهذا أمر مضحك مع ما جُبِلَ عليه العرب من قوة الشكيمة والعناد في الحرب أن يكون ذلك سببًا لدخولهم الإسلام وتغيُّر دينهم؛ مما يؤكد أن الإسلام انتشر بعد ذلك بطريقة طبيعية لا دخل للسيف ولا القهر فيها، وإنما إقامة العائلات بين المسلمين وغيرهم، وعن طريق الهجرة المنتظمة من داخل الحجاز إلى أنحاء الأرض.

وهناك حقائق حول هذا الانتشار، حيث يتبيَّن أنه في المائة عام الأولى من الهجرة كانت نسبة انتشار الإسلام في غير الجزيرة كالآتي: ففي فارس (إيران) كانت نسبة المسلمين فيها هي ٥%، وفي العراق ٣%، وفي سورية ٢%، وفي مصر ٢%، وفي الأندلس أقل من ١%.

أما السنوات التي وصلت نسبة المسلمين فيها إلى ٢٥% من السكان فهي كالآتي: إيران سنة ١٨٥هـ - العراق سنة ٢٢٥هـ - سورية ٢٧٥هـ - مصر ٢٧٥هـ - الأندلس سنة ٢٩٥هـ. والسنوات التي وصلت نسبتهم فيها إلى ٥٠% من السكان كانت كالآتي: بلاد إيران ٢٣٥هـ - والعراق ٢٨٠هـ - وسورية ٣٣٠هـ - ومصر ٣٣٠هـ والأندلس ٣٥٥هـ. أما السنوات التي وصلت نسبة المسلمين فيها إلى ٧٥% من السكان فكانت كالآتي: بلاد إيران ٢٨٠هـ - والعراق ٣٢٠هـ - وسورية ٣٨٥هـ - ومصر ٣٨٥هـ - والأندلس سنة ٤٠٠هـ.

---

(١) من الآية ٧١ من سورة آل عمران.

كما أنك ستلاحظ أن هذا الانتشار الإسلامي تميز أيضا بخصائص منها: عدم إبادة الشعوب، ومعاملة العبيد معاملة راقية بعد تعليمهم وتدريبهم وتوليتهم الحكم في فترة اشتهرت في التاريخ الإسلامي بعصر المماليك، والإبقاء على التعددية الدينية من يهود ونصارى ومجوس حيث نجد الهندوكية على ما هي عليه وأديان جنوب شرق آسيا كذلك، وإقرار الحرية الفكرية فلم يعهد أنهم نصبوا محاكم تفتيش لأي من أصحاب الآراء المخالفة، كما اتسمت بالعدل في توزيع ثروات الدول التي دخلها الإسلام، فقد ظل إقليم الحجاز مصدر الدعوة الإسلامية فقيرا حتى اكتشاف البترول في العصر الحديث.

وقد شهد بهذه الحقيقة كثير من غير المسلمين في العصر الحديث، فالمفكر "لورد هدلي: يقف مندهشا عند معاملة النبي ﷺ للأسرى من المشركين في معركة بدر الكبرى، ملاحظا فيها ذروة الأخلاق السمحة والمعاملة الطيبة الكريمة، ثم يتساءل: "أفلا يدل هذا على أن محمدًا لم يكن متصفا بالقسوة ولا متعطشًا للدماء، كما يقول خصومه؟ بل كان دائمًا يعمل على حقن الدماء جهد المستطاع، وقد خضعت له جزيرة العرب من أقصاها، وجاءه وفد نجران اليمنيون بقيادة البطريق، ولم يحاول قط أن يكرههم على اعتناق الإسلام، فلا إكراه في الدين، بل أمنهم على أموالهم وأرواحهم، وأمر بألا يتعرض لهم أحد في معتقداتهم وطقوسهم الدينية.

ويقول الفيلسوف الفرنسي (ولتر): "إن السنن التي أتى بها النبي محمد كانت كلها قاهرة للنفس ومهذبة لها، وجمالها جلب للدين المحمدي غاية الإعجاب ومنتهى الإجلال، ولهذا أسلمت شعوب عديدة من أمم الأرض، حتى زنوج أواسط إفريقيا، وسكان جزر المحيط الهندي".

أما العالم الأمريكي (مايكل هارت) فهو يرد نجاح النبي ﷺ في نشر دعوته وسرعة انتشار الإسلام في الأرض إلى سماحة هذا الدين وعظمة أخلاق النبي ﷺ الذي اختاره على رأس مائة شخصية من الشخصيات التي تركت بصماتها بارزة في تاريخ البشرية، ويقول: "إن محمدًا هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح مطلقا في المجالين الديني والدنيوي، وأصبح قائدًا سياسيًّا وعسكريًّا".

وهذا (توماس كارليل) يقول في كتابه "الأبطال وعبادة البطولة": «إن اتهامه – أي: سيدنا محمد ﷺ – بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم؛ إذ ليس مما يجوز في الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس، أو يستجيبوا له، فإذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم، فقد آمنوا به طائعين مصدقين، وتعرضوا للحرب من غيرهم قبل أن يقدروا عليها".

ويقول المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب - وهو يتحدث عن سر انتشار الإسلام في عهده ﷺ وفي عصور الفتوحات من بعده: "قد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة..... ولم ينتشر القرآن إذن بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرا كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل ما زاد عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها".

وفي الختام نؤكد على ضرورة السلم والأمن كأساس هام من أسس التقدم في المجتمعات الإسلامية، ونرجو أن نكون وفقنا في عرض هذه الفكرة، وكذلك محو شبهة التعارض بين الإسلام والسلم والأمن، أو شبهة انتشار الإسلام بالسيف.

والله نسأل وبنبيه ﷺ نتوسل أن يجعل أيامنا كلها سلام وآمان، وأن يتقدم المسلمون في كل مجالات الحياة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

التسامح في نصوص الشرع الشريف

مقدمة:

تعرض القرآن الكريم لوحدة المنبع الإنساني، ونشأة الإنسانية في صور شتى، وألوان مختلفة من التعبير، وأول صورة ذكرها الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز هي قصة خلق آدم أبي البشر وأصل الإنسانية، وهي كذلك القصة الوحيدة التي تعرَّضت لها المذاهب والشرائع الأخرى في صدد الكلام على أصل البشرية ووحدة منبعها.

وفي شأن هذه القصة يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[1].

فالبشر جميعهم عائلة واحدة من أب واحد، وهم جميعا ورثة تلك الخلافة في إعمار الأرض ونشر الأمن والسلام.

وإن سفك الدماء وفساد الأرض مسلك بغيض لا يريده الله سبحانه وتعالى من البشر على مختلف أديانهم؛ ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ ﴾[2].

(١) الآيات ٣٠ : ٣٣ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ٣٢ من سورة المائدة.

وقال عز من قائل في ذم من كان نهجه كذلك في الفساد: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾[1].

وقد وضع القرآن الكريم قواعد واضحة للعائلة البشرية، وأعلن الإسلام أن الناس جميعًا خُلقوا من نفس واحدة؛ مما يعني وحدة الأصل الإنساني، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾[2]، والناس جميعًا في نظر الإسلام هم أبناء تلك العائلة الإنسانية، وكلهم له الحق في العيش والكرامة دون استثناء أو تمييز.

فالإنسان مكرَّم في نظر القرآن الكريم، دون النظر إلى دينه أو لونه أو جنسه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[3].

وما اختلاف البشرية في ألوانها وأجناسها ولغاتها وديانتها إلا آية من الآيات الدالَّة على عظيم قدرة الخالق تعالى، قال ﷻ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[4].

وهذا الاختلاف لا يجوز أن يكون سببًا في التنافر والعداوة، بل إنه يجب أن يكون سببًا للتعارف والتلاقي على الخير والمصلحة المشتركة، فالله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾[5]، وميزان التفاضل الذي وضعه القرآن الكريم، إنما هو ما يقدمه هذا الإنسان من خير للإنسانية كلها مع الإيمان الحق بالله

---

(١) الآية ٢٠٥ من سورة البقرة.
(٢) الآية ١ من سورة النساء.
(٣) الآية ٧٠ من سورة الإسراء.
(٤) الآية ٢٢ من سورة الروم.
(٥) من الآية ١٣ من سورة الحجرات.

تعالى، فالله يقول: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾[1] ولم ينظر القرآن الكريم لغير المسلمين نظرة انتقاص، بل نظر لهم نظرة إجلال، وإن خالفونا، فلم يأمرنا ربنا بقتل من لا يدين بديننا، بل قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾[2] قال ابن كثير في تفسير تلك الآية: «أي لا تُكرِهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيِّن واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكْرَه أحد على الدخول فيه»[3].

وسبب نزول الآية كما ذكر المفسرون يبين جانبًا من إعجاز هذا الدين؛ حيث إن الإسلام لم يسمح للمسلمين أن يأخذوا أبناءهم الذين هوَّدوهم وهم صغارًا. فقد رووا عن ابن عباس قال: كانت المرأة تكون مِقْلاتًا[4] فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تُهوِّدَه[5]، فلما أُجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقال آباؤهم: لا ندع أبناءنا[6]، فأنزل الله ﷻ هذه الآية: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾.

وأما القاعدة التي وضعها القرآن في التعامل مع غير المسلمين فتتمثل في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾[7]، فالآية واضحة في أننا – نحن المسلمين – عندما لا يرغب غير المسلمين أن ينضموا إلى ديننا فعلينا صلتهم، والعدل معهم، ومعاملتهم المعاملة الطيبة؛ بناء على مبدأ الاحترام المتبادل والعلاقات الطيبة والمصالح المشتركة.

وقد ذهب فقهاء المسلمين لفهم هذا المعنى في الصلة بين المسلم وغير المسلم فقالوا: لا بأس بأن يَصِلَ المسلمُ المشركَ قريبا كان – أي بينه وبينه رحم – أو بعيدًا، محاربًا كان أو ذِميًا؛ لحديث سلمة بن الأكوع قال: صليت الصبح مع

(١) من الآية ١٣ من سورة الحجرات.
(٢) من الآية ٢٥٦ من سورة البقرة.
(٣) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣١١).
(٤) أي: قليلة النسل.
(٥) كان يفعل ذلك نساء الأنصار في الجاهلية.
(٦) يعنون: لا ندعهم يعتنقون اليهودية.
(٧) الآية ٨ من سورة الممتحنة.

النبي ﷺ، فوجدت مس كف بين كتفي، فالتفت فإذا رسول الله ﷺ فقال: «**هل أنت واهب لي ابنة أم قرفة؟**» قلت: نعم، فوهبتها له، فبعث بها إلى خاله حزن بن أبي وهب، وهو مشرك وهي مشركة[1]. فالإسلام دين يعيش مع الواقع ويقوده إلى فضائل الأخلاق، ومن خلال نظرة متأنية للواقع نلاحظ أن مفكري العالم ومُصلحيه الآن يدعون البشرية إلى التعايش والتقارب، وفي هذا تبدو للإسلام أسبقية في موضوع التعايش السلمي بين دول العالم وإحلال السلام الشامل العادل بيئةً تعيش فيها الشعوب.

إن كل من طالع تراث الحضارة الإسلامية عبر تاريخها المشرق المُشَرِّف، وكان يتسم بالحياد والنزاهة - تقرر عنده بوضوح أن الدين الإسلامي هو دين الرحمة والسماحة بأسمى معانيها ومنتهى درجاتها، فالتسامح هو ثمرة الإيمان، ودليل أكيد على الزهد في حطام الدنيا الفانية، والرغبة في القرب من رب العالمين.

وموضوع هذا البحث هو التسامح الإسلامي في نصوص الشرع الشريف؛ ولهذا فسوف يقتصر البحث على فصلين فقط:

الفصل الأول: نصوص القرآن تمثل دستور التسامح المنشود.

الفصل الثاني: التسامح في السنة يقرر حقيقة مكارم الأخلاق.

(١) ذكره السرخسي في «شرح السير الكبير» (١/ ٩٦) باب صلة المشرك.

الفصل الأول

نصوص القرآن دستور التسامح المنشود

لا شك أن الإسلام هو أوضح الأديان في الدعوة إلى التسامح، وبقليل من الجُهد يتضح ذلك المعنى، ونحن بصدد الاستشهاد بآيات القرآن التي تدعو إلى التسامح، وتعلن في غاية البيان أن دين الإسلام هو دين السماحة.

أولا: آيات التسامح المتعلقة بالنبي الأعظم ﷺ:

النبي محمد ﷺ، هو رمز هذه الأمة الإسلامية، وهو النموذج الفريد الذي يسعى كل المسلمين إلى التشبُّه به ظاهرًا وباطنًا؛ ولذلك سوف نورد تلك الآيات التي تعاملت مع قمة المسلمين ورأس أمرهم النبي المصطفى ﷺ، وأُولى هذه الآيات، قوله سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾[1]، عن ابن عباس في قول الله في كتابه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ قال: من آمن بالله واليوم الآخر كُتِب له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف[2].

وإن كان غير المسلمين لا يُصدِّقون بالقرآن، ولكنهم يعتقدون أننا نصدق بالقرآن، ويعتقدون كذلك أننا نجمع أن هذه الآية في كتابنا العزيز المقدس، إذن فعليهم أن يعتقدوا كذلك أننا سنتعامل مع العالم في إطار هذه الآية بميراث الرحمة المحمدية، ونكون ورثة نبينا العظيم في أخلاقه كلها، والتي على رأسها الرحمة.

وإن لم يكن من القرآن غير هذه الآية العظيمة في معنى سماحة الإسلام لكَفَتْ، ولكن الله سبحانه أكد هذا المعنى العظيم بأكثر من آية، كقوله تعالى: ﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٨٩ ﴾[3]، ذكر الطبري تأويلها فقال: «يقول –

(١) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

(٢) «تفسير الطبري» (١٧/ ١٠٦).

(٣) الآية ٨٩ من سورة الزخرف.

تعالى ذكره - لنبيه محمد ﷺ جوابًا له عن دعائه إياه إذ قال: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٌ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[1]: فاصفح عنهم يا محمد وأعرض عن أذاهم وقل لهم: سلام عليكم، ورفع (سلام) بضمير عليكم أو لكم»[2].

وهذه الآية خطاب من الله سبحانه وتعالى إلى النبي ﷺ وأتباعه في كل عصر، فأمَرَه الله بالصفح وتَرْك المؤاخذة، وهذا الأمر يشمل نهيه عن الانتقام والمؤاخذة، وقرن الله سبحانه وتعالى الصفح بقول: (سلام)، والسلام هو الأمل المنشود الذي سعى إليه المسلمون عبر تاريخهم وفي تاريخهم الحديث سعيًا صادقًا لم يتمثل في الادعاءات وبعض المظاهر الخادعة، والله يعلم بما في قلوب الناس.

ورغم أن الله سبحانه وتعالى أمَرَه صراحة بالصفح في الآية السابقة، إلا أنه تعالى أراد أن يؤكد على هذا الأمر ويزيده جمالا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾[3]، فبيَّن ربنا سبحانه وتعالى أن الصفح المراد ليس مطلق الصفح، بل صفح مخصوص وهو الصفح الجميل، الصفح الذي به جمال وكرم، فيقول الطبري في «تفسيره»: «الصفح الجميل: يقول: فأعرض عنهم إعراضًا جميلا واعف عنهم عفوا حسنا»[4]. وكذلك كان ﷺ متبعا لأوامر مولاه في شأنه كله لا يفتر عنها أبدًا.

ومن لم يتبع رسولنا الكريم في دينه بعد بعثته هو منتسب إلى أُمَّته باعتبار كونه من أُمَّة الدعوة، تلك الأمة التي حفظها الله كلها - متبعين وغير متبعين - بوجوده بينهم، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ ﴾[5].

ومن آيات التسامح الإسلامي المتعلقة بجناب النبي الأعظم ﷺ قوله جل اسمه: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾[1]، فأمره ربه تعالى بأخذ العفو، وقبول اليسير من الناس، وألا يشدد عليهم، وأمره كذلك بالإعراض عن الجاهلين وعدم مؤاخذتهم؛ تأكيدا على معنى الصفح والحلم والسماحة، وهذا توجيه للأمة الإسلامية جميعها في كل عصورهم.

---

(١) من الآية ٨٨ من سورة الزخرف.
(٢) «تفسير الطبري» (٢٥/ ١٠٦).
(٣) من الآية ٨٥ من سورة الحجر.
(٤) «تفسير الطبري» (١٤/ ٥١).
(٥) من الآية ٣٣ من سورة الأنفال.

والخُلق المنشود لا يصير سلوكا بمجرد الأمر والنهي، وإنما بالفعل والعمل؛ ولذلك قالوا: عمل الرجل في ألف رجل أبلغ من قول ألف رجل في رجل. والله سبحانه وتعالى على جلال قدره وعظيم قوته تعامل معنا بالرحمة والصفح والعفو.

وفي هذا التوجيه الرباني يأمر سبحانه أحبَّ خلقه إليه بأن يتعامل مع أصحابه كذلك، فقال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾[٢]، فبعد أن أخبر سبحانه أن لين النبي ﷺ رحمة من الله بأتباعه أمره مع ذلك اللين أن يعفو عن أصحابه، فكانت رحمة بعد رحمة، ورحمة على رحمة، وهذا كله حتى يُعلِّم أصحابه الرحمة واللين والرفق، فكان ﷺ مراد الله يمشي على الأرض، وعلَّم العالَم بأسره الرحمة والعفو.

ولم يقتصر أمر الله سبحانه وتعالى لحبيبه ومصطفاه ﷺ بالرحمة والعفو على أصحابه وأتباعه فحسب، بل أمره الله بأن يسلك نفس المسلك في الرحمة مع اليهود، وقد يتعجب مطالع هذا النص القرآني؛ إذ كان الأمر بالرحمة والعفو يعقب ذكر بعض جرائم اليهود، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[٣].

وكأن الله ﷻ يريد أن يقول لنبيه ﷺ: حتى وهم ينقضون الميثاق مع ربهم، ويحرفون كلامه لمصالحهم الدنيوية، لا تعاملهم بمعاملتهم، بل اعف عنهم واصفح؛ لتُعلِّم العالَمين نزاهة الأخلاق ومكارم الأخلاق، ولا غرو فقد كان ﷺ على خلق عظيم.

(١) الآية ١٩٩ من سورة الأعراف.
(٢) من الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.
(٣) الآية ١٣ من سورة المائدة.

بل أمر الله سبحانه نبيه ﷺ صراحة أن يقابل السيئة بالحسنة، فقال تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[1]. فأعلم الله نبيه لما يكون من فائدة العفو والتسامح والدفع بالتي هي أحسن من سلام اجتماعي، حتى يصبح العدو كالولي الحميم، فما أجملها من صورة سعى إليها الإسلام، ودعا إليها في منهجه النظري، وطبَّقها المسلمون عبر تاريخهم المشرق.

وفيما يلي نذكر آيات القرآن في التسامح الإسلامي والتي لم تختص برسولنا وحده بل بالأمة الإسلامية جميعها:

ثانيًا: آيات القرآن التي تدعو كل المسلمين للتسامح:

كانت توجيهات القرآن الكريم للأُمَّة الإسلامية بالتسامح والعفو واضحة، ليس بين أفراد المجتمع الإسلامي فحسب، بل حتى مع من يؤذونهم من المشركين؛ حيث أمر الله المؤمنين أن يعفوا ويغفروا لغير المسلمين، كرد فعل عما يلاقونه من الأذى، وهذا سمو أخلاقي ما له نظير بين أمم البشر.

ولعل قائلا يقول: إنهم كانوا يتسامحون مع الذين يؤذونهم لأنهم ليس لهم شوكة ولا قوة، فالجواب: لو أن المسألة مسألة ضعف لقال الله لهم: اصبروا حتى تتمكنوا فتنتقموا، ولكنه قال: اعفوا واغفروا واصفحوا، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[2]، ويؤكد القرآن الكريم على الدفع بالتي هي أحسن وفوائده وكون ذلك مع الذين يريدون أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم، فقال سبحانه: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾[3].

(١) من الآية ٣٤ من سورة فصلت.
(٢) الآية ١٤ من سورة الجاثية.
(٣) الآية ١٠٩ من سورة البقرة.

فهذا سياق تحتار فيه العقول، بعد أن أخبر سبحانه بما يضمره أهل الكتاب من مشاعر حقد وحسد يأمر المسلمين بالعفو والصفح، ويطلب منهم أن ينتظروا أمر الله ولا ينتقموا لأنفسهم.

وامتدح الله المؤمنين الذين يحافظون على طاعة الله، وإذا ما وقعوا في المعصية يرجعون من قريب، وامتدحهم أيضا بأنهم يتسامحون إذا ما هم غضبوا فقال جل اسمه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[1].

وامتدح الله الصابرين على الأذى، والتاركين للانتقام لأنفسهم بصيغة تحث على الترغيب في العفو والتسامح، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾[2].

كذلك امتدح الله عباده المؤمنين الذين اجتمعت فيهم خصال الخير، من الإنفاق في سبيل الله، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس جميعهم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[3].

وتتعدد أساليب الدعوة إلى العفو في القرآن الكريم، فتارة تكون بصيغة الأمر، وتارة بصيغة مدح من يعفو، وأخرى بالتذكير بأن الثواب من جنس العمل، فيدعو الله المؤمنين إلى هذا الخُلُق الرشيد وهو العفو؛ حتى يعاملهم الله به، فيقول تعالى: ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[4].

ثم يؤكد المولى سبحانه وتعالى نفس المعنى، من أن جزاء المغفرة غفران، وجزاء الإحسان إحسان، وإن كان سياق هذه الآية في صيغة الشرط، فيقول عز من قائل: ﴿ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾[5].

---

(١) الآية ٣٧ من سورة الشورى.
(٢) الآية ٤٣ من سورة الشورى.
(٣) الآية ١٣٤ من سورة آل عمران.
(٤) من الآية ٢٢ من سورة التوبة.
(٥) من الآية ١٤ من سورة التغابن.

ويستمر القرآن في بيان أن أفضل الأخلاق هو ترك المؤاخذة، والتسامح، فيبين المولى سبحانه وتعالى أن العفو أجره لا يعلمه إلا الله، مما يفيد عظيم الثواب كما في الصيام، فقال سبحانه: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[1].

ونختم هذا الاستشهاد القرآني بدعوة القرآن الكريم للعفو حتى في مواطن القتل؛ حيث يدعو اللهُ وليَّ الدم للعفو عن القاتل: ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾[2].

فرب العالمين يبيِّن أن هذا الخُلُقَ هو تخفيف من الله سبحانه وتعالى ورحمة منه، وعلى عباد الله الصادقين المؤمنين أن يتخلقوا بأخلاق الجمال من ربهم، ويتعلقوا بأخلاق الجلال من ربهم.

وفيما يلي نتعرض لذكر نصوص السنة النبوية المشرفة على من سنها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

(١) من الآية ٤٠ من سورة الشورى.
(٢) من الآية ١٧٨ من سورة البقرة.

الفصل الثاني

التسامح في السنة يقرر حقيقة مكارم الأخلاق

أخبر الرسول الكريم ﷺ أن ربه أرسله سبحانه وتعالى ليحقق به كمال الأخلاق، ويتم به مكارمها، وهذا المعنى لم يكن مستنبطا من الأحاديث بقدر ما كان صريحًا في أقواله ﷺ، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»[1].

قال صاحب "فيض القدير": «قال الحكيم: أنبأنا به أن الرسل قد مضت ولم تتم هذه الأخلاق، فبُعث بإتمام ما بقي عليهم. وقال بعضهم: أشار إلى أن الأنبياء - عليهم السلام - قبله بعثوا بمكارم الأخلاق وبقيت بقية ﷺ بما كان معهم وبتمامها»[2].

وقد أخبرنا رسولنا المصطفى ﷺ أن الأمة كلها مبعوثة من ربها، وأن الله ابتعث هذه الأمة للتيسير على عباده، وليس للتعسير عليهم، فعن أبي هريرة قال: قام أعرابي فبال في المسجد، فتناوله الناس، فقال لهم النبي ﷺ: «**دعوه وهريقوا على بوله سَجْلا من ماء أو ذنوبًا من ماء؛ فإنما بعثتم مُيَسِّرين، ولم تُبعثوا مُعَسِّرين**»[3].

أما عن مسألة التسامح والعفو خاصة فقد امتلأت كتب السنة بالأحاديث الداعية للتسامح والعفو، فأرشد النبي العظيم ﷺ أمته إلى التحلي بالتسامح في معاملاتهم كلها، سواء كانت هذه المعاملات مع المسلمين أم مع غير المسلمين.

فعن جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «**رحم الله رجلا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى**»[4]. ويشهد لهذا الحديث أيضًا ما رواه سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أدخل الله رجلا الجنة كان سهلا مشتريًا وبائعًا**»[1].

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٨١) حديث (٨٩٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٨٨) وقال: «ورجاله رجال الصحيح».

(٢) «فيض القدير» للحافظ المناوي (٢/ ٥٧٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب «الوضوء» باب «صب الماء على البول في المسجد» حديث (٢٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب «البيوع» باب «السهولة والسماحة في الشراء والبيع ومن طلب حقا فليطلبه في عفاف» حديث (٢٠٧٦) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

وبيّن النبي ﷺ أن الدين الإسلامي سَمْحٌ وسهل ويسير، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: قيل لرسول ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: «**الحنيفية السمحة**»(٢).

واستنبط الشافعي من الحديث قاعدة: أن المشقة تجلب التيسير، وإذا ضاق الأمر اتسع(٣).

وأمر رسولنا الكريم ﷺ المسلم أن يسمح ويتسامح؛ حتى يسمح الله معه، فعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**اسمح يُسمح لك**»(٤).

كما بيّن النبي ﷺ أن السماحة إذا غابت من المسلمين فإن الموت أفضل لهم من الحياة، وإذا انتشرت السماحة بينهم فإن الحياة أفضل لهم، ونستطيع أن نقول: إن النبي ﷺ وضع دستور الإصلاح الداخلي في الدولة المسلمة، قبل أن ينادي به هؤلاء الذين لا يعرفون التسامح ولا السماحة، ويسعون في الأرض فسادًا؛ وإنما ينادون به ذريعةً لإهلاك البلاد والعباد والله لا يحب الفساد.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمحاءكم، وأموركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأموركم إلى نسائكم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها**»(٥).

ولم يقتصر النبي ﷺ في دعوته للأمة بالتسامح على الإرشاد بالكلام فحسب، بل ضرب النبي المصطفى ﷺ أروع أمثلة التسامح والحلم؛ ليُعلِّم أصحابه والمؤمنين من بعده والعالم بأسره كيف يتسامح الإنسان مع أخيه الإنسان، فعن أنس بن مالك

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٧٠) حديث (٥٠٨)، والنسائي في «المجتبى» في كتاب «البيوع» باب «حسن المعاملة والرفق في المطالبة» حديث (٤٦٩٦)، وفي «السنن الكبرى» (٤/ ٦٠) حديث (٦٢٩٥)، وابن ماجه في كتاب «التجارات» باب «السماحة في البيع» حديث (٢٢٠٢)، وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٣٥٣) وسكت عنه.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢٣٦) حديث (٢١٠٧)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٢٢٧) حديث (١١٥٧٢).

(٣) «فيض القدير» للحافظ المناوي (١/ ١٧٠).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢٤٨) حديث (٢٢٣٣)، والطبراني في «الأوسط» (٥/ ٢١١) حديث (٥١١٢)، وفي «الصغير» (٢/ ٢٨١) حديث (١١٦٩)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٩٣) وقال: «ورواه الطبراني في الصغير والأوسط ورجالهما رجال الصحيح».

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب «الفتن» باب «ما جاء في النهي عن سب الرياح» حديث (٢٢٦٦).

ﷺ قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثَّرَتْ به حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: مُرْ لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه، فضحك ثم أمر له بعطاء[1].

قال الإمام النووي بعد أن ذكر هذا الحديث: «فيه احتمال الجاهلين، والإعراض عن مقابلتهم، ودفع السيئة بالحسنة، وإعطاء من يتألف قلبه، والعفو عن مرتكب كبيرة لا حد فيها بجهله، وإباحة الضحك، ثم الأمور التي يتعجب منها في العادة، وفيه كمال خُلُق رسول الله ﷺ وحلمه وصفحه الجميل»[2].

وعن عائشة – رضي الله عنها-: هل أتى عليك يا رسول الله يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: **«لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيته منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلَال فلم يجبني إلى ما أردتُ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئتَ فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي وقال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بما شئت، فإن شئت أطبقتُ عليهم الأخشبين، فقلت: بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا»**[3].

كما أرشد رسول الله ﷺ إلى الاهتمام بالسماحة والجمال حتى في الصوت والآذان، فعن ابن عباس – رضي الله عنهما– أن النبي ﷺ قال لأحد مؤذنيه: **«إن الأذان سهل سَمْحٌ، فإن كان أذانك سمحًا سهلا، وإلا فلا تؤذِّن»**[4].

وطالما حث النبي المصطفى ﷺ أُمَّته على العفو والتسامح في أكثر من حديث، فعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: **«ما نقصتْ صدقةٌ من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»**[1].

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «فرض الخمس» باب «ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه» حديث (٣١٤٩)، ومسلم في كتاب «الزكاة» باب «إعطاء من سأل بفحش وغلظة» حديث (١٠٥٧)، واللفظ للبخاري.

(٢) «شرح صحيح مسلم» للنووي (٧/ ١٤٧).

(٣) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «بدء الخلق» باب «ذكر الملائكة» حديث (٣٢٣١)، ومسلم في كتاب «الجهاد والسير» باب «ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين» حديث (١٧٩٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه الدارقطني في «سننه» (٢/ ٨٦).

وقد أخبر المصطفى ﷺ أن أفضل أخلاق أهل الدنيا على الإطلاق هو خُلُق العفو، وكأنه ينوع ﷺ أساليب الحث والترغيب في هذا الخلق الكريم.

فعن عبدالله بن أبي الحسين قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أدلكم على خير أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ من عفا عمن ظلمه، وأعطى من حرمه، ووصل من قطعه، ومن أحبَّ أن يُنسأ له في عمره ويزادَ له في ماله فليتقِ اللهَ ربَّه وليصلْ رَحِمَه**»[٢].

بل كان دَيْدَنُه دائمًا ﷺ العفو، وكان يُرَغِّب صاحب الحق في القصاص في العفو، فعن أنس - رضي الله تعالى عنه - قال: «ما رأيت النبي ﷺ رُفِعَ إليه شيء فيه قصاص إلا أمر فيه بالعفو»[٣].

وقال ﷺ: «**من كظم غيظًا وهو يقدر على إنفاذه ملأه الله أمنًا وإيمانًا، ومن ترك لبس ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعًا كساه الله حلة الكرامة، ومن زوج لله توجه الله تاج الملك**»[٤].

كما كان ﷺ يمتدح العافين من أصحابه على الملأ، ويرشد باقي أصحابه بأن يتأسوا به، فعن الحسن أن النبي ﷺ قال: «**أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم، كان إذا خرج من منزله قال: اللهم إني تصدقت بعرضي على عبادك**»[٥].
والنبي ﷺ يبين أن هذا خلق حسن، أن يسامح المسلمُ كلَّ من يتناوله بالغيبة أو السباب أو ما إلى ذلك من انتهاك للعرض قد حرَّمه الله سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب «البر والصلة والآداب» باب «استحباب العفو والتواضع» حديث (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٢٣٧- ٢٣٨) حديث (٣٥٦٥٢)، والبيهقي في «الشعب» (٦/ ٣١٢) حديث (٨٣٠٠)، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ١٥٥).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب «الديات» باب «الإمام يأمر بالعفو في الدم» حديث (٤٤٩٧)، والنسائي في كتاب «القسامة» باب «الأمر بالعفو عن القصاص» حديث (٤٧٨٤)، وفي «السنن الكبرى» (٤/ ٢٣٠) حديث (٦٩٨٦)، واللفظ لأبي داود.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب «الأدب» باب «من كظم غيظًا» حديث (٤٧٧٧)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ٢٦٩) حديث (٤٣٧) من حديث سويد بن وهب عن رجل من أبناء أصحاب النبي ﷺ عن أبيه.

(٥) أخرجه عبدالرزاق في «مصنفه» (٩/ ٧٧)، وقد أخرج أبو داود نحوه في كتاب «الأدب» باب «ما جاء الرجل يحل الرجل قد اغتابه» حديث (٤٨٨٧) من حديث أنس ﷺ.

وأما عن الرحمة في السنة الشريفة العاطرة، فرسولنا الكريم - صلوات ربي عليه وتسليماته - هو رسول السلام والمحبة والرحمة إلى الكون كله، فهو الذي حث أُمَّته على الرحمة بكل من في الأرض، حيث قال ﷺ: **«الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»**[1].

ولقد فاضت رحمته وسماحته البَشَرَ كلَّهم حتى وصلت إلى كل كائن حي؛ فقد قال ﷺ: **«بينما رجل بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرًا، فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث - يأكل الثرى من العطش - فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له»**. قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجرا؟ فقال: **«في كل ذات كبد رطبة أجر»**[2].

وامتدح النبي الكريم ﷺ الرحماء، وبيّن أن رحمتهم هذه نعمة جليلة من الله سبحانه، وأرشد كذلك المحتاجين إلى التوجه إلى الرحماء، فعن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«اطلبوا المعروف من رحماء أمتي تعيشوا في أكنافهم، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم؛ فإن اللعنة تنزل عليهم، يا علي، إن الله خلق المعروف وخلق له أهلا فحببه إليهم وحبب إليهم فعاله ووجه إليهم طلابه كما وجه الماء إلى الأرض الجدبة ليُحيِيَ به أهلها، وإن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة»**[3].

وقد حذّر النبي ﷺ صراحة من القسوة وانعدام الرحمة، وبيّن أن هذا المسلك الذميم يَحْرِم الإنسان من رحمة رب العالمين في الآخرة فقال ﷺ: **«لا يَرحم الله من لا يَرحم الناس»**[4]. وهذا يوضح أن الرحمة المأمور بها هي رحمة عامة

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب «الأدب» باب «في الرحمة» حديث (٤٩٤١)، والترمذي واللفظ له في كتاب «البر والصلة» باب «ما جاء في رحمة الناس» حديث (١٩٢٤)، والحاكم في «مستدركه» (٤/ ١٧٥) حديث (٧٢٧٤) وصححه من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه البخاري في كتاب «المظالم والغصب» باب «الآبار على الطرق إذا لم يُتأذَّ بها» حديث (٢٤٦٦)، وفي كتاب «الأدب» باب «رحمة الناس البهائم» حديث (٦٠٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٥٧) حديث (٧٩٠٨) وصححه.

(٤) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «التوحيد» باب «قول الله تبارك وتعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾» حديث (٧٣٧٦)، ومسلم في كتاب «الفضائل» باب «رحمته ﷺ الصبيان والعيال» حديث (٢٣١٩) من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه، واللفظ للبخاري.

لكل الناس، وليست قاصرة على من يتفقون معنا في الدين أو في الجنس أو في اللون، بل هي رحمة عامة؛ لأنه رحمة مستقرة في قلب المسلم.

وعن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ الصادق المصدوق أبا القاسم صاحب هذه الحجرة يقول: «**لا تُنزَع الرحمة إلا من شقي**»(١).

كما اعتنى النبي ﷺ اعتناء فائقا بتوجيه الرحمة للفئات الضعيفة في المجتمع والأقليات، مع أنه من المفهوم أن مثل ما سبق من التوجيهات والإرشادات النبوية الشريفة تشمل كل فئات المجتمع، وكذلك تشمل كل الناس، بل ثبت أنها تشمل الحيوانات كذلك.

إلا أن رحمة رسول الله ﷺ واسعة، فأراد التأكيد على العفو والتسامح والرحمة بهذه الفئات بأحاديث مخصوصة، فعن عبدالله بن عمر قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، كم أعفو عن الخادم؟ فصمت رسول الله ﷺ، ثم قال: يا رسول الله، كم أعفو عن الخادم؟ فقال: «**كل يوم سبعين مرة**»(٢)؛ ولأن الخادم من الفئة الضعيفة في المجتمع فالنبي ﷺ يبالغ في الرحمة به، وكذلك في العفو عنه إذا ما هو أخطأ.

وكذلك اهتم النبي ﷺ اهتمامًا فائقًا بالرحمة والتسامح والعفو مع الأقليات الدينية - بالتعبير العصري - وحذّر أشدّ التحذير من ظلم واحد منهم فقال ﷺ: «**من ظلم معاهدًا أو انتقصه حقًّا أو كلَّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة**»(٣).

كل هذه النصوص الكثيرة المذكورة توضح سماحة الإسلام في تراثهم وفكرهم ونظرياتهم، مع ما لا يتعارض معه عقل مسلم في أي بقعة من بقاع الأرض.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٤٦١) حديث (٩٩٤١)، (٩٩٤٦)، (٢/ ٥٣٩) حديث (١٠٩٦٤)، وأبو داود في كتاب «الأدب» باب «في الرحمة» حديث (٤٩٤٢)، والترمذي في كتاب «البر والصلة» باب «ما جاء في رحمة الناس» حديث (١٩٢٣)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن».

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب «الأدب» باب «في حق المملوك» حديث (٥١٦٤)، والترمذي واللفظ له في كتاب «البر والصلة» باب «ما جاء في العفو عن الخادم» حديث (١٩٤٩)، وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ١٥١) وسكت عنه.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب «الخراج والإمارة والفيء» باب «في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات» حديث (٣٠٥٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٢٠٥) من حديث صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم.

الأخلاق المحمدية

الأخلاق الفاضلة هي أثر الإيمان الصحيح والإسلام الصادق، فهي برهان الإيمان بالله ورسوله وملائكته وكتبه واليوم الآخر والقدر، ولقد كان النبي ﷺ هو الأسوة الحسنة في كل خلق فاضل، وأرشد ربنا المسلمين لاتباع النبي ﷺ في كل أخلاقه، فقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[1] وكان ذلك الحث من الله لأن سيدنا رسول الله ﷺ هو النموذج الأعلى والأكمل للأخلاق الفاضلة وقد أثنى الله على كمال أخلاقه فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[2]، وكما أخبر هو بنفسه ﷺ عن ذلك فقال: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[3].

وسوف نتكلم عن جملة من الأخلاق المحمدية الفاضلة عسى الله يرزقنا التمسك بها، وهي ليست كل الأخلاق الفاضلة ولكنها قد تكون من أهم جوامع الأخلاق.

٢٩٦

أولا: الأمانة:

ورد الحث على الأمانة في كتاب الله، وفي سنة رسول الله ﷺ كثيرًا، فمن الآيات التي ورد فيها الحث على الأمانة قوله سبحانه في اللوم على بني آدم في عدم مراعاة الأمانة: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾[4]، وقال سبحانه في الأمر الصريح بأداء الأمانات إلى أهلها: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾[5].

---

(١) الآية ٢١ من سورة الأحزاب.
(٢) الآية ٤ من سورة القلم.
(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٨١) حديث (٨٩٣٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٨٨) وقال: «ورجاله رجال الصحيح».
(٤) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.
(٥) الآية ٥٨ من سورة النساء.

وفي النهي عن الخيانة وذم الخائنين قال ﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[1] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾[2]. وقال عز من قائل: ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ ﴾[3]. وقال سبحانه: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾[4].

بل إن الله أمر نبيه ﷺ بالابتعاد عن الخائنين أنفسهم فقال سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾[5].

أما في سيرته العطرة ﷺ وسنته المشرفة فقد كانت الأمانة من أهم مميزات سيدنا رسول الله ﷺ، بل كان يشهد بها أعداؤه فقد سموه الصادق الأمين، وقد طمأنته أم المؤمنين خديجة - رضي الله عنها - عندما نزل عليه ﷺ الوحي عندما قال لها النبي ﷺ: **«إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء وقد والله خشيت أن يكون هذا أمرًا»**. قالت: معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث[6].

فقد ورد الكثير من الأحاديث التي تحث على الأمانة، بل إن النبي ﷺ نهى عن المعاملة بالمثل في عدم الأمانة خاصة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»**[7].

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الأنفال.
(٢) الآية ٥٨ من سورة الأنفال.
(٣) الآية ١٠٧ من سورة النساء.
(٤) من الآية ٥٢ من سورة يوسف.
(٥) الآية ١٠٥ من سورة النساء.
(٦) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة»، وذكره القرطبي في «تفسيره» (١/ ١١٥)، وأبو جعفر الطبري في «الرياض النضرة» (١/ ٤٣١).
(٧) أخرجه أبو داود في كتاب «البيوع» باب «في الرجل يأخذ حقه من تحت يده» حديث (٣٥٣٥)، والترمذي في كتاب «البيوع» باب «ما جاء في النهي للمسلم أن يدفع إلى الذمي الخمر» حديث (١٢٦٤)، والحاكم في «مستدركه» (٢/ ٥٣) حديث (٢٢٩٦) وصححه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

كما اعتبر النبي ﷺ مجرد الحديث وعدم الإيصاء بكتمانه أمانة يجب حفظها وعدم كشفها لأحد، فقال ﷺ: **«إذا حدث الرجلُ الرجلَ بالحديث ثم التفت فهي أمانة»**[١].

وأخبر الرسول الأكرم – صلوات الله عليه وسلامه – أن ضياع الأمانة من علامات فساد الزمان؛ فعن حذيفة قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر حدثنا: أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة، ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال: **«ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرا، وليس فيه شيء ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله، فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلا أمينا، حتى يقال للرجل ما أجلده ما أظرفه ما أعقله وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»**[٢].

وغير هذا الكثير من نصوص الكتاب والسنة التي تبين وتدل على أن الأمانة عظيمة القدر في الدين، ومن عظيم قدرها أنها تقف على جنبتي الصراط ولا يُمكِّن من الجواز إلا من حفظها – كما رواه مسلم في صحيحه – فليس هناك أدل على عظم قدر الأمانة من كونها تكون بجوارك على الصراط يوم القيامة.

والأمانة تكون في الأعيان كما ذكرنا، وتكون كذلك في غيرها فكلمة الحق أمانة، وإتقان العمل وأداؤه بالشكل المتفق عليه أمانة، فمن ترك عمله فهو خائن للأمانة، ومن قصَّر فيما طُلِبَ منه فهو خائن للأمانة.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب «الأدب» باب «في نقل الحديث» حديث (٤٨٦٨)، والترمذي في كتاب «البر والصلة» باب «ما جاء أن المجالس أمانة» حديث (١٩٥٩)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٥/ ٢٣٥) حديث (٢٥٥٩٨) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن».

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الرقاق» باب «رفع الأمانة» حديث (٦٤٩٧)، وفي كتاب «الفتن» باب «إذا بقي في حثالة من الناس» حديث (٧٠٨٦)، ومسلم في كتاب «الإيمان» باب «رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب» حديث (١٤٣) من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ، واللفظ لمسلم.

فالأمانة هي الالتزام بكل ما شرع من الدين، والالتزام بكل ما اتفق عليه بين الناس من العقود والأعمال، وإذا طبق المسلمون خُلُقَ الأمانة سوف يتغير الحال إلى خير حال. فسنجد كل إنسان يتقن عمله، ويحافظ على كلامه، ويخدم مجتمعه ووطنه، وسوف يظهر هذا في قوة المجتمع وتقدمه وازدهاره على نحو يفخر به كل من انتسب إلى هذا الدين.

ثانيًا: الرحمة:

والرحمة في اللغة: الرقة والتعطف والمَرْحَمَةُ مثله وقد رَحِمَهُ -بالكسر- رَحْمَةً ومَرْحَمَةً أيضًا، وتَرَحَّمَ عليه، وتَرَاحَمَ القوم: رَحِمَ بعضهم بعضًا، والرَّحَمُوتُ من الرحمة، يقال: رهبوت خير، من رحموت أي لأن تُرهَب خير من أن تُرحَم والرَّحِمُ القرابة، والرحم أيضًا بوزن الجسم مثله، والرَّحْمنُ الرَّحِيمُ اسمان مشتقان من الرحمة.

وقد رحمنا الله رحمة بالغة، عندما أعلمنا أنه رحيم سبحانه، تهدئة لروعنا، فبعد أن أخبر أنه الرحمن الرحيم، فاضت رحمته علينا؛ إذ أعلمنا أن الرحمة حق عليه أوجبها سبحانه على نفسه إذ يقول: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[(١)].

كما بيّن لنا سبحانه وتعالى أن رحمته لنا ليست عن حاجة وميل إلينا، تعالى عن هذا علوًّا كبيرًا، بل رحمته نابعة من غِناه عنا، سبحانه وتعالى إذ يقول: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾[(٢)].

وأمر الله عباده بالتخلّق بهذا الخلق القويم، لاسيما مع أصحاب الحقوق علينا، بل مع أولى الناس بنا وهم الوالدين إذ يقول سبحانه: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾[(٣)].

---

(١) من الآية ١٢ من سورة الأنعام.
(٢) الآية ١٣٣ من سورة الأنعام.
(٣) الآية ٢٤ من سورة الإسراء.

كما يبيّن ربنا - سبحانه وتعالى - أن جزاء الإيمان والصدقة واستغفار الرسول الأكرم ﷺ - هو أن يرحمنا ربنا ويدخلنا في تلك الرحمة الواسعة ويغفر لنا ذنوبنا فقال ﷻ: ﴿ **وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿٩٩﴾ ﴾(١).

ولأن هذه الأمة هي أمة الرحمة والهداية، دَأَبَ المحدثون في تبليغ حديث رسول الله ﷺ لطلبة العلم، على أن يستفتحوا بحديث الرحمة المسلسل بالأولية، هذا الحديث الذي انقطعت أوليته عند سفيان بن عيينة الذي يرويه عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ أَبِي قَابُوسَ - مَوْلًى لِعَبْدِاللَّه بْنِ عَمْرٍو - عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَمْرٍو يَبْلُغ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ: **«الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»**(٢).

وقد ورد عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة تحثُّ المسلمين على التخلق بالرحمة فيما بينهم ومع جميع الخلق، بل خوَّف رسول الله ﷺ أمته بأنّ تَرْك هذه الصفة الحميدة قد تستوجب غضب الله يوم القيامة حيث قال ﷺ: **«لَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لا يَرْحَمُ النَّاسَ»**(٣).

وهذا الصحابي الجليل أبو هريرة - رضي الله تعالى عنه - يخبرنا عن سيدنا رسول الله ﷺ فيقول: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الصَّادِقَ الْمَصْدُوقَ أَبَا الْقَاسِمِ صَاحِبَ هَذِهِ الْحُجْرَةِ يقول: **«لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ»**(٤).

---

(١) الآية ٩٩ من سورة التوبة.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب «الأدب» باب «في الرحمة» حديث (٤٩٤١)، والترمذي في كتاب «البر والصلة» باب «ما جاء في رحمة الناس» حديث (١٩٢٤)، والحاكم في «مستدركه» (٤/ ١٧٥) حديث (٧٢٧٤) وصححه من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «التوحيد» باب «قول الله تبارك وتعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾» حديث (٧٣٧٦)، ومسلم في كتاب «الفضائل» باب «رحمته ﷺ الصبيان والعيال» حديث (٢٣١٩) من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه، واللفظ للبخاري.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٤٦١) حديث (٩٩٤١)، (٩٩٤٦)، (٢/ ٥٣٩) حديث (١٠٩٦٤)، وأبو داود في كتاب «الأدب» باب «في الرحمة» حديث (٤٩٤٢)، والترمذي في كتاب «البر والصلة» باب «ما جاء في رحمة الناس» حديث (١٩٢٣)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن».

بل حث النبي الكريم ﷺ على الرحمة مع كل الخلق، والحيوان، بل وحث على الرحمة مع الحيوان في موقف قلَّ من يتذكر الرحمة فيه، إلا من رحم الله، وصار على هدي الحبيب المصطفى ﷺ. هذا الموقف هو موقف ذبح الحيوان فقد ثبت في أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنِّي لَأَذْبَحُ الشَّاةَ وَإِنِّي أَرْحَمُهَا، أَوْ قَالَ: إني لَأَرْحَمُ الشَّاةَ إِذَا ذَبَحْتُهَا، فَقَالَ: «**إِنَّ الشَّاةَ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللَّهُ مَرَّتَيْنِ**»[1].

ولا يخفى ما يؤثر من حلمه ﷺ واحتماله الأذى، وإن كل حليم قد عرفت منه زلة، وحفظت عنه هفوة، وهو ﷺ لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبرًا، وعلى إسراف الجاهل إلا حلمًا.

ويؤكد هذا الخلق العالي دعاؤه لقومه الذين آذوه وعادوه، وما دعا عليهم، وإن كان الدعاء عليهم ليس بمنقصة، فإن الدعاء على الظالم المعاند لا شيء فيه وفعله أولو العزم من رسل الله كنوح عليه السلام وموسى الكليم عليه السلام. فكان دعاء سيدنا نوح، فقد قال القرآن عنه في دعائه على قومه: ﴿ **وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا** ﴿٢٦﴾ ﴾[2].

وأما دعاء سيدنا موسى عليه السلام فقال تعالى: ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ** ﴿٨٨﴾ ﴾[3].

وقد كانا – عليهما السلام – على حق، ولكن كان المصطفى ﷺ أحق؛ فقد روى الطبراني – وذكره الهيثمي في مجمعه وقال: رجاله رجال الصحيح – أن النبي ﷺ لما كُسرت رَباعيَته، وشُجَّ وجهُه الشريف ﷺ يوم أحد، شق ذلك على أصحابه شقًا شديدًا، وقالوا: لو دعوت عليهم. فقال: «**إني لم أبعث لعانًا، ولكني بعثت داعيًا ورحمة: اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون**».

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٤٣٦)، (٥/ ٣٤)، وابن أبي شيبة واللفظ له في «مصنفه» (٥/ ٢١٤) حديث (٢٥٣٦١)، والحاكم في «مستدركه» (٣/ ٦٧٦- ٦٧٨) حديث (٦٤٨٢)، (٤/ ٢٥٧) حديث (٧٥٦٢) وصححه من حديث قرة رضي الله عنه، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٣٣) وقال: «وله ألفاظ كثيرة، ورجاله ثقات».

(٢) الآية ٢٦ من سورة نوح.

(٣) الآية ٨٨ من سورة يونس.

وأخرج البخاري في صحيحه عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: «**لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلَال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك فسلم علي ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين**». فقال النبي ﷺ: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا**»(١).

وعفا النبي ﷺ عن من جذبه من الأعراب جذبة شديدة، وأعطاه سؤاله وزاد، وعفا ﷺ عن اليهودية التي سمت الشاة له بعد اعترافها، ولم يؤاخذ لبيد بن الأعصم إذ سحره، ولا عتب عليه فضلا عن معاقبته. فهذا هو الأسوة الحسنة والنموذج الأعلى المرضي عند ربه ﷺ.

ثالثًا: التواضع

التواضع أصله في اللغة من: وضَعَ الشيءَ وَضْعًا: اخْتَلَقَه. وتَواضَعَ القومُ على الشيء: اتَّفَقُوا عليه. وأَوْضَعْتُه في الأمر إذا وافَقْتَه فيه على شيء. والضَّعَةُ والضِّعَةُ: خِلاف الرِّفْعةِ في القَدْرِ، والأَصل وِضْعَةٌ، حذفوا الفاء على القياس كما حذفت من عِدة وزِنة.

والتواضع: ضد الكبر، والكبر مذموم طبعًا وشرعًا، فإن النفس تبغض المتكبر من الخلق بطبيعتها، والكبر في اللغة: بِكَسْرِ الْكَافِ وَسُكُونِ الْبَاءِ: الْعَظَمَةُ، وَكِبَرُ الشَّيْءِ مُعْظَمُهُ.

أما معناه في اصطلاح أهل الشريعة: فقد عرفه الغزالي بأنه الخُلُق الذي في النفس، وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه.

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «بدء الخلق» باب «ذكر الملائكة» حديث (٣٢٣١)، ومسلم في كتاب «الجهاد والسير» باب «ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين» حديث (١٧٩٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وهو خُلق إسلامي رفيع المنزلة، شهد بفضله كل عاقل، ودعا إليه كل مصلح؛ لما فيه من الفوائد الجليلة على الفرد والمجتمع، وقد حث الله سبحانه وتعالى عليه وأمر به في كتابه، وعلى لسان حبيبه المجتبى سيدنا رسول الله ﷺ، بل كان التواضع سيرته الغالبة وسنته الراشدة.

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن التواضع للمؤمنين من صفات أحبائه الكرام، الذي يستبدل بهم المرتدين فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤ ﴾[1].

وقد أخبر ربنا كذلك أن التواضع لله في السير من صفات عباده الصالحين فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ ﴾[2].

وأمر سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بالتواضع للمؤمنين أتباعه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥ ﴾[3].

ويتأكد التواضع ويتحتم إذا كان المتواضع له فضل ومنزلة كالوالدين، فقد أخبر ربنا بوجوب التواضع لهما فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤ ﴾[4].

وقد بشر الله المؤمنين المتواضعين بالنعيم المقيم في الدار الآخرة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣ ﴾[5].

(١) الآية ٥٤ من سورة المائدة.
(٢) الآية ٦٣ من سورة الفرقان.
(٣) الآية ٢١٥ من سورة الشعراء.
(٤) الآية ٢٤ من سورة الإسراء.
(٥) الآية ٨٣ من سورة القصص.

وقد ذم الله الكبر وأهله، وتوعد المتخلق بهذا الخلق البغيض بالعذاب الشديد فقال سبحانه: ﴿ فَادْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى حكاية عن لقمان في نصائحه لابنه: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾[3]. وذكر ربنا سبحانه وتعالى أن نبيه الكريم موسى عليه السلام استعاذ بربه من كل المتكبرين فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾[4].

وأخبرنا سبحانه وتعالى في كتابه أن فرعون كان به كبر وعلو على خلق الله فقال: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾[5].

وفي سنة النبي الأكرم المصطفى ﷺ وصايا بالتواضع أكثر من أن تحصى، يرشد فيها الأمة إلى التخلق بهذا الخلق العظيم الذي يعود بالخير على الفرد والمجتمع المسلم كله فمن هذه النصوص ما رواه عياض بن حمار عن النبي ﷺ قال: «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»[6].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما تواضع أحد لله إلا رفعه»[7].

وقال رسول الله ﷺ: **«طوبى لمن تواضع لله في غير منقصة، وذل في نفسه من غير مسألة، وأنفق مالا جمعه في غير معصية، ورحم أهل الذل والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة، طوبى لمن طاب كسبه وصلحت سريرته، وكرمت علانيته، وعزل عن الناس شره، طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله»**[8].

---

(١) الآية ٢٩ من سورة النحل.

(٢) الآية ٥٩ من سورة الروم.

(٣) الآية ١٨ من سورة لقمان.

(٤) الآية ٢٧ من سورة غافر.

(٥) الآية ٤ من سورة القصص.

(٦) أخرجه مسلم في كتاب «الجنة وصفة نعيمها وأهلها» باب «الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة» حديث (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

(٧) أخرجه مسلم في كتاب «البر والصلة والآداب» باب «استحباب العفو والتواضع» حديث (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٨) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٥/ ٧١) حديث (٤٦١٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ١٨٢) حديث (٧٥٧٢) من حديث ركب المصري رضي الله عنه.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: **«من تواضع لله درجة يرفعه الله درجة حتى يجعله في أعلى عليين، ومن يتكبر على الله درجة يضعه الله درجة حتى يجعله في أسفل السافلين، ولو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس عليها باب ولا كوة لخرج ما غيبه للناس كائنا ما كان»**[١].

وعن عمر بن الخطاب ﷺ - لا أعلمه إلا رفعه - قال: **«يقول الله تبارك وتعالى: من تواضع لي هكذا - وجعل يزيد باطن كفه إلى الأرض وأدناها إلى الأرض - رفعته هكذا، وجعل باطن كفه إلى السماء ورفعها نحو السماء»**[٢].

وعن عمر بن الخطاب أيضًا أنه قال على المنبر: أيها الناس، تواضعوا؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من تواضع لله رفعه الله، قال: انتعش نعشك الله، فهو في أعين الناس عظيم وفي نفسه صغير، ومن تكبر قصمه الله وقال: اخسأ، فهو في أعين الناس صغير وفي نفسه كبير»**[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: **«ما من آدمي إلا في رأسه حكمة بيد ملك، فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حكمته، وإذا تكبر قيل للملك: ضع حكمته»**[٤].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من تواضع لأخيه المسلم رفعه الله، ومن ارتفع عليه وضعه الله»**[٥].

وعن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال: **«لا حسب إلا في التواضع، ولا نسب إلا بالتقوى، ولا عمل إلا بالنية، ولا عبادة إلا باليقين»**[٦].

هذه جملة من الأخلاق المحمدية هي من جماع وأصول كل الأخلاق الفاضلة نسأل الله أن يرزقنا التأسي بالنبي ﷺ في أخلاقه وكل أحواله. آمين.

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١٢/ ٤٩١) حديث (٥٦٧٨).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٤) حديث (٣٠٩)، والبزار في «مسنده» (١/ ٢٧٨) حديث (١٧٥) من حديث عمر ﷺ، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٨٢) وصححه.

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨/ ١٧٢) حديث (٨٣٠٧).

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٢١٨) حديث (١٢٩٣٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٨٢) وحسنه.

(٥) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧/ ٣٥٤) حديث (٧٧١١).

(٦) ذكره الديلمي في «الفردوس بمأثور الخطاب» (٥/ ١٩١).

انتصار العاشر من رمضان

رمضان شهر القرآن قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا ﴿٣﴾ يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ ﴾[2]. وقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾[3].

وهو شهر الانتصارات عند المسلمين، انتصروا فيه على المشركين المعتدين في غزوة بدر الكبرى في ١٧ من رمضان سنة ٢هـ، وانتصر المسلمون على المشركين كذلك في فتح مكة ٢٠ من رمضان سنة ٨هـ.

وانتصر المسلمون على الفرس في معركة البويب - يرموك فارس - في ١٤ من رمضان سنة ١٤هـ، وفتحوا أواسط المغرب في رمضان سنة ٨٢هـ، وفتحوا الأندلس وهزموا الفرنجة في ٢٨ من رمضان سنة ٩٢هـ، وفتحوا عمورية في ١٧ من رمضان سنة ٢٢٣هـ، وانتصر المسلمون من الحمدانيين على البيزنطيين في رمضان سنة ٣٦٢هـ، وانتصروا على الصليبيين بقيادة نور الدين زنكي في رمضان سنة ٥٩٩هـ، وهزموا التتار بقيادة قطز في ٢٥ من رمضان سنة ٦٥٨هـ، وفتح المسلمون بقيادة سليمان القانوني سلطان الدولة العثمانية بلجراد في ٤ من رمضان سنة ٩٢٧هـ.

(١) الآية ١٨٥ من سورة البقرة.
(٢) الآيات من ٣ : ٦ من سورة الدخان.
(٣) الآيات من ١ : ٥ من سورة القدر.

وأخيرًا انتصر المسلمون على اليهود الصهاينة في العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣هـ انتصارًا أعز الله به هذه الأمة وحرر الأرض وحمى العرض وكسر شوكة العدو، وكفى الله المؤمنين شر فتنتهم وغلوهم في الإفساد في الأرض وإهلاكهم للحرث والنسل.

وانتصار العاشر من رمضان لا ينكره إلا مخذول يريد أن يؤيد العدو وأن يذهب بفرح المؤمنين فهو انتصار لا شك فيه وانكسار للعدو لا ريب فيه، فلم يغادر العدو أي أرض محتلة إلا عند كسر، فهو لا يعرف إلا هذه القوة ولغة الانتصار والانكسار، وما يفعله شاهد على ذلك، فلم يغادر غزة وهي جزء بسيط من حقوق الفلسطينيين إلا تحت وطأة الانتفاضة ووخز السلاح.

فما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، ولذلك فإن المشكك والمتشكك في انتصار العاشر من رمضان يتلى عليه قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[1] ومقتضيات النصر هي قول الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾[3].

فإن نصرناه نصرنا، وإن نصرنا فلا غالب لنا، والعبرة بالإنسان لا بالعدة والبنيان، فقد نصر الله المسلمين في كل المواطن وهم الأضعف والأقل، ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[4].

---

(١) الآية ٦٣ من سورة النور.
(٢) الآية ٧ من سورة محمد.
(٣) الآية ١٦٠ من سورة آل عمران.
(٤) من الآية ٢١ من سورة يوسف.

تلاوة القرآن الكريم

أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بفهم معاني القرآن الكريم وتطبيق أحكامه وإقامة حدوده، وأمرهم كذلك بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه على الصفة المتلقاة من أئمة القراءة المتصلة بالنبي ﷺ وقد عد العلماء القراءة بغير تجويد لحنا، فقسموا اللحن إلى جلي وخفي. فاللحن: خلل يطرأ على الألفاظ فيخل، إلا أن الجلي يخل إخلالا ظاهرًا يشترك في معرفته علماء القراءة وغيرهم، وهو الخطأ في الإعراب، والخفي يخل إخلالا يختص بمعرفته علماء القراءة وأئمة الأداء الذين تلقوه من أفواه العلماء وضبطوه من ألفاظ أهل الأداء.

ولا تحتاج قراءة القرآن إلى نية كسائر الأذكار، إلا إذا نذرها خارج الصلاة، فلابد من نية النذر أو الفرض، ولقراءة القرآن عظيم الفضل قال تعالى مثنيا على من كان ذلك دأبه: ﴿ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾[1] وعن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ عن النبي ﷺ قال: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار**»[2]، وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها**»[3].

وفي حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «**يقول الرب ﷻ: من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه**»[4].

---

(١) من الآية ١١٣ من سورة آل عمران.

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «التوحيد» باب «قول النبي ﷺ: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل يقول لو أوتيت مثل ما أوتي هذا فعلت كما يفعل» حديث (٧٥٢٩)، ومسلم في كتاب «صلاة المسافرين وقصرها» باب «فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها» حديث (٨١٥).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب «فضائل القرآن» باب «ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر» حديث (٢٩١٠)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب «فضائل القرآن» باب «ما جاء كيف كانت قراءة النبي ﷺ» حديث (٢٩٢٦)، وقال: «هذا حديث حسن غريب».

ولقراءة كتاب الله مقدمات وآداب، فأهم تلك المقدمات تعلم أحكام التجويد؛ لأن قراءة كتاب الله عبادة جليلة لها أصول، وأُنشئت لتيسيرها العلوم، فلابد أن يلم من علم التجويد بأحكام التلاوة ومخارج الحروف، ويظل يتعلم كيف يقرأ كتاب الله ولا يمل من ذلك.

ولا يتوقف عن القراءة أثناء التعلم فإن قراءة القرآن بالمشقة والعسر فيها زيادة في الأجر قال النبي ﷺ: **«الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران»**[1].

وقبل البدء في التلاوة يستحب الوضوء لقراءة القرآن، لأنه أفضل الأذكار، وقد قال النبي ﷺ: **«إني كرهت أن أذكر الله ﷻ إلا على طهر»**[2] قال إمام الحرمين: لكن تجوز القراءة للمحدث حدثًا أصغر لأنه صح أن النبي ﷺ كان يقرأ مع الحدث، وهذا في القراءة بدون مس المصحف، أما إذا اقتضى مس المصحف فيتأكد الاستحباب خاصة وأن أغلب العلماء ذهبوا إلى وجوب الوضوء لمس المصحف، وحرمة مس المصحف بغير وضوء، وأما الجنب والحائض فتحرم عليهما القراءة، ويجوز لهما النظر في المصحف وإمراره على القلب.

يسن الترتيل في قراءة القرآن قال تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴿٤﴾ ﴾[3] وعن أم سلمة: أنها نعتت قراءة رسول الله ﷺ قراءة مفسرة حرفًا حرفًا[4] وعن أنس: أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت مدًّا، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد ببسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم[5].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب «صلاة المسافرين وقصرها» باب «فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه» حديث (٧٩٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب «الطهارة» باب «أيرد السلام وهو يبول؟» حديث (١٧)، وابن خزيمة في «صحيحه» (١/ ١٠٣) حديث (٢٠٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٣/ ٨٢) حديث (٨٠٣)، والحاكم في «مستدركه» (١/ ٢٧٢) حديث (٥٩٢) وصححه من حديث المهاجر بن قنفذ رضي الله عنه.

(٣) من الآية ٤ من سورة المزمل.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب «فضائل القرآن» باب «ما جاء كيف كانت قراءة النبي ﷺ» حديث (٢٩٢٣)، والنسائي في كتاب «الافتتاح» باب «تزيين القرآن بالصوت» حديث (١٠٢٢)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

(٥) أخرجه البخاري في كتاب «فضائل القرآن» باب «مد القراءة» حديث (٥٠٤٦).

وعن ابن مسعود: أن رجلا قال له: إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة، فقال: هذا كهذ الشعر - يعني: الإسراع بالقراءة - إن قوما يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع[1]. وعن ابن مسعود: لا تنثروه نثر الدقل - أي: التمر - ولا تهذوه كهذِّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكون هَمُّ أحدكم آخر السورة[2].

واتفق الفقهاء على كراهة الإفراط في الإسراع، وقالوا: وقراءة جزء بترتيل أفضل من قراءة جزأين في قدر ذلك الزمان بلا ترتيل. ويستحب الترتيل للتدبر، لأنه أقرب إلى الإجلال والتوقير وأشد تأثيرًا في القلب، ولهذا يستحب الترتيل للأعجمي الذي لا يفهم معنى القرآن. واختلف القراء؛ هل الأفضل الترتيل وقلة القراءة، أم السرعة مع كثرتها؟ وأحسن بعض الأئمة فقال: إن ثواب قراءة الترتيل أجل قدرًا، وثواب الكثرة أكثر عددا؛ لأن بكل حرف عشر حسنات. وكمال الترتيل كما قال الزركشي: تفخيم ألفاظه، والإبانة عن حروفه، وألا يدغم حرف في حرف مما ليس حقه الإدغام، وقيل: هذا أقله، وأكمله أن يقرأه على منازله إن تهديدًا لفظ به لفظ التهديد، أو تعظيمًا لفظ به على التعظيم.

(١) أخرجه مسلم في كتاب «صلاة المسافرين وقصرها» باب «ترتيل القراءة واجتناب الهذ - وهو الإفراط في السرعة - وإباحة سورتين فأكثر في ركعة» حديث (٨٢٢).
(٢) أخرجه الآجري في «أخلاق حملة القرآن» حديث (١).

مراعاة الحقوق (الوالدان والأرحام)

الدين الإسلامي منهج حياة متكامل، نظم علاقة الإنسان مع ربه، ونظم علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان، ونظم العلاقة بين الإنسان وبين كون الله الفسيح بمخلوقاته المشاهدة وغير المشاهدة.

وتختلف حدود وطبيعة العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان وفقا لنوع هذا الإنسان، ودرجة القرابة، والقرب المكـــاني، والفارق في السنة، والجيل، وموقعه من التعليم أو التعلم.

فأصحاب الحقوق على الإنسان من البشر كثير، والوالدان على رأس أصحاب الحقوق، ويلي ذلك أهل الأرحام، ونكتفي بالحديث عنهما حتى لا يطول بنا المقام.

أولاً: بر الوالدين

إن من أعظم الناس حقًّا على الإنسان والديه، فلا يخفى على كل عاقل ما للوالدين من مقام وشأن يعجز الإنسان عن دركه، ومهما جهد القلم في إحصاء فضلهما فإنَّه يبقى قاصرًا منحسرًا عن تصوير جلالهما وحقّهما على الأبناء، وكيف لا يكون ذلك وهما سبب وجودهم، وعماد حياتهم وركن البقاء لهم؟

لقد بذل الوالدان كل ما أمكنهما على المستويين المادي والمعنوي لرعاية أبنائهما وتربيتهم، وتحمّلا في سبيل ذلك أشد المتاعب والصعاب والإرهاق النفسي والجسدي وهذا البذل لا يمكن لشخص أن يعطيه بالمستوى الذي يعطيه الوالدان.

ولهذا اعتبر الإسلام عطاءهما عملا جليلا مقدسًا استوجبا عليه الشكر وعرفان الجميل، وأوجب لهما حقوقًا على الأبناء لم يوجبها لأحد على أحد إطلاقًا، حتى إن الله تعالى قرن طاعتهما والإحسان إليهما بعبادته وتوحيده بشكل مباشر فقال عز من قائل: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾[(١)] لهذا ولغيره الكثير جعل الله برهما وطاعتهما من أفضل القربات بعد توحيده سبحانه وتعالى، وجعل عقوقهما والإساءة إليهما من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

(١) الآية ٢٣ من سورة الإسراء.

يقول حبر الأمة وترجمان القرآن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: ثلاث آيات مقرونات بثلاث، ولا تقبل واحدة بغير قرينتها: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [1] فمن أطاع الله ولم يطع الرسول لم يقبل منه. ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ﴾[2]، فمن صلى ولم يزكِّ لم يقبل منه. ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾[3]، فمن شكر لله ولم يشكر لوالديه لم يقبل منه.

ولأجل ذلك تكررت الوصايا في كتاب الله تعالى والإلزام ببرهما والإحسان إليهما، والتحذير من عقوقهما أو الإساءة إليهما بأي أسلوب كان، قال الله تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾[4]وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَـٰنَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [5]وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَـٰنَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[6]وفي سنة رسول الله ﷺ جاء التأكيد على وجوب برّ الوالدين والترغيب فيه، والترهيب من عقوقهما. ومن ذلك: ما صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«رضا الرب في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما»**[7].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: جئت أبايعك على الهجرة، وتركت أبويّ يبكيان، فقال رسول الله ﷺ: **«ارجع إليهما، فأضحكهما كما أبكيتهما»**[8].

وعن معاوية بن جاهمة السلمي: أنه استأذن الرسول ﷺ في الجهاد معه، فأمره أن يرجع ويَبَرَّ أُمَّه، ولما كرر عليه، قال ﷺ: **«ويحك الزم رجلها فثمّ الجنة»**[9].

---

(١) من الآية ١٢ من سورة التغابن.
(٢) من الآية ٤٣ من سورة البقرة.
(٣) من الآية ١٤ من سورة لقمان.
(٤) من الآية ٣٦ من سورة النساء.
(٥) من الآية ٨ من سورة العنكبوت.
(٦) الآية ١٤ من سورة لقمان.
(٧) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦/ ١٧٧) حديث (٧٨٣٠).
(٨) أخرجه أبو داود في كتاب «الجهاد» باب «في الرجل يغزو وأبواه كارهان» حديث (٢٥٢٨)، والنسائي في كتاب «البيعة» باب «البيعة على الهجرة» حديث (٤١٦٣)، وابن ماجه في كتاب «الجهاد» باب «الرجل يغزو وله أبوان» حديث (٢٧٨٢).
(٩) أخرجه ابن ماجه في كتاب «الجهاد» باب «الرجل يغزو وله أبوان» حديث (٢٧٨١).

وقد سمى الشرع الحنيف الولد كسبا لأبيه، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه**»[1]، وقال ﷺ: «**إن أولادكم من كسبكم؛ فكلوا من كسب أولادكم**»[2].

وكذلك كان فهم الصحابة والتابعين، وأئمة الدين سلفًا وخلفًا فعن عطاء قال قلت له: إن أمي تقسم علي أن لا أصلي بعد المكتوبة شيئا ولا أصوم إلا فريضة شفقة علي. قال: أبرر قسمها[3].

وقد قال الشيخ الدردير في "الشرح الصغير": «ويجب بر الوالدين - وإن كانت الأم تفضل على الأب في البر - ولو كانا مشركين أو فاسقين بالجوارح أو بسبب الاعتقاد. ويكون البر بالقول اللين الدال على محبتهما؛ بأن يقول لهما ما ينفعهما في أمر دينهما ودنياهما بدون رفع صوت عليهما، ويقود الأعمى منهما - ولو كافرا - للكنيسة ويحملهما لها، ويعطيهما ما ينفقانه في أعيادهما...» إلى أن قال: «ويطيع الوالدين في المباح والمكروه»[4].

ويكون بر الوالدين بالإحسان إليهما بالقول اللين الدال على الرفق بهما والمحبة لهما، وتجنب غليظ القول الموجب لنفرتهما، وبمناداتهما بأحب الألفاظ إليهما، كيا أمي ويا أبي، وليقل لهما ما ينفعهما في أمر دينهما، ودنياهما ويعلمهما ما يحتاجان إليه من أمور دينهما، وليعاشرهما بالمعروف؛ أي بكل ما عرف من الشرع جوازه، فيطيعهما في فعل جميع ما يأمرانه به، من واجب أو مندوب، وفي ترك ما لا ضرر عليه في تركه، ولا يحاذيهما في المشي، فضلا عن التقدم عليهما، إلا لضرورة نحو ظلام، وإذا دخل عليهما لا يجلس إلا بإذنهما، وإذا قعد لا يقوم إلا بإذنهما، ولا يستقبح منهما نحو البول عند كبرهما أو مرضهما لما في ذلك من أذيتهما.

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب «البيوع» باب «الحث على الكسب» حديث (٤٤٥٢)، وابن ماجه في كتاب «التجارات» باب «الحث على المكاسب» حديث (٢١٣٧) من حديث عائشة ﵂.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب «البيوع» باب «في الرجل يأكل من مال ولده» حديث (٣٥٣٠) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وأخرجه النسائي في كتاب «البيوع» باب «الحث على الكسب» حديث (٤٤٥٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢ /٣٤٠) حديث (٩٧٠٧).

(٤) «حاشية الصاوي على الشرح الصغير» (٤/ ٧٣٩- ٧٤٠).

وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[1] قال ابن عباس: يريد البر بهما مع اللطف ولين الجانب، فلا يغلظ لهما في الجواب، ولا يحد النظر إليهما، ولا يرفع صوته عليهما.

ومن البر بهما والإحسان إليها: ألا يسيء إليهما بسب أو شتم أو إيذاء بأي نوع من أنواعه، فإنه من الكبائر بلا خلاف.

ففي «صحيح مسلم» عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من الكبائر شتم الرجل والديه**». قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «**نعم يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»[2].

وفي رواية أخرى: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**». قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «**يسب أبا الرجل فيسب الرجل أباه**»[3].

ومن برهما صلة أهل ودهما، ففي الصحيح عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن من أبر البر صلةَ الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي**»[4]. فإن غاب أو مات يحفظ أهل وده ويحسن إليهم، فإنه من تمام الإحسان إليه. وروى أبو أسيد - وكان بدريًا - قال: كنت مع النبي ﷺ جالسًا، فجاءه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، هل بقي من بر والدي بعد موتهما شيء أبرهما به؟ قال: «**نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما، فهذا الذي بقي عليك**»[5]. وكان ﷺ يهدي لصدائق خديجة برا بها ووفاء لها، وهي زوجته، فما ظنك بالوالدين؟!

كل هذه النصوص الشرعية تؤكد على ما للوالدين من حقوق، من بر وطاعة وصلة، وكذلك تؤكد على علو شأنهما وارتفاع قدرهما عند الله سبحانه وتعالى، مما لا يدع مجالا للشك في هذا القدر وتلك المنزلة.

---

(١) من الآية ٣٦ من سورة النساء.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب «الإيمان» باب «بيان الكبائر وأكبرها» حديث (٩٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب «الأدب» باب «لا يسب الرجل والديه» حديث (٥٩٧٣) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب «البر والصلة والآداب» باب «فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما» حديث (٢٥٥٢).

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب «الأدب» باب «في بر الوالدين» حديث (٥١٤٢).

ونحن إنما نذكِّر بقدر الوالدين، وبحقهما في البر والصلة، حتى يعود هذا بالخير على المجتمع المسلم كله، وكفى ببر الوالدين فضلا أن جعل الله رضاه في رضاهما، وكذلك سخطه في سخطهما. نسأل الله العظيم أن يهدينا الطريق المستقيم وأن يتوب علينا والمسلمين.

وننتقل بعد ذلك إلى جهة أخرى من الإنسانية لها حقوق على الإنسان وهي جهة الرحم.

ثانيًا: صلة الرحم

صلة الأرحام ركن قوي من أركان العلاقات في الدين الإسلامي، وهي خلق فاضل حث عليه ربنا سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، وعلى لسان نبيه الكريم في غير ما آية وحديث.

وكان العرب يهتمون بالأرحام اهتمامًا بالغًا قبل الإسلام، وجاء الإسلام وأقر هذا الاهتمام، ولم ينه عنها إلا في اتخاذ العصبية الجاهلية، وإنما كان اهتمام العرب بالأرحام؛ لأن تعاطف الأرحام وحمية القرابة يبعثان على التناصر والألفة، ويمنعان من التخاذل والفرقة، أنفة من استعلاء الأباعد على الأقارب، وتوقيًا من تسلط الغرباء الأجانب.

ولذلك حفظت العرب أنسابها لما امتنعت عن سلطان يقهرها ويكف الأذى عنها لتكون به متظافرة على من ناوأها، متناصرة على من شاقها وعاداها، حتى بلغت بألفة الأنساب تناصرها على القوي الأيد وتحكمت به تحكم المتسلط المتشطط.

وقد أعذر نبي الله لوط عليه السلام نفسه حين عدم عشيرة تنصره، فقال لمن بعث إليهم: **﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾**[1] يعني: عشيرة مانعة. وروى أبو سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«يرحم الله لوطًا، لقد كان يأوي إلى ركن شديد»**. يعني: الله عز وجل[2].

---

(١) الآية ٨٠ من سورة هود.

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «تفسير القرآن» باب «قوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾» حديث (٤٦٩٤)، ومسلم في كتاب «الإيمان» باب «زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة» حديث (١٥١).

وصلة الرحم واجبة وقطيعتها محرمة قال الله تعالى: ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ۝ ﴾[١] وقال ﷺ حكاية عن الله تعالى وقوله للرحم: «**ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فإن ذلك لك**»[٢]، وقال ﷺ: «**بلوا أرحامكم ولو بالسلام**»[٣].

ومن المستفيض المشتهر في صفاته ﷺ أنه كان يأمر بصلة الرحم، والأحاديث في هذا المعنى أكثر من أن تحصى نذكر منها على سبيل المثال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله: أنا الله وأنا الرحمن، وهي الرحم، شققت لها اسمًا من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته**»[٤].

وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الرحم معلقة بالعرش، تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله**»[٥].

وعن عبدالله بن سلام قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس نحوه فأتيته، فلما نظرت إليه عرفت أن وجهه ليس وجه كذاب، فكان أول شيء سمعته يقول: «**يا أيها الناس، أفشوا السلام، وصلوا الأرحام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام**»[٦].

(١) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة محمد.
(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «تفسير القرآن» باب «وتقطعوا أرحامكم» حديث (٤٨٣٢)، وفي كتاب «الأدب» باب «من وصل وصله الله» حديث (٥٩٨٧)، ومسلم في كتاب «البر والصلة والآداب» باب «صلة الرحم وتحريم قطيعتها» حديث (٢٥٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦/ ٢٢٧) حديث (٧٩٧٣) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٤) أخرجه أبو داود في كتاب «الزكاة» باب «في صلة الرحم» حديث (١٦٩٤).
(٥) أخرجه مسلم في كتاب «البر والصلة والآداب» باب «صلة الرحم وتحريم قطيعتها» حديث (٢٥٥٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٦) أخرجه ابن ماجه في كتاب «الأطعمة» باب «إطعام الطعام» حديث (٣٢٥١)، والدارمي في كتاب «الصلاة» باب «فضل صلاة الليل» حديث (١٤٦٠)، وفي كتاب «الاستئذان» باب «في إفشاء السلام» حديث (٢٦٣٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ١٤) حديث (٤٢٨٣) وصححه من حديث عبدالله بن سلام رضي الله عنه.

وقد قال صاحب «درر الحكام»: «صلة الرحم واجبة ولو بسلام وتحية وهدية، وهي معاونة الأقارب والإحسان إليهم والتلطف بهم والمجالسة إليهم والمكالمة معهم ويزور ذوي الأرحام غبًّا، فإن ذلك يزيد ألفة وحبًّا بل يزور أقرباءه كل جمعة أو شهر، ويكون كل قبيلة وعشيرة يدًا واحدةً في التناصر والتظاهر على من سواهم في إظهار الحق ولا يرد بعضهم حاجة بعض؛ لأنه من القطيعة»[١].

فقطع الرحم المأمور بوصلها حرام باتفاق، لقول الله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[٢] وقوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾[٣]. وقد بين ابن حجر الهيثمي - من الشافعية - ما يكون به قطع الرحم، ووافقه صاحب «تهذيب الفروق» من المالكية. وقد أورد ابن حجر فيه رأيين: أحدهما: الإساءة إلى الأرحام. الثاني: يتعدى إلى ترك الإحسان، فقطع المكلف ما ألفه قريبه منه من سابق الصلة والإحسان لغير عذر شرعي يصدق عليه أنه قطع رحمه، وقد عده بعضهم كبيرة كما سبق.

أما أعذار ترك زيارة الرحم تختلف بحسب نوع الصلة، فعذر ترك الزيارة ضبطه الشافعية والمالكية بالعذر الذي تترك به صلاة الجمعة، بجامع أن كلا منهما فرض عين وتركه كبيرة، وإن كانت الصلة ببذل المال، فلم يبذله لشدة حاجته إليه، أو فقده، أو قدم غير القريب امتثالا لأمر الشرع، كان ذلك عذرًا.

وعذر المراسلة والكتابة ألا يجد من يثق به في أداء الرسالة. ومن الأعذار التي زادها المالكية تكبر القريب الغني على قريبه الفقير، فلا صلة على الفقير حينئذ.

---

(١) «درر الحكام شرح غرر الأحكام» (١/ ٣٢٣).

(٢) الآية ٢٧ من سورة البقرة.

(٣) الآية ٢٥ من سورة الرعد.

وصلة الرحم واجبة حتى للقريب الفاسق - كما في فتاوى السبكي - فلا يسقط حقه في الصلة بفسقه وقال ﷺ: **«ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»**[١]. وهذا يدل على وجوب صلة القريب الفاسق؛ لأن القاطع فاسق وقد أمر بصلته وجعلت هي الصلة، وقال ﷺ لمن قالت: قدمت أمي وهي مشركة أفأصلها؟ قال: **«نعم صلي أمك»**[٢]. فهذا العبد القريب الفاسق صلته واجبة والصلة بالإحسان.

وهي واجبة أيضًا لغير المسلمين مطلوبة في الشرع كذلك كبر الوالدين، فللإنسان أن يصل قريبه غير المسلم وإن كانت قرابته بعيدة؛ لأن أصل الصلة من الأخلاق الفاضلة التي جاءت بها الشريعة الغراء، ولأن صلة الرحم محمودة عند كل عاقل وفي كل دين، وهي من مكارم الأخلاق. وقال ﷺ: **«بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»**[٣]. فعرفنا أن ذلك حسن في حق المسلمين والمشركين جميعًا.

وقد بعث رسول الله ﷺ خمسمائة دينار إلى مكة حين قحطوا، وأمر بدفع ذلك إلى أبي سفيان بن حرب وصفوان بن أمية ليفرقا على فقراء أهل مكة. فقبل ذلك أبو سفيان، وأبو صفوان وقال: ما يريد محمد بهذا إلا أن يخدع شبابنا[٤].

والرحم متفاوتة وليست كلها في درجة واحدة، فهناك الوالدين، والإخوة والأخوات، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، وأبناء هؤلاء، وقد ذهب فقهاء الحنفية والشافعية إلى أن درجات الصلة تتفاوت بالنسبة للأقارب، فهي في الوالدين أشد من المحارم، وفيهم أشد من غيرهم. وليس المراد بالصلة أن تصلهم إن وصلوك؛ لأن هذا مكافأة، بل أن تصلهم وإن قطعوك؛ لقول النبي ﷺ: **«ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»**[٥].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب «الأدب» باب «ليس الواصل بالمكافئ» حديث (٥٩٩١) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الهبة وفضلها والتحريض عليها» باب «الهدية للمشركين» حديث (٢٦٢٠)، ومسلم في كتاب «الزكاة» باب «فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج» حديث (١٠٠٣) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٨١) حديث (٨٩٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٨٨) وقال: «ورجاله رجال الصحيح».

(٤) «شرح السير الكبير» للسرخسي (١/ ٩٦).

(٥) أخرجه البخاري، وقد سبق تخريجه منذ قليل.

وتحصل صلة الأرحام بأمور عديدة منها: الزيارة، والمعاونة، وقضاء الحوائج، والسلام؛ لقوله ﷺ: «**بلوا أرحامكم ولو بالسلام**»[١]. ولا يكفي مجرد السلام عند أبي الخطاب كما تحصل الصلة بالكتابة إن كان غائبًا، نص على ذلك الحنفية والمالكية والشافعية، وهذا في غير الأبوين، أما هما فلا تكفي الكتابة إن طلبا حضوره. وكذلك بذل المال للأقارب، فإنه يعتبر صلة لهم؛ لقوله ﷺ: «**الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان: صدقة، وصلة**»[٢]. وظاهر عبارة الحنفية والشافعية أن الغني لا تحصل صلته بالزيارة لقريبه المحتاج إن كان قادرًا على بذل المال له. ويدخل في الصلة جميع أنواع الإحسان مما تتأتى به الصلة.

وفي صلة الرحم فوائد جليلة، عبر عن أهمها حديث رسول الله ﷺ: «**من سره أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره فليصل رحمه**»[٣]. ومن الفوائد الكثيرة التي أشار إليها الفقهاء - رضي الله سبحانه وتعالى عنهم - أن الله ﷻ أمر بصلة الرحم لإدخال السرور على الأرحام، كما أن من فوائدها زيادة المروءة، وزيادة الأجر بعد الموت؛ لأن ذوي الرحم يدعون لمن وصلهم بعد موته كلما ذكروا إحسانه.

ولقد ندب الشرع الحنيف إلى زيارة الأقارب خاصة في مواسم الخير كالأعياد، وجعل ذلك عبادة يثاب عليها؛ فقد ذكر الإمام النووي في "المجموع" أن ذلك من سنن العيد فقال: تسن زيارة الصالحين وأهل الخير والأقارب والأصدقاء والجيران وبرهم وإكرامهم وصلتهم، وضبط ذلك يختلف باختلاف أحوالهم ومراتبهم، وينبغي أن يكون من زيارتهم على وجه يرتضونه وفي وقت لا يكرهونه، والأحاديث فيه كثيرة[٤].

ومن ثمرات صلة الرحم بين المسلمين قوة المجتمع، والثقة بين أفراده، فإن المجتمع المتواصل، المتواد، مجتمع قوي، يثق فيه أفراده، لا تأتيه الخيانة أبدًا، ويقف وقفة رجل واحد في وجه الشر. نسأل الله لنا وللمسلمين التوفيق والسداد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦/ ٢٢٧) حديث (٧٩٧٣) من حديث أنس ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب «الزكاة» باب «ما جاء في الصدقة على ذي القرابة» حديث (٦٥٨)، والنسائي في كتاب «الزكاة» باب «الصدقة على الأقارب» حديث (٢٥٨٢)، وابن ماجه في كتاب «الزكاة» باب «فضل الصدقة» حديث (١٨٤٤) من حديث سليمان بن عامر الضبي ﷺ.

(٣) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الأدب» باب «من بسط له في الرزق بصلة الرحم» حديث (٥٩٨٦)، ومسلم في كتاب «البر والصلة والآداب» باب «صلة الرحم وتحريم قطيعتها» حديث (٢٥٥٧) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٤) «المجموع شرح المهذب» (٤/ ٤٧٨- ٤٧٩).

فتح مكـــة

علمنا رسول الله ﷺ التفاوض والتفكير المستقبلي والحكمة، وأن الإخلاص لله هو الأساس والأصل في كل تصرف فقد وافق على صلح الحديبية على ما فيه، حيث اتفق المشركون في الجنوب واليهود في الشمال في خيبر على سحق المدينة المنورة بالزحف عليها من كل جهة، وقام صلح الحديبية لتنحية المشركين وإبطال اتفاقهم مع اليهود، ثم جاءت غزوة خيبر لتفك حصار شمال المدينة، وجاء فتح مكة بعد نقض قريش للعهد الذي وقع بالحديبية ليفك حصار الجنوب إلى الأبد، ولذا فقد رفض رسول الله ﷺ ما قدم به أبو سفيان بن حرب يسأل تجديد العهد ويزيد في المدة فأبى عليه ﷺ ذلك فانصرف أبو سفيان إلى مكة، وجهز رسول الله ﷺ من غير إعلام أحد لذلك الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحرر حرمه من أيدي الكفار والمشركين.

وفي فتح مكة دروس وأحكام مستفادة في السياسة الداخلية والخارجية، وفيه عبر ومواعظ نتذكرها كل رمضان حيث كان فتح مكة.

١- فقبل تحرك النبي ﷺ والمسلمون بجيوشهم لفتح مكة كتب حاطب كتابًا وأرسله إلى مكة يخبرهم بذلك فأطلع الله نبيه على ذلك فقال عليه الصلاة والسلام لعلي والزبير والمقداد: «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة – امرأة – معها كتاب فخذوه منها**». قال: فانطلقنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة. قلنا: أخرجي الكتاب. قالت: ما معي كتاب. قلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب – يقصدون تهديدها – فأخرجته من ضفائرها، فأتينا به النبي ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة يخبرهم بأمور النبي ﷺ. فقال: «**يا حاطب، ما هذا؟**» قال: يا رسول الله، لا تعجل علي إني كنت امرأ ملصقا في قريش – ليس له حليف – ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي ولم أفعله ارتدادًا عن ديني ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «**أما إنه قد صدقكم**». فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: «**إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرًا فقال: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم**». فأنزل الله سبحانه وتعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ

يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ ﴾[1] فانظر كيف تعامل رسول الله ﷺ مع أخطاء الداخل، وإن كان فعل حاطب من الكبائر إلا أنه راعى الشخص والحال والمقام، وعلمنا أن الأحكام المطلقة لا تأتي بخير وأن السياسة هي رعاية شئون الأمة في الداخل والخارج، ويجب علينا الإخلاص لله وإدراك الواقع وتحصيل المصلحة وتحقيق المقاصد، والأمر ليس قاصرًا على رسول الله ﷺ فهو معلم لمن بعده إلى يوم الدين، بل هو باق ببقاء الدنيا.

٢- وقد بعث رسول الله ﷺ إلى من حوله من العرب - أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم - فجاء بهم، فمنهم من وافاه بالمدينة ومنهم من لحقه بالطريق واستخلف ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، وخرج يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شهر رمضان، وقيل لعشر وقيل لأكثر بعد العصر سنة ثمان من الهجرة، وكان المسلمون عشرة آلاف وقيل: اثني عشر ألفا، وكان العباس قد خرج بأهله وعياله مسلمًا مهاجرًا فلقي رسول الله ﷺ بالجحفة وكان قبل ذلك مقيمًا بمكة على سقايته ورسول الله ﷺ عنه راض.

وكان ممن لقيه في الطريق أبو سفيان بن الحارث ابن عمه عليه الصلاة والسلام وأخوه من رضاع حليمة السعدية ومعه ولده جعفر، وكان أبو سفيان يألف رسول الله ﷺ فلما بُعث عاداه وهجاه، وكان لقاؤهما له عليه الصلاة والسلام بالأبواء وأسلما قبل دخول مكة ثم سار ﷺ فلما كان بقُديد - وهو اسم مكان - عقد الألوية والرايات ودفعها إلى القبائل ثم نزل من الظهران عشاء، فأمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار ولم يبلغ قريشًا مسيره وهم مغتمون لما يخافون من غزوه إياهم.

فبعثوا أبا سفيان بن حرب، وقالوا: إن لقيت محمدًا فخذ لنا منه أمانًا، فخرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء حتى أتوا مَرَّ الظهران فلما رأوا العسكر فزعهم فرآهم ناس من حرس رسول الله ﷺ فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم إلى رسول الله ﷺ فأسلم أبو سفيان فلما سار قال للعباس: احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر مع النبي ﷺ كتيبة كتيبة على أبي سفيان فمرت كتيبة فقال يا عباس من هذه قال هذه

---

(١) الآية ١ من سورة الممتحنة. والحديث أخرجه البخاري في كتاب «المغازي» باب «غزوة الفتح» حديث (٤٢٧٤) من حديث علي ﷺ.

غفار. قال: ما لي ولغفار. ثم جهينة. قال مثل ذلك حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها. قال: من هذه؟ قال: هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية. فقال سعد: يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة، وفي رواية: تستحل الحرمة فسمعها رجل من المهاجرين فقال: يا رسول الله، ما آمن أن يكون لسعد في قريش صولة. فقال: لعلي أدركه فخذ الراية منه فكن أنت تدخل بها. وروي أن أبا سفيان قال للنبي ﷺ لما حاداه: أمرت بقتل قومك. قال: «**لا**». فذكر له ما قاله سعد بن عبادة، ثم ناشده الله والرحم فقال: «**يا أبا سفيان اليوم يوم المرحمة اليوم يعز الله قريشا**». وأرسل إلى سعد فأخذ الراية منه فدفعها إلى ابنه قيس[1].

وفي هذه القصة دروس في السياسة والحرب تكاد لا تحصى من السرية إلى قوة الردع التي تؤدي إلى عدم إراقة الدماء إلى جزاء من أراد ولو بحسن نية دمًا يراق إلى تسليم راية سعد لابنه قيس، فالأمر ليس إيغارًا للصدور أو إخراجا للضغينة إلى احترام السفراء والحكمة في التفاوضات والرضا بخطة الرشد من العدو.

١- قال موسى بن عقبة: بعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم وأمره أن يدخل من كداء بأعلى مكة وأمره أن يغرز رايته بالحجون ولا يبرح حتى يأتيه. وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة وسليم وغيره، وأمره أن يدخل من أسفل مكة وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله ﷺ وأمرهم أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم، واندفع خالد بن الوليد حتى دخل من أسفل مكة وقد تجمع بها بنو بكر وبنو الحارث بن عبد مناف وناس من هذيل ومن الأحابيش الذين انتصرت بهم قريش فقاتلوا خالدًا فقاتلهم فانهزموا، وقُتل من بني بكر نحو من عشرين رجلا ومن هذيل ثلاثة أو أربعة حتى انتهى بهم القتل إلى الحزورة إلى باب المسجد حتى دخلوا الدور فارتفعت طائفة منهم على الجبال، وصاح أبو سفيان: من أغلق بابه، وكَفَّ يده، فهو آمن. ونظر رسول الله ﷺ إلى البارقة فقال: «**ما هذه وقد نهيت عن القتال**». فقالوا: إن خالدًا قُوتل وبُدئ بالقتال فلم يكن له بُدٌّ من أن يقاتلهم، وقال رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن لخالد: «**لم قاتلت وقد نهيتك عن القتال؟**» فقال: هم بدؤنا بالقتال وقد كففت يدي ما استطعت. فقال: «**قضاء الله خير**»[2].

(١) ذكره ابن عبدالبر في «الاستيعاب» (٢/ ٥٩٦- ٥٩٧).
(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ١٢٠).

وقال العباس بعد أن أسلم أبو سفيان وشهد شهادة الحق: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا. قال: **«نعم»**. وأمر ﷺ فنادى مناديه: من دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومَنْ أغلق عليه بابه فهو آمن(١).

وفي ذلك كله ترى الدفاع المشروع، وأن الجهل من الجاهل والعدوان من المعتدي هو سبب البلاء، وفيها إنزال الناس منازلهم والتشاور في الأمر.

٢- وروي أنه ﷺ وضع رأسه تواضعًا لله لمَّا رأى ما أكرمه الله تعالى به من الفتح، حتى إنَّ رأسه لتكاد تمسُّ رحله شكرًا وخضوعًا لعظمته تعالى أن أحلَّ له بلده، ولم يحله لأحد قبله ولا لأحد بعده، وعن أنسٍ أنَّ النبي ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه المغفر(٢). وهو زرد ينسج على قدر الرأس مثل القلنسوة.

وعن جابر أنه ﷺ كان على رأسه عمامة سوداء، ولما كان الغد من يوم الفتح قام عليه الصلاة والسلام خطيبا في الناس فحمد الله وأثنى عليه ومجَّده بما هو أهله ثم قال: **«يا أيها الناس، إنَّ الله حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما أو يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص فيها لقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أحلت لي ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد الغائب»**. ثم قال: **«يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم»**. قالوا: خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم. قال: **«اذهبوا فأنتم الطلقاء»**(٣). أي: الذين أُطلقوا فلم يسترقوا ولم يؤسروا، ولما فتح الله سبحانه وتعالى مكة على رسوله ﷺ قال الأنصار فيما بينهم: **«أترون أن رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟»** وكان رسول الله ﷺ يدعو على الصفا رافعا يديه فلما فرغ من دعائه قال: **«ماذا قلتم؟»** قالوا: لا شيء يا رسول الله. فلم يزل بهم حتى أخبروه. فقال رسول الله ﷺ: **«معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم»**(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب «الخراج والإمارة والفيء» باب «ما جاء في خبر مكة» حديث (٣٠٢١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب «اللباس» باب «المغفر» حديث (٥٨٠٨).

(٣) ذكره الطبري في «تاريخه» (٢/ ١٦١).

(٤) ذكره ابن هشام في «السيرة النبوية» (٥/ ٨٠).

وهمَّ فضالة بن عمير بن الملوَّح أن يقتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت فلمَّا دنا منه قال له رسول الله ﷺ: «أفضالة؟» قال: نعم يا رسول الله. قال: «**ماذا كنت تحدث به نفسك؟**» قال: لا شيء كنت أذكر الله. فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «**استغفر الله**». ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئًا أحب إلي منه[١].

فانظر إلى معنى الصفح والعفو والصبر على الناس وإلى معجزته ﷺ مع فضالة ففيها عبرة وعظة.

٣- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أقبل رسول الله ﷺ عام الفتح على ناقته القصواء وهو مردف أسامة حتى أناخ بفناء الكعبة ثم دعا عثمان بن طلحة فقال: «**ائتني بالمفتاح**». فذهب إلى أمه فأبت أن تعطيه. فقال: «**والله لتعطينه أو ليخرجن هذا السيف من صلبي**». فأعطته إياه فجاء به النبي ﷺ فدفعه إليه ففتح الباب[٢].

وفي «الطبقات» لابن سعد عن عثمان بن طلحة قال: كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الإثنين والخميس، فأقبل النبي ﷺ يوما يريد أن يدخل الكعبة مع الناس فأغلظت له ونلت منه فحلم عني، ثم قال: «**يا عثمان، لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدي أضعه حيث شئت**». فقلت: لقد هلكت قريش يومئذ وذلت. فقال: «**بل عمرت وعزت يومئذ**»، ودخل الكعبة فوقعت كلمته مني موقعًا ظننت يومئذ أن الأمر سيصير إلى ما قال، فلما كان يوم الفتح قال: «**يا عثمان، ائتني بالمفتاح**». فأتيته به، فأخذه مني ثم دفعه إلي وقال: «**خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان، إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف**». قال: فلمَّا وليت نادني فرجعت إليه. فقال: «**ألم يكن الذي قلت لك**». قال: فذكرت قوله بمكة قبل الهجرة: «**ولعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدي أضعه حيث شئت**». قلت: بلى، أشهد أنك رسول

---

(١) ذكره ابن هشام أيضًا في «السيرة النبوية» (٥/ ٨٠).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب «الحج» باب «استحباب دخول الكعبة للحاج وغيره والصلاة فيها والدعاء في نواحيها كلها» حديث (١٣٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الله[1]، وفي عثمان هذا نزلت آية سورة النساء: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾[2].

وروى مسلم أنه ﷺ دخل هو وأسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة الكعبة فأغلقوا عليهم الباب. قال ابن عمر: فلما فتحوا كنت أول من ولج، فلقيت بلالا فسألته هل صلى النبي ﷺ. قال: نعم بين العمودين اليمانيين، وذهب عني أسأله كم صلى؟[3] وفي إحدى روايات البخاري: جعل عمودا على يساره وعمودا على يمينه وثلاثة أعمدة وراءه[4]. وفي كتاب مكة للأزرقي والفاكهي: أن معاوية سأل ابن عمر: أين صلى رسول الله ﷺ؟ فقال: اجعل بينك وبين الجدار ذراعين أو ثلاثة أذرع فعلى هذا ينبغي لمن أراد الاتباع في ذلك أن يجعل بينه وبين الجدار ثلاثة أذرع فإنه تقع قدماه في مكان قدميه ﷺ إن كانت ثلاثة سواء أو تقع ركبتاه أو يداه ووجه إن كان أقل من ثلاثة أذرع والله أعلم[5]. قال تعالى: ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ ﴾[6].

(١) ينظر تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٨/٣٨٣)، زاد المعاد لابن القيم (٣/٤٠٩)، الخصائص الكبرى للسيوطي (١/٤٤٢)، مرقاة المفاتيح لملا علي القاري (٢/٣٥٦).

(٢) الآية ٥٨ من سورة النساء.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب «الحج» باب «استحباب دخول الكعبة للحاج وغيره والصلاة فيها والدعاء في نواحيها كلها» حديث (١٣٢٩).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب «الصلاة» باب «الصلاة بين السواري في غير جماعة» حديث (٥٠٥).

(٥) ذكره الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٣/ ٤٦٥)، والزرقاني في شرحه للموطأ (٢/ ٤٧٠).

(٦) من الآية ٩٧ من سورة آل عمران.

حقوق الإنسان في الإسلام

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه.

فإن حقوق الإنسان من الموضوعات التي شاع ذكرها على ألسنة الناس وأصبحت موضوع حديثهم، ويسأل كثير منهم عن موقف الإسلام منها، والإسلام ينظر إلى الكون باعتباره مخلوقًا لخالق عظيم قدير جلَّ في أوصافه وتعالى في ذاته، وأنه سبحانه هو الحق، وأن الكون - أي العالم - هو ما سوى الله، وأن عالم الأشياء والنبات والحيوان والإنسان كلها مخلوقة لأنها من الكون، ثم يرى صورة واضحة محددة في تعامل الإنسان مع هذا الكون، وفي حقوق هذا الكون عليه، وواجبات الإنسان في تعامله، فحقوق الإنسان هي جزء من منظومة حقوق الأكوان ومن هذه النظرة وهذا المدخل نلقي الضوء على قضية حقوق الإنسان في الإسلام من خلال حقوق الأكوان حتى يتضح لنا مكان تلك الحقوق من هذه المنظومة ومدى عمقها وتغلغلها في نسيج رؤية المسلم الكلية، وعقيدته السمحة التي تسعى دائما لإدراك الحق، والحقيقة، ومدى ارتباطها في تلك النظرة الكلية بالأحكام الشرعية، وبحاكمية الله سبحانه وتعالى.

حقوق الإنسان

مركب إضافي لا ندرك معناه إلا بإدراك كل من أجزائه، فكلمة «حقوق» جمع حق وهي تعني في معناها الدلالي المعجمي: الثابت، وكلمة إنسان من مادة (ن س ي) ومنه قول الشاعر:

وما سُمِّي الإنسان إلى لنسيه ... وما أول ناسٍ إلا أول الناس

يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾[1].

والإضافة تأتي بمعنى اللام وما تدل عليه، واللام تأتي للملك، والاختصاص، وأدنى ملابسة ومعنى هذا أن ذلك التركيب الإضافي يعني الثوابت التي تختص بالإنسان فلا تتغير والتغير يحدث عادة من أحد أربعة جهات: الزمان، والمكان، والأشخاص والأحوال، فهناك أعراف: وعادات تتغير بتغير الزمان ومرور العصور والدهور، وهناك أمور من

(١) الآية ١١٥ من سورة طه.

المأكل والمشرب والمذاهب والأفكار تتغير من مكان إلى مكان بحسب طبيعته وما تؤدي إليه، وهناك أمور أخرى تتعلق بالإنسان تختلف باختلاف الأشخاص، وما يميزهم بعضهم عن بعض كاللون والعرق والصفات الجسدية من قوة وضعف وطول وقصر ونوع من ذكر، وأنثى وقد تختلف الصفات؛ والأمور المتعلقة بالإنسان أيضا من جهة الأحوال التي يمر بها من صحة ومرض وتقدم وتخلف وكفر وإيمان، إلا أن هناك ثوابت لا تتغير ولا تتبدل هي المكون الحقيقي للإنسان وهي الثوابت التي تختص به وهي حقوق الإنسان.

هذا هو الفهم اللغوي الذي يتبادر إلى ذهن العربي من سماعه تلك العبارة. فما معناها الاصطلاحي إذن؟

في المادة (٥٥) فقرة (ج) من ميثاق الأمم المتحدة عبارة نصت على:

"أن يشيع في العالم احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للجميع بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين ولا تفريق بين الرجال والنساء ومراعاة تلك الحقوق فعلا" وأصبحت تلك العبارة (حقوق الإنسان وحرياته الأساسية) عنوانا على مجهودات تالية ظهرت في إعلانات ووثائق الأمم المتحدة ووثائقها.

ففي١ ديسمبر ١٩٤٨ صدر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان من الأمم المتحدة الذي تضمن قائمة بمختلف الحقوق السياسية والمدنية والاجتماعية للإنسان.

وأقرته الجمعية العامة إلا ثماني دول هي الكتلة السوفيتية ويوغسلافيا وجنوب إفريقيا، وتحفظت السعودية على ما يعارض الشريعة الإسلامية، ولقد تضمن الإعلان ثلاثين مادة تغطي الجوانب المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للإنسان.

وفي ١٦ ديسمبر سنة ١٩٦٦ وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على ثلاثة مستندات دولية: أولاها: اتفاقية الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للإنسان، وثانيها: اتفاقية الحقوق المدنية والسياسية وثالثها: بروتوكول اختياري ملحق بالاتفاقية الثانية متعلق بشكاوى الأفراد ضد انتهاك حقوقهم ويطلق على هذه الوثائق بالإضافة إلى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان مصطلح «الوثيقة الدولية لحقوق الإنسان»[1].

---

(١) راجع: «القانون الدولي لحقوق الإنسان» د. جعفر عبدالسلام ص٤٠.

وهذه الحقوق لا تخرج عن:

حق تقرير المصير، حق العمل وكسب معيشته، حق تكوين النقابات، حق الضمان الاجتماعي، حق حماية الأسرة والأطفال، حق الصحة البدنية والعقلية، حق التعليم والثقافة والتربية، حق تحسين مستوى المعيشة، الحريات العامة (حرية الانتقال، العمل، الفكر، الرأي، الاعتقاد، المشاركة السياسية، الزواج، المساواة).

وعلى ذلك جرت الأمور حول حقوق الإنسان وحرياته العامة، تتلخص في أن هناك مجموعتين من تلك الحقوق والحريات سياسية ومعيشية.

القسم الأول: ما يتعلق بالمعيشة

يظهر في المحافظة على الحياة نفسها ثم على الحياة الكريمة التي تكفل الغذاء والكساء والدواء والتعليم والزواج و... إلخ وأن يكون الإنسان حرًّا في نقله وعمله واعتقاده وآرائه وفكره ... إلخ، والسياسية تتعلق بممارسة دوره لقيادة الحياة وتوجيهها.

وقد ترى أن القسم الأول الذي يمكن أن نطلق عليه المعيشي هو الجانب الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والديني والذي ينظمه عندنا المقاصد الخمسة التي جعلها الأصوليون منذ الغزالي في المستصفى ثم الشاطبي في الموافقات هي مقاصد المكلفين، وهي: حفظ النفس، والعقل، والدين، والعرض (كرامة الإنسان)، والمال (الملك والمعد للتملك) وأن المسلمين جعلوها على ثلاثة مستويات: ضرورية وحاجية وتكميلية، وقسَّموا الأحكام الشرعية عليها على مستويين في كل قسم هي الأصلية والفرعية.

وهنا يجدر أن نلاحظ مسألة غاية في الأهمية وهي أن الحقوق في الشريعة الإسلامية قد تحولت إلى واجبات فأصبحت واجبات يجب أن يحصلها وإلا يكون آثما في التخاذل عنها، فلم يعد الإنسان محتاجًا إلى استجدائها ومنتظرًا للآخرين أن يقروها بل إنَّ أصل خلقه وتكليفه قائم عليها، ويجب عليه ذلك.

ومن هنا اختلط على كثير من الناس تصنيف حضارة المسلمين أنها حضارة واجبات أدت إلى الديكتاتورية والتسلط وأن حضارة الغرب حضارة حقوق، والأمر ليس كذلك بل الحضارة الإسلامية - التي جعلت الدين أساسها ومنطلقها - كانت حضارة حقوق وصلت إلى حدِّ الواجبات.

القسم الثاني: الحقوق السياسية

فهو مندرج تحت تنظيم المجتمع، وأساليب ذلك التنظيم ومرجعه في الإسلام إلى الفقه - أي القانون الحاكم لحياة البشر - وفيه من التفصيل ما يجعل الصورة كاملة متسقة في منظومة لا اضطراب فيها ولا تناقض.

ومن هنا فإن الحقوق السياسية والحريات الأساسية المتعلقة بها لا نزاع حولها حيث إنَّ الإطار العام في احترام كرامة الإنسان قائم عبر التاريخ لدى جملة العقلاء.

ينظر المسلم إلى الكون باعتباره مخلوقًا لخالق عظيم، وأنه يسبح لخالقه، وأنه يتفاعل مع الأحداث، يخضع خضوع المخلوقات لله وحده، وأنه يسير في تيار يساعد الإنسان الذي يسير معه ويعاكس الإنسان الذي يسير ضده وهذه جملة من الآيات التي لا تحتاج إلى تعليق توضح الأمر بجلاء ووضوح:

١- ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾[١].

٢- ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[٢].

٣- ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾[٣].

٤- ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[٤].

---

(١) الآيتان ١، ٢ من سورة الملك.
(٢) الآية ٦٢ من سورة الزمر.
(٣) الآية ١١ من سورة لقمان.
(٤) الآية ١٤ من سورة المؤمنون.

٥- ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾(١).

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾(٢).

٦- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾(٣).

٧- ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾(٤).

٨- ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾(٥).

٩- ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾(٦).

فالكون يسبح ويسجد ويبكي ويأتي ويطيع، وهو مقهور تحت سلطان الله - سبحانه وتعالى - سار الجميع في الركب وميز الله الإنسان بالعقل وسخر له هذا الكون الذي أشفق من حمل الأمانة قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾(٧).

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الإسراء.
(٢) الآية ١ من سورة الجمعة.
(٣) الآية ٧٧ من سورة الحج.
(٤) الآية ١١ من سورة فصلت.
(٥) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.
(٦) الآية ٢٩ من سورة الدخان.
(٧) الآية ١٣ من سورة الجاثية.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[1].

ومن هنا يتبين أن الكون له حقوق بما فيه من جماد ونبات وحيوان، وقد بيَّن الله لنا أننا نتفاعل معه، وأننا لسنا جزءًا منه، بل فضلنا على كثير مما خلق، وسُخرت لنا السموات والأرض جميعًا منه - سبحانه وتعالى - وأننا مكرَّمين حملنا الأمانة، ويجب أن نراعيها حق رعايتها، ومن أجل ذلك كُلفنا بالأوامر، والنواهي التي منها الحفاظ على الكون كله، ومعاملته على أنه مخلوق لله، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[2].

٣٣١

واستعمال المصدر يفيد التأكيد، وهو في هذا المقام ينفي المجاز ويثبت الحقيقة، ويكون المعنى أن تفضيلهم تفضيلٌ حقيقي لا مجاز ولا تجاوز فيه.

فللكون حقوق، والإنسان سيده الذي سخر الكون له.

ولنضرب لذلك جملة من الأحاديث تبين موقف المؤمن من حقوق: الجماد النبات والحيو،ان حتى إذا ما وصلنا إلى رأس الأمر وذروة سنامه (الإنسان) عرفنا أين يقع في تلك الهيئة وهذه المنظومة، وكيف تكون حقوقه عند المسلم.

١- عن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به»**[3].

---

(١) الآيات ٣٢ : ٣٤ من سورة إبراهيم.

(٢) الآية ٧٠ من سورة الإسراء.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب «الفتن» باب «ما جاء في النهي عن سب الريح» حديث (٢٢٥٢)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الريح من روح الله: وروح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبوها، وسلوا الله من خيرها، واستعيذوا بالله من شرها»**[١].

٣- عن طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وكان إذا رأى الهلال قال: **«اللهم أهلله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام، ربي وربك الله»**[٢].

٤- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ كان إذا أكل أو شرب قال: **«الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين»**[٣].

٥- قال رسول الله ﷺ: **«أكرموا الخبز»**[٤].

٦- قال رسول الله ﷺ: **«أحد جبل يحبنا ونحبه»**[٥].

٧- حديث الفسيلة.

٨- حديث قطع اللينة والنخلة

٩- حديث عدم رد الريحان

١٠- عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من إنسان قتل عصفورًا فما فوقها بغير حق إلا سأله الله عز وجل عنها»**. قيل: يا رسول الله، وما حقها؟ قال: **«يذبحها فيأكلها ولا يقطع رأسها ويرمي به»**[٦].

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب «الأدب» باب «ما يقول إذا هاجت الريح» حديث (٥٠٩٧).
(٢) أخرجه الترمذي في كتاب «الدعوات» باب «ما يقول عند رؤية الهلال» حديث (٣٤٥١).
(٣) أخرجه أبو داود في كتاب «الأطعمة» باب «ما يقول الرجل إذا طعم» حديث (٣٨٥٠)، والترمذي في كتاب «الدعوات» باب «ما يقول إذا فرغ من الطعام» حديث (٣٤٥٧)، وابن ماجه في كتاب «الأطعمة» باب «ما يقال إذا فرغ من الطعام» حديث (٣٢٨٣).
(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٥/ ٨٤) حديث (٥٨٦٩)، والحاكم في «مستدركه» (٤/ ١٣٦) حديث (٧١٤٥) وصححه من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٥) أخرجه البخاري في كتاب «المغازي» باب «نزول النبي ﷺ الحجر» حديث (٤٤٢٢) من حديث أبي حميد رضي الله عنه.
(٦) أخرجه النسائي في كتاب «الصيد والذبائح» باب «إباحة أكل العصافير» حديث (٤٣٤٩).

١١- عن شداد بن أوس ﷺ قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح وليُحِدَّ أحدكم شفرته فليرح ذبيحته»**[١].

١٢- عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«دخلت امرأة النار في هرة حبستها ولا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»**[٢].

١٣- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خُفَّهُ ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له»** قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرًا؟ فقال: **«نعم، في كل ذات كبد رطبة أجر»**[٣].

١٤- عن عبدالله بن مسعود قال: رأى رسول الله ﷺ من أخذ طائر فرخه الصغير فقال: **«من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها»**. ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال: **«من أحرق هذه؟»** قلنا: نحن. قال: **«إنه لا ينبغي أن يعذِّب بعذاب النار إلا رب النار»**[٤].

هذه جملة من الأحاديث في التفاعل والتعامل مع الجماد والنبات والحيوان من مئات بل آلاف الأحاديث حول هذا المعنى تبين عمق العلاقة بين المؤمن وما حوله من أكوان وتبين حقوق هذه الأكوان على الإنسان في أحكام تفصيلية تأمره بأن يفعل وتنهاه أن يأثم وكل ذلك دائر على الرحمة والرفق والحفاظ على خلق الله والتفاؤل وعدم التشاؤم.

يؤخذ ذلك من:

١- **«الراحمون يرحمهم الرحمن تعالى ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»**[١].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب «الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان» باب «الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة» حديث (١٩٥٥).

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «بدء الخلق» باب «خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم» حديث (٣٣١٨) وفي مواطن أخر، ومسلم في كتاب «الكسوف» باب «ما عرض على النبي ﷺ» حديث (٩٠٤)، وفي مواطن أخر.

(٣) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب «الأدب» باب «رحمة الناس البهائم» حديث (٦٠٠٩)، ومسلم في كتاب «السلام» باب «فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها» حديث (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة ﷺ، واللفظ للبخاري.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب «الجهاد» باب «في كراهية حرق العدو بالنار» حديث (٢٦٧٥).

٢- «يا عائشة، إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزَع من شيء إلا شانه»[٢].

ومن مجمل ذلك ترتبت أحكام فقهية وأخلاق شرعية سادت وشاعت وبنيت عليها الحضارة الإسلامية، من ذلك:

١- أن تعذيب الحيوان حرام.

٢- أن قطع النبات من غير حاجة حرام.

٣- أن من الأخلاق ألا يدفع المسلم الباب في خروجه ودخوله؛ لأنه يسبح.

٤- أنهم وضعوا مساقي للكلاب الضالة في شوارع المدن الإسلامية، وتعبدوا بتنظيفها لهذه الحيوانات الضعيفة.

٥- أنهم أنشئوا مبرَّات للبيطرة وصيروها علما لتخفيف الألم عن الحيوان وهذا موضوع وصل من الاتساع والتشعب حتى إنه يصلح لرسالة علمية متوسعة مستقلة.

أما حقوق الإنسان في الإسلام والحفاظ على حرياته الأساسية فهي تتمثل في المقاصد الخمسة ولنا فيها وجهة نظر نحب أن نعرضها عسى أن يكون فيها نفع إن شاء الله وهي:

مدخل حول ترتيب الكليات الخمس:

إننا في تعاملنا مع التراث لا نقف عند مسائل السلف في الوقت الذي نأخذ فيه بمناهجهم، تلك المناهج التي تعني تطبيق الوحي على الوجود أو المطلق على النسبي في ظرفه التاريخي، فلنعمل على تشغيل مناهجهم من أجل تزاوج النظم والأدوات التي نستطيع من خلالها القيام بعملية توليد هذه المناهج لتتوافق مع نمط المعيشة المعاصرة بما فيها من مستجدات مفروضة على واقعنا فضلا عن هجوم الآخر علينا.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب «الأدب» باب «في الرحمة» حديث (٤٩٤١)، والترمذي واللفظ له في كتاب «البر والصلة» باب «ما جاء في رحمة الناس» حديث (١٩٢٤)، والحاكم في «مستدركه» (٤/ ١٧٥) حديث (٧٢٧٤) وصححه من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه مسلم في كتاب «البر والصلة والآداب» باب «فضل الرفق» حديث (٢٥٩٤).

من هنا فترتيب الكليات الخمس على نسق معيَّن عند السلف ، قد أدى دوره في وقتهم، واستوعب جميع المسائل القائمة أو المحتملة في أوانهم إلا أنه في هذا العصر - مع سرعة تطور أنماط الحياة والانطلاقة الهائلة في ثورة المعلومات والتقدم التقني - أصبح من الضروري إعادة تشغيل هذه الكليات الخمس ، ولكن بطريقة أكثر فاعلية مع مقتضيات ومتطلبات هذا العصر، وبذلك فنحن لم نخالف مناهج السلف في ترتيبها ، بل رتبناها بدرجة تسمح بتشغيلها أكثر مع معطيات الحضارة الإنسانية المتشابكة منذ بداية هذا القرن إلى الآن ولم نخرج عن أمر مجمع عليه.

الترتيب الذي نراه متوافقاً وهذا الاحتياج

حفظ النفس ثم العقل ثم الدين ثم النسل ثم المال. على حين أن القدامى قد رتبوها ترتيبا مخالفا لذلك، باعتبار أن مرادنا بالدين هنا الشعائر التي تحتاج إلى النية أو العبادة المحضة أو محض التعبد ولو كان في المعاملات، أو هو إدراك، وليس مقصودنا بالدين هنا هو الإسلام، بل الإسلام في ذلك الاصطلاح أعم من الدين بهذا المفهوم، وبالتالي فهو يشمل هذه المقاصد الخمس، وحينئذ تحل مشكلات كثيرة.

فالإسلامُ عبارة عن خطاب الله سبحانه وتعالى للبشر، وخطاب الله للبشر - كما عرف - وضع إلهي مسوق لذوي العقول السليمة إلى ما فيه منفعة دينهم ودنياهم؛ إذن فنحن في إطار وضع كلمات بإزاء مصطلحات حتى نفهم وحين نضع كلمات بإزاء معان فإنه لابد أن تتعارض مع وضع آخر، قد وضعه العلماء السابقون ، وحينئذ فلا يكون هناك خلاف في المعنى، بل يكون خلافا في الوضع.

وهذا الترتيب وإن كان جديدا إلا أنه لا يخرج عن كلام السابقين أو يعارضهم وبالتالي فهو لا يخرج أيضًا عن الدليل الشعري فيكون بدعة مثلا، وإنما هو مدخل من المداخل التي يستقيم معها حال الأمة في العصر الراهن.

وهذا المدخل مؤدَّاهُ أنَّ الإسلام وهو خطاب الله سبحانه وتعالى للبشر، أمر بأوامر، ونهى عن نواه، هذه الأوامر والنواهي مقصدها هو أن يحافظوا على أنفسهم وعلى عقولهم في تلك النفوس، وأن يحافظوا كذلك على صلتهم بربهم تحقيقا للمقصد الأول من وجود البشرية متمثلة في النفس والعقل وهو (العبادة) ثم أمرهم بعد ذلك أن يحافظوا على نسلهم وحقوقهم وعمارة الأرض ، وهو الذي يحقق العمارة والعبادة ، والعمارة من خلال تلك العبادة هي التي تقوم بها الدنيا ، وهي أيضا تقوم بها الآخرة.

وترتيب الكليات الخمس على نحو ما قررناه: "النفس، العقل، الدين، النسل، المال" هو الترتيب المنطقي ولـه اعتبـار، حيث إنه يجب المحافظة أولا على النفس التي تقوم بها الأفعال، ثم على العقل الذي به التكليف، ثم نحافظ على الدين الذي به العبادة قوام العالم، ثم نحافظ بعد ذلك على ما يترتب على حفظ العقل والذات والدين، وهو المحافظة على النسل الناتج من الإنسان، وما يتعلق أو ما يندرج تحت هذا العنوان الكلي من المحافظة على العرض وحقوق الإنسان وكرامته، ثم بعد ذلك نحافظ على قضية الملك، وهي التي بها عمارة الدنيا عند تداولها، ذلك المال الذي إذا ما تدوول، فإنه يمثل عصبا من أساسيات الحياة.

نماذج لثمرة هذا التريب:

من خلال هذا المدخل، وبتصور العلاقة القائمة بين الإسلام والمقاصد الخمسة والتي منها الدين، ينبني عندنا أمور:

علاقتنا مع الآخرين في الداخل والخارج، وأنها مبنية في الداخل على الرعاية لشئون الأمة وفي الخارج على الدعوة، وبذلك يكون خطابنا للعالمين معقولا، إذ في علاقتنا مع الآخرين نبين لهم أن الإسلام هذا أوسع من أن يكون شعائر فقط، إذ هو خطاب الله للبشر وخطاب الله للبشر يشتمل على ما يمكن للإنسان أن يقيم به حضارة، وعلى ما يمكن أن يعمر بـه الأرض، وكذلك على ما يمكن أن يعبد به الله - سبحانه وتعالى - ويطيع أوامره تفصيلا لا إجمالا، وعلى ذلك فلابد لمن في الداخل أن يندرجوا تحت ذلك الإسلام وحضارته، حتى وإن لم يندرجوا تحت ديننا وعقيدتنا ومن هنا يتبين لنا أن هذا الإسلام يشتمل على (دين) يختص به من أسلم وآمن بالله ورسوله، و(دولة) تحافظ على الناس وتحافظ لهم أيضـا علـى المقاصد الخمسة التي منها الدين الذي أباح الله سبحانه وتعالى قبول التعدد فيه داخل هذا النطاق، أو تحت هـذه المظلـة، فأباح لأهل الكتاب أن يمكثوا بيننا وأن يصبحوا مواطنين لنا، وأن نأكل ونشرب ونتزوج منهم، وإن كان ديننا يمنعنـا أن يتزوجوا منا، وإن كان أيضا يمنعنا من بعض طعامهم، إلا أنه على مستوى الإسلام هم يعيشـون بيننـا ولغتنـا واحـدة وحضارتنا واحدة وأمالنا وآلامنا واحدة.. إلخ، هذا من ناحية الآخر الذي بالداخل.

أما الآخر الذي في الخارج فالعلاقة بيننا وبينهم مبنية أصلا على الدعوة، وليس بيننا وبينهم علاقة سلم ولا علاقة حرب، وإنما يأتي السلم والحرب عرضا لقضية الدعوة، فإذا مُنِعْنَا أو تُجُبِّرَ علينا تكون الحرب، وآخر العلاج الكي، وإذا لم يكن كذلك ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾[(١)].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾[(٢)].

إلى غير ذلك من النصوص التي تدعو إلى السلام وإلى السلم، وهي لا تعارض قوله تعالى: ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ ﴾[(٣)]. لأن هذا عرض وذاك عرض، وإنما الأصل: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[(٤)].

وكذلك: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾[(٥)].

ولا يتطرق إلينا في هذا المقام القول بنسخ آية السيف لغيرها إذ إنهم لم يتفقوا على ذلك، فضلا عن أن كل آية اتفقوا على أنها ناسخة، بل اختلفوا فيها، أضف إلى ذلك الغموض الشديد الذي يكتنف أصل القول بالنسخ.

---

(١) الآية ٦١ من سورة الأنفال.

(٢) الآية ٩٤ من سورة النساء.

(٣) الآية ١٩١ من سورة البقرة.

(٤) الآية ١٢٥ من سورة النحل.

(٥) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة.

التوبة الصادقة

التوبة في اللغة العود والرجوع، يقال: تاب إذا رجع عن ذنبه وأقلع عنه. وإذا أسند فعلها إلى العبد يراد به رجوعه من الزلة إلى الندم، يقال: تاب إلى الله توبة ومتابًا: أناب ورجع عن المعصية، وإذا أسند فعلها إلى الله تعالى يستعمل مع صلة (على) يراد به رجوع لطفه ونعمته على العبد والمغفرة له، يقال: تاب الله عليه: غفر له وأنقذه من المعاصي. قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[1].

وفي الاصطلاح التوبة هي: الندم والإقلاع عن المعصية من حيث هي معصية، لا لأن فيها ضررًا لبدنه وماله، والعزم على عدم العود إليها إذا قدر. وعرفها بعضهم بأنها: الرجوع عن الطريق المعوج إلى الطريق المستقيم. وعرفها الغزالي بأنها: العلم بعظمة الذنوب، والندم، والعزم على الترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي.

وهذه التعريفات وإن اختلفت لفظًا فهي متحدة معنى. وقد تطلق التوبة على الندم وحده إذ لا يخلو عن علم أوجبه وأثمره وعن عزم يتبعه، ولهذا قال النبي ﷺ: «**الندم توبة**»[2]، والندم توجع القلب وتحزنه لما فعل وتمني كونه لم يفعل.

التوبة من المعصية واجبة شرعًا على الفور باتفاق العلماء؛ لأنها من أصول الإسلام المهمة وقواعد الدين، وأول منازل السالكين، قال الله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[3].

والتوبة حالة نقد ذاتي، وحالة من مراجعة النفس، وحالة من الرقابة الداخلية، فإذا ما سمعنا هذه الألفاظ النقد الذاتي ومراجعة النفس ومحاولة الرقابة ظننا أن هذه الألفاظ لا علاقة لها بالتوبة؛ لأن مفهوم التوبة قاصر عند أغلب الناس على الإقلاع عن معاص بعينها، وليس الأمر كذلك، بل التوبة سمة روحية وقلبية تنشئ المسلم الحريص على أمر دينه ودنياه.

---

(١) من الآية ١١٨ من سورة التوبة.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٧٦، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٣٣)، وابن ماجه في كتاب «الزهد» باب «ذكر التوبة» حديث (٤٢٥٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٢/ ٣٧٧) حديث (٦١٢)، والحاكم في «مستدركه» (٤/ ٢٧١) حديث (٧٦١٢) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٣) من الآية ٣١ من سورة النور.

والتوبة إلى الله عقد بين العبد وربه يلزمه بعدم العودة إلى الذنب مرة أخرى، وحيث إن العصمة من الذنب ليست في مقدور أحد، وإنما هي محض تفضل من الله إن أرادها لك، لذلك تقدم الاستغفار، فالاستغفار فيه طلب المعونة، فتطلب من الله أن يغفر لك ثم ترجع إليه في سلوك قويم وتراقب سلوكك حتى لا تنقض العهد، وتلتمس منه سبحانه أن يعينك على الالتزام بذلك العهد.

والإنسان يحتاج للتوبة دائمًا؛ لأن الله قد أمر بتوبة مخصوصة وهي التوبة النصوح فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾[1].

وقد اختلفت عبارات العلماء في معنى التوبة النصوح، وأشهرها ما رُوي عن عمر وابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل - رضي الله عنهم - وروي مرفوعا عن معاذ أن النبي ﷺ قال: «**التوبة النصوح أن يندم المذنب على الذنب الذي أصاب، فيعتذر إلى الله ﷻ ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع**»[2] وأن التوبة النصوح هي التي لا عودة بعدها كما لا يعود اللبن إلى الضرع. وقيل: هي الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، والإقلاع عن الذنب، والاطمئنان على أنه لا يعود.

فلابد من المراجعة الدائمة؛ لأنها عظيمة النفع في ترقِّي الإنسان وخلاصه من الدَّنايا، ولقد ضرب لنا المصطفى ﷺ أروع النماذج في مداومة الاستغفار والرجوع إلى الله، وإن لم يسبق هذا الرجوع ذنب في حقه الشريف، فهو المعصوم ﷺ؛ حيث قال: «**يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة**»[3].

(١) الآية ٨ من سورة التحريم.

(٢) ذكره الطبري في «تاريخه» (١/ ٥١)، والأصبهاني في «العظمة» (٤/ ١١٧٥).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب «الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار» باب «استحباب الاستغفار والاستكثار منه» حديث (٢٧٠٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

غير أن سنة الله في طبيعة البشر اقتضت أن تكون تلك التوبة والمراجعة دائمة، ولا ينبغي أن نملَّ من كثرة التوبة إلى الله، ولا نمل من مصارحة النفس بالعيوب والقصور، ولا نمل من الإقلاع بهمة متجددة لرب العالمين.

نسأل الله أن يرزقنا التوبة الصادقة، والتوبة الدائمة، وأن يغفر لنا، ويقبلنا إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهرس

سمات العصر